شياطين الشعراء

دراسة تاريخية نقدية مقارنة ، تستعين بعلم النفس

تأليف

الدكتور عبد الرزاق حميدة

أستاذ الأدب العربى

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد [illegible] سابقا)

شياطين الشعراء

دراسة تاريخية نقدية مقارنة ، تستعين بعلم النفس

تأليف

الدكتور عبد الرزاق حميدة

أستاذ الأدب العربى

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كتبه العالم الفاضل الأستاذ أحمد الشايب

— ١ —

الصلة بين البحوث النفسية والعلوم الأدبية قديمة قِدَم هذه العلوم فى جميع أطوارها ، فالأدب — وهو فن رفيع — مصدره النفس الإنسانية وموردِه هذه النفس ؛ فكان من الطبيعى أن تُلاحظَ — فى إنشاء الشعر والنثر — هذه الصلة النفسية بين المصدر والمورد، أو قل إنّ الأدبَ نفسَهُ كان ثمرة هذه الصلة بينهما ، وهى صلة فرضتها الحياة الإنسانية بين الناس الذين تربطهم ضرورات العيش وكمالياته ، وتتفاعل نفوسهم بآثاره العقلية والشعورية فى أبواب الفنون والآداب .

ثم انظر فى علوم اللغة العربية تجد المسائل النفسية تتدخّل فى قواعد البلاغة ، والنقد الأدبى ، والنحو ، والعروض ، وغيرها ، مُرشدة مُعلّلة ، وإلاَّ ، فعَلامَ كان الإيجاز والإطناب، والوصلُ والفصلُ ، وضروبُ الخبر والإنشاء ، وأنواعُ القصر ، وصُورُ البيان، ومحسّنات البديع ، وصحة التعبير ، وجمال النظم ، وعناصر الأدب ومقاييسها النقدية؟ ألا إن هذه الصلة من الأصالة والعموم بحيث جاوزت دائرة العلوم الأدبية والنفسية إلى كل ما فى الحياة الإنسانية من جهود وآثار .

— ٢ —

وقد سارت هذه القافلة ، وتقدّمَ إلى طليعتها مُجلّيا زميل كريم ، نهض ببحث شاق مَرير ، فى هذا المجال الدراسى ، مجال الصلة بين الفن الأدبى وبين الجانب النفسى ، بل وقفَ عند عقدة العُقَد ؛ عند مظهر هذا الشعر على لسان الشاعر أو قلمه ؛ أيَصدُرمن خارج النفس أم من داخلها ! أهوَ وحى من الشياطين وما إليها من أرواح خفية أم هو ثمرة المواهب النفسية والغرائز البشرية ؟ هى مشكلة قديمة متصلة الحلقات فى تاريخ الشعر ، مُشتَجرةَ الفروع فى تاريخ الفنون ، عريضة المجال عند جميع الشعوب ، تعرض لها اليونان والهنود

والمصريون ، واتصلت بالدين والأساطير ، وشغلت الفلاسفة والعلماء ، والأدباء ، ولا تزال إلى اليوم مشغلة الباحثين .

وهكذا واجه السيد الأستاذ الدكتور عبد الرزاق حميدة ، هذه المشكلة بعنوان — شياطين الشعراء — وكان عليه أن يتناولها من ناحيتيها : التاريخية والعلمية ، وكانت ثقافته العربية الأصيلة ، والإنجليزية الطريفة ، تؤهله للفوز في هذه المعركة ، وهي معركة ذات ميادين ؛ فلا بدّ أن يتتبع هذه المشكلة عند الأمم القديمة والحديثة ، وأن يسايرها في تاريخ الأدب العربي إلى حيث يحسن السكوت ، وأن ينهض بهذه الدراسة المقارنة ، وأن يعتمد في هذه السبيل الطويلة العريضة على أحدث الآراء والنظريات العلمية للإجابة عن هذا السؤال : ما مصدر النتاج الأدبي ؟ وكيف نفسره ؟

وقد احتاط الدكتور عبد الرزاق حميدة لنفسه ؛ فاتخذ من التمهيد معرضا لبيان الأصول العلمية للإنتاج الأدبي لتكون وثيقته الأصيلة ، ومصباحه المنير ، في طريقه الطويلة الملتوية ، ثم تقدّم إلى جاهلية العرب فإذا به يواجه الشياطين توحي إلى الشعراء بما يقرضون ، وتضفي عليهم هذه العبقرية الشعرية ، وتوزّع نفسها بينهم ، فلكل شاعر شيطان أو أكثر ، وكان هذا التفسير مسيطرا على العقل العربي قبل الإسلام ، فسمى عصره « بالعصر الأسطوري » ضرورة أنّ تفسيره للإنتاج الشعري تفسير أسطوري ؛ وبذلك وضع للباب الأول عنوانا موضوعيا ينم عن منهجه وغايته ، ويشير إلى موضوعاته وفصوله .

فإذا كان الإسلامُ دخل الدينُ في تفسير هذه الظاهرة ، فكان الوحي والهواتف . وكان حسان بن ثابت يقول وروحُ القدس معه . ولكنّ ذلك لم يطرد الشياطينَ من عالم الشعراء ، فبقيتْ هذه تلهم الفحولَ : عقيدةً عندهم أو تقليداً لسابقيهم ، ولكنّ الجديد في هذه الفترة هو دخول الدين في تفسير هذه الظاهرة ، فكانت خليقة — لهذه الملابسة — أن تسمّى « العصر الديني » وإن اتسعت فيه دولة الشياطين فشملت فن الغناء .

وفي ظل الإسلام ارتقى الفكر الإسلامي ، وتقدمت البحوث العلمية ، وكان للمعتزلة نشاط ملحوظ في محاربة الخرافات والأساطير وردّ الأمور إلى أسبابها العقلية ، وقد أثّر ذلك على سلطان الجن والشياطين فضعف نفوذهم ، وتقلصت دولتهم ، وخضعت هذه الظاهرة لتفسير علمي يردها إلى الطبيعة البشرية ، ومواهبها النفسية ، وجهودها الأدبية ،

وبذلك أخذت هذه الشياطين تخرج من الميدان ، وتتوارى أمام البحث العلمى ، وإن بقيت لها آثاره إلى اليوم عند الشعراء والفنانين، يتشبثون بها تظرفا؛ أو — كما يقال — هى تعبير عن معنى جديد ، بلفظ قديم وهكذا كانت هذه الفترة الأخيرة هى « العصر العلمى » لهذه الظاهرة ، ما دام يفسرها تفسير علميا .

ذلك ما يتصل بمنهج هذا البحث الخطير ، وهو منهج منطقى ، متصل سليم ، جمع بين الطرفين : التاريخى والعلمى كما قدمنا .

وأضيف إلى ذلك هذه الدراسات المقارنة التى وصلت هذه الظاهرة بنظائرها عند الأمم القديمة والحديثة مما زخر به هذا البحث الجديد المكتمل الجوانب ، الذى حصل به صاحبه على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير « ممتاز » .

— ٣ —

أما مادة البحث فقد حشد الزميل لها جميع ما استطاع جمعه من مصادر ومراجع عربية وانجليزية ، وزاوج بين ما قرأ ، واستغل ذلك أحسن استغلال وأصحه ، وعرض نتائجه فى أسلوب علمى دقيق واضح ، ونظمه فى فصول منطقية متصلة ، تعرض قضاياه فى أطوارها التاريخية ، ومقرراتها العلمية . وتوج ما كتب بخلاصة وافية ومقترحات نافعة .

هذا وأحب أن أتحلل بعض الشىء من هذه الموضوعية لأقول : إنى أعرف السيد عبد الرزاق حميدة من قبل هذه الرسالة ؛ أعرفه بآثاره العلمية المتصلة ، وأعرفه يبدأ درس الأدب المقارن فى كلية دار العلوم ، وأعرفه مجداً لا يمل العمل ، متواضعا لا تنتهى دراسته عند حد ؛ سليم الدين ، كريم الخلق ، عزيز النفس ، ولكن ما فائدة ذلك فيما نحن بسبيله من تقديم بحث أو رسالة ؛ الحق أن ذلك كله وثيق الصلة بما ندير فيه القول ، فهل تعتمد البحوث العلمية على غير الجد ، والتواضع ، والكرامة ، وصفاء النفس، والإخلاص لوجه الله والعلم ؟ وهل يغرك اصطناع البطولة المزيفة ، وادعاء الحرية المدخولة ، فإذا نظرت لا تجد سوى الجهل ، والضلال ، والفساد ؟ !

ألا إن السيد الدكتور عبد الرزاق حميدة خليق أن يهنأ بجهوده العلمية ، وفضائله النفسية ، وإخلاصه لكليته وطلابه ، أدام الله عليه نعمة التوفيق والنجاح ؟

أحمد الشايب

السيد الفاضل . الأستاذ أحمد الشايب ، معروف بأخلاقه العالية ، وعلمه الغزير ، وعقله الناضج . وفى آثاره العلمية التى أبدعها ، وفى طلابه الذين رباهم ورعاهم ، وفى إخوانه الذين سعدوا بأدبه وصداقته ، فى ذلك كله ، وفى غيره من آثاره وأخلاقه ، ما يجعل الثناء عليه فرضاً محبوبا ، وحديثا عذبا .

وإنى أتقدم إليك أيها السيد الأستاذ ، شاكراً ، داعيا ، فأقول : أدام الله عافيتك ، وأسبغ نعمته عليك ، وهداك إلى الطيب من القول والفعل ، وجزاك خير الجزاء .

رمضان سنة ١٣٧٥
إبريل سنة ١٩٥٦

عبد الرزاق حميدة

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ — شغل الناس بمصدر الإنتاج الأدبى من قديم ، وما زال يشغلهم إلى الآن ، وقد بدأت العناية بمصدر الأدب من الزمن الذى وجد فيه أو بعده بقليل ، عندما فكر الشعراء الأولون فى مصدر شعرهم . فأرجعوه إلى آلهة أو ما يشبهها ، توحى به إلى من تشاء ، وظلت الرغبة فى معرفة مصدر الأدب تزداد ، والبحوث التى تعنى به تكثر وتعمق ، حتى رجعت بالانتاج الأدبى إلى النفس الإنسانية ، ويلغت غاية بعيدة فى الكشف عن الصلة بين النفس والفنون عامة ، وبينها وبين الشعر بخاصة ، ودرست الظروف التى تسيطر على الانتاج الأدبى ، وتجعل من الأدباء شاعراً وناثراً ، وكاتب قصة ، ومؤلف مسرحية ، وشاعر غناء أو ملحمة ، أو تجعل من الأدباء تلك النماذج والشخصيات التى رأيناها فى الأدب العربى وغيره ، على ما بينها من خلاف واتفاق .

وكان للعرب والمسلمين آراء فى إبداع الشعر ، منها أنهم جعلوه وحى الشياطين ، وجاءتنا أخبار متفرقة ، ودراسات أولية حول هذه الشياطين ، وذُكر فى تاريخ بعض الشعراء أنهم كانوا يقولون بوحى منهم ، ويلقونهم فى أمكنة خاصة أو أزمنة معينة ، ويأخذون عنهم ما يوحون به إليهم .

وقد نجد فى الأخبار التى وصلتنا قصصاً للشياطين وأوليائهم من الشعراء فى ثنايا الأساطير العربية ، أو نجد بعض النقد والتعليق ؛ وقد يصل النقد إلى إنكار هذه المخلوقات أحيانا كما روى عن النظام ، أو تعليل لوجودها كما روى عنه وعن تلميذه الجاحظ .

ولكننى لم أجد فى تاريخ الأدب العربى أو النقد دراسة منظمة ، ولا بحثا

شاملا يعنى بشياطين الشعراء من الناحية التاريخية ، فيتحدث عنها فى العصور الأولى ، وينتقل معها فى خلال الزمن ليبين تطورها وأسبابه وصوره ، ويفسر ماأصابها من تحول ، وما أدى إلى هذا التحول من ظروف ثقافية ترجع إلى العرب أنفسهم ، أو إلى ما جاءهم من الخارج فى عصر العلم والرقى العقلى ، وهو العصر العباسى الذى عنى فيه النقد العربى بمصدر الإبداع الشعرى على أسس علمية .

لقد رجع الشعر عند نقاد هذا العصر إلى الطبع والكسب والمران . ولكنهم لم يتتبعوا الفكرة من أولها ، ولم يربطوا بينها وبين هذه القوى النفسية التى يصدر عنها الأدب ، وسكتوا عن تطورها كما سكت غيرهم من الباحثين .

٢ — رأيت من أجل ذلك أن أدرس « شياطين الشعراء » من الناحية التاريخية فى زمن يمتد من الجاهلية إلى القرن الخامس الهجرى معتمدا فى هذا التحديد الزمنى على مبدأ علمنا بهذه الفكرة ، وزمن ظهورها فى الروايات والأخبار التى جاءتنا عنها . أما نهايتها فهى متصلة بأثرين أدبيين ظهر فيهما تطورها ، وهما : رسالة الغفران لأبى العلاء والتوابع والزوابع لابن شهيد .

وهذه الفترة تمثل تطور الفكرة ، من إيمان تام بها فى الجاهلية ، إلى ضعفها وهزالها عند النقاد والعلماء فى العصر العباسى ، ثم إلى الكلام عن القوى النفسية التى حلت محلها فى الإنتاج الأدبى . وتنقسم هذه الفترة إلى عصور ثلاثة بحسب تطور شياطين الشعراء وتأثرها بالعوامل التى أحاطت بالعقل العربى الاسلامى فيها . أما هذه العصور فهى :

(ا) العصر الأسطورى : ويبتدىء مع العصر الجاهلى المعروف فى تاريخ الأدب ، وينتهى بظهور الإسلام .

(ب) العصر الدينى : ويمتد من القرن الأول الهجرى إلى نهاية العصر الأموى تقريبا .

(ج) العصر العلمى : ويبتدىء حيث ينتهى العصر السابق ، ويستمر إلى القرن الخامس الهجرى .

وليس هذا التقسيم دقيق الحدود ؛ لتداخل العصور ، واتصال التفكير ، واستمرار التطور العقلى من عصر إلى عصر ؛ وما أريدُ به أن يَفْصِلَ بينها فصلا دقيقا فيما نحن بصدده وهو « شياطين الشعراء » . وليست التسمية إلا بحسب الصفة الغالبة . فسمى العصر الأول « أسطوريا » لغلبة التفكير الأسطورى عليه. وكان تفسير القدرة على الشعر فيه تفسيرا أسطوريا خاضعا لخصائصه العقلية ، ومميزات التفكير فيه ، وسمى العصر الثانى « دينيا » لأن الدين كان أقوى سلطانا على الحياة العامة والفكرية . وظهر فيه بديل لهذه الظاهرة أو مزاحم لها . وهو « الوحى أو الروح القدس » أو الإلهام ... الخ . وسمى الثالث « علميا » ، لسيادة التفكير العلمى فيه ، وتأثر هذه الفكرة بالعلم الذى أضعفها من ناحية ، وحاول تعليلها على أسس عقلية من ناحية ثانية ، وجاء ببديل لها ، هو النفس الإنسانية ، من ناحية ثالثة .

وكان مكان هذا البحث بلاد العرب بجبالها وسهولها ، وما نعلم أو نجهل من وديانها ، وبيوت الأوثان والأصنام فيها . ثم اتسع المكان فى العصر الدينى فشمل بلاداً أخرى ، وانتقلت الفكرة إلى خارج الجزيرة العربية فبلغت الشام والعراق فى العصر الأموى ، وتجاوزت هذه الحدود فى العصر العباسى ، فأملى البديع مقاماته بنيسابور ومن بينها المقامة الإبليسية والمقامة الأسودية ، وكتب ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع فى الأندلس . ولم تكن فكرة البديع ولا ابن شهيد من وحى المكان ، ولكنها الفكرة القديمة انتقلت من هذه البلاد بانتقال الرواية والأدب والأساطير التى وجدت من قبل فى الجزيرة العربية .

٣ — وهذا التقسيم التاريخى السابق كان متمشيا مع تطور الفكر العربى الذى تأثر بحالة البداوة والفطرة ، فكان أسطوريا . ثم شغل بوحى السماء الذى أكبر العقل وحثه على النشاط ، ودعاه دعوة صريحة إلى التحرر والعمل ، ولكن بقيت بعض الأفكار الأسطورية ، تسيطر زمناً بما تهيأ لها من أسباب البقاء ، كحب القديم ، والحياة فى بيئته ، والعناية بدراسته . وإن لم يتغلب ذلك على قوة الدين وانتساع نفوذه . وكانت المرحلة الثالثة مرحلة العلم والعقل ، فضعفت الفكرة

الأسطورية ولم يبق منها إلا القليل ، وطغى تأثير العلم عليها بتفسيره وتأويله .

وقد حاول بعض المحدثين من العلماء أن يضعوا بعض القوانين لتطور العقل البشرى . وقد بين دريبر J. W. Draper أن أطوار الفكر الإنسانى خمسة[1] .

(ا) عصر سرعة التصديق واعتناق الخرافات والأوهام .

(ب) عصر الشك والتحرى .

(حـ) عصر العقيدة والإيمان .

(د) عصر العقل .

(هـ) عصر الهرم والشيخوخة .

وحاول المرحوم الأستاذ أحمد أمين أن يربط هذه العصور بتطور الفكر العربى . فجعل الجاهلية تقابل الأول والثانى . والإسلام يقابل العصر الثالث ووضع العصر العباسى بأزاء العصر الرابع هناك . وهو تقسيم يساير تقسيمنا السابق وإن اختلفت الأسماء قليلا .

أما قانون « الحالات الثلاث » الذى قال به أوجست كونت[2] ، ويبين فيه أن العقل الإنسانى يمر فى تطوره بحالات ثلاث نظرية مختلفة متتابعة ، وهى : الحالة اللاهوتية أو الخرافية ، والحالة الميتافيزيقية أو المجردة ، وأخيراً الحالة العلمية أو الوضعية . فهو بعيد بعض البعد عن التطور الفكرى عندنا ، لتأثير التفكير الإسلامى بهداية سماوية وبكتاب من عند الله . لكن الحالة الأولى والثالثة تقابلان العصر الأول والثالث فى تقسيمنا المتقدم .

٤ — أما منهج البحث فكان له جانبان : أحدهما تاريخى عنى بنشأة الفكرة وتطورها وعوامل هذا التطور كلما تقدم الزمن ، مع تنظيم الفكرة ، والإشارة إلى تحولها فى العصور ، وقد بدأنا فيه بالحديث عن مصدر الشعر ، وهو الشياطين

---

(١) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٤

(٢) فلسفة أوجست كونت — الفصل الثانى ص ٣٤ — ٤٧ .

فى العصر الأول ، ولما انتقلنا إلى العصر الدينى اتجهت العناية إلى الوحى ، وإلى بيان التطور الذى لحق الشياطين فيه ، لظهور إبليس رئيسهم ، واتساع أعمالهم التى صارت إغراء ووسوسة وتزيينا إلى آخره . ثم رأينا الشعراء فيه يحسون بقوتهم الذاتية وبجهودهم الخاصة ، فعرضنا ذلك مفصلا وبينا أسبابه . وجاء العصر العباسى وأشرنا إلى سيطرة التفكير المنظم فيه بسبب تطور العقلية الإسلامية كلها ، واشتراك مؤثرات خارجية وأخرى داخلية فى صبغه بالصبغة العلمية . وبينا مظاهرها فى التأليف العلمى عند الجاحظ وابن سلام وغيرهما ، وفى الترجمة عند قدامة وغيره من المتأثرين بأرسطو والناقلين عنه .

وبينا أيضا آثار العصر فى الشعراء ، فانصرفوا عن الشياطين جملة ، وتطلعوا إلى أنفسهم وعقولهم ، والظروف المؤثرة فى عواطفهم ووجداناتهم . ولم يعودوا يذكرون شيئاً عن هذه الشياطين . ولم ننس أنه قد بقيت من العصرين السابقين آثار ، وبقى للشياطين ذكر ، وللدين تأثير . فعنينا بتوضيح ذلك وبيان أسبابه أيضاً .

وأما الثانى فهو التفسير العلمى لهذه الظاهرة كلما عرضت فى شعر أو خبر ، حتى بدت خاضعة للتفسير العلمى ، واضحة فى ضوئه ، سواء أحدثت فى اليقظة أم فى المنام . وسواء أكانت هتافا بشاعر ، أم مناما لأديب . وقد اعتمدت على التمهيد الذى يلقاك بعد المقدمة ، والذى جعلته مصباحا أهتدى به أثناء السير فى البحث ليلقى ضوءا على ما يخفى ؛ أو يكشف السبب العلمى لما يقابلنا من آثار هذه الظاهرة وأمثلتها . ويفسر الإبداع الأدبى — والشعرى خاصة — من وجهة علم النفس الأدبى . وقد اعتمدت على المشهور من مذاهب علم النفس لاعتقادى أن مذهبا واحداً منها قد يعجز عن تفسير كل الظواهر ، أو يعتسف فى تفسيرها ، وهؤلاء علماء النفس يقولون : «نحن لانعتبر أن نظرية ما فى علم النفس نهائية بحال من الأحوال . فكل نظرية صحيحة فى ضوء

البيانات التى جمعت وأخذت فى الاعتبار » ويقولون « نحن نرى أن نظرية من النظريات لا تكون صحيحة على إطلاقها ولا تكون باطلة على إطلاقها[1] » ، ولأن هذه المذاهب تتكامل فى الكشف عن تكوين الأديب وتتعاون فى بيان حالات الابداع الفنى من نواحيها المختلفة .

٥ — ولم يكن من المستطاع دراسة « شياطين الشعراء » وحدهم من غير أن نعرض لرأى العرب فى الشياطين والجن ، وذلك لأن صلتها بالأدب كانت قوية . فالكهانة من وحيها . وهى تشبه الشعر فى تميزها بأسلوب خاص ، وفى رجوعها إلى وحى الشياطين ، وفى علو منزلة الكهان والشعراء عند العـــرب . ومن أعمالها أن تخبر بالغيب ، وأن تلقى ذلك فى لغة أدبية يغلب أن تكون شعراً ، وأن تنقد الأدب ، وتقدر الشعراء ، وتلقاهم فتحاورهم ، وتهديهم أو تضلهم وتهزمهم أو ينتصرون عليها فى بعض الأحايين .

وكان للأمم الأخرى شىء يشبه ما كان عنـــد العرب . فقضت طبيعة البحث أن نشير إليه ، لنبين مدى التشابه مع الايجاز ، الذى لا يخل بالمقارنة ، والذى يكشف عن مركز التفكير العربى بين الأمم الأخرى فى دورها الاسطورى .

٦ — أما مصادر هذا البحث فكتب عربية تضمنت قصص الجن والشياطين وأخبارها بلا تعليق عليها . أو بتعليق ، ودونتها على أنهـا مقصودة لذاتها ، أو انتفعت بها للوصول إلى غاية وراءها ، كما سنبين ذلك عند الكلام عليها فى مكانها .

وأهم هذه الكتب بعد القرآن والحديث : كتب السير والتاريخ مثل :

١ — السيرة النبوية لأبى محمد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ

٢ — تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

٣ — مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ .

---

(١) علم النفس ٦ الدكتور القوصى .

٤ — آكام المرجان للشيخ محمد بن عبدالله الشبلى الحنفى المتوفى سنة ٧٦٩ هـ .

وكتب أخرى فى الأدب عرضت لهذه القصص عند الكلام على الشعراء أو الكهان ، أو وصلت إليها عند شرح قصيدة أو خبر ، أو روتها بين ما ترويه من الأخبار الأدبية ، ومن هذه الكتب :

١ — جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى المتوفى ١٧٠ هـ[1] .

٢ — الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

٣ — الأغانى لأبى الفرج على بن الحسين الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ .

٤ — الأمالى لأبى على القالى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ .

٥ — مجمع الأمثال لأبى الفضل أحمد بن محمد الميدانى المتوفى سنة ٥١٨ هـ .

وهناك أعمال أدبية ، كالمقامات والرسائل ، أودعها الأدباء أخبار الجن وقصصها ، أو ضمنوها شيئاً شبيهاً بهذه الأخبار والقصص تسجيلا للأفكار القديمة فى هذه الفنون الأدبية الحديثة ، أو نقدا لتلك الأفكار ، أو انتفاعا بها لغاية خاصة . ونذكر من ذلك :

١ — مقامات بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

٢ — رسالة التوابع والزوابع لأبى عامر عبد الملك بن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦ هـ :

٣ — رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ .

٤ — رسالة الشياطين للمعرى أيضاً .

وهذه المصادر مشهورة صحيحة النسبة إلى أصحابها وزمنها ، إلا « جمهرة أشعار العرب » فإن صاحبها شخصية غير معروفة على وجه الدقة ، وتقسيمها

---

(١) ضحى الإسلام ٢/٢٧٦ .

على النحو السابق بحسب ما يغلب عليها ، وما ألفت فيه ، أو أنشئت فى بابه ، من العلوم والفنون الأدبية . وليس ذلك بمانع أن تشتمل على صفة تلحقها بفن آخر . فإن فى مقدمة الجمهرة مجموعة أخبار ، ولكنها قصص أيضا . والجاحظ يروى الأساطير . ولكنه يضيف إليها النقد والتعليق . وأبو الفرج الأصفهانى يعمد أحيانا إلى تضعيف الروايات التى يذكرها ، بروايات أخرى أو ببعض الحجج العقلية ، وفى كتب التاريخ بعض هذه الأساطير فى صور أدبية لطيفة .

وقد جعلت من بين المصادر كتابين لم يؤلفا إلا بعد القرن الخامس هما : مجمع الأمثال ، وآكام المرجان ، ولكنهما عنيا بموضوع بحثنا إلى حد كبير بما جمعا من أخبار أفادت البحث والدراسة . أما كتاب العمدة فهو قريب من عصرنا ، أو يعد من إنتاجه بشىء من التجوز .

وما ورد فى المصادر السابقة يصور تصويرا قويا هذه الظاهرة — ظاهرة شياطين الشعراء — فى أهم عصورها فى الجاهلية والإسلام .

أما المراجع فترد مفرقة فى ذيل الصفحات ، ومجتمعة منسقة فى آخر الرسالة .

وقد يكون المصدر مرجعاً أيضاً بما فيه من تعليقات وآراء نقدية ، فنعده فى المصادر والمراجع أيضا .

وكان للأستاذ الفاضل أحمد الشايب فضل كبير فى تنظيم هذا البحث ووضع منهجه ، وتقسيم أبوابه وفصوله ، وبيان الغاية فى مقدمته وتمهيده ، والإرشاد إلى بعض مراجعه وأشهر أن أثره فى ظهوره على هذه الحالة أثر عظيم ، فله من الشكر والتقدير مايجازى فضله ما؟

وأسأل الله التوفيق والعون دائما ما؟

القاهرة : السبت { ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٧٥
{ ٨ ينـاير سنة ١٩٥٦

عبد الرزاق حميده

تمهيـــد Introduction

فى الأصول العلمية للإنتاج الأدبى :

١ — التعبير عما فى النفس نزعة من النزعات الفطرية[١] . ومن وسائله الحركات والإشارات والرسم والموسيقى ، ولعل أهم هـذه الوسائل هو اللغة منطوقة أو مكتوبة . ويمتاز بعض هذه اللغة بجمال فى صورته ومعناه . فينشأ الأدب الذى يعرف ، بأنه : « التعبير باللفظ الجميـــل عن المعنى الجميل[٢] » .
والتعبير على هـذا النحو قديم جدا ، وكان ساذجا فى معانيه أول الأمر ، ثم ارتقى على الأيام ، وكثرت أنواعه ، وفنونه ، وأغراضه وصوره ، حتى انتهى إلى الوضع المعروف عند الأمم الراقية فى عصرنا الحديث .

وقد استرعى انتباه الناس من قديم أن هذا الأدب ميسور لبعض الناس دون بعض وفى أوقات دون أخرى ، وأنه يتدفق أحيانا ، وينضب معينه أحيانا ، وأن بعض الناس يجيد منه مالا يجيده آخرون ، وأنه قد يصدر بإرادة وشعور ، وقد يصدر على الرغم من صاحبه ، وقد يهبط عليه وحيه فى غيبوبة أو منام .

وكان هذا الاختلاف فى ظروف إنتاجه وأحوال منشئيه ، داعيا إلى التفـكير فى مصدره ، والـكلام فى ظروف رجاله ، وأسباب تنوعه ، وغير ذلك من الأبحاث والدراسات المتعلقة بالإنتاج الأدبى قديما وحديثا . وأهم مانعرفه عن ذلك ، أن الأدب قد درس من حيث صورته ومعانيه . وتبين للناس من قديم أن بعضه موسيقى موزون يعبر عن عواطف وانفعالات . وأن بعضه حر ، لايتقيد بالموسيقى المطردة ولا الوزن الملتزم ، وأنه يعبر عن حقائق وأفـكار ، فسموا الأول شعرا والثانى نثرا . وهذه الصفات غالبة ، وإلا فهناك من النثر مايعبر عن عواطف وانفعالات ، ومن الشعر مايقوى بالحقائق ، ويؤثر بالبراهين .

---

(١) فى علم النفس ١/١٦٩ — دراسات فى علم النفس الأدبى / ٨٢

(٢) دراسات فى علم النفس الأدبى / ١٤ — ذكر للأدب عدد من التعاريف والأقسام انظر قصه الأدب فى العالم ١/ ١٢ — أصول النقد الأدبى ١ — ٣١ طبعة ثانية — تيارات أدبية من ١٠/٢٩ — فى الأدب الجاهلى ص ١٧ وما بعدها الطبعة الثالثة .

٢ — وكان الشعر أجمل صورة وأقوى تأثيرا . وكانت غرابة أحوال الشعراء، وجهلهم هم بمصدر شعرهم فى العصور الأولى سببا فى نسبة هذا الشعر إلى مصادر خارجية مسيطرة ، توحى به لمن تختار ، وتؤثر به من تريد . وكانت هذه القوة إلها أو شيطانا فى أول الأمر . وما زالت كذلك إلى الآن ، وإن ضعف الأيمان بها من أثر العلم الحديث . وأكثر من يؤمن بذلك هم الشعراء ، أما العلماء الباحثون فتخلصوا من فكرة الشياطين من عهد أرسطو الذى أرجع الشعر إلى الغرائز وقال : « إن انبثاق الشعر فى الإنسان يرجع إلى غريزتين متأصلتين فى طبيعته ، إحداها غريزة التقليد أو المحاكاة ، والثانية غريزة اللحن والنغم[١] . وذلك بسبب نزعته الواقعية ، وبحثه فى ملكات النفس واستعداداتها . وظل كثير من العلماء ينهجون نهجه حتى العصور الحديثة .

٣ — وفى أواخر القرن التاسع عشر ، زاد اهتمام علم النفس بالأدب لشدة الصلة بينهما . « أليس الأدب أروع ما تنتج نفس الإنسان ؟ ، أليس وليد الشخصية الإنسانية ؟ ، أليس المعبر عما تنطوى عليه النفس من شعور وإحساس ؟ . أليس مظهرا من مظاهر العبقرية والخلق الإنسانيين[٢] ؟ .

وكان من آثار هذا الاهتمام أن استقل فرع من علم النفس يسمى « علم النفس الأدبى[٣] » وهو : « علم يبحث فى عقل الإنسان من حيث كونه معبرا عن أفكاره ، بأساليب لغوية راقية ، أو مقدرا لتعبير الناس عن أفكارهم بتلك الأساليب[٤] » .

وهذا يونج (C. C. Jung) عالم النفس السويسرى يبين أهمية هذا العلم فى دراسة الأدب فيقول[٥] . « من الظاهر أن علم النفس — لكونه علم دراسة الخطوات النفسية — يمكن أن يستفاد منه فى دراسة الأدب ، فإن النفس

---

(١) من الوجهة النفسية : ٥٤ ، ٨ . (٢) نفسه / ١٠ .
(٣) دراسات فى علم النفس الأدبى / ١١ (٤) دراسات فى علم النفس الأدبى / ١٨
(٥) من الوجهة النفسية : ١٠ .

الإنسانية هى الرحم التى تولدت منها كل العلوم والفنون ... فلنا أن ننتظر من البحث السيكلوجى أن يشرح لنا تكوين العمل الفنى من ناحية . . . ومن ناحية أخرى أن يشرح لنا العوامل التى تجعل من الشخص مبدعا فنيا » .

وما يقوله « يونج » هنا يهدينا إلى أمرين هامين فى الحديث عن الأصول العلمية للإنتاج الأدبى ، وهما :

١ — العوامل التى تجعل من الإنسان مبدعا فنيا .

٢ — كيفية إبداع العمل الفنى .

ولا شك أن ثانيهما مبنى على الأول ، وأن الفنان لا يبدع إلا إذا كان فيه من الصفات ما يؤهله لهذا الإبداع ، والأديب فنان طبعا .. لهذا كان ما ينطبق على الفنان . ينطبق عليه وعلى الشاعر أيضاً ، وإليك البيان :

العوامل التى تجعل من الإنسان مبدعا فنيا :

أولا — الفطرة :

خلاصة الأبحاث التي وصل إليها أكثر علماء النفس أن الفنان لا يصل إلى الإبداع الفنى الا إذا كان مزودا بصفات فطرية ، وأخرى مكتسبة[1] ويقول سيرل برت[2] (C. Burt) .

إن : « كل هذه النواحى من البحث أدت إلى نتيجة واحدة : ذلك أن الفنان من حيث ذكاؤه العام — ومن حيث موهبته الخاصة — رجل مزود بهبات فطرية نادرة » . أى أنه لابد للفنان من هبة فطرية ممتازة ، ومن ذكاء عام هو استعداد فطرى أيضاً[3] . وهذه الهبات الفطرية — ومعها الذكاء — تنتقل بالوراثة الفردية والجنسية ، وقد تكون هذه الصفات الفطرية مكتسبة فى جيل ثم تصبح وراثة ويتأثر بها الأبناء والأحفاد .

---

(١) الأسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر/ ٢٨٧ و ٢٩٢ و ٢٩٣ و ٢٩٨ و ٢٩٩

(٢) كيف يعمل العقل ٢/ ٢١٣

(٣) دراسات فى علم النفس الأدبى / ١٤٦

والصفات الفطرية التي يتكون منها العقل الإنسانى الفطرى أو الطبيعة البشرية مجموعتان : أولاهما : الاستعدادات ، والثانية الدوافع . ويدخل فى الاستعدادات : القدرة على الإدراك الحسى والتصور والتخيل وغيرها من العمليات الإدراكية . وكذلك الذكاء والمواهب الفطرية الخاصة كالموهبة الفنية والموهبة الرياضية وغيرها من المواهب التي يمنحها بعض الأفراد دون بعض[1] . أما الدوافع فتشمل الغرائز والميول الفطرية العامة . وتعد كل منها قوة حافزة إلى العمل[2] .

ويقول بعض علماء النفس أن فى الأديب استعدادات فطرية خاصة منها الاستعداد اللغوى ، والاستعداد الفنى ، والاستعداد الموسيقى[3] .

ومعنى فطرية هذه الاستعدادات أنها مواهب لا تكسب بالتجربة والتعلم وإن تأثرت بهما فى تنميتها وتوجيهها . وأما أنها خاصة ، فذلك لأن كلا منها فى الواقع استعداد لنوع خاص من الأعمال ، أو أنها توهب لبعض الناس دون بعض بطريق الوراثة . ويخالفها الذكاء فى أنه استعداد فطرى عام يؤهل صاحبه لتناول أنواع كثيرة من الأعمال والمشكلات والسير فيها بنجاح . كما تختلف عن الغرائز والميول الفطرية العامة فى أن هذه يشترك فيها جميع أفراد النوع ، وتنتقل من الأصول إلى الفروع بطريق الوراثة العامة[4] .

والاستعداد الأدبى أحد فروع الاستعداد اللغوى . ومعناه القدرة على الإنشاء والتعبير الجميل ، أو إدراك الجمال فى ذلك . ولاشك أن فى بعض أصحاب الاستعداد الأدبى استعداداً خاصاً لقول الشعر .

فهذه الموهب الفطرية ، أعنى الاستعدادات الخاصة والذكاء العام ، والدوافع التي تشمل الغرائز والميول ، هى العوامل الأساسية التي يتوقف عليها الفن ، ولا بد منها للأديب والشاعر خاصة .

وإذا أردنا أن نربط بين هذه الاستعدادات والدوافع ، وبين الأعمال العقلية .

(١، ٢) نفسه ٢٨ (٣) نفسه/١٤٦/١٤٧ — الطفل من المهد إلى الرشد/٦٧ .

(٤) دراسات فى علم النفس ١٤٦

وجدنا الاستعدادات تتصل بالناحية الادراكية كما تتصل الدوافع بالناحية النزوعية أكثر من غيرها . أما الناحية الوجدانية ، أعنى ناحية السرور والألم ، فتصحب كلا منهما . فإذا تمكنت القدرة على التخيل أن تبدع تشبيها جميلا ، كان ذلك مدعاة للسرور ، كما يحدث تماما إذا دفعت الغريزة الجنسية صاحبها إلى قصيدة من الغزل الرقيق .

ولما كانت الغرائز ذات أهمية عظيمة فى السلوك الانسانى عامة ، وفى الانتاج الأدبى خاصة ، ونشأ حول أهميتها خلاف بين علماء النفس . كان من المناسب الحديث عنها وعن صلتها بالانتاج الأدبى مع الايجاز .

الغرائز :

تعرف[1] الغريزة « Instinct » بأنها: ميل فيزيقى نفسانى psycho physical يدفع صاحبه إلى أن ينتبه ويدرك أشياء من نوع معين ، وأن يشعر بانفعال نفسانى[1] من نوع خاص عند إدراكه هذا الشىء . وأن يسلك نحوه مسلكا خاصاً، أو يجد فى نفسه دافعاً ينزع به (على الأقل) نحو هذا المسلك[2] .

ويدل هذا التعريف على أنه لابد فى الغريزة من : ميل نطرى معين ، ومثيرات يدركها المرء ، ووجدان أو انفعال معين . أى أن لهـا مظاهر الشعور الثلاثة : الإدراك الذى يثيرها ، والنزوع الذى هو مصدر القوة الدافعة إلى الأفعال ، ثم الوجدان المعين الواضح .

وهناك أربع عشرة غريزة عدها ماكدوجال ، وذكر إنفعالاتها ولا شك أن من هذه الغرائز ماهو قوى الصلة بالانتاج الأدبى مثل : —

١ — غريزة التناسل أو الغريزة الجنسية Sex Instinct وأظهر ماينشأ عنها

---

(١) تعريف ماكدوجال ، أصول علم النفس ١/١٦١

(١) علم النفس الأدبى ٥٢ — ٥٥ .

(٢) الوجدان — ناحية السرور أو الألم التى تصاحب كل عملية عقلية . الانفعال — وجدان ثائر قوى يهز كيان النفس وتظهر آثاره فى العقل والجسم ويظهر حين تكون الغريزة فى حالة نشاط . العاطفة — مجموعة منظمة من الإنفعالات تتجمع حول معنى شىء من الاشياء .

من أنواع الأدب هو الغزل أو روايات الغرام وقصص الحب . بل إن فرويد جعلها أساس السلوك الانسانى[١] كما سيأتى.

٢ — غريزة السيطرة أو الظهور Self-Exhibition, will to Power, وينشأ عنها شعر الفخر . بل إن أدلر Adler جعل لها الشأن الأول فى حياة الفرد . وأرجع إليها النبوغ فى العلم والفن[٢].

٣ — غريزة المقاتلة وحب الخصام[٣] pugnacity وصلتها بالهجاء قوية . وكم من شعر قوى فى هذا الفن ، اندفع إليه صاحبه وهو فى ثورة الغضب !.

٤ — غريزةالانقياد والخضـــوع Submission, Self Abasement وشعر المدح والملق عنوان عليها ، وثمرة من ثمارها ، ويكثر عملها فى أدب النساء ، والمتـكسبين .

٥ — غريزة الهرب أو الخوف[٤] Fright, Escape وهل كانت قصائد النابغة فى الاعتذار بعيدة عن الخوف؟ أو قصيدة تميم بن جميل[٥] فى اعتذاره للمعتصم؟ أو غير ذلك من قصائد الاعتذار والضراعة والمسكنة ؟

٦ — غريزة الوالدية Parental Instinct ولهـا أثر عظيم فى وصايا الآباء والأمهات شعرا أونثرا . وابن الرومى رثى ابنه بوحى من هذه الغريزة . وخوف تميم بن جميـل[٦] من الموت كان بسبب الصبية الذين تركهم خلفه ، يذود الردى عنهم إن عاش وينزل بهم الضيم إذا أصابه مكروه .

٧ — غريزة الاقتناء والادخار أو حب الملك Acquisitiveness ولعلهـا من أكبر الدوافع إلى شعر المدح . وعلام كان يرحل الشعراء أميالا ، ويقطعون الفيافى ، وينضون المطى إذا لم يكن وراء ذلك مال يقتنى ، وعطاء يستفاد ؟ .

وهناك ميول فطرية[٧] Innate Tendencies ذات أثر عظيم فى الانتاج

---

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى / ٢٣ و٨٢ .
(٢) نفسه ٢٣ و٨٢ (٣) أصول علم النفس ١/ ١٦٢
(٤) أصول علم النفس ١/١٦٢ (٥) العمدة ١/١٣٠ (٦) العمدة ١/١٣٠
(٧) ماكدوجال Mc'Dougall يسمى الغرائز ذات الوجدان غير المعين ميولا أصول علم النفس ١/١٦٣ .

الأدبى : كالاستهواء Suggestion ، وقد يرجع إلى هذا الميل طريقة العباسيين فى بدء قصائدهم ، إكبارا منهم للجاهليين وتأثراً بهذا الاكبار . والمحاكاة Imitation وهى واضحة الأثر فى أخذ الخلف عن السلف طرق الانشاء والمعانى الأدبية وتقاليد الفنون . ولا ننسى أن أرسطو عدها غريزة فارجع إليها الدافع الأساسى للشعر مع غريزة الموسيقى أو الاحساس بالنغم . والمشاركة الوجدانية Sympathy أساس كثير من الانفعالات النفسية كالرحمة والشفقة والمواساة والاحسان . فاذا أثير هذا الميل نشأ عنه أدب يلائمه كمقالات فى مساعدة منكوبين ، وقصائد متألمة لحريق ، أو زلزال ، ومسرحيات تثير عطف الأغنياء على لاجئين أخرجوا من ديارهم بغير حق . وكثير من قصائد الرثاء ينشأ من هذا الميل ، والأسى يبعث الأسى كما قال متمم بن نويرة[١] .

وقد تشترك أكثر من غريزة أوميل فى إثارة فنون من القول ، كالرثاء يثيره التقليد ، والاستكانة والخضوع ، والمشاركة الوجدانية ، وغريزة الوالدية وحب الظهور . وقد تكون الغريزة الواحدة دافعا إلى أكثر من نوع أدبى . فغريزة الهرب أو الخوف قد تؤدى إلى شعر المواعظ ، وأدب الآخرة ، ووصف الجنة والنار ، كما تؤدى إلى شعر المدح وتملق السادة ، وقد قيل فى قصص الحيوان إنها كانت وسيلة من وسائل إصلاح الطغاة ووعظهم ، فكان أسلوبها كذلك خوفا من البطش . فكأن الخوف ترك أثرا فى فنون الأدب أيضاً ، فنشأ عنه هذا النوع المسمى قصص الحيوان[٢] . وقد قيل مثل هذا فى الأمثال الفرضية التى تكثر فى أزمنة الجور والاستبداد[٣] .

ولا تظهر هذه الغرائز فى وقت واحد ، وليست ثابتة ولا جامدة ، فهى قابلة للتعديل والضعف ولا تنطلق إلى العمل إلا بمثير أو محرك ، ولهذا قال

---

(١) وقالوا أتبكى كل قبر رأيته لميت ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت لهم إن الأسى يبعث الأسى ذرونى ، فهذا كله قبر مالك

(٢) قصص الحيون فى الأدب العربى / ٣٨ — ٤٣

(٣) الوسيط / ١٧

ماكدوجل بضرورة وجود شيء مُدرَك يستثير الغريزة[١]. وقد يسمى الباعث (Incentive).

وطرق تعديل الغرائز متعددة منها الإعلاء Sublimation ، ومنها التنفيس Catharsis ، ومنها الثواب والعقاب ، ومنها الخبرة والتعليم ؛ وللذكاء أثر كبير جداً في تعديل غرائز الإنسان ، أو الانتفاع بهذه الدوافع الفطرية في حدود العقل والأخلاق . وللدين أثره أيضا في إعلاء الغرائز وتوجيهها إلى الخير .

أما الانتفاع بهذا التعديل في الأدب فيكون باعلاء الغرائز لِتَحْمِلَ على الأدب الذي يفيد الناسَ كما يفيد به صاحبُه ؛ فإذا علت غريزة المقاتلة وصارت مغالَبَةً للهوى وتسلطا على المطامع ، نشأ عنها أدب إنساني يدعو إلى الايثار والعمل لخير الناس . وقد تعلو الغريزة الجنسية فتبعث على أدب فيه العطف والرحمة والرفق بالضعيف ؛ أو على قصص في الحب العفيف ، والهوى العذرى . أو مسرحيات في الاصلاح الاجتماعي كتعليم المرأة .

والظاهر أن علماء النفس يجعلون من الغرائز والميول الفطرية العامة دوافع إلى السلوك الإنساني ، وأن كلا منهما يعمل في وقت أو مناسبة عند ما يكون هناك باعث مناسب له ، ويخمد أو يختفي إذا لم يوجد باعث[٢] . وهناك مذهبان مشهوران في علم النفس حول الغرائز المؤثرة في السلوك . أحدهما مذهب سيجموند فرويد ، والثاني مذهب أدلر .

رأى فرويد[٣]

يرجع فرويد (S. Freud) السلوك إلى الغريزة الجنسية ، ويجعلها الغريزة المسيطرة على أفعال الناس ومنها الإنتاج الأدبي . وأما تلميذه أدلر Adler فيرجع السلوك الإنساني إلى السيطرة أو حب الظهور أو السيادة .

---

(١) أصول علم النفس ١ / ١٦٣ وانظر الطفل من المهد إلى الرشد ٧٠

(٢) انظر كتاب الدوافع النفسية للدكتور مصطفى فهمي .

(٣) أشهر من اهتم به في عصرنا هو سيجموند فرويد (١٨٥٥ — ١٩٣٩) من أكثر علماء التحليل النفسي والباحثين في اللاشعور .

وخلاصة مذهب فرويد : أن النفس السفلى أو الفطرية « The Id » هى المؤثر الأول فى سلوك الإنسان الهمجى أو الطائش ، وذلك بما تحويه من غرائز ونزعات بدائية ، وأن المسيطر على هذه النفس هو الغريزة الجنسية[١] . وهى المؤثرة فى حياة الفرد وسلوكه منذ ولادته . ولكن النفس الاجتماعية ، أو الذات ، أو الأنا « The Ego » ، وهى النفس الخاضعة للقوانين والنظم الاجتماعية . والناشئة عن تأثير البيئة والتربية والتجارب الخاصة ، كثيرا ما تقف فى سبيل الرغبات والنزعات الغريزية ، فتكبت هذه وتنحدر إلى اللاشعور ، وتبقى هناك فعالة تحاول الظهور بشتى الوسائل وفى غفلة من العقل الواعى ، كما يحدث فى أحلام النوم ، وفى حالات الغيبوبة والذهول والجنون وفلتات اللسان . وفى هذه المنطقة — منطقة اللاشعور — تتجمع الرغبات والانفعالات المكبوتة والتجارب والذكريات الأليمة . وتكون ما يسمى العقد النفسية Complexes التى من أهمها : عقدة أوديب Odipus Complex وعقدة الكترا Electra وعقدة الرفعة Superiority Complex وعقدة الضعة .Inferiority Comp[٢] . والنفس الثالثة هى النفس العليا The Super Ego ، وهى الضمير ، ولها رقابة على العلاقة بين الذات والنفس السفلى ، وتتكون من المثل العليا .

أما الإنتاج الأدبى فى رأى فرويد ، فيرجع إلى التسامى Sublimation أو إعلاء الغريزة[٣] ، وهو يستند إلى استعداد فطرى خاص[٤] . والمراد تحويل طاقة الغرائز والميول الفطرية الوضيعة إلى أشكال عالية سامية يقرها المجتمع[٥] كالانتاج الفنى ومنه الشعر . كما سيأتى فى هذا التمهيد :

رأى أدلر :

أما تلميذه أدلر ، فلم ير مثل رأيه فى الغريزة الجنسية . وقال إن أكثر الغرائز

---

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى / ٢٢

(٢) انظر الدوافع النفسية ص ١٢٩ — ١٣٢ . ودراسات فى علم النفس الأدبى ص ٢٠ و٢٣ ، الاسس النفسية ص ٧١ .

(٣) الأسس النفسية ٧٦ .

(٤) نفسه / ٢٩٠ و١٩

(٥) أصول علم النفس ١/ ٦٧

تأثيرا هي غريزة إعلاء النفس أو حب الظهور · وهى فى نظره مصدر النبوغ والنجاح فى الحياة إذا نالت مآربها بطريقة طبيعة . فاذا انحرفت كانت سبب الفشل وخيبة الأمل · وعنها تنشأ عقدة الرفعة والعظمة إذا تجاوزت حدودها ، وعقدة الضعة والصغار إذا ضعفت وانكمشت[١] . وإليها يرجع كثير من خيالات المرء وأوهامه ، ومعانيه الأدبيـة ، وفنونه التى يختارها للتعبير عن نفسه ومشاعره .

ثانيا — الاكتساب[٢] :

بعد هذا الكلام فى الأسس الفطرية للإنتاج الأدبى — وهى الاستعدادات الخاصة والمواهب الطبيعية ، والذكاء العام — ألاحظ أنها وحدها ليست كافية لتعليل النبوغ فى الأدب ، ولاظاهرة الأثر فى كثير من حالات النبوغ والامتياز فى الشعر · نحن لا ننكر أثرها · ولكنا نرى الكسب بالتجربة والتعليم وإعمال العقل، من ألزم الوسائل للإنتاج الأدبى · حقاً إن علماء النفس والنقد الأدبى ، والأدباء من قبلهم ، قرروا أن الطبع أو الفطرة أو المواهب الفنيـة هى أساس النبوغ فى الأدب وفى الفنون عامة · ولكنهم أدركوا حاجتهم إلى تربية تلك المواهب . وأحسوا أن العوامل المحيطة بهم ، والوسائل الفعالة فى ثقافتهم وتهذيب أذواقهم ومشاعرهم، تترك آثارا عظيمة فى تكوين الأديب منهم ، وتوجهه إلى هذه الوجهة أو تلك ، وتجعله ينبغ فى هذا الفن الأدبى أو ذاك· وفى تاريخ الأدباء أدلة لعلماء النفس والنقد ، ولغيرهم من عامة الناس ، على أن هؤلاء الموهوبين مالت بهم الظروف إلى أن يسبقوا غيرهم . كالبيئة التى نبتوا فيها ، والعلم الذى تعلموه ، والدين الذى نشئوا عليه ، وغير ذلك من الظروف الخاصة والعامة التى وجدوا فيها ، وخضعوا لتأثيرها .

فمعانى أدباء العصر الأموى — الشعراء منهم والناثرين — أقل اتصالا بالفلسفة من أدباء العصر العباسى . وشعراء الإسلام غير شعراء المسيحية خصوصاً إذا اشتمل شعرهم على معانى الدين . والأديب الذى عاش فى الشام أو الأندلس من البيئات الزاهرة ، يخالف زميله البدوى إذا عرض كل منهما لوصف هذه البيئة .

---

(١) دراسات فى علم النفس الادبى ٢٤ — ٢٧

(٢) انظر صفحة ١١ من هذا الكتاب .

وقصة ابن الرومى[1] حين عجز عن مجاراة ابن المعتز فى وصف نعيم القصور تدل على أثر البيئة الاجتماعية أيضاً فى الأدباء .

وهل يظن أحد أن تلك المعانى العميقة التى يمتلىء بها أدب العصور ترجع إلى الفطرة وتنبع من المواهب الساذجة وهل كان ظهور النزعات الأدبية العامة كالواقعية Realism ؛ والكلاسيكية Classicism والرومانسية Romanticism إلا أثرا من آثار التطور الذى تشترك فى إحداثه حوادث العصور ومذاهب السياسة والاقتصاد والثورات الاجتماعية ، لانرى معه للمواهب والاستعدادات الأدبية سلطانا ؟ ولم اتجه أدباء عصرنا إلى المسرحيات الشعرية بدلا من الشعر الغنائى الذى آثره آباؤهم ؟ ولم عدل النثر عن السجع الذى ساد زمنا طويلا فى الكتابة العربية ؟ إننا لاننسى أثر التوجيه والحملات الشديدة التى قام بها النقاد والأدباء ليصرفوا الشعراء إلى المسرح والقصة فنجحوا . ولا نغفل عن أثر الثقافة العربية مثلا فى شوقى ، ولا أثر حياته فى الأندلس . ولا رحلاته بين الآثار الخالدة هناك وهنا فى توجيه شعره إلى تاريخ العرب فى أسبانيا ، وتاريخ الفراعنة فى مصر ، ووصف الآثار التى خلفها سلفنا هنا وهناك . وتأثره بالبحترى فى وصف إيوان كسرى لايحتاج إلى دليل بعد قوله فى السينية الأندلسية :

وَعظ البحترىَّ إيوانُ كِسرى وشَفَتْنِى القصورُ من عبدِ شَمْسِ

وهل نحتاج إلى برهان بعد اتحاد البحر والقافية بينه وبين البحترى فى «السينية» ، وبينه وبين ابن زيدون فى « نائح الطلح » وفى « أضحى التنائى » ؟

قد يقال إن الميل إلى التقليد هو الذى حمله على ذلك . وهو ميل فطرى . ونحن لاننكر هذا ، ولكن شوقى لم يكن يستطيع أن يقلد لولا التعلم والدراسة ، وقد قلد البوصيرى فى « نهج البردة » فلم يكتف بمعانيه وعناصر قصيدته ، بل أضاف كثيرا من آثار ثقافته إلى قصيدته . فامتاز بها عن بردة البوصيرى .

حقا إن لكل شاعر شخصية مستقلة تميزه عن غيره من الشعراء ، وأساس تلك الشخصية المستقلة هو نوع المواهب والاستعدادات الخاصة . ولكن الذى

---

(١) العمدة ٢ / ١٨٣

يبرزها ويتفاعل معها فتزداد استقلالا وانفصالا عن غيرها ، هو آثار التربية وعوامل الثقافة . خصوصاً ما اتصل منها بمواهبه واستعداده ، كقراءة أشعار السابقين ، والوقوف على مذاهبهم ومعانيهم وأساليبهم وخصائصهم الفنية .

ونخلص من ذلك إلى أن أصول الإنتاج الأدبي ترجع إلى المواهب والاستعدادات ثم إلى الكسب وعوامل التوجيه الطارئة . ولا يزيد بحث علماء النفس عما قرره أبو الحسن الجرجاني مجملاً إذ يقول[1] : « إن الشعر علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء . ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان » .

فالأدب استعداد وإعداد ومران . . وقد أجرى بعض علماء النفس المحدثين تجربة أراد من ورائها أن يعرف إن كان من الممكن أن ندرب الطلاب على الابتكار فى الأدب ، ونعلمهم نظم القصائد وتحرير المقالات الأدبية النفسية ، لنجعل منهم شعراء مبدعين ، أو كتابا مبتكرين[2] . وكانت نتيجة التجربة التى أجراها العلامة ليوبولد Leopold أن الطلبة ليسوا سواء فى الإفادة من التمرين على الابتكار فى الأدب . . . وأن الذين يعوزهم الاستعداد الفطرى الموهوب لا يرجى من تدريبهم خير كثير . . . وأما من تبدو عليهم علامات النجابة ، وتظهر فى نشاطهم الأدبى دلائل هذا الاستعداد الفطرى الأدبى فمن الواجب السير بهم فى هذا السبيل . فإنهم جديرون أن يفيدوا من مواصلة السير فيها ، فيرهف حسهم الفنى ، وتنمو عواطفهم الأدبية[3] .

ولم يهمل علم النفس دراسة الرجال والنساء لمعرفة ما بين الجنسين من فروق وقد وصلوا إلى نتائج تؤيد وجود هذه الفروق فى الاستعدادات والصفات الفطرية ، أو فى درجة ما يوجد عند كل منهما ، فالرجل مبتدع والمرأة متبعة[4] ، والمرأة

(١) الوساطة / ١٥ . (٢) دراسات فى علم النفس الأدبى ١٤٨ .
(٣) نفسه ١٤٨ — ١٥٠ . (٤) كيف يعمل العقل ٢ / ١٣٩ .

أقوى ذاكرة ، وأكثر تقبلاً للحقائق ، والرجل أقوى فى خياله الابتكارى[١] .
وفى نتائج اختبارات المعارف المكتسبة يمتاز البنات فى الموضوعات الأدبية ، والأولاد يفضلونهن فى الرياضيات[٢] . وقد يشتركان فى الغرائز الموروثة ، ولكن منها ما يقوى عند الرجال كغرائز العدوان وغرائز الاستطلاع . وما يقوى عند النساء كالغريزة الوالدية ، والخضوع ، والخوف[٣] . والانفعالات عند الرجال أعمق وأطول مدى ، ووجدانات المرأة حادة فجائية ظاهرة[٤] .

ولا شك أن أدب الرجال يختلف عن أدب النساء ، وأن لهذا أساساً من أصل الفطرة ، ومن الاكتساب أيضاً ، فقد تكون أنوثة المرأة سببا فى كبت مشاعرها وعدم الافصاح عنها ، فى حين أن الرجل قد يجترىء على ذلك ؛ والأدب المكشوف ، والشعر الفاحش ، والغزل الفاجر إنتاج أدبى أكثره عند الرجال ويندر عند النساء . وأدب الشجاعة الحربية والغارات والفتك والصعلكة كذلك . أما أدب الشكوى من نكبات الزمان ، وفقد العائل والحامى ، وأدب الأمومة والعطف على الناس ، والحزن والرقة ، والقصص الخيالى[٥] ، فهو أظهر عند النساء . والمرأة تميل إلى الإنتاج الأدبى الناشىء عن الانفعالات والوجدانات الحادة القوية .

ثم ننتقل إلى النقطة الثانية مما جاء فى كلام يونج الذى أشرنا إليه فى صدر هذا التمهيد وهى :

كيف يبدع الأديب :

إذا تحققت للأديب صفاته التى يمتاز بها على غيره من استعدادات خاصة ، وذكاء عام ، ومن كسب ومران ، أصبح أديبا بالقوة . وعلينا الآن أن نبين كيف يبدع هذا الأديب آثاره الفنية ، وكيف تصدر عن نفسه هذه الآثار فنقول :

---

(١) نفسه ١٤٣ .   (٢) ١٤٥ .   (٣) نفسه ١٤٦ — ١٤٧ .
(٤) نفسه ١٤٦ .   (٥) كيف يعمل العقل ٢ / ١٤٤ .

ا — الإنتاج الأدبي ظاهرة شعورية :

يسيطر على الناس عند القيام بأعمالهم شعورهم بما يعملون ، سواء فى ذلك أعمالهم العقلية والجسمية . ويتميز هذا الشعور بمظاهر ثلاثة هى : الإدراك « Cognition » والوجدان « Feeling أو Affection » ثم النزوع أو المحاولة « Endeavour أو Striving » .

والإنتاج الأدبي فى جملته — سلوك عقلى لايستغنى عن أعمال جسمية لازمة له كالاحساس والنطق به وتدوينه . وأكثره عمليات شعورية تتم فى يقظة وانتباه ، إذ يوجد الباعث على هذا الانتاج الأدبي فيدركه الأديب ويتأثر به سرورا أو ألما . ثم يندفع إلى القول المناسب للموضوع على صورة فنية أدبية ، يختار لها من فنون الأدب ما يراه أوفق لها . ويستدعى من المعانى ما يناسبها ومن الصور ما يوضحها ، ومن الأخيلة ما يجملها ، وينفى ما ليس فى حاجة إليه ، على نحو ما تقضى به الأصول الفنية للأدب . وقد يعود إلى ذلك كله قبل أن يذيع فى الناس فينقحه ويهذبه ، ثم يسمح له أن يشيع ويعرف ، وهو راض عنه ، مطمئن إلى نشره وإعلانه .

وعلى هذا يكون الإنتاج الأدبي ظاهرة شعورية أهم ما فيها عمليات عقلية مشتركة متعاونة يذكرون منها :

١ — الادراك الحسى « Perception » أى فهم الأشياء وتعقلها بوساطة الحواس . ويساعد الانتباه إلى الشيء المحس على وضوح الادراك الحسى كما يساعد على ذلك أيضاً سلامة هذه الحواس[1].

ويعتمد الانتاج الأدبي فى دقته ووضوحه فى بعض نواحيه على الادراك الحسى . كما يعتمد فى تنوعه أيضاً على كل الحواس التى تحمل المعلومات إلى العقل .

---

(١) دراسات فى علم النفس الأدبي / ٣١ .

٢ — التصور « Imagery[(١)] » وهو استحضار صور المدركات الحسية عند غيبتها ويغلب أن تكون أقل وضوحاً منها ، ويستعين الأديب بهذه العملية العقلية إذا غابت الأشياء المحسوسة عن حواسه ، أو فقد هذه الحواس . وأمثلة هذا كثيرة جداً . وربما كان استحضار ما أدركه البصر أظهر من غيره .

٣ — التخيل[(٢)] Imagination : وقد يستحضر الذهن صوراً مؤلفة من مدركات حسية أو غير حسية لم يسبق إدراكها على الهيئة التى ألفها الذهن منها . فأعلام الياقوت على رماح الزبرجد فى بيتى الشاعر العربى :

وكأنَّ مُحْمَرَّ الشقيق إذا تصوَّبَ أو تصعَّدْ
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْ ن على رماحٍ من زَبَرْجَد

صور ذهنية متخيلة . وأساس هذه العملية العقلية هو التصور والادراك الحسى غالباً .

ولهذا التخيل آثار عظيمة فى الانتاج الأدبى . فهو يعين على إبداع قصص خيالية وتشبيهات بديعة مؤثرة ، وعمل استعارات لطيفة . بل إنه عون المؤلفين للمسرح ، وعدة الأدباء الذين يتخيلون غايات سامية ، ويرمون إلى أخلاق مثالية . كما يعين العباقرة على اختراع مستحدثاتهم فى الفن والعلم .

٤ — تداعى المعانى :[(٣)] Association of Ideas ويقصد بها توارد هذه المعانى على الذهن واحدا بعد الآخر لعلاقات بينها . فيستدعى المعنى الذى فى الشعور ، ما يلائمه من المعانى الموجودة فى حاشية الشعور أو شبه الشعور .

وله أثر عظيم فى الأدب . فإنه يُعَيِّنُ الأفكار التى تتوارد على خاطر الأديب ويحدد صور الأسلوب . وعليه معول كبير فى التشبيه والاستعارة والطباق والمقابلة ومراعاة النظير ، وأبواب أخرى من أبواب البلاغة .

ولا شك أن تداعى المعانى يتأثر بتكوين الأدباء السابق أيضاً . لهذا كانت المعانى التى تتوارد على أذهانهم مختلفة باختلاف ثقافتهم وعملهم . وكذلك التخيل

---

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى /٣١

(٢) نفسه ٣٣ — ٣٨ .

(٣) نفسه ٣٩ — ٤٧

فإنه مقيد إلى حد كبير بقيود من الثقافة والبيئة والزمن . وانظر قصائد الشعراء كشوقى وإسماعيل صبرى وولى الدين يكن وغيرهم فى معارضتهم لقصيدة الحصرى « ياليل الصب » تجد اختلاف المعانى التى استدعاها موضوع القول ، مع خضوعهم إلى حد ما لسلطان الحصرى الضرير ، وسلطان عصرهم أيضاً .

٥ — التعليل [1] Reasoning : وهو إدراك السبب حقيقة أو ادعاء ، والطريف منه فى الأدب هو ما يسمى حسن التعليل . وهو أن يُدَّعَى لوصف علة مناسبة باعتبار لطيف مشتمل على دقة النظر [2] . ويشترط فى العلة أن تكون ادعائية لتوقظ بغرابتها خيال السامع أو القارىء وتدخل السرور إلى نفسه . ويبدو من تعريفه أنه ذاتى يرجع فيه الأديب إلى ذوقه ووجدانه ، ويعتمد على تصوراته وعاطفته ، وإن لم يستغن عن الكسب الثقافى ، وأثر البيئة والعصر .

هذه العمليات العقلية الشعورية [3] ذات أثر كبير فى الإبداع الأدبى . بل أنه من الممكن العثور على مظاهر الشعور فى أكثر أنواع هذا الانتاج .

ويلاحظ أن كثيراً من الأفكار والتجارب العقلية التى تشغل الإنسان ويحس بها فى يقظته إما أن تكون موضع اهتمامه فيقال عنها إنها تحتل بؤرة الشعور ، أو تقل عنايته بها ولكن يسهل عليه تذكرها واستعادتها إذا أراد فيقال عنها إنها تحتل شبه الشعور أو حاشية الشعور . ومن هذه المنطقة يستمد الأديب كثيراً من خواطره وأفكاره بوسائل التذكر والانتباه وغيرها .

ولو أننا أخذنا بيتاً لشوقى وهو :

ولقد تمر على الغدير تخاله ... والنبتَ مرآةً زهتْ بإطارِ

لوجدنا فيه من مظاهر العمليات العقلية والشعورية : ، الإدراك الحسى وهو

---

(١) نفسه / ٤٩ (٢) السعد على التلخيص ٣/٢

(٣) بعض هذه العمليات يمر بسرعة غريبة ، قد لا يتبينها الإنسان ، وبعضها قد يحدث بحكم العادة ، وبعضها قد يكون لا شعوريا .

معرفة شوقى بالغدير كما هو ، والنبت الذى على حافاته ، وقد انتقل إلى مرحلة أخرى هى مرحلة التصور بعد أن غاب عنه منظر الغدير والنبت ، ثم انتقل إلى مرحلة ثالثة هى مرحلة التخيل البادى فى التشبيه وهذه المرحلة اعتمدت على منطقة شبه الشعور فاستدعت منها المرآة والإطار ليصور الغدير والنبت بصورة جميلة تشتمل على الصفاء والسكون والإحاطة ، وهذا « الاستدعاء » اعتمد على قانون تداعى المعانى فى التشابه ، أو على غيره من قوانين التداعى المعروفة منذ عهد أرسطو[1] .

أما التعليل فله صور متعددة فى الأدب وكذلك حسن التعليل أيضاً . وانظر إلى قول الشاعر :

فإن تَـفُقِ الأنامَ وأنت منهم　　　فإن المسكَ بعضُ دم الغزال

تجد تعليلا وحسن تعليل أيضاً . فإن الشاعر أدرك الطرفين إدراكا حسياً وعقليا ، ثم ربط بينهما فى ذهنه . فرأى أن كلا منهما يمتاز على جنسه مع أنه منه. فأراد أن يبعد الغرابة أو يعلل للتفوق لها تعليلا حسناً . فكان التشبيه وسيلته إلى ذلك ، وانظر إلى قول المتنبى .

ما به قَتْلُ أعاديه ولكن　　　يتقى إخلافَ ما ترجو الذئابُ

فإن التعليل غير حقيقى إذ أنه يجعل قتل الأعادى ناشئا عن خوف سيف الدولة أن يخيب رجاء الذئاب . فهو لا يقتل الأعداء رغبة فى قتلهم . ولكن لكى يقدم للذئاب ما ترجوه من طعام على يديه .

(ب) الإنتاج الأدبى ظاهرة لا شعورية :

قد نتتبع الإنتاج الأدبى ونصل إلى أن كثيراً منه إنتاج عقلى شعورى نشأ عن إرادة واختيار . ولكن هناك من الإنتاج الأدبى نوعا لا يتحقق فيه هذا الاختيار، ولا يكون لصاحبه أى إدراك له ولا معرفة بتطوره وتكوينه . ويسميه علماء النفس إنتاجا لا شعوريا ، لأنه تكون فى اللاشعور The Unconscious

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى /٣٩

أو العقل الباطن كما يسمى أحياناً . وكأن الحياة النفسية ثلاث طبقات بعضها فوق بعض[1] :

١ — الطبقه العليا وهى الشعور The Consciousnes : وفيها الخواطر والآراء والوجدانات وغيرها ، وهى التى يكون الإنسان متفطنا إليها ويوجه إليها انتباهه عند ما يفكر تفكيراً باطنيا ، وهذه تبعثها المؤثرات الواردة بطريق الحواس المختلفة أو تبعثها ذكريات باطنية سابقة .

٢ — الطبقة الثانية وهى شبه الشعور Sub consciousness وفيها الأعمال الشبيهة بالشعورية وهى الأعمال العادية والآلية التى لا تستلزم من المرء انتباها وحصر فكر ، ولكنه يستطيع تذكرها بالطرق العادية .

٣ — الطبقة الأخيرة هى اللاشعور أو العقل الباطن : وهى المنطقة العقلية التى تدخر فيها بعض تجارب الماضى العقلية . وتمتاز بأنها كانت مرة مؤلمة ، إذ أن معظمها رغبات لم تتحقق ، أو مخاوف هزت كيان النفس وزلزلت أركانها ، أو آمال وأمانى لم يسمح لها نظام المجتمع وقيود الحياة الاجتماعية بالتحقق ، فانحدرت إلى أعماق النفس ، ولم يعد من الممكن استدعاؤها إلى حظيرة الشعور إلا بوسائل غير عادية وبصور رمزية فى بعض الأحيان ، كما يحدث فى أحلام النوم ، وعند التنويم المغناطيسى والتحليل النفسانى ، وعند الغيبوبة أو الذهول ، وفى حالات انقسام الشخصية ، والهوس والخبل والجنون والمرض والاضطرابات العصبية ، ففى هذه الحالات الشاذة تخرج الأفكار الدفينة ، والرغبات المكبوتة إلى حظيرة الشعور وتنحل العقد النفسية ، ومن هذا القبيل ما يسمى « بالهاتف النفسى » الذى يخاطب الشعور خطابا يترتب عليه حل بعض ما كان قد استعصى عليه حله من مشكلات . ولست أشك فى أن شياطين الشعراء الذين تتحدث عنهم الأساطير الأدبية ليسوا إلا شخصيات منتحلة من نسج الخيال المستمد من العقل الباطن[2] .

---

(١) أصول علم النفس /٥٥ (٢) دراسات فى علم النفس الأدبى /٣٠ .

« وكثيراً ما يسمع المرء أصواتاً وألفاظاً ، ويرى صوراً وأشكالا لا وجود لها فى الواقع ... وإنما ذلك تأثير أوهامه وتفكيره وأمانيه التى يود تحقيقها وهو لا يستطيع . »[1] وسمى ذلك بالهاتف « The Vocation » . وأرجع المحللون النفسيون وجوده إلى اللاشعور فجعلوه ينسج من الخيال شخصيات وأصواتاً تتراءى وتتحدث . وما أقرب تعليلهم مما قاله النظام[2] فى تفسير ما يراه الأعراب فى البادية من أشباح تظهر لهم وأصوات تخاطبهم .

هذا اللاشعور معروف من قديم ، وآثاره الأدبية معروفة من آماد بعيدة ولكن اهتمام فرويد وتلاميذه أضفى عليه ثوباً من المكانة والتقدير فى الحياة كلها ، وقد عرض كثير من القائلين به إلى إرجاع أعمال الإنسان وسلوكه إليه .

يقول جونز Ernest Jones : إن فكرة الاندفاع إلى العمل بحافز لا شعورى يجهله صاحبه معروفة من قديم ، فأغلب فطاحل الشعراء يعلمون أن أروع ما كتبوه لم يأت عن صنعة متعمدة ، بل أتاهم على أجنحة ملاك أو روح تهفو عليهم من حيث لا يعلمون ، أو يحسون أنه آت من أعماق مجهولة فى نفوسهم حتى أن الأغريق كانوا يظنون أن الشعراء تحت تأثير أرواح تغشاهم[3] .

ويقول سيرل برت (Cyril Burt) : لن نتردد فى أن نقبل النتيجة الرئيسية التى وصل إليها التحليل النفسى ، وهى أن خير القصائد ، وخير الحكايات إنما هو إنتاج العقل الباطن[4] . لكن كيف يكون ذلك ؟ .

يرى فرويد[5] أن التسامى أو « الإعلاء » Sublimation هو الأساس الذى تعتمد عليه العمليات المشتركة فى الابداع الفنى ، وهو العملية المؤدية مباشرة إلى هذا الإبداع[6] . وهذا التسامى يرجع إلى استعداد عضوى خاص يشبه الملكة . وعمله عند فرويد أن يحول الطاقة النفسية من الأهداف الفطرية للغريزة الجنسية

(١) أصول علم النفس ١/٧٧ قنديل — (٢) انظر الحيوان ٦/٢٤٨ — ٢٥١
(٣) كيف يعمل العقل ١/٥٤ — (٤) نفسه ٢/٢٢٠
(٥) الأسس النفسية ١٨٣ — (٦) نفسه ٧٦

إلى أهداف أرفع قيمة من الناحية الاجتماعية ، عندما يحدث الصراع بين عقدة أوديب Odipus Complex والواقع الخارجي ، أو قوانين المجتمع .

ويرى سيرل برت Cyril Burt أن العمل الإنشائي الذي يقوم به الفنان يكون في الغالب نتيجة عملية لا شعورية[١] ، وأن الفن ينشأ عن وجدان زائد لم يجد إشباعا كافيـــاً في عالم الواقع ، فينصرف هذا الوجدان إلى ناحية التعبير الفني لتخفيف الضغط الانفعالي وضبط الانفعالات وتنظيمها[٢] .

والذي قاله فرويد وكثير من تلاميذه مثل برت يشمل الانتاج الأدبي وغيره . ولـكن لا نرى في قولهم ما يعين السبب في تنوع الانتاج الفني إلا إذا رجعنا إلى الوراثة والفطرة ، لأن « التسامي » يستند إلى استعداد فطري خاص .

وكذلك تلميذه أدلر[٣] الذي أرجع الأعمال الإنسانية إلى غريزة حب الظهور Self-Display لم يبين كيف تحدث الآثار الأدبية ولا البواعث المباشرة لإثارة هذه الغريزة ، وإن كنا لا ننـكر أن بعض الآثار الأدبية ينم عن هذه الغريزة ، ويبدو عليه بكل وضوح أنه أثر من آثارها ، كالأدب الذي يتقدم به أصحابه في مباريات أدبية .

الأحـلام Dreams وإنشاء الأدب فيها :

ظاهرة الأحلام قديمة ، ووصول الإنسان فيها إلى حل بعض مشاكله ، أو القيام بابداع فيها ، أو الانتقال من أقصى البلاد إلى أقصاها ، أو الارتفاع من وضيع المراتب إلى أعلاها ، أو الظفر بالآمال والحصول على الرغبات التي يتمناها ولا تحدث في الواقع . كل هذه وغيرها أمور حدثت ولا تزال تحدث للناس جميعا ، سواء في ذلك العلماء وأهل الفن وعامة الناس .

وقد درسها المحدثون من العلماء ، ولهم فيها آراء ، وحاولوا إرجاع الإنتاج الأدبي فيها إلى آرائهم هذه . وأشهرهم « فرويد » الذي ألف فيها كتاباً خاصا

(١) كيف يعمل العقل ٢١٨ (٢) نفسه ٢١٦و٢١٧
(٣) دراسات في علم النفس الأدبي / ٢٤ — ٢٧

يسمى « تأويل الأحلام » Interpretation of Dreams . وقد أرجعها إلى الرغبات المكبوتة التي لم تتحقق في اليقظة[1] . ويقولون إن اللاشعور لا ينام وإن النفس تكون حرة طليقة في النوم ، فتحاول تحقيق الآمال والرغبات والميول التي لم تستطع تحقيقها في اليقظة .

أما حل المسائل والإنتاج الأدبي والفني في النوم ، فيعلله برجسون تعليلا شبيها بما تقدم إذ يقرر أن العقل كان مشغولا بمضمون الأحلام قبل النوم . « ولما نام انتظمت أفكاره ، فظهر الحل المطلوب ، وكأنه الهام انبثق في نفس النائم الحالم ، فالمفاجأة في هذا الحلم خداع ، معناه أنه لا يشعر بهذه الأفكار ، أو المقدمات التي هربت من سجن اللاوعي أثناء النوم ، وظهرت قوية فوق لجة الأحلام بغتة ، فتوهمها صاحبها وحيا والهاما[2] » .

وقد نسب كثير من الشعراء بعض إنتاجهم الأدبي إلى هذه الأحلام مثل كولردج Coleridge الذي عد قصيدته قبلاى خان Kubla Khan وحيا في منامه . لكن علماء النفس يشكون فيما يقوله الشعراء ولا يعتمدونه وحده ، لأن أهم مزية للشاعر هي الخيال . وقد لا يكون سرد حكمهم دقيقا . لأن العقل الواعي الرقيب على اللاشعور يمنع سرد أشياء لا يرضى بها وإن حدثت في المنام ، وهو يتدخل فيربط بين اللحظات المنفصلة في الحلم ، كما يكمل النقص ويملأ الفجوات . ومن العسير على أحب الناس للحقيقة أن يقص حلما دون أن يبالغ في روايته ، أو يسرف في زخرفته وتنميقه[3] . أو يتأثر فيه بعقله الواعي .

أحلام اليقظة : Day Dreams

هي الحالة التي يستسلم فيها الإنسان لخياله فيصبح كالنائم وليس نائما ، وكالغافل وهو متنبه ، وسميت أحلاما لأنها في الغالب ليست وصفاً للحقيقة[4] . وهذا الخيال عنصر أساسي في أحلام اليقظة ، وما أحراه إذاً أن ينتج آثاراً أدبية من الشعر

---

(١) الأحلام ٧٥ / ٧٦ الدكتور توفيق الطويل . انظر : أصول علم النفس ٧٥ — ٧٧

(٢) نفسه ١٥٠ (٣) الأحلام / ٢٣٤ (٤) في علم النفس ٢ / ٢٢٥

والنثر ، أو مادة لتلك الآثار ، فيفكر الحالم ، ويمزج العمل بحلم اليقظة ، فيسد الفجوات فى القصة أو المسرحية بعمله الفنى ، بعد أن أمدته أحلام اليقظة بالمادة الخام . ويكفى أن نشير إلى أن « حياة سندرلا » ليست إلا موضوعا هاما من موضوعات حلم اليقظة فى كل زمان ومكان[٣] . وهذه الأحلام تتميز بأنها تدور حول الذات ، وأنها شعورية غالبا وإن كان بعض عناصرها ليس كذلك . وهى عامل من العوامل المؤدية إلى الإنتاج الأدبى . وليست غريبة على ما تقدم ، فإن بعض الغرائز قد يشترك فيها كحب الظهور؛ أو بعض العقد كعقدة النقص. أو بعض الميول كالمنافسة . كما أنها تستعين بالتداعى Association على إتمام الخيال وتوجيهه. وللتربية أثر فى توجيه هذه الأحلام كما للظروف الخاصة أثرها فى إنتاجها وتنوعها .

توارد الخواطر : (Telepathy)

وتسمى التخاطر أيضاً . ويراد بها أن تمر فكرة واحدة أو معنى واحد على خاطرين فى وقت واحد، ويعبران عنها تعبيرا واحداً أو متشابها . وقد عنى به المحدثون من علماء النفس فلم ينكروه ، ولكنهم اختلفوا فى تعليله فقال بعضهم إنه مصادفة، ولكن هذا التعليل لا يلقى قبولا لكثرة ما يحدث منه مع تباعد الأماكن . ويكثر أن يحدث هذا بين التوائم فيقال إنه نتيجة الاستعداد الوراثى والتماثل فى التركيب . ولهذا التعليل شىء من الوجاهة للتماثل الجسمى والعقلى بين التوائم أو الأقارب . ولكن الغريب فى الأمر هو حدوثه بين أشخاص لا تربطهم مثل هذه الرابطة . ولعل أحدث اختراع فى تعليل هذه الظاهرة هو ما قرره سير وليم كروكس من أن الفكر يحدث ذبذبة كأجهزة الإرسال اللاسلكية ، وأن أى مخ مستقبل قد يكون مفتوحا على مخ المرسل فيتلقى هذه الذبذبة على نحو ما يحدث فى الراديو[٢] . وهى تعليلات كما ترى ظنية ، وإن وجدت الظاهرة نفسها وسماها أدباؤنا القدماء وحدة الشيطان ، والمحدثون توارد الخواطر .

الإلهـــام Inspiration

على أنه مازال هناك من يرجع الفن إلى الإلهام خصوصاً عملية الإبداع الفنى ،

---

(١) أحلام اليقظة / ١١ (٢) العقل الباطن تأليف سادلر ترجمة عباس حافظ

ويمدها وحيا لاعمل للفنان فيه إلا التلقى والتعبير . وقد التجأ إليه القدماء فى تفسير هذه الظاهرة .

ويعرفه بولدوين J. M. Baldwin بأنه إشراق الذهن أو تنبهه الذى ينظر إليه كأنما هو آت مما وراء الطبيعة . ويقول عنه دلاس كنمار Dallas Kenmare إنه « الطريق الغريب الذى تنصب منه الأفكار الجديدة ، والمكتشفات العجيبة على العبقرى ، من حين إلى حين ، نابعة من معين مجهول لا يعرفه هو نفسه ، ولا يستطيع العقل الشعورى أن يدركه[1] . ويشير إلى أن وليم بليك W. Blake كان يكتب من الشعر ما يملى عليه[2] . وكذلك كانت جورج صاند George Ssnd تحس بهاتفها[3] Her Vocation ، وسنرى كثيرا من شعرائنا يتحدثون عن هذا الإلهام فيسمونه شياطين أو هواتف أو أصحابا من الجن ، لأنهم لم يكونوا يستطيعون السيطرة على أدبهم من حيث مصدره وأوقاته ومعانيه، سيطرة شعورية دائمة .

ولم يسلم علماء النفس بالإلهام تسليما كاملا، وإنما حاولوا فهمه وتفسيره، تقول داونى Downey[4] فى الفصل الذى كتبته عن تحليل الشاعر لنفسه إن علماء النفس لا يعتمدون على الشعراء فى تحليلهم لأنفسهم ، فان أعظم مواهب الشاعر وهى الخيال قد تجره إلى أن يروى أشياء ، ويدعى مواقف تجعل دراسته لنفسه عديمة القيمة ...... ولكن من جهة أخرى لهذه المعلومات أهمية فى علم النفس لأنها من مصدرها الأول . ويقرر دلاكروا Delacroix أن الفكرة الشائعة عن إلهام مفاجىء يعترى الشاعر بغير إعداد سابق ، خطأ فى صميمها[5] .

ولو كان علماء النفس يؤمنون بالإلهام المفاجىء الذى لم يسبقه إعداد الأديب ولم يساهم فيه علم ولا مران ولا تفكير ، لما اتعبوا أنفسهم فى الكشف عن عمليات الإبداع الفنى ، ولما اهتموا بالصلة بينه وبين البيئة والثقافة وخصائص الأديب النفسية ، وميوله الفطرية ، وأخلاقه المكتسبة ، وذكائه الموروث ،

(١) Stolen Fire P. 1.
(٢) Stolen Fire P. 16
(٣) Stolen Fire P. 110
(٤) Creative Imagination, P. 172
(٥) الأسس النفسية للابداع الفنى ص ٨٤

وغير ذلك من مقوماته التى تجعل منه عبقريا فنيا يختلف عن سواه من العباقرة .

وعملية الابداع عند أصحاب « علم النفس التكاملى » تنشأ من حدوث « صدع فى النحن » أى إحساس الأديب أنه منفصل عن الجماعة فيحاول أن يعيد الالتئام بينه وبين الجماعة التى هو منها فينشىء أدبه ليستعيد مركزه فيها وأما اختلاف الوسائل إلى هذا الالتئام فترجع إلى أسباب ، أهمها فى حالة الشاعر استعداده الفطرى(١) .

ومجمل هذا التمهيد : أن الانتاج الادبى يرجع إلى أصول بحثها العلماء وخلاصتها :

١ — من حيث التكوين : لابد للأديب من مواهب فنية ، واستعدادات وذكاء يستعين بها كلها على أن يكون أديبا . ثم يقوى هذه المواهب والاستعدادات بالكسب والمران . فتتأثر مواهبه واستعداداته بنوع الكسب وحالة المران . أى أن الأديب شخص موهوب يستعين بالكسب .

٢— ومن حيث عملية الابداع : قال بعض العلماء أنها ظاهرة شعورية يقوم بها الأديب وهو تام الشعور بها ، ومسيطر عليها فى مراحلها المختلفة من التفكير فيها والاستجابة للباعث عليها إلى أن يفرغ منها ، وهذا رأى إدجار الن بو E. Allan Poe الأديب الأمريكى (١٨٠٩—١٨٤٩) .

ولكن هذا التفسير لا يكفى ، لأن بعض الإنتاج الأدبى كان فى النوم ، وكان بعضه عند فقد الشعور ، وكان تلقائياً لا إراديا . فأرجعه العلماء المهتمون باللاشعور إلى العقل الباطن ، من حيث منبع الخيال والمعانى التى يشتمل عليها ، بل إنهم بالغوا فجعلوا عملية الإبداع نفسها عملية لاشعورية .

والحق أن عملية الإبداع الفنى قد تكون هذا ، وقد تكون ذاك . وقد يشترك فيها الشعور واللاشعور ، حتى ما يحدث منها فى النوم . وما يلابس هذا الإنتاج الأدبى

(١) على أساس هذا المذهب ظهر بحث : الأسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر خاصة سنة ١٩٥١

من عمليات غريبة كالهواتف وشياطين الشعراء والإلهام ، لم يخل من تفسير نفسى أيضاً أشرنا إليه فيما تقدم .

وسوف نستعين بهذه الدراسات النفسية على توضيح شياطين الشعراء وما يتصل بها من شياطين الكهان ، والهواتف ، والأشباح التى تتراءى فى الفلوات فتوحى إلى الشعراء أوتحاورهم أو تتحدث عن أدبهم . وذلك فى أثناء هذه الدراسة التاريخية النقدية المنظمة التى نرجو أن تكون وافية جامعة للأحوال المختلفة ، والصور التى حدثنا بها العرب عن « شياطين الشعراء » فى خمسة قرون تقريباً ، تبدأ قبل الإسلام بحوالى قرن ، وتنتهى بعده بأكثر من أربعمائة عام .

البَابُ الأوّل

فى عصر الأساطير

الفصل الأول

الأســـاطير

١ — وردت هذه الكلمة فى المعاجم[1] فى مادة « سطر » ، وفسرت بأنها الأباطيل والأكاذيب ، والأحاديث لانظام لهـا ، والأقاويل المنمقة المزخرفة وصيغتها صيغة منتهى الجموع ، وسطرّ تسطيرا : ألف الأكاذيب ، أو جاء بأحاديث تشبه الباطل ، ويقال : سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها ، وتلك الأقاويل الأساطير . واختلف فى مفردها ، فهو أسطر وأسْطار وسطور ، ومفرد هذه كلها « السطر » ، وهو الصف من الشىء ، كالكتاب والشجر والنخيل وغيره . وقيل إنها جمع إِسطير وإِسطار بكسر الهمزة وأسطور بضمها ، وتزاد الهاء فى كل . وأشهر المفردات استعمالا هو أسطورة .

وجاءت كلمة « أساطير الأولين » فى القرآن فى تسع آيات[2] : جميعها مكية حتى آية الأنفال مع أن السورة نفسها مدنية[3] وفى هذا دليل على أن الكلمة كانت معروفة عند عرب الجاهلية من أهل مكة ، وكان لها مدلول خاص ، ومعنى مفهوم ، فلما أرادوا تكذيب محمد فيما جاء به قالوا « أساطير الأولين » .

وقد يكون غير أهل مكة على علم بها ، وهو الراجح ، ولكن أسباب النزول ، وكون الآيات مكية تقف بنـا عند أهل مكة ، ولا تنفى معرفة غيرهم لها . والتحدث بها .

---

(١) تاج العروس ، القاموس ، اللسان ، أقرب الموارد . محيط المحيط : المصباح المنير . مختار الصحاح .

(٢) فى الأنعام (آية ٢٥) والأنفال (٣١) والنحل (٢٤) والمؤمنون (٣) والفرقان (٥) والنمل (٦٨) والأحقاف (١٧) والقلم (١٥) والمطففين (١٣) .

(٣) المصحف الشريف — المطبعة الأميرية سنة ١٣٤٢ هـ .

أما المعانى التى أرادها المكذبون من هذه الكلمة « أساطير الأولين » فيفهم من سياق الآيات أنها البعث أحيانا ، وذلك صريح فى سورة « المؤمنون » والنمل ، ومحتمل فى النحل والاحقاف والمطففين ، لوقوعها فى حيز الكلام عن البعث ، ويريدون بكونه « أساطير الأولين » أنه شىء وعد الرسل به قومهم ولم يتحقق ، أو أنه شبيه بأساطير الأولين فى أنه كذب وباطل لا أصل له .

وبقية الآيات ، ومعها آيات النحل والأحقاف والمطففين ، تحتمل أن يراد بالكلمة القرآن كله ، ما نزل منه وما سينزل ، وذلك حملا لما لم يسمعوا على ما سمعوا ، وحكما على الكل بما نسبوه إلى البعض لتشابههما فى نظرهم . أو يراد بها القصص التى جاء بها القرآن وفيها أخبار الأولين من المرسلين من عند الله ، أو أنها تلفيق واختراع وباطل مثل تلك الأخبار .

٣ــ وتزيد كتب التفسير الأمر إيضاحا : فأساطير الأولين هى : ما سطره الأولون ، قال ابن عباس : معناه أحاديث الأولين التى كانوا يسطرونها أى يكتبونها . أما قول من فسر الأساطير بالترهات فهو معنى وليس مفسرا ، ولما كانت أساطير الأولين مثل حديث رستم واسفنديار ، كلاما لافائدة فيه ، لاجرم فسرت أساطير الأولين بالترهات[1] .

ويغلب على كتب التفسير أن تشير إلى حوادث خاصه تجعلها سبب النزول كلما أمكن ذلك ، وقائل هذا القول فى أكثر الحالات هو النضر بن الحارث ، فقد أشير إليه فى تفسير آية الأنعام والأنفال والفرقان والمطففين ، وأشير إليه فى « لقمان » على أنه هو الذى كان « يشترى لهوَ الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » : « اشترى كتب الأعاجم ، وكان يحدث بها قريشا ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود . فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة[2] .

---

(١) الفخر الرازى والنيسابورى آية الانعام .

(٢) البيضاوى تفسير الآية (٦) سورة لقمان .

بل إن الفخر الرازى[١] يجعل هذا النضر يخرج إلى الحيرة تاجرا ، ويشترى أحاديث « كليلة ودمنة » . وكان يقعد مع المستهزئين والمقتسمين — أى الذين يجعلون القرآن أقساما كالسحر والشعر الخ — فيقرأ عليهم أساطير الأولين ويزعم أنها مثل قصص الأولين التى يزعم محمد أنه أوحى بها إليه .

بل قالوا فى أساطير الأولين إن محمدا اكتتبها ، أى كتبها له قوم من أهل الكتاب، وعينوهم بأسمائهم[٢] كما جاء فى تفسير آية الفرقان[٣] وآية النحل[٤] .

وظاهر من كل ما ورد فى كتب التفسير وفى سياق الآيات الكريمة أنهم أرادوا بأساير الأولين : الأكاذيب والأباطيل . فقد كان موقف القائلين موقف عناد وإنكار وتكذيب ينصب على القرآن والبعث وأخبار السابقين من حيث نسبتها إلى الله ، أو تكذيب لها فى ذاتها . وبعبارة أخرى : إنهم أطلقوا الأساطير على القصص القديمة دينية وغير دينية ، ومكتوبة ومروية ، كما أرادوا بها العقائد التى أراد القرآن حملهم عليها وأخصها البعث . وكما أرادوا بها الأخبار الحقة فى ذاتها المكذوبة فى نسبتها ، والأخبار الخيالية المخترعة أيضا .

دراسة الأساطير علميا :

١ — ودراسة الأساطير علميا تعد من المجهودات التى بذلها العلماء الغربيون من أيام اليونان[٥] . وظلت هذه المجهودات تبذل إلى الآن للبحث عن أصل هذه الأساطير وغايتها ، ومضمونها ، والمؤثرات فيها ، وصلتها بالدين والأدب ، والدين والأجناس ، ومن أهم فروع هذا العلم (Mythology) : هو ما يسمى علم الأساطير المقارن Comparative Mythology وعلم الأساطير العام General Myth ، أما الأسطورة التى هى موضوع هذه الدراسات فتسمى بالانجليزية Myth ،

---

(١) تفسير الآية (٣١) من الانفال

(٢) البيضاوى تفسير الآية وفى الكشاف : قال النضر إنهم : عداس مولى حويطب ابن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمى وأبو فكيهة الرومى . (٣) آية ٥ (٤) آية ١٠٣

(٥) Chamber's Ensyc, Myth

وهى مأخوذه من أصل يونانى كالكلمة السابقة ومستعملة فى لغات كثيرة بصور لا تختلف كثيرا عما تقدم .

٢ — تعريف الاسطورة :

ليس هناك تعريف متفق عليه عند كل العلماء وفى كل العصور ، ولكن يستفاد من أقوالهم أنها قصص شعبية فى الغالب ، تدور حول خلق العالم وأخبار الآلهة والأبطال كما رآها الإنسان البدائى(١) . فهى تشمل شيئين : هذه القصص ، ثم الآراء الدائرة حول ما سبق .

ويرى روجيه باستيد (Roget Bastid) أنها مجموعة كاملة من التصورات الخاصة بالآلهة والعالم ، والعلاقة بين الإنسانية والأمور الخارقة للطبيعة ، وأن هذه التصورات تصل إلى درجة العقائد(٢) .

وكلمة ميثولوجى Mythology كما تعنى « علم الأساطير » تعنى أيضا مجموعة الأساطير التى تدور فى أمة من الأمم ، ويتناقلها الخلف عن السلف .

نشأتها وتفسيرها :

١ — وتنشأ هذه الأساطير مع الأمم . أما سبب نشأتها ، فقد اختلف فيه العلماء . وأشهر الآراء فيها أنها تفسير لمظاهر الطبيعة والمشكلات التى تواجه الإنسان الأول ويحاول عقله أن يجد لها حلا ، كالبحث فى أصل العالم ، ونظام النجوم ، وحركات الكواكب ، وألوان الأشجار والأزهار ، والطير والإنسان وأصل هذا وذاك من قوانين العادات وآداب السلوك . فالجبال والجزر نشأت من الأحجار الكبيرة التى كان يقذف بها فى السماء قوم من الجبابرة فى حربهم مع جوبيتر Jupiter كبير الآلهة . وكانت إذا سقطت على الأرض كونت جبالا ، وإذا سقطت فى البحار صارت جزائر(٣) . وطوق الحمامة كان جزاء لها على طاعتها لسيدنا نوح حين دلته على الأماكن التى انحسر عنها الماء لترسو سفينته عليها(٤)

(١) Ency, Britannica, Mythology, Ency American, Mythology

(٢) مبادىء علم الاجتماع الدينى ٧٤ .

(٣) على هامش التاريخ المصرى القديم ٢/٢٠ هامش . (٤) الحيوان ٣/١١٥، ٢/٣٢١

٢ — على أن بعض علماء الأساطير يرونها قصصا رمزية أنشئت لتحوى آراء خاصة يراد حمل الناس عليها من طريق محبوب هو طريق القصة . وقال بهذا الرأى فلاسفة اليونان ، وظل سائداً زمنا طويلا[١] . وكان لهم بعض العذر ، فكثير من الأساطير يرمز إلى معنى وراءه، ومن ذلك أسطورة إيزيس Isi وأوزريس Osiris وست Set ، ومن العقائد المستورة فى قصتهم أن « أوزوريس » هو النيل معطى الخصب ، و« إيزيس زوجته هى أرض مصر و « ست » هو البحر الأبيض الذى ينصب فيه ماء النيل فيتبدد ويذهب هباء[٢] .

٣ — ولكن ذلك ليس صحيحاً فى جميع الحالات ، فهناك أساطير لا تخفى وراءها عقائد ولا معانى خفية ، كقصص البطولة التى يجمح فيها الخيال وينسب إلى الآلهة والأبطال أعمالا عظيمة . فإن درع أخيل يوصف فى الإلياذة وصفاً أسطوريا[٣] ، وشجاعة صاحبه أيضا ، وليس وراء ذلك عقائد . والأساطير التى تتحدث عن شجاعة « هركيول Hercule » لا تخفى وراءها عقائد . والقصص التى تفسر مظاهر الطبيعة لا تعتبر رمزاً فى كل حالاتها ، فالسحاب يأتى عائه من ماء البحر على حسب قانون من قوانين الطبيعة ، ولكن أبا ذؤيب الهُذَلى يرى السحاب يشرب كما تشرب الإبل ثم يمشى فى السماء ؛ يقول :

شَرِبْنَ بماءِ البحرِ ثم تَرَفَّعَتْ متى لُجَجٍ خُضرٍ لهن نَئِيجُ[٤]

وليس فى رأى أبى ذؤيب رمز لأنه كان عقيدة آمنوا بها واعتقدوها .

ولا يمنع هذا أن تكون هناك أساطير رمزية من أساطير الشعوب ، أو من وضع الفلاسفة . وقد كان أفلاطون يضع الأساطير التى يضمنها آراءه الفلسفية[٥]

وأسطورة برومثيوس Promethius تخفى وراءها تطلع العقل الدائم إلى

---

(١) Chamber's Mythology

(٢) على هامش التاريخ المصرى القديم ٢/٤٣ — ٤٥ .

(٣) The Outline of Literature p. 47

(٤) مغنى اللبيب ٢/٢١ . ديوان الهذليين ج ١ . (٥) النفس والعقل ٣٧ .

المعرفة وإن لاقى الإنسان فى سبيلها الأهوال ، كما تمثل الرغبة فى خير الإنسانية[١]

٤ — على أن بعض الباحثين اليونانيين وهو « يوهيمر Euhemerus » يرى أن الأساطير تنشأ من التاريخ الحقيق ، وأن آلهة هذه الأساطير أبطال رفعهم الناس وطول الزمن إلى مرتبة الألوهيــة . فجوبيتر Jupiter كبير الآلهة كان ملــكا لــكريت ، وحرب طروادة الأسطورية كانت حرباً بين أثينــا وإسبرطة ، وهكذا[٢] . وقد يكون ذلك صحيحاً فى بعض الحالات ، ولــكن تطبيقه على كل الأساطير متعذر : فقد يكون إيزيس وأوزريس وست من الملوك أو الشخصيات التاريخية فى مصر القديمة ، ولــكن طوق الحمامة لا علاقة له بهذا .

٥ — ويرى ريبو[٣] Ribot فى كتابه « الخيال المبدع » أن هناك نوعين من الأساطير عند البدائيين : أساطير مهمتها تفسير الظواهر التى يشهدها البدائى، وأساطير أخرى غير تفسيرية ، وتنبع الأولى من الحاجة إلى المعرفة . وتنتهى فى تطورها على مر العصور إلى الإبداع العلمى . أما النوع الثانى فيصدر عن الحاجة إلى الترف ، وينتهى فى تطوره إلى الإبداع الأدبى الحديث .

ومرجع هذين النوعين هو وجود العقل والذكاء بجانب الإحساس والعاطفة والخيال . فينشأ عن هـــــذه كلها علوم وفنون ، أى أن جذور العلم والفن موجودة منذ وجد الإنسان الأول .

وفى الحق أن إنشاء الأسطورة عمل يتطلب تعاون العقل والعاطفة والخيال « ففى الأسطورة يبذل الإنسان جميع صنوف نشاطه ، ومن ثم يستعين بذكائه الذى يحاول أن يجد تفسيراً نهائيا للأشياء ، كما يستخدم خياله وحساسيته الشاعرية ، ولــكنه يساهم أيضاً بعاطفته الدينية[٤] .

---

(١) انظر كلمة بروميثوس فى دائرة معارف Chamber's ودائرة المعارف البريطانية

(٢) Chamber's Ency. Euhemerism

(٣) الأسس الفنية للابداع الفنى ٣٨ — ٣٩ .

(٤) مبادىء علم الاجتماع الدينى ٧٧ .

تشابهها واختلافها :

١ — كان من آثار علم الأساطير المقارن وعلم الأساطير العام أن ظهرت أوجه تشابه واختلاف بين أساطير الأمم ، والقصص الشعبية عند الشعوب وهذا التشابه إن لم يكن في التفاصيل ففي الفكرة العامة . فالأساطير التي مغزاها غيرة امرأة الأب من بنت زوجها الجميلة مثل أسطورة « سندرلا Cindrella معروفة عند كثير من الأمم . والأساطير التي تعبر عن آمال الإنسان في التغلب على العقبات وتسخير الطبيعة ، موجودة في الشرق والغرب ، وقصة فشنو والنساج الهندية[1] Vishnu & TheWeaver ، فيها النسر الأسطوري Garouda الذي يركبه الاله فشنو ويتحرك به ، وألف ليلة وليلة فيها قصة حصان الأبنوس[2] الذي يركبه ابن الملك ويحرك لولب الصعود ويطير به في الهواء ، ويظل مدة كذلك قبل أن يهتدي إلى لولب النزول . ويكتبها الشاعر الإنجليزي « تشوسر Chauser » مع شيء من التعديل ، في قصته The Squire'sTale نقلا عن إسبانيا .

٢ — وقيل إن تشابه هذه الأساطير يرجع إلى محض الصدفة . ويرى درنك ووتر J. Drinkwater أن هذا الرأي سخيف[3] . وقيل إنه راجع إلى استعارة أمة من أخرى ، كما استعار اليونان أسطورة إيزيس وأوزيريس المصرية ، واقتبسها منهم الرومان[4] . وقيل إن وحدة الأصل الذي تفرعت منه بعض الأمم هو السبب في تشابه الأساطير عندها كالأمم الهندية الآرية التي كان أباؤها الآريون يسكنون مرتفعات آسيا الوسطى ، ولما هاجرت في موجات ، ونشأت منها أمم متعددة في الشرق والغرب أخذوا معهم بعض الأساطير ، فتشابهت في عمومها وإن اختلفت في تفاصيلها . ولكن هذين الرأيين الأخيرين لا يصلحان تفسيرا شاملا ، فالاستعارة إن أمكنت في بعض الحالات ، وكذلك وحدة الأصل،

---

(١) Ancient India & Indian civilisation P. 324
(٢) المجلد الثاني ٢٥٤ . (٣) The Outline of Lit. P. 28
(٤) على هامش التاريخ المصري القديم ٢/٤٨ .

فإنهما لا يصلحان عند انقطاع الصلة واختلاف الأصل . وقد عرف بعض القصص الأسطورية عند الآريين وعند غيرهم من الشعوب كالصين وهنود أمريكا[١] مع أن أصلها مختلف .

٣ — ولعل أرجح الأقوال فى عموم الأساطير أنها نتيجة تجارب عامة متشابهة ، أو كما قال عنها أندرو لانج Andrew Lang إنها إنتاج غير منقح للعقل الإنسانى المبكر ، الذى لم يكن عندئذ قد طبع بطابع الفروق الجنسية والثقافية ومثل هذه الأساطير يمكن أن تنشأ فى أى مكان . ويمكن أن تبقى فى أى مكان فى ثنايا الأدب المتحضر[٢] ويقول برنتون بمثل هذا الرأى[٣] .

أما أساطير الأمم فى الجملة والتفاصيل أو فى التفاصيل فقط . فيرجع إلى عدة عوامل منها : اختلاف الجنس والبيئة ، والانتقال فى خلال العصور ، والتأثر بعوامل الزمن ، فتصبغ الأسطورة بصبغة زمنية أو محلية كأسطورة أوزيريس[٤] وقد يكون الخلط بين أسطورتين أو أكثر سببا فى اختلاف أسطورة عن أخرى كما أن الأسطورة قد تلقى كثيرا من التغير ما دامت مروية بالمشافهة . فإذا كتبت صارت أقدر على الاحتفاظ بشكلها ، وتصبح مصدرا للعامة يروونها ويستمتعون بها ، ويتأثرون بما فيها من عقائد . ويقال عندئذ ان الأسطورة أخذت طريقها من الأعلى إلى الأسفل ، أما فى الحالة الأولى فكانت تسير من الأسفل إلى الأعلى .

عصر الأساطير :

١ — يراد بعصر الأساطير فى أمة من الأمم الزمن الذى تكون فيه الأمة بادية فى حياتها وتفكيرها ، وذلك فى أول عهدها بالوجود غالبا ، وتستمر الأمة فى هذا العصر كثيرا أو قليلا ، حتى يهيىء الله لها الخروج منه برسالة سماوية ،

(١،٢) The Outline of Lit. P. 30

(٣) Brinton. Religions of Premitive Peoples P. 6, 117.

(٤) على هامش التاريخ المصرى القديم ٢/٣٢و٣٣و٣٦و٣٨ ثم تفصيلها ٢/٣١—٦٢

كخروج العرب من عهد جاهليتهم وأساطيرهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أو برقى عقلى كخروج اليونان من عصرهم الأسطورى بتقدمهم فى العلوم والفلسفة . ويكون دفعة واحدة كالحالة الأولى ، وتدريجيا كما فى الحالة الثانية .

٢ — ولا تخرج الأمم من عهدها الأسطورى وتقطع الصلة بالقديم خروجا تاما ؛ بل تظل بقايا العهود القديمة عالقة بالناس ، يؤمن بعضهم بما فيها من آراء ، ويذكر بعضهم قصصها ، وينقد آراءها ، ويستمتع بها إذا كانت ذات قيمة أدبية أو تاريخية ، أو كان لها شأن دينى كأخبار عاد وثمود التى قال عنها العرب إنها أساطير الأولين .

يضاف إلى ذلك أن الناس ليسوا فى درجة واحدة دائما من التقدم وسلامة التفكير ، والاهتداء بهدى العلم والدين ؛ لهذا يظل بعضهم فى عصر النور ينظر إلى السماء نظرة آبائه ، ويرى فى الرعد مطاردة جمال الشتاء لجمال الصيف ، وهكذا يكون « هزيم الرعد » رغاء هذه الإبل وهديرها .

٣ — وقد يكون عصر الأساطير تاليا لعصور الهداية السماوية والرقى العقلى ، والتقدم العلمى ، فيكون نكسة تصيب الناس كما كانت العصور الوسطى فى أوربا بعد نور المسيحية ونور العلم اليونانى . وكالعصر الذى انحدرت فيه الأمم الإسلامية بعد أن ضربهم التتار ضربة قاصمة فى الشرق وأبادهم الأسبان فى الغرب ، وأظلمت ربوعهم من نور العلم رَدَحاً من الزمن .

٤ — أما عصر الأساطير المعروف عند العرب ، فهو الزمن الذى يسمى عصر الجاهلية . ويبتدئ قبل الإسلام بحوالى قرنين ، ويستمر حتى يضىء الإسلام ويخرج الناس من الظلمات إلى النـور ، وفى هذا العصر شاعت أساطير عربية متعددة النواحى ، بعضها جاء إليهم من الجاهلية الأولى ، وبعضها لم يعرف مصدره ، ونقل بعضها إليهم من الأمم المجاورة كالكلدان واليهود ؛ وبعضها دينى ، وبعضها عن الطبيعة ، وعدد منها عن أبطال ، وعدد آخر عن أماكن مقدسة ، وأخرى تاريخية تقص أخبار أمة ، أو تاريخ جيل . وسترى فى الفصول القادمة بعض هذه الأساطير .

صلة الأساطير بالأدب :

١ — والقصة نوع من الأدب له قيمته بين فنونه، والأساطير نوع من القصص غريب فى أشخاصه وحوادثه ومسرح هذه الحوادث ، فأكثره عن عالم عجيب يشوق الناس أن يعرفوا عنه كثيرا مما يشغل أذهانهم . وكانت الأساطير الشعبية الأولى صدى لهذه الرغبة ، فأعجب الناس بهذه الأساطير وشاعت بينهم ، ورواها الخلف عن السلف ، فكانت نوعاً من الأدب محبوبا تتسلى به الجماعات ، ويسمر به السامرون فى مجالسهم ، ولا يخلو الأمر من زيادة تضاف إلى القصة ، أو زينة تتحلى بها فى اللفظ أو المعنى ، وتظل القصص الأسطورية عرضة للتغير ، وشعبية حتى يقيض الله لها أديباً يحسن صياغتها ، ويلائم بين أجزائها ، ويضفى عليها شيئاً من جمال الفن وحسن التعبير . وقد يصوغها شعراً أو نثراً ، أو يجعلها تركيباً مكونا منهما . وذلك هو ارتقاء القصة من « أدنى إلى أعلى » كما تقدم . وقد تدون عندئذ فتعود من الخاصة إلى العامة ، وعليها هذا الرواء والبهاء الذى اكتسبته من فن الكتاب والشعراء ، فالإلياذة TheIliad مثلا قصص كثيرة جمع بينها هوميروس كما يرى بعض العلماء[١] ، فاكتسبت الخلود من فنه . وأسطورة إيزيس وأوزيريس دونت[٢] فى نصوص الأهرام فاكتسبت خلوداً . وتدوينها الأول لم يمنع من أن تدون مرة ثانية[٣] وثالثة وظلت تدون ويعنى بها الأدباء حتى العصور الحديثة . ويكفى أنها نقلت إلى الألمانية فى القرن التاسع عشر ، وذاعت لها شهرة واسعة عندما كتبها « جيته » شاعر ألمانيا الكبير تحت عنوان « الناى المسحور[٤] » .

وكثيرا ما ألهمت هذه الأساطير الشعراء والكتاب فى القديم والحديث ، بل ألهمت بعض الرسامين والمثالين أيضاً . ومن المؤلفين الذين ألهمتهم الأساطير

---

(١) التوجيه الأدبى ١٩١ — ١٩٢ المطبعة الأميرية ١٩٤٤ — الإلياذة ٤٧ .
(٢) على هامش التاريخ المصرى القديم ٢/٣٢ .
(٣) نفس المرجع ٣٣ . (٤) نفسه ٦١ .

موضوعاتهم شعراء اليونان القدماء، نذكر منهم سكيلوس الذى اقتبس مآسيه مثل رومثيوس ، من أساطير بلاده، وكذلك سوفوكليز الذى كتب عدداً من المآسى مقتبسة من أساطير بلاده أيضاً ،مثل أوديب الملك ومثل إنتيجون وإلكترا[١] .

٣ — ويرى فونت Wunt أن الأسطورة الأدبية مرحلة بعد مرحلة الأسطورة المفسرة للطبيعة ، وسرعان ما تتجاوز مرحلة التفسير إلى قصص الأبطال . ثم تظهر الأساطير بمعنى الكلمة ، وهى الخاصة بمغامرات الآلهة ، وقد تتطرق إليها بعض المعتقدات السحريه ، والأوهام الشعبية ، ومع ذلك فإنها وليدة الخيال الفنى فى جوهرها . فهى أكثر اتصالا بحاسة الجمال الفنى منها بالدين[٢] . ويرى أن هذه الاساطير تشبه الملاحم من جهة أنها بنت خيال الشعراء والمؤرخين والفنانين . ومن رأى (فونت) أن الأسطورة تدع الخيال طليقا حرا يمتد كيفما شاء ، وفيها تجد عبقرية الشعراء مجالا أى مجال[٣] .

وفونت عالم ألمانى حديث يرى رأى العلماء المحدثين فى إرجاع الإبداع الفنى فى الأساطير إلى خيال الشعراء . أما الأساطير نفسها ، فترجع الأدب إلى قوى أسطورية كالآلهة والجن . ولليونان ربات الشعر أو عرائسه « Muses » وللعرب شياطين الشعراء . وهؤلاء وأولئك يوحون إلى أوليائهم بكل بديع جميل .

٤ — فصلة الاساطير بالأدب واضحة فى أن القصص الاسطورية من أقدم الفنون الأدبية وأنجبها وأحبها إلى الناس وأكثرها شيوعا ، ثم إنها كانت وما زالت مددا للأدباء عامة فى كل العصور ، فاقتبسوا منها موضوعاتهم ، واتخذوها رمزا لبيان أغراضهم وآرائهم ، وجددوا فكرتها وصياغتها مع شىء من التعديل فى أكثر الاحيان . ولا ننسى أن الموهبة الأدبية والعبقرية الفنية عمل من أعمال آلهة الأساطير ، أو الأرواح التى تشبهها ، فى المقدرة على الوحى إلى الناس ، وإطلاق ألسنتهم بالقول المختار .

---

(١) The Outline of Lit., p. 174 — 187

(٢) مبادئ علم الاجتماع الدينى ٧٦ . (٣) نفسه ٨٣ .

الخرافة والأسطورة :

قد تستعمل الخرافة مكان الأسطورة ، ولم ترد كلمة « خُرافة » فى القرآن . لكن العرب عرفوها فى لغتهم وعرضت لها معاجمهم ، كما عرفها أدبهم ونقادهم . وسنتكلم عنها من هذه النواحى لنرى مدى اتصالها بالأسطورة :

٢ — جاء فى القاموس عن الخرافة أنها : «حديث مستملح كذب» . وأصل المادة « خرف » من باب تعب ، ومعناه فسد عقله . وجاء فى أمثالهم : « حديث خرافة » . ففسره اللغويون وقالوا : خرافة كثمامة — أى بضم الخاء — رجل من عذرة استهوته الجن ، فكان يحدث بما رأى ، فكذبوه وقالوا : حديث خرافة».

٣ — وجاء فى لسان العرب : أن خرافة من بنى عذرة أو جهينة اختطفته الجن ، ثم رجع إلى قومه ، فكان يحدث بأحاديث مما رأى ، يعجب منها الناس فكذبوه ، والراء فيه مخففة ، ولا تدخله الألف واللام لأنه معرفة ، إلا أن يراد به الخرافات الموضوعة من حديث الليل ، أجروه على كل ما يكذبونه من الأحاديث ، وعلى كل ما يستملح ويتعجب منه .

ولا شك أن هذا التفسير اللغوى لا يبعد كثيراً عن الأساطير بمعنى الأباطيل والأكاذيب ، أو الأحاديث المنمقة المزخرفة ، أو التى لا نظام لها كما سبق فى تفسير الأساطير .

٣ — ولكن ينسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم[1] أنه قال : خرافة ، رجل من عذرة استهوته الشياطين . وأنه تحدث يوما بحديث فقالت امرأة من نسائه : هذا من حديث خرافة ، فقال : لا ، وخرافة حق » .

٤ — وجاء الميدانى بالمثل[2] : فلم يخرج كثيراً عما تقدم ، وزاد معلقا على قول الرسول فقال : « يعنى ما تحدث به — أى خرافة — عن الجن ، حق » . وإذا كان خرافة شخصاً حقا ، وكلامه حق فيما يرويه عن الجن ، فذلك مخالف للمشهور

---

(١) الحيوان ٦/٢١٠ . (٢) مجمع الأمثال ١/١٧٢ .

من أمره وأمر المثل • ويكاد يكون هناك إجماع على أن « حديث خرافة » لا يستند إلى أساس ولا يصدقه العقل • ولعل قول النبى صلى الله عليه وسلم كان فى حادثة خاصة . أما رد السيدة الكريمة «من نسائه» فيمثل الفكرة الشائعة عند العرب عن خرافة وحديثه .

٥ — أما الكلمة « خرافة » ، فقد استعملت استعمالا شمل الأحاديث والقصص حتى قصص الحيوان والطير والشجر . وقد قال ابن النديم[1] : «أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا ، وأودعها الخزائن ، وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان ، الفرس الأول» ثم اخبرنا ابن النديم أن ابن عبدوس الجهشيارى حاول تأليف كتاب فيه أسمار العرب والعجم والروم . ثم قال : « وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم ، جماعة منهم عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هرون ، وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم » .

وابن النديم يحدثنا هنا عن قصص نعرف بعضها على الأقل وهو كليلة ودمنة وكأنه جعل هذا النوع من الأسمار والخرافات ، وكأن الخرافات عنده هى هذا النوع من قصص الحيوان والطير والبهائم والناس ، بقصد الموعظة مع الإيجاز ، وعندئذ يكون معناها الأدبى بعيداً بعض الشيء عن الأساطير . وقد رأيت فى كتابى « قصص الحيوان » أن أخص كلمة الخرافات بهذا النوع من القصص ، وهو ما يطلق عليه بالانجليزية والفرنسية Fables[2] . أما الأساطير التى هى قصص الآلهة والأبطال فلا تدخل فى هذا التعريف • وأما القصص الأخرى التى تفسر خلقة الحيوان أو تتحدث حديثا رمزيا له مغزى ويكون بطلها من الناس أو الطير أو البهائم فيشترك فيها الأسطورة والخرافة . ولهذا آثرت أن اسمى العصر « عصر الاساطير » لأننا سنتحدث فيه عن أرواح تقوم بأعمال عظيمة ؛ كما يرجع إبداع الشعر إليها عند العرب • وهذه الأرواح آلهة عند بعض الأمم ، وجن أو ملائكة عند البعض الآخر . فهى بهذا المعنى بعيدة عن الخرافة . أما التفرقة بينهما على أساس أن كلا منهما معقولة أو غير معقولة فليست

---

(١) الفهرست ٣٠٤ . (٢) قصص الحيوان / ٢٥ — ٢٨ .

مبنية على أساس قوى لأن كلا منهما يكون معقولا وغير معقول بحسب الشخص الذى ينظر إليهما . والإنسان الأول كان يؤمن بالأساطير التى هى قصص الآلهة والأبطال ، كما يؤمن بالخرافات التى هى قصص الحيوان والطير ، والآن لا يؤمن بهما معا لأنها كانت معقولة عنده أولا ، وليست كذلك بعد ما ارتقى عقله ، وكل من الأساطير والخرافات يمكن أن يكون حقا وكذبا ، وأن يكون حديثا مستملحا ، ومن أحاديث الليل والنهار ، والجن والأنس ، والطير والبهائم والنبات . بل إن أحـــد الباحثين وهو المرحوم مصطفى صادق الرافعى يجعل الخرافات مقابلة « Mythologia إذ يقول[1] : « ولبعضهم نوع من التاريخ الوضعى يسميه الرواة تكاذيب الاعراب ، وأضاحيك الأعراب ، وهو هو الخرافات أوالميثولوجيا[1] وجورجى زيدان[2] يستعمل الكلمة اللاتينية «ميثولوجيا» مرادا بها الاساطير. لكنى أرى تخصيص كلة الأساطير بالميثولوجيا نفسها والخرافات بما يسمى Fables اصطلاحا .

الأساطير العربية :

١ — هى جزء من الأساطير العامة خاضعة لقواعدها وأحكامها . فهى قديمة قدم العرب ، ومتنوعة أيضاً ، وشعبية تتضمن آراء فى الآلهة والابطال ونظام العالم وتفسير مظاهر الطبيعة فى السماء والأرض ، بل إن بعضها رمزى أيضا ، له ظاهر وباطن .

٢ — وهى — مع خضوعها للاحكام العامة — قد تأثرت بالبيئة العربية فى كثير من النواحى . فكان مسرحها تلك البلاد بصحرائها وجبالها ومياهها ، وكان أبطالها من سادات العرب وفرسانهم ، والمشهورين من رجال دينهم وحكمائهم ؛ وكانت حوادثهم متصلة بما عرف عنهم من أخلاق كالكرم

---

(٣) تاريخ آداب العرب ١/٣٩٢ التجارية .

(٢) تاريخ اللغة العربية ١/١٧١ .

وحماية للجار ، والأخذ بالثأر ، كما قيل[1] إن الخيال العربى ظاهر فى تخيلهم للجن فى صورة حيوان دائما ، وتصورهم للروح فى صورة مادية كالدم والهامة . ولسنا فى صدد مناقشة هـذا الرأى فيما يتعلق بالخيال العربى ، وإنما نقلناه لنؤيد تأثر الأساطير العربية بما يقال إنه من خصائص الجنس السامى ، ومنه العرب .

٣ — وأكثر هذه الأساطير العربية الباقية يرجع إلى الجاهلية التى سبقت الإسلام بحوالى قرنين . وتتصل هذه الأساطير بالتاريخ الاجتماعى والأدبى والدينى للعرب . وروى كثير منها فى كتب التاريخ والأدب والتفسير ، ودونت فى هذه الـكتب زمن التدوين . وربما ظهر فى بعض الأساطير إشارات إلى أنهـا تسبق هذا العصر ، أو أنها انتقلت إلى العرب من أمم أخرى ، كقولهم إن بلقيس ملـكة سبأ بنت جنية[2] ، وإن طوق الحمامة المذكور فى شعر أمية بن أبى الصلت ، كان مكافأة لهـا من الله بدعوة من نوح عليه السلام ، لأنها أرشدته إلى اليابس كى ترسو عليه سفينته[3] . وكأخبار عاد وثمود التى سماها العرب « أساطير الأولين » .

٤ — وقد عرض سمث W. R. Smith لقـدم الأساطير السامية عامة ، والعربية بوجه خاص ، وصلتها بالأدب فقال : « فى الحق أن بقايا الأساطير لا يمكن أن تبقى بغير الأدب ، ولا يوجد أدب قديم للوثنية السامية ، إذا استثنينا الأدب السمارى فى بابل الذى نجد فيه أجزاء من أساطير كثيرة ، وفى الحق أنه ليس هناك كثير من الأساطير فى شعر الجاهلية . لـكن هـذا الشعر ليس قوى الصلة بالدين ، وهو يرجع إلى عهد انحلال الوثنية انحلالا تاما . ولم يحفظه لنا إلا المجموعات التى جمعها رواة المسلمين ، وهؤلاء كانوا حراصا على أن يتحاشوا أو يهملوا ما استطاعوا ، آثار وثنية الآباء[4] .

٥ — وفى الحق أيضا أن الأساطير العربية التى بقيت ، ظلت تروى مشافهة

---

(١) الأساطير العربية قبل الإسلام / ٣١ و٤١ و٤٩ .
(٢) الحيوان ٦/١٩٧ . (٣) الحيوان ٣/٣١٢ ،
(٤) Religion of the Semites p. 39

فى عصر الإسلام ، ومتأثرة به : يعاديها إذا كان فيها خطر ، أو يسكت عنها إذا لم تعارض مبادئه ، وقد لايقوى على انتزاعها من النفوس ؛ ثم تلقفها رجال الأدب فصاغوها قصصاً أدبية جميلة ، ورووها بأسلوب عذب لطيف كما فعل الجاحظ ، وأبو الفرج الأصفهانى بعده بقرن من الزمان . أما المفسرون من أمثال الطبرى والنيسابورى ، وكذلك كتاب السير والمغازى ، والمؤلفون فى التاريخ والأنساب وأخبار العرب وأيامها ، وقصص الأنبياء وتاريخ الملوك ، فقد حوت رواياتهم وكتبهم من الأساطير العربية والأجنبية ، من الجاهلية القريبة والبعيدة ، شيئاً كثيراً ولكن موقف العلماء منها كان موقف التكذيب والنقد اللاذع ، خصوصاً إذا وضعت فى غير موضوعها ورواها هؤلاء الرواة على أنها حقائق تاريخية وأخبار صحيحة .

ولعل بعض هذه الأساطير قد ضاع كما يقول « سمث » ، لأنه من آثار الوثنية أو أهمل ولم يدون فضاع لعدم تدوينه[1] .

٦ — وكان من هذه الأساطير قصص وأخبار تدور حول مخلوقات روحية تظهر لهم أحيانا وتختفى ، وتعمر بيوتهم وعلا جبالهم وصحاراهم ، وتظهر لهم فى صور وأشكال متعددة يجمعها اسم عام هو «الجن» ، وسنتحدث عن أساطيرهم الخاصة بهم فى الفصل التالى :

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١/١٧١ .

الفصل الثاني

الجن والشياطين فى أساطير الجاهلية

١ — قدمنا فى الكلام على الأساطير أنها تكون عامة ، وتتشابه فى الفكرة الرئيسية عند الأمم ، ومن ذلك إيمان الناس جميعاً بوجود أرواح خفية يسميها العرب جناً ، ويسميها غيرهم أسماء لا تخرج فى معناها وصفاتها وأعمالها، عما نسبه العرب إلى الجن ؛ من قدرة فوق قدرة الناس ، وجلب الخير أو الضر إليهم ، والقيام بخدمتهم ، ومن انقسامها إلى ملائكة أو جن خيرة ، وإلى شياطين أو أرواح شريرة . وسيطرتها على قوى الطبيعة ، كالرياح والبحار ، وقدرتها على التشكل بأشكال خاصة ، وأنها قد تجتلب أو تُدْفَع ببعض العزائم والرقى . بل إنها قد تكون وسيطاً بين الآلهة والكائنات الفانية فى اليقظة والمنام[١] .

٢ — أما آراء العرب وتصورهم لها وقصصهم عنها أو أساطيرهم الخاصة بها فهذا بيانه : بإيجاز :

إن كلمة « الجن » عربية ، ومشتقاتها كثيرة فى هذه اللغة . وأساطير العرب عنها متعددة . لهذا أنكر بعض المستشرقين على من قال إنها أجنبية[٢] . وتعنى هذه المادة (جن) الخفاء والاستتار ، أو الإخفاء والستر حتى شملت الملائكة[٣] . ولكن قل أن يراد بها ذلك فى الاستعمال . ولها عند العرب أنواع ومراتب ، ربما كان الجاحظ أول من جمعها وفصلها[٤] . ولها عندهم أسماء توحى بمعناها وتدل على عمل الجنى إذا سمى بتلك الأسماء . منها :

(١) Ency. Americana, Demonology

(٢) Magic, Divination andD emonology, p. 119

(٣) القاموس المحيط مادة « جن »   (٤) الحيوان ٦ / ١٩٠ — ١٩٥ .

١ — العفريت : وهو الخبيث المارد من الشياطين[١] .

٢ — والشيطان : كل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة ، ولكنه غلب على مردة الجن كالعفريت[٢] .

٣ — والخابل : للجن الذين يخلبون الناس[٣] .

٤ — الهاتف : لأنه يهتف بالناس فيسمعون صوته ولا يرون شخصه ، ويخبرهم بما يريد[٤] .

٥ — الهاجس : من هجس الشيء فى صدره يهجس خطر بباله ، أو هو أن يحدث نفسه فى صدره مثل الوسواس . وكان للأعشى هاجس[٥] .

٦ — الرَّئِيّ : وهو جنى يرى فيحب ، وكانوا يقولون إذا ألف الجنى إنسانا وتعطف عليه وخبره ببعض الأخبار ووجد حسه ورأى خياله ، فإذا كان عندهم كذلك ، قالوا : مع فلان رئى من الجن[٦] .

ويقال للتابع من الجن رئى ، ككمى ، وسمى كذلك لأنه يتراءى لمتبوعه . وقد يكون مشتقا من الرأى لأنه يشير به ؛ من قولهم فلان رئى قومه إذا كان صاحب رأيهم[٧] .

٧ — التابع : هو الجنى والجنية ، يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب ، وقد استعمل كثيراً بمعنى الهاتف والهاجس والرئى .

وقد كثر استعمال هذه الألفاظ الأخيرة بالإضافة إلى الجنى والشيطان عند الحديث عن القوة الخفية أو التى تظهر وتوحى للشعراء والكهان بآرائهم وأدبهم . وكثيرا ما حاورتهم شعراً أو نثرا كالشعر .

أما مراتب الجن فقد قال الجاحظ : « إن الأعراب إذا ذكروا الجن سالما

---

(١) تفسير الكشاف ٢/١٤٥ . (٢) الحيوان ٦/١٩٥ .
(٣) القاموس المحيط . (٤) الحيوان ٦ / ٢٠٢ ، و١٩٠ .
(٥) بلوغ الأرب ٢/٣٦٨ . (٦) الحيوان ٦/٢٠٣
(٧) بلوغ الأرب ٣/٢٧٠ .

قالوا : جنى ، وإذا أرادوا أنه ممن يسكن مع الناس قالوا : عامر ، وإن كان ممن يعرض للصبيان فهم أرواح . فإذا زاد على ذلك فهو مارد ؛ فإن زاد فى القوة فهو عفريت[1] .

بل إنهم جعلوها قبائل كما كانوا هم قبائل وعشائر ، وقد عرفنا من قبائلهم « بنى الشيصبان » الذين كان لحسان صاحب منهم « فطوراً يقول وطورا هوه[2] » ، وعرفنا « بنى زوبعة الجنى[3] » وهم أصحاب الرهج والقتام والتثوير . وفى رسالة الغفران أنهم ليسوا من ولد إبليس ولكنهم من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل مولد آدم — صلى الله عليه . ومن هذه القبائل أيضاً « آل العُذام » الذين كانوا بأرض الشام[4] ، وكان منهم « شِصَار » رئى خُنافر الحميرى ، ومن قبائلهم بنو مالك أيضاً ، وبنو أُقَيش الذين جاء بهم النابغة فى شعره ، وقد عدهم صاحب القاموس حيا من عُكْل . وصاحب اللسان يقول : بنو أقيش حى من الجن تنسب إليهم الإبل الأقيشية : أنشد سيبويه :

كأنك مَن جِمال بنى أُقَيش ... يُقَعْقَع بين رجليه بِشَنّ[5]

أشكالها وصورها :

ويتخيل العرب للجن أشكالا مختلفة ، ويصفون الصور التى تظهر لهم فيها ، ويقولون إن الغُولُ تعرض للسفار وتتلون فى ضروب الصور والثياب[6] . وتزعم العامة أن الله قد مَلَّك الجن والشياطين والعمار والغيلان أن يتحولوا فى أى صورة إلا الغول ، فإنها تتحول فى جميع صور المرأة ولباسها، إلا رجليها فلابد أن تكونا رجلى حمار[7] . ومنها نوع يظهر لهم فى صورة نصف إنسان ويسمى شِقّاً[8] . ويكثر ظهور الجن للناس فى صورة حيوان كالقط والقنفذ والنعامة والثعبان . وقد تظهر فى صورة المرأة أو الرجل ، كما ظهرت الشياطين لشعرائهم ،

---

(١) الحيوان ١٩٠/٦ . (٢و٣) الحيوان ٢٣١/٦ (٤) الأمالى ١٣٤/١ دار الكتب
(٥) الشن = الجلد القديم — القربة القديمة (٦) الحيوان ١٥٨/٦ ، ٢٢٠ .
(٧) الحيوان ٢٢٠/٦و٢١٤ . (٨) الحيوان ٢٠٦/٦ . مروج الذهب ٣٢٩/١ .

وكما ظهر إبليس لقريش فى دار الندوة على صورة شيخ نجدى وهم يتشاورون فى أمر النبى ، فأشار عليهم بقتله [١] .

ويظهر أن الصورة الصحيحة للجن تكون دائما صورة من الحيوان الأدنى ، أو تركيبا شيطانيا فى صورة حيوانية ... أما الاتجاه إلى تصوير المخلوقات التى تستطيع أن تعقل وتتكلم فى صورة إنسانية ، فهو اتجاه حتمى عندما يتجاوز الناس دور البداوة ... والحيوانات الوحيدة التى تمثل الجن دائما هى الثعابين والزواحف الضارة[٢] . ويرى « سمث » أن هذه الجن ليست أرواحا خالصة ، بل هى أجسام أكثر شبها بالحيوان منها بالناس ، وأجسامها ليست وهمية . ودليل ذلك أن الجنى إذا قتل صارت رفاته جسدا صلبا[٣] .

أماكنها ومساكنها : وهذه الجن التى عاشت فى بلاد العرب تخيرت لها مساكن حدثتنا عنها الأساطير ، وظهرت فى أماكن كانت تعد موطن خطر ورعب ، بل كان العربى يتوهم كل مكان غير مطروق مسكنا للجن والارواح ، ويروى عنها القصص والروايات . وتارة تكون هذه أجواف الصحراء ، وسفوح الجبال ، وموارد المياه وملتف الاشجار . وأحيانا تقيم معهم فى سقوف المنازل والشبابيك ، وتجاورهم فى البيوت . وأشهر مساكن الجن فى بلاد العرب موضعان عبقر ووبار :

عبقر : يعرفه ابن منظور فى لسان العرب بأنه موضع بالبادية كثير الجن ، ويقال فى المثل كأنهم جن عبقر . ويروى أيضا أنها قرية باليمن توشى فيها الثياب فصارت مثلا لكل منسوب إلى شىء رفيع ، وقال الزمخشرى : العبقرى منسوب إلى عبقر . تزعم العرب أنه بلد الجن فينسبون إليه كل شىء عجيب .

أما ياقوت فيجعل « عبقر » موضعين : واحد منهما بنواحى اليمامة والآخر

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٨٨ طبعة صبيح .

(٢) The Religion of the Semites, p. 129

(٣) Ibid, 120.

كان يسكنه الجن ولم يمين موضعه[١] .

ومن هذه الكلمة أخذنا كلمة « العبقرية » لندل بها على تلك المقدرة الذهنية ، والمهارة العقلية التي يتفوق صاحبها بفضلها فى الإبداع والاختراع .

وَبَار : هذا هو المكان الثانى المشهور من مساكن الجن . وقد نزلتها بعد أمة من العرب كانت تسمى بهذا الاسم . فحمتها من كل من أرادها ، وهى من أخصب بلاد الله ، وأكثرها شجرا ، وأطيبها ثمراً ، وأكثرها حبا وعنبا ، وأكثرها نخلا وموزا . فإن دنا اليوم إنسان من تلك البلاد متعمدا أو غالطا حثوا فى وجهه التراب . فإن أبى الرجوع خبلوه ، وربما قتلوه[٢] . وصاحب القاموس المحيط يجعلها بين اليمن ورمال يَبْرِين وفى المصور الملحق بكتاب الوسيط نجد « وبار » أو ديار عاد ممتدة فى حدود اليمن إلى عُمان ، وهى التى تعرف برمال الاحقاف .

وعلى كل فلم يكن لهذين الموضعين ذكر خاص فى وحى الشياطين إلى الشعراء ، ولا كانا موعدا يلتقى فيه أولئك بهؤلاء ، وإنما ظهر الشياطين لشعرائهم ، وأوحوا إليهم بالشعر فى القفار والجبال والدور ، فى الحجاز وفى العراق وفى غيرها كما سنرى .

أعمالها : ونسب العرب إلى الجن أعمالا أخذت منها أخذت منها أسماؤهم كما قدمنا . وبعض هذه الأعمال خير وبعضها شر . فهى تهدى الضالين فى الفلوات ، كما هدت عَبيد بن الابرص[٣] ، وترشد إلى الإيمان بالله وإلى ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أرشدت سوادَ بن قارب وخُنافر بن التوأم ، أما شرها فينسب إليها الجنون ، وإضلال الناس فى الصحراء ، وقتلهم ، والاخذ بالثأر منهم لقتل ثعبان أوقنفذ مثلا ، وقد يثيرون الغبار والزوابع ، وتعتبر الزوابع دليلا ظاهرا

---

(١) لسان العرب ، الصحاح ، معجم البلدان ٦/١١٢ مادة عبقر ، الحيوان ٦/١٨٩ الكشاف تفسير قوله تعالى « وعبقرى حسان » .

(٢) الحيوان ٦/٢١٥ و٢١٦ (٣) جمهرة أشعار العرب /٢٧

على حرب بين قبيلتين من الجن[١] . وهم يطرقون الناس كما طرقوا شمر بن الحارث الضبي[٢] . ولها أصوات تسمع فى الليل وفى الفلوات عند هبوب الريح . ويسمى صوتها العزف والعزيف . وهو جرس يسمع فى المفاوز بالليل . والعازف موضع تعرف به الجن[٣] . وقد يسمى صوتها زجلا[٤] . وورد ذلك فى شعر عربى لذى الرمة وللراعى ولغيرها، يشير إلى أنهم قد سمعوه ، أو يردد عقائد قومهم وآراءهم فيه.

قصصها فى الأساطير الجاهلية وبخاصة أساطير الشعراء :

١ — وكان من الطبيعى أن يقص العرب قصصاً يتحدثون فيها عن هذه الجن والشياطين تبين آراءهم فيها ، وصلتهم بها . ولم يخل حديث تلك القصص من شاعر يكون بطلا فيها ، أو محور حوادثها ، وكثيراً ما يكون هذا الحوار شعراً فيه قوة وفيه ضعف . وقد تكون هذه القصص من عمل المتأخرين . ولكنها تمثل روح البداوة ، وآراء الجاهلية ، لأنها جاهلية الطابع والروح . تردد صدى الآراء والعقائد الجاهلية فى الجن والشياطين ، كما تحمل صورة من أخلاق العرب ومفاخرهم كإكرام الجار من الجن والإنس ، وحماية المستجير ولو كان شيطاناً أو حيواناً ، وأخذ بالثأر مهما كان من عنده الثأر . ثم نلمح فيها حديث الشجاعة وثبات القلب؛ وأكثر ما يعنينا منها هو هتاف الجن فيها بالشعر .

من ذلك قصة رواها الميدانى فى كتابه مجمع الأمثال[٥] ، عند ذكر المثل : «الحمَّى أضرعتنى لك أو للنوم» قال أبو عبيدة : يضرب هذا فى الذل، عند الحاجة تنزل . ويروى : الحمى أضرعتنى للنوم . قال المفضل : أول من قال ذلك رجل من كلب يقال له « مرير » ، وكان له أخوان أكبر منه يقال لهما مرارة ومرة . وكان مرير لصاً فقيراً ، وكان يقال له الذئب . وأن مرارة خرج يتصيد فى جبل لهم فاختطفته الجن . وبلغ أهله خبره فانطلق مرة فى أثره . حتى إذا كان بذلك المكان اختطف . وكان مرير غائباً فلما قدم بلغه الخبر ، فأقسم لا يشرب خمراً ولا يمس

---

(١) p. 124 The Religion of the Seimtes (٢) الحيوان ٦/ ١٩٦

(٣) القاموس المحيط (٤) الحيوان ٦/١٧٥ — ١٧٧ (٥) ١/ ١٨١

رأسه غسل حتى يطلب بأخويه ، فتنكب قوسه وأخذ أسهما ثم انطلق إلى ذلك الجبل الذى هلك فيه أخواه ، فمكث فيه سبعة أيام لا يرى شيئاً . حتى إذا كان فى اليوم الثامن إذا هو بظليم ، فرماه فأصابه ، واستقل الظليم حتى وقع فى أسفل الجبل ، فلما وجبت الشمس بصر بشخص قائم على صخرة ينادى :

يأيها الرامى الظَّليم الأسودِ تَبت مراميك التى لم ترشد

فأجابه مرير :

يأيهـا الهاتف فوق الصخرهْ كم عَبْرةٍ هيجتها وعبره

بقتلكم مرارةً ومُـرَّه فَرَّقْتَ جمعا وتركتَ حسره

فتوارى الجنى عنه هُوِيّاً من الليل ، وأصابت مريرا حمى ، فغلبته عيناه ، فأتاه الجنى فاحتمله وقال له : ما أنامك وقد كنت حذراً ! فقال : الحمى أضرعتنى للنوم فذهبت مثلا ، وقال مرير :

ألا من مبلغٌ فتيانَ قومى بما لاقيت بعدهمُ جميعاً

غزوت الجن أطلبهم بثارى لأسقيهم به سما نقيعا

فيعرض لى ظليم بعد سبع فأرميه فأتركه صريعا

فى أبيات أخرى يطول ذكرها .

وسواء أكانت هذه القصة صحيحة كما يرى « سمث »[1] أم موضوعة لتفسير المثل كما يقال عن كثير من القصص التى تتصل بالأمثال ، فان بطلَيْها من الإنس والجن يتحاوران شعراً . ولأمر ما حرصت هذه القصص على أن يكون هتاف تلك الهواتف بالشعر . لعل ذلك لتدل على قدرة الشياطين أن توحى بالشعر ، وهم يعلمون أن فاقد الشىء لا يعطيه .

٣ — وعبيد له قصة أيضاً ذات غاية خلقية ، وبطلها شجاع مما يكثر ظهوره

(١) Religion of the Sdmites, p.121

فى الأساطير ممثلا للجن . ولقد لقى عبيد فى سفره هذا الشجاع يلهث عطشا فلم يقتله كما أشار أصحابه ، بل سقاه . فرد إلى عبيد هذا الجميل بأحسن منه ، وهتف به حين حاجته إليه ليقدم إليه بكرا يركبه فيرشده إلى طريقه . وفعل مثل بطل القصة السابقة ، فحاور صاحبه من الجن شعراً[١] .

وأبو الفرج الأصفهانى يقدم للقصة بقوله : « وهو خبر مصنوع يتبين فيه التوليد »[٢] وأبو الفرج على حق ، ولكننا فى هذه القصص المصنوعة لانبعد كثيراً عن حقيقة الأوهام والتصورات التى كان عليها عرب الجاهلية فى عصر الأساطير . و « عبيد » من الذين اتصل ذكرهم بالشياطين ، فلقيهم فى هذه القصة ، وكان له منهم شيطان يوحى إليه بالشعر ، ويفتح له أبوابه وهو صغير . وفيها دليل كالسابقة على مقدرة الشياطين أن تقول الشعر ، فاذا نسب إليها إلهام الشعراء والقول على لسانهم ، كان ذلك مقبولا ، والشىء من معدنه لا يستغرب .

وترجمة عبيد فى الأغانى تجعله شاعرا من شعراء العهود الأسطورية ، ينبغ فجأة . ويأتيه شيطانه على غير انتظار ، ويعلمه الشعر بطريقة تشبه السحر ، وكأنه شرب عسً الهبيد فأصبح فى قومه خير شاعر . روى عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى أنهما قالا : « كان من حديث عبيد بن الأبرص أنه كان رجلا محتاجا . ولم يكن له مال ، فأقبل ذات يوم ومعه غُنَيْمة له . ومعه أخته ماوية ، ليوردا غنمهما ، فمنعه رجل من بنى مالك بن ثعلبة وجبهه ، فانطلق حزيناً للذى صنع به المالكى ، حتى أتى شجرات فاستظل تحتهن ، فنام هو وأخته ، فزعموا أن المالكى نظر إليه وأخته إلى جنبه فاتهمه بها فى بعض الرجز ، فسمعه عبيد فرفع يديه ثم قال :

« اللهم إن كان ظلمنى فأَدِلْنى منه . ووضع رأسه فنام ، ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر ، فذكر أنه أتاه آت فى المنام بكبة شعر وألقاها فى فيه فقام من نومه يرتجز بهجاء المالكى .

وهذه أسطورة ولاشك ، وما أشبهها بقصة سكيلوس اليونانى فإنه بدأ يقول الشعر بمثل هذه الطريقة .

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٧ (٢) الأغانى ١٩/٧٦ الساسى

ولكنه نبوغ غير مجهول السبب : فهو رجل موهوب يستطيع أن يقول الشعر ، وقد ثارت فى نفسه غزيزة القاتلة لما سمع هجاء المالكى فاندفع بفعل هذه الغريزة إلى القتال . وكانت وسيلته فى ذلك الهجاء لكن التفسير فى عهد الأساطير كان كما رأيت ، كبة شعر ألقاها فى فمه ذلك الذى جاءه فى المنام ، فقام من نومه يقول الشعر :

٤ — وقصة أخرى لرجل من كلب يقال له عبيد بن الحمارس[1] يقتحم مكاناً فتحذره نساؤه الجنّ من أهل هذا المكان ، فلا يعبأ بالتحذير لأنه حديد القلب ، ثم يلقى شَيهمة ، وهى الأنثى من القنافذ ، فيقعصها ويرتبط ولدها . وتدور معركة بينه وبين الجن محورها الشعر ، فيها لوم وتهديد وعتاب وفخر بالشجاعة ، وإكبار لها . وتنتهى المعركة بأن يقدم عبيد بن الحمارس لَقوحاً مُتْبِعاً جزاءً عما قتل ، وذلك دية للقنفذ وولدها .

وراوى هذه القصة ، الشرقى بن القطامى ، موضع طعن فى روايته ، قال ابن أبى الحديد بعد إيراده هذه القصة : « وهذه الحكاية وإن كانت كذباً، إلا أنها تتضمن أدباً ، وهى من طرائف أحاديث العرب . فذكرناها لأدبها وإمتاعها »[2].

وفى القصة دلائل كثيرة على أنها إسلامية ، فطريقة الحوار اتهام ودفاع كمجالس القضاء ، وانتهت بالحكم على المتهم أن يغرم مثل ما قتل من النعم ، وألفاظ الاتهام بالظلم والادعاء ألفاظ قضائية ، إلى غير ذلك من الأدلة التى تبدو لقارئها عند قراءتها فى مصدرها . ولكنها نوع من الأدب اللطيف فى حواره ، ولو تطور لنشأ عندنا أدب تمثيلى . وقد آثرت الجن الشعر فى هذا الحوار وكان شعراً رقيقاً .

وهناك عدد آخر من القصص الشبيهة بهذه ، لا تخرج عما قدمنا مما يدل على تأثر الرواة بمؤثر واحد ، هو شيوع مثل هذه الأساطير فى الجاهلية ، وعلى صياغة هؤلاء الرواة لها فى عصور التدوين صياغة أدبية ، مع المحافظة على الآراء الجاهلية . وأهمها أن أولئك الشياطين كانوا قديرين على قول الشعر ، كما كان ينسب إليهم الوحى به إلى الشعراء .

---

(١) بلوغ الأرب ٢/٣٧٢ (٢) ٤/٢٤٩

(٣) أنظر ترجمته فى الأغانى ١٨/٢٠٩ ومابعدها .

٥ — وهناك قصص أخرى لقي الجن فيها الشعراء ، وانفرد الإنس فيها بالقول، يصفون ما كان . ويقصون علينا ما جرى بينهم في شعر تلمح فيه شخصية قائله ، وفخره بالتغلب على تلك المخلوقات الغريبة كالذي يروى عن تأبط شراً[٣] : فقد لقي الغول في صورة كبش في الصحراء فعاد به إلى أهله ولكنه ثقل عليه فألقاه، فإذا هو الغول ، ولقيها مرة أخرى في موضع يقال له « رَحَى بِطانٍ » في بلاد هذيل ، فضربها بسيفه ، وكان يعلم أنها تموت من ضربة ، وتحيا من الثانية . ثم وصفها بغرابة خلقتها ، وقد نسب هذا الوصف إلى شاعر آخر هو أبو البلاد الطهوى، ويقال له أبو الغول أيضاً لأنه — فيما زعم — رأى غولا فقتلها ؛ في شعر كالشعر السابق مع خلاف يسير[١] .

وسواء أكان هذا الشعر لأبي الغول أو تأبط شرا ، فالقصة تبين جانباً من رأى العرب في الغول ، وهي نوع من الجن ، فهي عدو في هذه القصة ، أخذت الطريق على إنسان في مكان موحش ، وهو مَراد الجن وسكنها ، فصرعها بضربة واحدة ولم يُثَنِّ ، لأنها تحيا بالضربة الثانية وما بعدها ، ثم وصفها بتشويه الخلقة والغرابة كما يظن العرب فيها .

٦ — ولا تخلو حياة الأبطال والشجعان والكرام من ذكر الجن والشياطين . وقد تحدث « شمر بن الحارث الضبي » بزيارتهم له . ودعاهم إلى الطعام فأسفوا ، لأنهم لا يأكلون طعام الإنس إذ يقول :

أتَوْا نارى ، فقلت : مَنُونَ ؟ قالوا سَراة الجن ، قلت : عِمُوا ظلاما
فقلت : إلى الطعام ، فقال منهم زعيمٌ : نحسد الإنسَ الطعاما[٢]

٨ — ومات عبد الله بن جُدعان الكريم . فلم يخل موته من هواتف أخبرنا بها الجاحظ[٣] وأبو الفرج[٤] وابن دريد[٥] ، والشبلي[٦] . وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم استظل بظل جفنته ، وكانت جفنة يأكل منها الراكب على

(١) الحيوان ٦/٢٣٣ — ٢٣٥ (٢) الحيوان ٦/١٩٦ . (٣) الحيوان ٦/٢٠٢ .
(٤) الأغانى ٨/٢ ساسى . (٥) الاشتقاق /٨٨ . (٦) آكام المرجان ١٤٠ — ١٤٢ .

البعير ، فلا عجب أن ينعى الجن صاحبها فى أودية الجزيرة ، وأن تهتف بموته فى « وادى عوف » فيسمعها نفر من قريش فى طريقهم إلى الشام . ويجيز الإنسى منهم الجنى ، ويجمع هؤلاء وهؤلاء على فضله وكرمه .

بل إنها قصة تحتمل الشك على الرغم من أنها قديمة عرفها الجاحظ فى القرن الثانى ، وربما كانت متواترة من أيام موت ابن جدعان . ولكنها تعرضت للزيادة كما يتبين من مقارنتها عند الجاحظ وابن دريد والشبلى ، وقد تكون العصبية سبباً فى وضعها . ولكن هتاف الجن فيها بموت بطل كريم ، يتفق مع رأى العرب فيها ، واعتقادهم أنها تقدر على ما لا يقدرون عليه ، فتنقل الأخبار عبر الجبال والقفار بسرعة غريبة ، وتأسى على ما ينزل بالكرام من حوادث الدهر ، وذلك أدل على كرمهم وعظم المصيبة فيهم .

٨ — وهذه الروح التى جعلت موت ابن جدعان حديث الجن فى وادى عوف ، جعلت ميلاد أبطال آخرين — والشعر نوع من البطولة كما يقول كارليل[١] I. Carlye — متصلاً بهذه المخلوقات الغريبة التى تدرك من أسرار الغيب ما لا يدركه الناس . ومن هؤلاء الذين بشرت الهواتف بمولدهم ، وكان لها أثر فيهم قبل أن يولدوا ، شاعر «تغلب» المدافع عنها فى مجالس الملوك ، وهو عمرو ابن كلثوم . وتبدأ قصص الهواتف فى تاريخه من عهد جده مهلهل بن ربيعة . فإن مهلهلا أمر امرأته بقتل بنته ليلى عند مولدها — وليلى هى أم عمرو بن كلثوم — فغيبتها ولم تقتلها ، وعز على الجن أن تموت وألا تلد هذا السيد من تغلب ، فهتفت بمهلهل تخبره بما سيكون لذريتها من شأن . فلما استيقظ عرف أنها لم تقتل ، وأمر امرأته أن تعنى بها حتى بلغت مبلغ النساء ، وتزوجت كلثوم ابن مالك بن عتاب فلما حملت بعمرو هذا أتاها هاتف فى المنام فقال :

يالكِ لَيْلَى من وَلَدْ يُقْدِمُ إقدامَ الأَسَدْ
من جُشَمٍ فيه العَدَدْ أقولُ قِيلاً ، لا فَنَدْ[٢]

(١) Hero Worship p. 73 — 107

(٢) لا فند = لا كذب فيه ولا خطل .

فلما أتت على عمرو سنة ، قالت أمه : أتانى ذلك الآتى فى الليل ، أعرفه ، فأشار إلى الصبى وقال :

إنى زعيمٌ لكِ أمَّ عمرِو   بماجد الجَدِّ كريمِ النَّجْرِ

أشجعَ منْ ذى لِبَدٍ هِزَبْرِ   وَقّاصِ أتْرابٍ شديدِ الأسْرِ[1]

يَسُودهم فى خمسةٍ وعَشْرِ

قال الأخدر : (وهو نسابة تنتهى إليه رواية القصة فى الأغانى) فكان كما قال ، ساد وهو ابن خمسة عشر ، ومات وله مائة خمسون سنة[2] .

فهذا الهاتف فى الأسطورة شاعر عليم بالمستقبل ، يعرف أن ليلى ستلد سيداً عظيما ، ويعرف أن عمراً سيسود قومه ، فيخبر مهلهلا أن يستحى ابنته لتلد هذا العظيم ، وتخبر ليلى أن ابنها سيسود وهو صغير .

ولا غرابة فى أن يستحيى مهلهل بنته ، فهو والد فيه شفقة الأب وحنانه ، وكانت أبوته أقوى من عادة الوأد ، فأبقى على ابنته ، وصور له الوهم أن هذا الصوت الداخلى القوى هاتف خارجى يهتف به فى المنام أن يستحيى ابنته . أما « ليلى » — أو « أسماء » كما ورد اسمها فى بلوغ الأرب —[3] فما كان هاتفها فى النوم إلا الآمالَ المستخفية فى العقل الباطن ، والتى يرجى أن تتحقق . والمسئول عن الأسطورة إلى حد كبير هو بطولة عمر بن كلثوم ، وظهوره فى عهد الأساطير ، وفخر قبيلته به وبقصيدته وبشجاعته عند عمرو بن هند . ولا ننسى شرف أمه وعلو نسبها ، وما دار حول أبيها وعمها كليب من الأساطير . وآخر رواة القصة فى الأغانى هو محمد بن الحسن بن دريد ، وهى من صياغته ، وقد كان يصنع القصص لأغراض أدبية[4] .

٩ — وعندنا أمهات أخريات هتف بهن الهواتف فى المنام ، وهن دائماً

---

(١) النجر = الأصل . وقاص أتراب = يكسر أعناقهم .

(٢) الأغانى ٩/١٧٥ .   (٣) ٢/١٤١ .

(٤) ابن خلكان ١/٤١٧ .

من ذوات المنزلة العالية ، ومن المنجبات فى العرب . وقد يهتف بهن الهواتف فى النوم أو فى اليقظة ، وقبل الزواج أو فى أثناء الحمل[1] . والمحدثون من علماء النفس يفسرون ذلك بأنه آمال مرجوة . ورغبات حلوة يرجى أن تتحقق . فيسرع العقل الباطن بذلك فى لحظة ، ويخبر الأم فى المنام أو الوهم بما يطمئنها ويبشرها بتحقق الآمال .

أما الأساطير فعندها من يخبر بالغيب ، وينبىء بالمستقبل ، وهو على ذلك قدير بل كان منها من يأمر بالخير ويدعو إلى الصالحات. ويختار السادة ليلقى إليهم بالأمر ويبشرهم بالسعادة .

ويختار للقيام بهذه المهمات العظيمة واحد من صالحى الجن ، أو ملك من المقربين لتتناسب صفته مع الأمر العظيم الذى يقوم به .

١ — وهذه إحدى القصص التى هتف فيها هاتف فى حادثة من الحوادث المتصلة بالدين أو البيت الحرام ، هى « حفر زمزم » . وبطل القصة شريف عربى زاده الله شرفا بأبوة الرسول . وأعنى به عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف :

ولى عبد المطلب سقاية الحاج بعد عمه المطلب بن عبد مناف ، وهو أمر عظيم ، فأُمِرَ بحفر زمزم ، وكانت جُرْهُم دفنتها حين ظعنوا من مكة ، فهتف به هاتف وهو نائم فى الحجر أن يحفرها ، فأخبر قريشاً بما أتاه من الأمر فسألوه : فهل بُيِّنَ لك أين هى ؟ قال : لا . قالوا : فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت ، فإن يك حقاً من الله يبين لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك .

فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأتاه آت فقال له : احفر زمزم، إنك إن حفرتَهَا لن تَنْدَم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تَنْزِف أبداً ولا تذَم ، تسقى الحجيج الأعظم . الخ . وقد أشير إلى موضعها الذى أُمِرَ أن يحفرها فيه ، ونازعته قريش فلم يقعد عما أُمِرَ به . فلما تمادى به الحفر وجد غزالين من ذهب

(١) الميدانى ٢/٢٥٦ والكامل للمبرد ١/١٥٤ .

وها اللذان دفنت جرهم فيها حين خرجت من مكة . ووجد فيها أسيافاً وادراعا . فنازعته قريش فى ذلك أيضاً ، فعرض عبد المطلب حلا للنزاع أن يضربوا القداح، وجعل للكعبة قدحين ، ولقريش قدحين . فخرج للكعبة قدحا الغزالين . ولعبد المطلب قدحا الأسياف والأدراع ، فضرب الأسياف بابا للكعبة ، وجعل الغزالين فى بابها ، وجعل سقاية زمزم للحجاج[1] .

وفى خبر آخر أن الهاتف[2] أتاه أربع ليال يخبره فى كل مرة أن يحفرها وكان يسميها اسماً لا يعرفه عبد المطلب حتى أخبره بأسمها الأخير « زمزم » فى الليلة الرابعة . فقالت قريش إنها بئر أبينا إسماعيل ، وأرادوا أن يشركوه فيها . ثم رضوا بالاحتكام إلى كاهنة بنى سعد وكانت بأطراف الشام ، ونفد الماء وهم فى الطريق إليها ، فكادوا يهلكون عطشا . غير أن الله سقاهم من عين انفجرت من تحت خف الناقة التى كان يركبها عبد المطلب ، فعرفوا أن الله قضى له عليهم ، وأن زمزم له ، فرجعوا راضين ولم يصلوا إلى الكاهنة .

وحديث هذه القصة أن الشيطان كان يهتف بالناس فى أحوال . وأن الهاتف قد يكون من الله . فلما تعدد النداء لعبد المطلب ، ودله الهاتف على مكانها فى عودته إليه ، آمنت قريش أنه هاتف من عند الله ، وأن زمزم له من أجلهم .

ولا شك أن هاتف السيدة آمنة أم الرسول الكريم كان ملكا ، فى الخبر الذى يورده ابن هشام وهو « أن آتيا جاءها حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها إنك قد حملت بسيد هذه الأمة » [3] . وكان الأمر كما حدثتنا الرواية . وكان ابنها خير الخلق أجمعين .

عبادة الجن :

وأكبر ما كان من أمر العرب أن قوما منهم عبدوا الجن ، وهم قلة بلا شك ،

---

(١) انظر تفصيل القصة فى سيرة ابن هشام ١/٧٠و٨٩ — ٩٣ .

(٢) نفسه / ٩٠ .

(٣) نفسه ٩٩ . ولهذه القصة تفصيل فى كتب الموالد النبوية .

يقول الألوسى[١] « إنهم شرذمة قليلون من أهل البوادى » ثم يستشهد بآيات من الكتاب الكريم[٢] ، ولكن الآيات عامة ، وأصرحها ما جاء فى سورة الأنعام[٣] « وجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ » ، وسبأ « ويومَ يحشُرُهم جميعا ثم يقولُ للملائكة أهَؤُلاءُ إياكمْ كانوا يَعْبُدُون . قالوا سُبْحانَك أنت وليُّنا مِنْ دُونِهِم، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أكثرُهُمْ بِهِم مُؤمنون[٤] » ، ويس[٥] « ألمْ أعهَدْ إليكم يابنى آدمَ ألاَّ تعْبُدُوا الشيطان » .

وليست كلمة « الجن » فى هذه الآيات صريحة فى الشياطين عند كل المفسرين فإنها فى الأنعام تعنى الملائكة كما تعنى الشياطين ، ويقول البيضاوى : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاء الجن » أى الملائكة بأن عبدوهم وقالوا : الملائكة بنات الله ، وسماهم جنا لاجتنانهم ، تحقيراً لشأنهم ؛ أو الشياطين ، لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى ، أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم ، أو قالوا : الله خالق الخير وكل نافع ، والشيطان خالق الشر وكل ضار كما هو رأى الثنوية . أما فى سورة سبأ فأشار البيضاوى إلى الملائكة فى التفسير وكذلك الزمخشرى الذى قال فى الكشاف : « بَلْ كانوا يعبُدُونَ الجنَّ » يريدُون الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله ، وقيل صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا هذه صورة الملائكة فاعبدوها ، وقيل كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام إذا عُبدت فيُعْبدون بعبادتها .

فبعض العرب قد عبدوا الجن على أى معنى من معانى العبادة ، ولا تكون هذه العبادة إلا نتيجة إكبار لهذه الجن ، وليس العرب بدعا فى هذا فقد عبدها غيرهم وأطاعوها ، بل إن الآيات ليست نصا فى العرب . وهذا التعميم فى الآيات الكريمة يدل على عموم الفكرة عند الأمم ، أما المفسرون الذين

---

(١) بلوغ الأرب جـ ٢ / ٢٣٢ .
(٢) سورة الجن اية ٤ — يس ٦٠ والأنعام ١٠٠ و ١٢٨ .
(٣) آية ١٠٠ .   (٤) آية ٤٠ ، ٤١ .   (٥) آية ٦٠ .

يجملون المراد هم العرب، فيعتمدون على ماجاءهم من تاريخهم وعقائدهم، وعلى نزول القرآن بينهم أولا : وهذا كله يصل بنا إلى غايتنا ، وهى أن بعض العرب أكبروا العالم الخفى عندهم ، وهو المُسَمَّى « الجن » وكانت العبادة أكبر مظهر لهذا الإكبار .

الأدب الجاهلى وأساطير الجن :

وقدمنا فى آخر الفصل الأول أن الأدب الجاهلى الذى روى لنا لم يتأثر بأساطير العرب أو غيرهم ، كما تأثر غيره من الآداب فى عهود الأساطير ، ويرى « سمث » أن قلة هذا الأدب الأسطورى ترجع إلى أن رواته كانوا من المسلمين الذين تحاشوا أو أهملوا مثل هذه الأساطير المشتملة على آثار الوثنية[1]. وقد رأى أيضاً فى نفس المصدر والصفحة أنه يعد الخيال السامى مسئولا عن قلة الأساطير عامة ، ولكنه تعليل عليه بعض الاعتراض ، فالقرآن نفسه لم يهمل وثنية أولئك الأباء عندما جاء بها لينقضها . والأدب الجاهلى قد روى فى عصر الأمويين وكان فيه وفى الأدب الأموى ما يخالف الدين . وكان الخيال العربى خصباً فى التشبيهات مثلا ، وفى ضرب الأمثال . وفى الاستعارات ، وكلها نتيجة خيال قوى . لكنى أرجع السبب إلى أن ماروى جاءنا عن زمن ضعفت فيه الوثنية العربية ، وعملت ظروف السياسة والعصبيات والدين مجتمعة على رواية قليل من تلك الأساطير التى كانت عند أولئك الجاهليين . ولا ننسى أن هذا القصص شعبى لم يظفر بتقدير كاف فى عصور التدوين . ولعل أكثره قد ضاع فى خلال القرون . فكان ماجاءنا منه قليلا لايدل على الخيال العربى دلالة كافية .

وقد ينطبق هذا القول على أساطير الجن ، فإن مابقى من أساطير هذا العهد لاتجمعه قصة طويلة متماسكة ، ولا ملحمة كبيرة مترابطة ، ولكنه عدد من القصص الشعبية والقصيرة التى تتصل بالبيئة والأخلاق ، يكون مسرحها الأماكن التى ترتادها الجن ؛ وأبطالها من الجن والإنس وحوادثها وغايتها مما

---

(١) The Religtion of the Semites

يتفق مع أخلاق البيئة التى نشأت فيها . وخذ دليلا قصة المثل[1] « الحُمَّى أضرعتنى لك أو للنوم » وكذلك قصة عبيد والشجاع الذى ألفاه رمضا[2] ، وقصة ابن الحارس والجن الذين اقتحم واديهم ورعى فى مزاعيهم[3] ، وقصة مالك بن حريم الدالانى[4] .

ومن الأدب المتعلق بهذه الأساطير شعر أو أبيات مفردة فى ووصف تلك المخلوقات الغريبة ، كوصف أبى البلاد الطهوى للغول[5] .وقد روى فى الأغانى[6] شىء مثله لتأبط شرا . وإن كان الجاحظ لايصدق أبا البلاد أو أبا الغول إذ يقول عنه : «وأبو البلاد الطهوى هذا كأن من شياطين الأعراب ، وهو كما ترى يكذب وهو يعلم ، ويطيل الكذب ويحبره[7] » وهو يصف أعمالها ومساكنها وصلتها بالناس. وينتفع الأدباء بما يعرفون عن أساطيرها فى شعرهم ، فيشبهون بها فيه ، ويضربون الأمثال بأحوالها وخلقتها ، ويشيرون إلى قصصها[8] . ونحو ذلك .

وأكثر هذه القصص التى يذكرونها أو يشيرون إليها فى شعرهم عربى ، وبعضه مقتبس معروف « فى بقايا ما ثبتوا عليه من دين إبراهيم عليه السلام » . وغيره من الرسل الكرام قال النابغة :

إلا سُلَيْمانَ إذ قَالَ الإلهُ له ... قم فى البرية فاحددها عن الفَنَد

وَخَيِّسِ الجنَّ إنِّى قداً ذِنْت لهم ... يَبْنونَ تدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَد[9]

وتجد من هذا الأدب الذى يشير إلى أساطير ، أبياتا فى شعر الأعشى والحارث بن حلزة ، وحسان ، ولبيد ، وزهير ، وحاتم ، وشمر بن الحارث ، وعمرو ابن كلثوم ، وأمية بن أبى الصلت وغيرهم .

---

(١) مجمع الأمثال ١ / ١٨١ . (٢) الأغانى ١٩ / ٨٦

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٤ / ٢٤٩ بلوغ الأرب ٢ / ٣٥٥ .

(٤) بلوغ ٦ / ٢٢٤ . (٥) الحيوان ٦ / ٢٣٤ . (٦) ١٨ / ٢١٠ .

(٧) الحيوان ٦ / ٢٣٥ .

(٢) ترى كثيرا من هذا فى الحيوان ح ٦ من ١٥٨ — ٢٨١ :

(٣) خيس الجن = ذللها :

والجن فى هذه الأساطير الأدبية موضوع حديث يدور حولها، وقد تشترك فى القصة ، فتحاور الانس أو تحذرهم أو تلومهم أو تثنى عليهم . وقد تتحدث وحدها إذا هتفت بهؤلاء الإنس مبشرة أو منذرة أو مخبرة بمستقبل .

وقد عرض النقاد فى القديم والحديث لهذه القصص والأساطير كالجاحظ وأستاذه النظام من القدماء ، كما رأيت فى تعليق الجاحظ على أبى البلاد الطهوى فيما تقدم ، وكما يروى هو[1] عن أبى اسحق النظام ، ومن المحدثين الدكتور طه حسين[2] فى كتابه « الأدب الجاهلى » فى الفصل الذى عنوانه « الدين وانتحال الشعر » . ولكن الطعن فى بعض الأساطير والأخبار لا يهدم الفكرة كلها ، فقد كان للعرب أساطير عن الجن بلا شك ، وكانت هذه الأساطير قصصاً أدبية أو أخبارا شائعة ، أو حكايات ونوادر ، منها ماقدمناه ، ما كان له أثر فى أدبهم على النحو الذى سبق بيانه .

ومن أعمال هـذه الشياطين المتصلة بموضوعنا ماعرف عند العرب باسم الكهانة ، يتلقون وحيها ، ويخبرون بها ، معتمدين على مايأتيهم به أولئك الشياطين من خبر الأرض والسماء ، فى أسلوب أدبى خاص عرف فى تاريخ الأدب والدين باسم « سجع الكهان » .

---

(١) الحيوان ٦ / ٢٤٧ — ٢٥٢ :

(٢) ص ١٣٥ وما بعدها:

الفصل الثالث

الكهانة والأدب الجاهلي

١ — الكهانة :

بفتح الكاف أو كسرها « ادعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب ، والأصل فيها استراق الجنى السمع من كلام الملائكة فيلقيه فى أذن الكاهن[١] . وجاء فى بلوغ الأرب أنها على أصناف .

(أ) منها ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه، إلى أن يتلقاه من يلقيه فى أذن الكاهن[٢] . وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية خصوصاً فى العرب لانقطاع النبوة فيهم[٣] . فلما جاء الإسلام ونزل القرآن، حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب ، فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب . وإلى ذلك يشير قوله تعالى : «إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ ، فأتْبَعَه شِهَابٌ ثاقب[٤] » .

(ب) ومنها : ما يخبر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا ، أو يطلع عليه من قَرُبَ منه لامن بعد .

(حـ) ومنها : ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وهذا قد يجعل اللهُ تعالى فيه لبعض الناس قوة ، مع كثرة الكذب فيه .

(د) ومنها : ما يستند إلى التجربة والعادة ، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك . . . وقد يعتضد بعضهم فى ذلك بالزجر والطرْق والنجوم[٥] .

(١و٢و٣و٤) بلوغ الأرب ٣/٢٦٩ — ٢٧٠ (٥) نفسه ٢٧٠ .

وعلى هذا تكون الكهانة ، الإخبارَ عما وقع أو يقع فى السماء والأرض اعتماداً على الجن فى الحالتين الأوليين ، وعلى قوة الحدس والفراسة والتجربة فى الصنفين الأخيرين .

٢ — وقد عدت الكهانة علما[١] ، ويراد بذلك أن لها أصولا وقواعد يتعلمها الكاهن ، ولكنها تصير حرفة يزاولها قوم من الناس للتنبؤ بالغيب والإخبار بالمستقبل يمهر فيها صاحبها بطول الممارسة والمران .

وكانت منزلة الكاهن عند العرب عظيمة ، وكانوا يعتقدون فيه القدرة على كل شيء ، « فكانوا يستشيرونه فى حوائجهم ، ويحتكمون إليه فى خصوماتهم ويستطبونه فى أمراضهم ، ويستفتونه فيما أشكل عليهم ، ويستفسرون منه رُؤاهم ، ويستنبؤنه عن مستقبلهم . وبالجملة فالكهان عندهم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين ، شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الأمم القديمة فى بابل وفينيقيا ومصر وغيرها[٢] . ويرى جورجى زيدان أنها من العلوم الدخيلة على العرب ، حملها إليهم الكلدان مع علم النجوم ، مستدلا بأن الكاهن يسمى فى العربية (حازى) أو (حزاء) وهو لفظ كلدانى معناه الاشتقاقى الناظر أو الرائى أو البصير . وهو يدل عندهم على الحكيم والنبى[٣] . أما لفظ الكاهن نفسه فقد اقتبسه العرب من اليهود الذين نزحوا إليهم على إثر ما أصابهم من النكبات فى أورشليم بعد خرابها على يد طيطوس سنة[٤] ٧٠ م .

وربما كان هناك بعض القوة فى استدلال جورجى زيدان على نقلها أو نقل بعض أصولها من الكلدان . لكن الكهانة — كما يقول روجيه باستيد — « تعتمد على ميل غريزى لدى الإنسان الذى يهتم طبيعيا بما يخبئه له المستقبل[٥] » . فهى لهذا السبب أقدم عهداً من الوقت الذى صارت فيه علما ، وأقدم فى بلاد العرب من زمن النقل عن الكلدان .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١/١٩٤ (٢) نفسه ١/١٧٣

(٣و٤) نفسه ١٧٤ (٥) مبادىء علم الاجتماع الدينى/٢٥

أما علم الكهان عند العرب ، فكان « يأتيهم بواسطة الأرواح،فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك إلى استطلاع الغيب عن أفواه الملائكة ، وإذا كان من عبدة الأصنام اعتقد احتلال الأرواح للأصنام ، وإباحتها أسرار الطبيعة للكهان والسدنة ، فيقول العرب إن الأصنام تدخلها الجن (أى الأرواح) وتخاطب الكهان . وإن الكاهن يأتيه الجنى بخبر السماء ، وربما عبروا عنه بالهاتف[1] .

٣ — وكان عندهم أماكن مشهورة بأصنامها يسمعون فيها أصواتا[2]، ويكلمون منها ، ويعتقدون أن الأرواح تقيم فيها ، وهى مصدر هذا الكلام . ومن هذه الأماكن :

(ا) رِئَام : وهو بيت كان لحِمْيَر بصنعاء، يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح، وكانوا فيما يذكرون، يكَلَّمون[3] منه . وكان مع تُبَّعٍ حَبران من يهود بنى قريظة عند عودته من الحجاز . فلما سمعا الكلام قالا لتبع : « إنما هو شيطان يفتنهم بذلك. فخل بيننا وبينه . قال: فشأنكما به » . فرأىُ الحبرين ترديد لما يعتقده العرب من حلول الأرواح فى بيوت الأصنام .

(ب) العُزَّى : وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، اتخذها ظالم بن أسعد، وبنى عليها بيتا ، وكانوا يسمعون فيه الصوت . وكان العرب يعتقدون أنها شيطانة تأتى ثلاث سَمُرَات . وقد قتلها خالد بن الوليد بعد فتح مكة . ورمته بالشرر حتى احترق عامة فخذه ، وبرىء لما عاده النبى صلى الله عليه وسلم .

(ج) وكان للعباس بن مرداس صنم يسمى « الضِمَاد » ورثه عن أبيه . يقول العباس : « فلما ظهر أمر رسول الله صلى عليه وسلم سمعت صوتا فى جوف الليل راعنى، فوثبت إلى «ضماد » ، فإذا الصوت فى جوفه[5]» . وقد حدثه فى أبيات من الشعر عن الإسلام والرسول الكريم ، فاهتدى .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١/ ٢٧٤ (٢) الحيوان ٦/ ٢٠١

(٣) الأصنام لابن الكلبى ١١/ (٤) الأصنام ١٨و٢٥و٢٦، والحيوان ٦/ ٢٠٢

(٥) الأغانى ١٣ /٦٢ الساسى

٤ — ومن الكهان الذين دعاهم شيطانهم إلى الإسلام ، عدد نذكر منهم : سوادَ بن قارب[1] ، الذى جاءه رئيه ثلاث ليال وهو بين النائم واليقظان ، يضربه برجله ويدعوه إلى أن يرحل إلى الصفوة من هاشم . فذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، وأنشده شعراً يخبره فيه بقصة الجنى ، ويشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويسأله الشفاعة قائلا :

وكُنْ لِى شفيعاً يَوْمَ لاذُو شفاعةٍ ... بمُغْنٍ فَتِيلاً عن سَوادِ بن قَارِبِ

ونذكر منهم أيضا « خُنَافِرَ بنَ التَّوْءَم » الحميرى[2] . وكان رئيه لا يكاد يتغيب عنه فى الجاهلية ، فلما شاع الاسلام جاءه يدعوه إليه ، ويثنى على النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم .

الكهنة والمتنبئون :

وقد عرف بالكهانة قوم من العرب رجالا ونساء ، بعضهم قبل الإسلام وبعضهم أدركه ، منهم شِق وسَطِيح ، ومنهم عبد المسيح بن نُفَيْلَةَ الغسانى ، عدا خنافر وسواد ، أما الكواهن من النساء فكن عديدات ، منهن « طَرِيفَة » كاهنة اليمن فى القديم ، وسَلْمى الهمْدانية ، وعُفَيْراءُ الحميرية ، وفاطمة الخَثْعَمية ، وسَجَاح التميمية ، وزرقاء اليمامة ، وزَبْرَاء الكاهنة . وقد ينسبون إلى القبيلة أو الوطن ككاهنة بنى سعد، وحازى جهينة ، وزرقاء اليمامة .

٥ — ومن الذين تنبئوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم من كان كاهنا وحسب أن شيطانه الذى كان يأتيه بالأخبار فى الجاهلية يصح أن ينقلب ملكا يوحى إليه فى زمن النبوة ، وأشهر هؤلاء مسيلمة : وكان يدعى أن معه رئيا فى أول زمانه[3] . ومنهم الأسود العنسى ، ويقال له « ذو الخمار » لأنه كان يغطى وجهه بخمار . وقيل إن « ذا الخمار » اسم شيطانه . بل سخرت الروايات

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١٣٣ وبلوغ الأرب ٣/٣٠٢ — ٣٠٤ .

(٢) الأمالى ١ / ١٣٤ دار الكتب . (٣) الحيوان ٦ / ٢٠٥ .

من اسم شيطانه فقيل إن اسمه « ذو حمار[1] ». وكان كاهنا مشعبذا ، — يُري الناس الأعاجيب ويسبي منطقه قلب من سمعه ، وكان يزعم أن ملكين يكلمانه اسم أحدهما شهيق والآخر شريق . وكانا يخبرانه بالأمور الحادثة بين الناس[2] .

فهؤلاء كهان سميت شياطينهم بأسماء كما سمي شياطين الشعراء بأسماء ، وأعانوهم على أداء وظائفهم بكل ما استطاعوا من قوة ، فامتازوا على غيرهم بفضل أولئك الشياطين ومعونتهم ، وسحر بيانهم أيضاً .

لغة الكهانة :

١ — أما لغة هذه الكهانة فكانت ذات طابع فني خاص ، كانت سجعا قصير الفقرات ، وقد تحلى بالشعر كثيرا مع تعقيد وغموض أحياناً ، وقد تحتمل الجملة فيه أكثر من معنى . وكانوا يتوخون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتمل أكثر من وجه ، وعرف ذلك عند غيرهم من الأمم مثل اليونان كما سنرى . فإذا لم يصدق هذا التكهن بمعنى من المعاني ، صدق بالمعنى الآخر ، وظلت منزلة الكاهن عالية ، على أن بعض الكهان كان صريحا في أخباره صراحة لا تحتمل الشك ، وكان شيطانه واثقا مما يقول فأخبره بالحق على وجهه ، كشيطان سواد بن قارب ، والعباس بن مرداس .

٢ — ومن الكهانات القديمة التي رويت بلغة الكهانة القريبة من الإسلام ما أخبرنا به المسعودي[3] عن كهانة أسطورية تتصل بسد مأرب ، وسيل العرم ، وانتقال القبائل من اليمن إلى أجزاء أخرى من جزيرة العرب . فإن كاهنتهم « طريفة » أنذرت ملكهم عمرو بن عامر بزوال ملكه استنباطا من

---

(١) في القاموس ح ٢ : وذ والحمار الأسود العنسي المتنبيء كان له حمار أسود معلم يقول له اسجد لربك فيسجدله . ويقول له ابرك فيبرك .

(٢) تاريخ الخميس ٢ / ١٧٣ . واخبار الكهان موجودة في كتب التاريخ والتفسير والأدب، كالبداية والنهاية ، ومروج الذهب ، والأغاني ، والعقد الفريد ، وسيرة ابن هشام ، ومعجم البلدان ، وحياة الحيوان للدميري .

(٣) الأسطورة في مروج الذهب ١/٢٣٩ — ٢٤٢ .

منام رأته ، وعلائم وقع نظرها عليها بعد هذا المنام ، فلما أخبرته بهذه العلامات سألها : ما ترين فى ذلك ؟ فأجابته . «داهية دهياء ، من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة . قال : وما هو ، ويلك ؟ قالت : أَجلْ ، وإن فيه الويل ، ومالك فيه من نَيْل ، وإن الويل ، فيما يجىء به السيل » . . . وفى الميدانى[1] عند المثل « تفرقوا أيادى سبا » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن سبأ هذا ، فقيل إنه أبو عشرة من العرب تفرقوا فى البلاد بعد سيل العرم الذى حدث من انهيار سد مأرب ، وإن « طريفَة » الكاهنة قد أخبرتهم بذلك ، وإنها ارتحلت مع عدد من قومها إلى مكة وما حولها ، فأصابتهم الحمى وكانوا ببلد لايعرفونها فيه . وسألوها : « ماذا تأمرين ؟ فقالت : من كان منكم ذاهم بعيد ، وجمل شديد ، ومَزَاد جديد ، فليلحق بقصر عُمَان المشَيد . فكانت أزد عمَان . ثم قالت : من كان منكم ذا جَلدَ وقَسْر ، وصبر على أزمات الدهر ، فعليه بالأراك من بطن مر . فكانت خزاعة . ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحْل ، فليلحق بيثرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج . ثم قالت : من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والمُلكَ والتأمير ، ويلبس الديباج والحرير ، فليلحق ببصرى وغَوير ، (وهما من أرض الشـــام) . فكان الذين سكنوها آل جفنة من غسان . ثم قالت : من كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخيل العتاق ، وكنوز الأرزاق ، والدم المهراق ، فليلحق بأرض العراق . فكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة وآل مُحَرِّق » .

ويتضح من هذه القصة أن طريفة تكهنت بخراب سد مأرب فراسة ، عندما بدت لها الدلائل . واختارت لكهانتها أو لفراستها تلك اللغة المألوفه فى أوساط الكهان وهى السجع ، وهو فى الواقع سجع مفهوم ، وإن بدا فى أوله غير واضح ، لكن الجملة الأخيرة كانت تعين المراد ، وبعض الروايات يجمل بدء

(١) مجمع الأمثال ١/٢٤٢ .

هذه القصة فى النوم[1] وأنها كانت رؤيا رأتها ، وعند ئذ يكون الوحى بها من شيطان الكاهنه .

٣ — أما سجع الكهانة المحتمل لأكثر من معنى ، أو العام الذى يمكن تأويله ، ولا يكون نصاً فى معناه إلا بعد الرجوع إلى الكاهن فذلك هو الشائع عن الكهان ، ولكن الباقى منه قليل ، ومنه ماجاء فى قصة هند بنت عتبة لما رحل بها أبوها إلى بعض الكهان كى يخبرهم ببراءتها أو إجرامها ، على أثر اتهام زوجها الفاكه بن المغيرة لها . لقد رحلت مع أبيها وخرج زوجها الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم « فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيرت حال هند ، وتنكر أمرها ، واختطف لونها ، فرأى ذلك أبوها فقال لها : إنى أرى ما بك ، وما ذاك إلا لمكروه عندك ، فهلا كان ذلك قبل أن يشتهر عند الناس سيرنا ! قالت : يا أبت ، إن الذى رأيت منى ليس لمكروه عندى ، ولكنى أعلم أنكم تأتون بشرا يخطىء ويصيب ، ولا آمن أن يسمنى ميسما يكون على عاراً عند نساء[1] مكة » : ولعل أباها شك مثل شكها فى الكهانة ، وكذلك قومها من بنى هاشم ، فإنهم قبل أن يصلوا إليه خبئوا له خبيئا ليختبروه إذا وصلوا ، فلما قدموا عليه سألوه عن ذلك الخبىء فأجابهم : إنه ثمرة فى كمرة « فقالوا له بين أكثر من هذا . فقال : حبة بر ، فى إحليل مهر ، فقالوا : صدقت » ، ثم نظر إلى هند فبرأها قائلا : « انهضى غير رسحاء ولا زانية ، وسوف تلدين ملكا اسمه معاوية » .

٤ — وكثير من هذه الأخبار عرضة للنقد وموضع للتجريح ، ولكن هذا لا يمنع شيوع الفكرة والعقيدة فى هؤلاء الكهان وكهانتهم ، ودليلنا على استراق السمع نصوص لا شك فى صدقها فهى من القرآن الكريم فى سورة الصافات[3] والحجر[4] والملك[5] ، وفى هذه الآيات أن الشياطين كانت تسترق السمع ، وأنها كانت تسمع إلى الملأ الأعلى ، وكانت تخطف الخطفة

---

(١) بلوغ الأرب ٣/٢٨٣ .

(٢) شرح نهج البلاغة ١ / ١١١ — العقد الفريد ١٤٩ .

(٣) من ٥ — ١٠ . (٤) من ١٦ — ١٨ . (٥) الآية ٥ .

فتصيبها الشهب وقد تحرقها ، وقد يَسْلم بعضها ويلقى إلى وليه من الإنس — وأكثرهم من الكهان — بعضَ الخبر فيزيد فيه الكاهن ، ويلقيه بتلك اللغة التي أشرنا إليها فيما تقدم لتكون أقوى تأثيراً . ويحتمل أن تكون تلك اللغة من عمل الشيطان ، كما يحتمل أن تكون من صناعة الكهانة .

٥ — وكانت الكواهن من النساء أقدر على ما يعجز عنه الرجال ، جاء في أخبار « عفيراء » الكاهنة الحميرية . فإن مرثد بن عبد كلال حشر الكهان ليخبروه بتفسير رؤيا فعجزوا . وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ! إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ، لأن أتباع الكواهن من الجان ألطف وأظرف من أتباع الكهان ، ولكنهن عجزن عن ذلك . حتى اهتدى إلى عفيراء الحميرية فأولت له رؤياه ، فأراد أن يتزوجها وجال ذلك في خاطره فأدركت ما دار في نفسه وقالت : « أبيت اللعن أيها الملك ! إن تابعي غيور ، ولأمري صبور ، وناكحي مَثْبور ، والكَلَفُ بي ثُبُور[1] » .

٦ — ولا أريد أن أخص السجع بالكهان لأن أكثر ما جاءنا من نثر الجاهلية سجع كذلك ، ولكن النهي عن سجع الكهان ، أو تحريم سجع الكهان ، كان بسبب اتصالهم بالجن واحتمال الكذب في أكثر أخبارهم ، كما يفهم من النصوص ومن أقوال المفسرين ، وهذا هو تعليل الجاحظ ، عند ما تحدث عن السبب في كراهية الأسجاع[2] .

ولا نحب أن نترك هذا الفصل قبل أن نورد خبراً من أخبار تلك الكهانات اشتهر بين الناس لشهرة كهانه ، والحادثة التي اتصلت به ، وهي ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما حدث في تلك الليلة من أحوال عدت إرهاصات بمقدمه صلى الله عليه وسلم ، تلك هي كهانة كاهن مشهور يسمى سطيح بن مازن بن غسان .

أما سطيح نفسه فكان غريب الخلقة ، كان يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم

---

(١) بلوغ الأرب ٣/٢٩٦ — ٢٩٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٩٥ السندوبي .

فيه إلا الجمجمة ، وكان وجهه فى صدره ، وليس له رأس ولا عنق ، والحق أن هذا الوصف يلحقه بالشياطين أنفسهم ، لا أن تنزل عليه فقط ، أما الخبر فهو[1] :

لما كانت الليلة التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرافة ، فعظم ذلك على أهل مملكته ، وكتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة فاضت ، وأحداثاً أخرى عظيمة حدثت ، وأخبره الموبذان أنه رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا، تقتحم دجلة وتنتشر فى بلاد فارس ، فبعث إلى عامله بالحيرة فأرسل إليه عبد المسيح بن بقيلة الغسانى ، فلم يدر تأويل ما رأى ، فجهزه كسرى إلى خاله سطيح بالشام . « فلما قدم على سطيح وجده قد احتضر ، فناداه فلم يجبه ، وكلمه فلم يرد عليه ، فقال عبد المسيح :

أَصمٌّ أم يسمَعُ غِطْريفُ اليمنْ ... يافاصل الُخطَّـهِ أعيَتْ مَنْ ومَنْ

أَتاكَ شيخ الجنِّ من آل سَنَنْ ... أبيَضَ فضفاضَ الرداء والبَدَنْ

رسولُ قَيْـلِ العُجم يهوِى للوَثَنْ ... لا يرهبُ الرعدَ ولا ريب الزمنْ

فرفع إليه رأسه ، وقال : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، جاء إلى سطيح وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قداقتحمت فى الواد وانتشرت فى البلاد ؛ ثم قال :

ياعبد المسيح ، إذا ظهرت التلاوة ، وفاض وادى السماوة ، وظهر صاحب الهراوة ، فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملكات ، عدد سقوط الشرفات ، وكل ماهو آت آت ، ثم قال :

إن كان ملكُ بنى ساسانَ أفرطهم ... فإن ذا الدهرَ أطوار دهاريرُ

منهم بنو الصَّرح بهرامٌ وإخوتُه ... والهُرْمُزَانُ وسابور وسابور

فربما أصبحوا يوما بمنزلة ... تهابُ صولهم الأُسدُ المهَاصيرُ

---

(١) بلوغ الأرب ٣/٢٨١ .

حثوا المطىَّ وجدُّوا فى رحالهمُ ... فما يقومُ لهم سرحٌ ولا كُورُ
والناس أولاد علاَّتٍ فمن علموا ... أن قد أقلَّ فمحقورٌ ومهجورُ
والخير والشر مقرونان فى قَرَنٍ ... فالخير متَّبع والشر محذور

فلما قدم عبد المسيح على كسرى وأخبره ، قال كسرى : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا تكون أمور . فهلكوا كلهم فى أربعين سنة .

الكهانة عند الأمم الأخرى :

ولما كانت الكهانه راجعة إلى حب استطلاع الغيب ، وهو غريزة كما يقول « باستيد » ، أو إلى إيمان الناس بوجود الجن وقدرتهم على الإخبار بهذا الغيب ، وحمل أخباره إلى الناس ، كان من الطبيعى أن توجد عند غير العرب كما وجدت عندهم . وقد سبق أن أشرنا إلى أنها عرفت عند الكلدان ، وناقشنا الرأى القائل بأن العرب نقلوها عنهم . وعلى كل فقد كانت الكهانة عند الكلدان علما وممارسة . وكانت معروفة عند العبرانيين ، وأخذ العرب عنهم لفظ الكاهن[1].

(ا) وكان للكهان منزلة عظيمة فى مصر القديمة ، حتى إنهم حكموا البلاد فى بعض العهود . وكانت المعابد التى يسيطر عليها الكهنة ملجأ الجائرين ، ومهبط الهاتف وموطن الرؤى التى تكشف عن المستقبل . وفى سنة ١٩٠٠ م عثر عالم أنجليزى من علماء الدرسات المصرى القديمة واسمه جريفت F.L.L. Griffith على بردية فى المتحف البريطانى ترجمها إلى الإنجليزية ، فإذا هى قصة طويلة خلاصتها أن أسانتى ، ابن الفرعون (أو زعاريس) ، كان عالما يجيب على كل سؤال ، ولكنه كان عقيما ، فذهبت امرأته إلى المعبد ودعت ربها أن يرزقها بولد ، ونامت ليلتها فى المعبد فرأت فى نومها أن دعوتها ستجاب . وفى ليلة أخرى ، رأت هاتفا يخبرها أن ابنها سيكون صاحب كرامات ، ويطلب منها أن تسميه (سينوزيريس[2]) .

---

(١) على هامش التاريخ المصرى القديم ١ / ٩٥ .

(٢) انظر فى هذه الفقرة : علم الاجتماع الدينى ١٢٥ ، وتاريخ آداب اللغة العربية ١ / ١٧٤ .

بل إنه فى الزمن الغابر كان فرعونُ الكاهنَ الأعظم ، والوحيد الذى يستطيع مخاطبة الألهة لأنه من جنسهم ، ثم اضطر إلى إيجاد هيئة كهنوتيه نقل إليها قواه الغيبية ، عند ما اتسع سلطانه وكثرت أعماله .

ولما ولد أوزيريس ارتفع صوت من معبد آمون فى طيبة ، يبشر العالم بأنه قد جاء « سيد كل شيء » ، وإذا ذاك كان رجل من أهل طيبة يلتمس ماء فى المعبد ، فسمع هاتفا يأمره أن يعلن أن أوزيريس ، الملك العظيم ، والمحسن للكون قد ولد[1] .

وزار هيرودوت المؤرخ اليونانى هذه البلاد ، مصر ، حوالى منتصف القرن الخامس ق . م . وروى «أنه لاتوجد امرأة تباشر الكهانة لمعبود أو معبودة » ، وإنما الرجال هم الكهان للمعبودات جميعا ، « وهـذا خطأ ، فقد دلت الآثار على أن النساء كن يكهن للمعبودتين: «نيت Neith» التى كانت تعبد فى صا الحجر وإسنا ، « وهاتور أو حاتحور » ، إلهة الحب والجمال ، ولمعبودات أخرى ، — كما دلت الآثار على أنه كانت توجد فى معبد آمون فى طيبة طوائف من النساء ملحقات به . . . بعضهن للكهانة ، وكانت كبيرة الكاهنات تلقب بالرئيسة العليا لسيدات آمون ، وهى فى الغالب الملكة ، أو بنت الملك ، أو زوجة الكاهن الأعلى ، أو أرملته[2] .

وظلت هذه الكهانة العثرية فى مصر القديمة زمنا طويلا وكانت منزلة الكاهن عظيمة ، وكان الكهان يتلقون علم الغيب فى المعابد ، ويسمعون الهواتف تخبرهم فى الحوادث العظيمة من تلك الأماكن ، كما كان عندهم كاهنات من النساء ، وإن أنكر ذلك هيرودوت . أما لغة تلك الكهانة فتقضى الظروف أن تكون كغيرها فى البلاد الأخرى ، فتكون لغة أدبية تميل إلى المحسنات والزخرف لتفتن السامعين بجمالها ، وتكون غير محددة ، ليسهل تأويلها عند الضرورة بما لاينقص قدر الكاهن .

---

(١) نفسه ٢ / ٣٨ .   (٢) نفسه ١ / ١٩ .

(ب) وكان فى اليونان كهانة مشهورة بآلهتها وأماكنها ولغتها، والرسوم التى تتبع عند تلقى الوحى من تلك الآلهة .

١ — فقد كان زيوس Zeus (المشترى) كبير الآلهة يسكن على جبل أولمب Olympus فى « تسالى » . وكانت أرض « دودونا » مقدسة لأنها كانت موضع الاتصال المباشر به . . . وكانت هناك شجرة بلوط تداعب الريح أوراقها فيسمع لها حفيف ، فيكون ذلك دليلا على أن الإله يريد أن يتصل بالناس ، وتترجم الكاهنة ما يريد الا له أن يخبرهم به[1] . وأشهر إله للكهانة عند اليونان هو أبولو Apollo إله الشمس . فعد إلها للإخبار بالغيب لأنه ، وهو رمز الشمس ، يلقى ضوءاً على طرق المستقبل المظلمة . وهو الذى يقتل وحش الظلام بيتون Python لأنه يقف فى سبيل استطلاع الغيب فى دلفى[2] . ومن أساطير هذا الإله أبولو أنه غذى بشراب الآلهة وطعامهم ، فنما قويا ، وصار بعد ساعات من مولده شابا فاتن المنظر ، وأعلن أنه سيخبر عن الغيب بصادق الأخبار[3] . وهو الذى اختار وادى دلفى الصخرى الهادئ مستقراً لكهانته ، وكان معبده هناك مقصد الناس من جميع بلاد اليونان ليعرفوا المستقبل بفضل أبولو[4] .

٢ — أما الإجابة على الأسئلة التى كانت توجه إليه ، فكانت تتولاها عنه كاهنة تسمى بيتى . وكانت فى أول أمرها فتاة صغيرة ، فطمع فيها الطامعون . فاستبدل بها امرأة فى الخمسين . وكانت هناك شعائر تؤديها ، كأن تطهر نفسها بمياه عين كاستالى المشهورة Castali التى تجاور المعبد ، وكانت تحرق بخورا وتجلس على مقعد فوق صدع فى الأرض ، يخرج من أعماقه دخان أو بخار يهيىء الراعية لحال الكهانة .

وكان كلام الكاهنة غامضا يقوم الكهان بجمعه وتفسيره ، وكانت الكهانات تلقى إلى السائلين شعرا[5] . ويعزو اليونانيون أول ماقيل من شعر فى البحر

---

(١) Manual of Mythology p. 39 (٢) Ibid, p. 104
(٣) Ibid, p. 110, 112 (٤) Ibid, p. 113, 140
(٥) Delphes & Son Oracle, p. 7

العشارى إلى كهنة دلفى، الذين ابتكروا هذا البحر ليستخدموه فى نظم نبوءاتهم[١]. وكان هؤلاء يسمعون أصوات الكاهنة ويلتقطون كلماتها ، ويجعلون ذلك أساساً لشعرهم المنظوم بطريقة ماهرة ، تجعل معناه محتملا للتأويل[٢] .

٣ — وسارت شهرة دلفى فى البلاد ، واستنبأه ملوك أجانب أيضاً مثل كريسص Cresus ملك ليديا Lydia، وتلقى جوابا غامضا عندما استشار الكاهنة فى إحدى حروبه ، فكان جوابها « أنه سيدمر إمبراطورية » وأول السائلون هذه الإجابة بأن مملكة العدو هى المقصودة . لكن كريسص هزم ، ودمرت مملكته . ولم يؤخذ على إجابة الكاهنة شىء . ولما أرادت القوات الفارسية غزو بلاد اليونان ، رجع اليونانيون إلى هذه الكاهنة ، فكان الجواب : « ثقوا بقلعتكم الخشبية » « . فحصنوا الأكروبول[٣] بحواجز من الخشب ، فلم تقاوم العدو ، وفهم بعض الشبان أن المراد بذلك هو الأسطول ، فاعتمدوا عليه فانتصروا على الفرس فى معركة سلاميز[٤] .

وكانت « حقيقة سقراط » من أشهر الأمور التى لجئوا فيها إلى كهانة دلفى . ذلك أن أهل أثينا اتهموه أنه يفسد الشبان ، ولكن إله دلفى قرر على لسان « الراعية » أنه ليس فيهم من يفوق سقراط فى الحكمة . ودافع هو عن نفسه بذلك ، غير أن تلك الكهانة لم تغن عنه شيئا ، وحكم عليه بالموت ، فلقيه على طريقته الفلسفية[٥] .

٤ — فالكهانة عند العرب واليونان وغيرهم من الأمم ازدهرت فى عصر الأساطير وكان لها أماكن خاصة ، وقوم مخصوصون بها من الرجال والنساء ، يزعمون أنه يوحى إليهم بالأخبار ، وبجواب مايسألون عنه ، وكانت إجاباتهم فى لغة خاصة تمتاز بالموسيقى ، شعرا أو نثرا ، وكان الشعر عند اليونان من البحر العشارى ، وعند العرب من الرجز كثيرا . واتسمت لغة الكهانة إلى حد ما

---

(١) قصة الحضارة ١٣٢/١ (٢) Manual of Mythology, p. 110

(٣) حصن أثينا القديم على تل يرتفع ١٥٠ قدما (٤) Ibid, 110

(٥) محاورات أفلاطون : ترجمة الدكتور زكى نجيب / ٥٩ .

بالغموض ، واحتمال التأويل، ليسلم الكاهن من اللوم إذا أخطأ الناس فى التأويل، أو كذبت الحوادث والأيام مايفهم من تلك الكهانات ·

والكلمة الأخيرة هى : أن الكهانة امتازت بأنها ذات لغة خاصة ، وأن مصدرها قوة أكبر من قوة الناس ، فاللغة الخاصة تكون شعرا أو نثرا مسجوعا، والقوة التى توحى بها هى الآلهة أو الجن أو الشياطين . والفروق بينها وبين ما نريد الكلام فيه من شياطين الشعراء فرق قليل ، والأصل فيهما لغة ممتازة توحى بها قوة قادرة وينطق بها من الناس قوم ممتازون .

الفصل الرابع

شياطين الشعراء

فى عصر الأساطير

حديثنا فى هذا الفصل عن عقيدة شاعت عند العرب ، كما شاعت عند غيرهم من الأمم ؛ وهى : وحى الشياطين إلى الشعراء . بسحر البيان وبديع القول فى لغة راقية ، وقول موزون هو « الشعر » ، أو هى إيمانُ العرب كما آمن غيرهم بأن هـذا الشعر وحى يوحى ، وفن تلقية القوى العليا على المصطفين الأخيار من بنى آدم ، فينطقون بلسان هذه القوى ، ويذيعون فى الناس ماتلهمهم ربات الشعر أو شياطين الشعراء .

١ — والشعر ظاهرة لايستطيعها فى كل الأمم والعصور إلا قليل،وقد لايعرفون سبب امتيازهم فيها ، ولا أصل قدرتهم عليها ولـكنهم ينطقون بهذا الـكلام الذى يمتاز على غيره من الـكلام بنظام خاص فى تركيبه[1] ، وحالات غريبة تحيط بالشعراء إذا ألقى إليهم وحيه ، وهبط عليهم شيطانه . فـكان من الطبيعى أن يردوه فى عصر الأساطير إلى قوة أعلى من قوتهم تستطيع كل عجيب من القول والفعل ، والشعراءَ مسخرون لإذاعة مايلهمون .

٢ — أما أولئك الشعراء فـكانوا فى المنزلة السامية من قبائلهم فى تلك العصور ، كما كان الـكهان، وذلك لصلتهم بتلك الأرواح، وقدرتهم على ذلك القول الساحر الذى يسمى شعرا . وأما فضلهم على قومهم فى السلم والحرب ، وفى حاضرهم ومستقبلهم فـكان عظيما ، كانوا يودعون أشعارهم مآثر قومهم : ويحفظون فى قصائدهم

---

(١) موسيقى الشعر ٨ — ١١ .

تاريخ قبائلهم وجنسهم ، وكانوا يدافعون عن حماهم ويذودون عن أعراضهم ، ويسير شعرهم فى الآفاق ينقل إليها هذه المفاخر والمآثر ، ويحفظ للأجيال ما اشتمل عليه من آداب الأقوام وعلومها وأخلاقها . هذا فضلا عن تأثيره فى نفوس الأبطال يوم النزال ، وتمجيده لأعمال الشجعان فى الميدان ، وتحدثه ببلائهم وصبرهم عند اللقاء ، وحفظه لذكرهم إذا لقوا حتفهم فى ميادين الشرف ، والدفاع عن الأعراض والحرمات .

٣ — وأما تأثير الشعر فى النفوس واستمتاع الناس بقراءته أو سماعه ، وترديدهم لأبياته ذات الموسيقى والرنين ، فلأنه ممتع فى ذاته ، يعين على متاعب الحياة ، ويسلى فى الوحدة ، ويبعث السرور والنشوة ، ويطرب السمع والفؤاد .

ولا نريد أن نكثر فى مزايا الشعر وفضله ، فذلك معروف مشهور ، والدلائل على هذا فى تاريخ العرب والأدب العربى قديما وحديثا مشهورة . ولأمر ما شاع عند العرب تعليق المعلقات فى الكعبة ، وكتابتها بماء الذهب فى القباطى ، ولأمر ماقال الشاعر :

أَلْهَى بَنِى تَغْلِبٍ عن كلِّ مَكْرُمَةٍ ... قصيدةٌ قالها عَمْرُو بنُ كلثومِ

وبقيت الحلل التى كساها زهير هَرِمَ بن سنان ، وفنيت عطايا هرم . ولم يبق من عطايا سيف الدولة شيء ، وخلدته سيفيات المتنبى ومدائحه . وصدق رسول الله : إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة » .

فلا عجب أن نسبت الأمم هذا الشعر إلى آلهة أو شياطين ، وأن وجدوا فى هذه النسبة تعليلا لمصدر هذا الشعر الذى لايحسنه غير نفر قليل ، فى كل زمن وقبيل .

وقد آمن العرب بهذه الفكرة فى عهد الأساطير ، وظلت شائعة عنهم حتى حفظها عصر التدوين ، فأخبرنا الرواة ، وسجل لنا المؤلفون شيئا مما كان يعتقد آباؤهم فى الجاهلية ، خاصا بشياطين الشعراء .

(أ) وقد أورد أبو عثمان الجاحظ قصيدة للحكم بن عمرو البهرانى أشار

فيها إلى أنه تزوج الغول ، وتحدث فيها عن نسبها ، فجعل لها صلة بشياطين الشعراء ؛ إذ جعلها بنت عمرو ، وجعل خالها مِسْحَل الخير ، كما جعل له هو صلة بالجن ، ولو من بعيد ، وجعل خاله همياً الفرزدق صاحب الجنى عمرو . وقد أورد الجاحظ القصيدة بتمامها تحت عنوان : « شعر الحكم بن عمرو فى غرائب الخلق[1] » . وقبل أن يذكر الجاحظ بيتاً واحدا منها قدم لها بمقدمة تدل على كفرانه بما جاء فيها ، وعلى اتهامه للحكم بن عمرو فى أقواله ، ولكنه لا يطعن فيما نحن بسبيله ، فإننا نتكلم عن أساطير ، والجاحظ يكذب ذلك الأعرابى فى أن ما ذكره فى قصائده حقائق وقعت . قال الجاحظ :

« أنشد محمد بن السكن المعلم النحوى ، للحكم بن عمرو البهرانى فى ذلك (يريد مسخ ما كسين أحدهما ذئباً والآخر ضبعاً) وفى غيره شعراً عجيباً ، وقد ذكر فيها ضروباً كلها طريف غريب ، وكلها باطل ، والأعراب تؤمن بها أجمع » .

« وكان الحكم هذا أتى بنى العنبر بالبادية ، على أن العنبر من بهراء ، فنفوه من البادية إلى الحاضرة ، وكان يتفقه ، ويفتى فُتْيا الأعراب . وكان مكفوفا ودهرياً عُدْمُلياً »[2] .

أما البيت الذى نريده فهو قوله عن الغول :

بنتُ عَمْرٍو وخالُها مِسْحَلُ الخيرِ وخالى هُمَيْمُ صاحبُ عَمْرِو

ويفسره الجاحظ فيقول[3] : « إنهم يزعمون أن مع كل فحل من الشعراء شيطاناً يقول ذلك الفحل على لسانه الشعر . فزعم البهرانى أن هذه الجنية بنت عمرو صاحب المُخَبَّل وأن خالها مسحل شيطان الأعشى ، وذكر أن خاله هميم ؛ وهو همام ، وهمام هو الفرزدق ، وكان غالب بن صعصعة إذا دعا الفرزدق قال : يا هميم » .

---

(١) الحيوان ٦/٨٠ (٢) فتيا الأعراب = ضرب من الألغاز التى يراد بها إظهار المقدرة اللغوية : وفى المقامات شىء من هذا . العدملى = الهرم المسن (٣) نفسه ٦/٢٢٥ .

وأما قوله : « صاحب عمرو » فكذلك أيضاً يقال إن اسم شيطان الفرزدوق « عمرو » .

وقد ذكر الأعشى « مِسْحَلا » حين هجاه « جهنام » فقال :

دعوتُ خليلى مِسْحَلاً ودعوا له ... جُهَنام ، جَدْعاً للهجين الـمُذَمَّم

وذكره الأعشى فقال :

حبانى أخى الجنىُّ ـ نفسى فداؤه ... بأَفْيَحَ جياشِ العَشيَّات مِرْجَمَ

وقال أعشى سُلَيم :

وما كان جنىُّ الفرزدوق قُدوةً ... وما كان فيهم مثلُ فَحْلِ المُخَبَّلِ

وما فى الخوافى مثل عمرو وشيخه ... ولابعدَ عَمْرٍو شاعرٌ مثلُ مِسْحَلِ

إلى آخره ... » .

ويعنينا الآن من هذا الشعر تلك الإشارة إلى بعض شياطين الشعراء فى الجاهلية . أما شيطان الفرزدق الذى أشار إليه الحكم بن عمرو ، وعينه الجاحظ بالاسم ، وأشار إليه أعشى سليم ، فنؤخره إلى أن نتكلم عن شيطان الفرزدق فى العصر الدينى .

لقد أخبرنا الجاحظ بما يزعمه العرب من أن فحول الشعراء لهم شياطين ، ويفهم من قوله أنه لا شياطين إلا للفحول . وأن الشيطان يلقى الشعر على لسان ذلك الفحل من الشعراء . وجعل الجاحظ هذه المسألة زعماً من العرب . وللجاحظ فى الشياطين عامة رأى نؤخره إلى العصر العلمى .

أما الذين ذكرهم البهرانى فى القصيدة من شياطين الشعراء فى الجاهلية فهم : عمرو صاحب المخبل[1] السعدى من الشعراء المخضرمين ، ومسحل شيطان الأعشى . ونلاحظ أن الجاحظ حين تحدث عن عمرو شيطان الفرزدق لم يخبرنا

(١) الحيوان ٦/٢٢٦ ، المفضليات ١١٣ .

إن كان هو صاحب الخبل أو غيره . وأما البيت الذى جاء به عن الأعشى فهو تأكيد لقول الجاحظ إن اسم شيطانه مسحل . وأما جهنام فهو لقب عمرو بن قطن الذى كان يهاجى الأعشى .

وفى بيتى أعشى سليم أن عمراً كان شيطاناً لا مثيل له فى الخوافى ، أما شيخه فلم يعرف . وكان « مسحل » بلى عمرا هذا فى المنزلة عند أعشى سُلَيم .

(ب) أما الثعالبى[1] فقد تحدث عن شياطين الشعراء حديثاً أوضح وأزيد حيث يقول : « وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقى على أفواهها الشعر ، وتلقنها إياه ، وتعينها عليه ، وتدعى أن لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، فمن كان شيطانه أمرد، كان شعره أجود ، وبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بهذا الشأن أن ذكروا لها أسماء فقالوا : إن اسم شيطان الأعشى مسحل ، واسم شيطان الفرزدق عمرو ، واسم شيطان بشار شِنِقْنَاق . وفى مسحل يقول الأعشى :

وما كنتُ ذا قَوْلٍ، ولكن حسبتُنى إذا مِسْحَل يَبْرِى لى القولَ أَنطقُ
خليلان فيما بيننا من مَوَدةٍ شريكان جنىّ وإنس مُوَفَّقُ

هذا ما أورده الثعالبى . وقد جمل الشعراءَ أصحابَ الزعم ، ولم يعمم كالجاحظ . ولم يذكر من شياطين الشعراء فى الجاهلية إلا مسحلا شيطان الأعشى ، وجعل جودة الشعر تابعة لشيطنة الشيطان وقوته : « فمن كان شيطانه أمرد ، كان شعره أجود » .

(ح) أما أبو زيد القرشى فقد فصل الموضوع أكثر من غيره فى قصص طريفة جاء بها فى مقدمة كتابه جمهرة أشعار العرب[2] . وهى قصص إسلامية ، وأبو زيد يحدثنا فيها عن رواة خرجوا إلى البادية ، وقابلوا بعض الجن على هيئة ظباء فى صورة شيوخ وصبية . فيسأل الرواة الجنَّ عن أشعر العرب . . ،

---

(١) ثمار القلوب ٥٥ . (٢) من ص ٢٠ — ٢٤ .

فينشد الجنى شعراً لأحد المشهورين من شعراء الجاهلية وينسبه لنفسه . فيعجب الإنسى من هذه الإغارة على أشعار المشهورين ونسبة الشعر إلى نفسه مع أن صاحبه مشهور ؛ فيجيبه الجنى أنه هو صاحب الشعر، ولولاه ما كان شاعر الإنس شيئاً مذكوراً :

وشيطان القصة الأولى هو « هبيد » صاحب عبيد ويخبرنا أنه يوحى إلى « قَرْمَىْ أسد » عبيد بن الأبرص ، وبشر بن أبى خازم . وأما شيطان الكميت فهو « مدرك » . ثم يزيد إيضاحاً فيقول إن مدركا ابنُ عمه وأغم وواغم والصلادم من أشعر الجن[1] . ويخبرنا راوى القصة أن هبيداً قدم له عُسافيه لبن ظبى فكرهه لزهومته . ولو شربه لكان خير شاعر لقومه .

أما شيطان القصة الثانية الذى يقابل الراوية ويتحدث معه ، فهو مسحل السكران ابن جندل صاحب الأعشى . وقد أخبرنا أن لافظ بن لاحظ هو شيطان امرئ القيس ، وأن هبيدا صاحب عبيد وبشر . وأما هاذر فصاحب زياد الذبيانى[2] .

أما القصة الثالثة ، فيظهر فيها لافظ بن لاحظ ، ويقول عن ابن حُجْر وزياد إنهما أشعر العرب . ويعرف الراوى أن هاذر بن ماهر هو صاحب زياد الذبيانى وهو أشعر الجن وأضنهم بشعره[3] ويعجب كيف سلسل لأخى ذبيان به !

وهذه القصص تعد صدى للأفكار التى كانت شائعة عند العباسيين ، أو قبلهم عن شياطين الشعراء السابقين . ولكنها تتحدث عن قليل منهم لأنها لم تصل إلى أكثر من هذا العدد فيما عرف أبو زيد من الأساطير ، وليسوا جميعا جاهليين لأن الكميت إسلامى . وعرفنا من هذه القصص أن الشيطان قد يوحى إلى أكثر من شاعر كهبيد . وأن هؤلاء الشياطين رواة للأشعار ونقاد ، بجانب وحيهم إلى شعراء الإنس بالقصيد . وأنهم معمرون ، يعيشون من الجاهلية إلى عصر العباسيين .

---

(١) جمهرة أشعار العرب وستأتى هذه القصص فى الباب الثالث — المصدر العامى .

(٢) نفسه ٢٢ . (٣) نفسه ٢٣ و ٢٤ .

وعندنا قصة أرجعها أبو الفرج الأصفهانى[1] إلى الجاهلية . وروحها كروح القصص السابقة . وراويها جرير بن عبد الله البجلى، الذى لقى فى بعض أسفاره قوما مشوهين أخبروه أن أشدهم تشويها هو شاعرهم . وأنشده هذا قصيدة الأعشى :

وَدّعْ هُرَيْرة إن الركب مُرْتحلُ

فأعجبت جريرا وسأل عن قائلها ، فأخبره منشدها أنها له . فلم يصدق جرير لأنه كان سمعها عام أول بنجران من أعشى بنى ثعلبة . فقال له الجنى المشوه : إنك صادق . فأنا الذى ألقيتها على لسانه . وأنا مسحل صاحبه ، ثم أثنى على الأعشى بقوله : ماضاع شعر شاعر وضعه عند ميمون بن قيس .

ولا عجب أن يلقى الأعشى شيطانه ، وأن يحدثنا الرواة بذلك؛ ولكن العجيب أن يكون الأعشى على جهـــل بهذا الشيطان الذى يوحى إليه . فقد روى الألوسى فى بلوغ الأرب أن الأعشى[2] خرج يريد قيس بن معـد يكرب بحضرموت ، فضل فى أوائل أرض اليمن ، وأصابه مطر ، فلجأ إلى خباء من شعر، ووجد على بابه شيخا أحسن لقاءه ، وسأله عن نفسه ومقصده . فقال أنا الأعشى . أقصد قيس بن معد يكرب . فقال: حياك الله ، أظنك امتدحته شعرا . فأجاب الأعشى : نعم . فسأله الشيخ أن ينشده فابتدأ يقول :

رَحلَت سُمَيَّةُ غُدْوة أجمالَهَا غضَباً عليك فمـــا تقول بَدَا لهَا

وعند ئذ قال الشيخ : أهذه القصيدة لك ؟ فأجاب الأعشى : نعم . فسأله : من سمية التى تنسب بها ؟ فقال : لا أعرفها ، وإنما هو اسم ألقى فى روعى ، فنادى الشيخ : ياسمية . فخرجت جارية خماسية . فقال لها أبوها : أنشدى عمك قصيدتى التى مدحت بها قيس بن معد يكرب ، ونسبت بك فى أولها . فاندفعت تنشد القصيدة حتى أتت على آخرها ، لم تخرم منها حرفا . فلما أتمتها صرفها أبوها .

وفعل الشيخ مثل مافعل فى المرة الأولى فى قصيدة أخرى للأعشى قالها هجاء لابن عمه يزيد بن مسهر، ويكنى أبا ثابت . وهى معلقته المشهورة :

---

(١) الأغانى ٨/٧٩ (٢) ٢/٣٦٧

وَدّع هُرَيْرَةَ إن الركبَ مُرْتحلُ   وهل تُطيق وَدَاعاً أيها الرَّجلُ

ولم يعرف الأعشى مَنْ هريرة ، فناداها الشيخ . فخرجت وأنشدت القصيدة من أولها إلى آخرها ، لم تخرم منها حرفا . عند ئذ سقط فى يد الأعشى واضطرب وتحير ، فعطف عليه الجنى ، وكشف له عن نفسه ، وقال : أنا هاجسك مسحل ابن أثاثة الذى ألقى على لسانك الشعر ... فسكنت نفس الأعشى وهدأ. ثم أرشده الجنى إلى سواء الطريق. ونلاحظ مايأتى :

١ — شيطان الأعشى منسوب فى هذه القصة إلى أثاثة ، وليس معه لقب « السكران » كقصة الجمهرة . وبنتاه سُمَية وهريرة راويتان . ونلاحظ أيضا أنه قد سمى نفسه هاجسا، وظاهر فى القصة أنها أسطورة كسابقتها تردد رأى العرب فى الجن ومساكنهم ، وإرشادهم التائهين فى الصحراء ، كما تبين رأيهم فى شياطين الشعراء الذين يقولون الشعر ، ويعرفون مايقولون . أما الشعراء فيرددون مايلقى إليهم ترديدا ، ولا يعرف الأعشى شيئا عن سمية ولا هريرة اللتين شبب بهما .

٢ — لعل الأعشى أسعد الشعراء حظا من هذه الشياطين . فله فى الأساطير الجاهلية. أكثر من شيطان . ولعله لوحظ فى هذه الشياطين صفات شعره ومزاياه فشيطانه « مسحل » فى تفسير الجاحظ لقصيدة الحكم بن عمرو[١] وفى حديث الثعالبى عن شياطين الشعراء[٢] ؛ مأخوذ من معنى هذه الكلمة ، وذلك لتجويده وتنخله لشعره . وهو فى قصة الجمهرة « مسحل السكران[٣] » ، وذلك لأنه أجاد نعت الخمر وتحدث عنها كثيرا ، وأبوه جندل فى قصة الجمهرة . وأثاثة فى رواية بلوغ الأرب[٤] .

وكان الأعشى أحد الذين وردت فى شعرهم ألفاظ أجنبية[٥] دخيلة ، وهو من أكثر شعراء الجاهلية استخداما لألفاظ أجنبية ، فناسب أن يكون له شيطان أجنبي أيضا هو جهنام :

---

(١) الحيوان ٦/٢٢٥   (٢) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ٥٥
(٣) الجمهرة /٢٢   (٤) ٢/٣٦٧   (٥) ديوان الأعشى الكبير ١٢٥

ذكر الفيروزابادى[1] عند الكلام على « جُهُنام » بضم الجيم والهاء كما يقول، أنه « تابعة الأعشى » وقال أيضا إنه لقب « عمرو بن قَطَن » ويكسر، وكان يهاجى الأعشى، وهو من قومه بنى قيس بن ثعلبة.

٣ — وقد رأى المرحوم مصطفى صادق الرافعى[2] أن شيطان الأعشى المسمى بهذا الاسم « جهنام » جاء إليه من اسم عمرو بن قطن فيقول عن عمرو هذا إنه « كان يهاجى الأعشى فكأنه شيطانه، لأنه لا يزال يهيجه ويبعثه على الشر، ولعل هذا هو الأصل ».

ويضعف هذا الرأى أن الفكرة أسطورية قيل بها عند غير العرب أيضاً. وقالها العرب عند الكلام عن شعراء آخرين من هذه العصور الأسطورية، والرأى عندى أن الكلمة الأجنبية جعلت علما على شيطان الأعشى لأنه كان يدخل هذه الكلمات فى شعره.

٤ — و « جهنام » كلمة عبرية تتركب من جزءين هما: « جى — هنوم » ومعناها وادى الهمس أو الأنين أو الهينمة أو وادى البكاء والعذاب، وذلك عندما يراد به السعير، وهو مسكن الشياطين ومأواها، فلعل الأعشى سمع الكلمة وفهم معناها فهما غير دقيق، أو سمعها غيره ممن جعلوا « جهنام » شيطانه، والأعشى كان جواب آفاق، زار أساقفة نجران ومدحهم، وزار العراق، والنصرانية كانت معروفة فيه، كما كانت معروفة هى واليهودية فى جزيرة العرب. ويحتمل أنه سمعها من اليهود. والكلمة فى لسان العرب[3] مختلفة الضبط والمدلول، فهى تارة بئر بعيدة القعر، وهى بكسر الجيم والهاء، وهى تارة بضمهما أو فتحهما. وهى تارة اسم رجل — بضم الجيم والهاء، وهو لقب عمرو بن قطن من بنى قيس بن ثعلبة، أو اسم تابعة عمرو بن قطن هذا. وقد جاء هذا الرأى صريحا فى اللسان، وفى الموشح[4] أنه ابن عم الأعشى.

---

(١) القاموس المحيط ٤/٩٢ (٢) تاريخ أداب العرب ٣/٥٠ (٣) ١٤/٣٧٨

(٤) ص ٤٩.

والبيتان اللذان رواها الجاحظ أولا مأخوذان من قصيدة للأعشى قالها يهجو عمير بن عبد الله بن المنذر حين جُمِع بينه وبين جهنام ليهاجيه . وفيها يقول الأعشى[1] :

فلما رأيتُ الناسَ للشر أَقْبَلوُا — وثَابوا إلينا من فَصِيحٍ وأَعْجَمِ
وصَيِحَ علينا بالسِّيَاطِ وبالقَنَا — إلى غايةٍ مرفوعةٍ عندَ مَوْسِمِ
دعوتُ خليلي مِسْحَلاً ودَعَوْا لَهُ — جُهَنَّامَ ، جَدْعاً للهجينِ المُذَمَّمِ

وهذا مقبول على أن جهنام هو اسم لعمرو بن قطن أو لشاعر آخر . ولكن البيت يحتمل معنى ثانيا . فقد يكون جهنام اسما لتابعة عمرو بن قطن ، فدعوه ليكون كفئا لمسحل شيطان الأعشى . أما الضمير فى « له » فيحتمل أن يعود إلى مسحل ، وأن يعود إلى الشر قبل هذا البيت ببيتين . فليس جهنام نصا فى عمرو ابن قطن .

وهذا الرأى الذى ذكر فى اللسان ، وجعل فيه جهنام اسما لتابعة الشاعر المقاوم للاعشى ، يزيد أصحاب الشياطين واحدا هو عمرو بن قطن .

ونلخص الرأى فى جهنام فنقول .

١ — إنه اسم تابعة الأعشى ، وهى زواية الفيروزابادى فى القاموس . والمعنى بعيد على هذا فى بيت الأعشى .

٢ — أو أنه شيطان عمرو بن قطن الذى كان يهاجى الأعشى ، وعندئذ يظهر عندنا شاعر آخر له شيطان مستقل .

٣ — أو أن يكون لقبا لعمرو بن قطن ، وعندئذ قد يقبل تعليل المرحوم الرافعى فى جعله شيطانا للأعشى ، مع أنه لقب خصمه ، لأنه هو الذى كان يهيجه ويبعثه إلى الهجاء .

---

(١) ديوان الأعشى الكبير / ١٢٥ تحقيق الدكتور محمد حسين.

أما أصل الكلمة اللغوى ، فلا أظننا فى حاجة إلى الوقوف عنده كثيرا ، بعدما بيناه فيما تقدم .

شياطين جاهلية من اختراع ابن شهيد :

١ — وقد تكون شهادة الآلهة أو الجن إكبارا أيضاً ، كما شهدت آلهة دلفى Delphy لسقراط ، وشهدت كهانة العرب ببراءة هند بنت عتبة . وقد ظل صدى هذه الفكرة يتردد فى الأدب ، وعدت شهادتهم برهانا على السبق والتقدم ، وهذا هو ابن شهيد فى رسالة «التوابع والزوابع» اخترع لنفسه شيطانا يخرج معه فى رحلة يلقى فيها عدد من شياطين الشعراء والكتاب ، . . . يشهدون له بالتقدم والسبق ، ويحكمون لشعره بالامتياز والسمو ، وجعل بعض هؤلاء الشياطين لشعراء من الجاهلية نعرفهم ، كامرئ القيس ، وبعضهم لشعراء لم نعرف لهم وحيا من الجن مثل طرفة بن العبد ، وقيس بن الخطيم ، إلا إذا اعتبرنا لكل شاعر شيطانا .

٢ — أما شيطان امرئ القيس الذى حدثنا به ابن شهيد ، فاسمه عتيبة ابن نوفل ، وهذا الاسم اختراع أوحى به إلى ابن شهيد أسماء الأماكن التى وردت فى المعلقة ، فإنه عندما سأله صاحبه زهير بن نمير الجنى ، وقد حلا أرض الجن ، عمن يريد من شياطين الشعراء ، أجابه : صاحبَ امرئ القيس « فأمال العنان إلى واد من الأودية ذى دوح تتكسر أشجاره ، وتترنم أطياره ، فصاح : ياعتيبة ابن نوفل ، بسقط اللوى فحومل ، ويوم دارة جلجل ، إلا ماعرضت علينا وجهك ، وأنشدتنا من شعرك ، وسمعتَ من الإنسى ، وعرفتنا كيف إجازتك له . فأنشده[1] شيطان امرئ القيس ثم سمع من ابن شهيد بعض شعره . فلما انتهى قال له : اذهب ، فقد أجزتك .

فابن شهيد لم يخترع الفكرة ؛ لأنها من أساطير الأمم جميعا ، وهى معروفة فى الجاهلية ، وعن امرئ القيس نفسه . أما الاسم عتيبة بن نوفل ، فلكى يستقيم

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ٢١٣ القسم الأول ، المجلد الأول .

السجع مع أشهر الأماكن التى وردت فى معلقته . وأشهر مكان فى مغامرات امرئ القيس هو « دارة جلجل » الذى كان له فيه يوم مشهور.

٣ — ولنفس الغاية اخترع ابن شهيد شيطانا لطرفة بن العبد ، واختار له اسما لعله لاحظ فيه بعض المعنى المتصل بطرفة . فقد سمى شيطانه عنتر بن العجلان ، وربما كان ذلك لأن الموت عاجله وهو صغير . وأنشده واستنشده وأجازه[1] .

٤ — وشيطان قيس بن الخطيم الذى أورده ابن شهيد لهذا الشاعر الفارس سماه أبا الخطار وقد أدرك ابنَ شهيد وصاحبَه وهو على فرس كأنها العقاب ، واستنشده وأنشده ، وأجازه أبو الخطار ، إذ كانت تلك غاية ابن شهيد .

٥ — وهذه الشياطين الثلاثة الجاهلية وراءها كثير من أسماء الشياطين لشعراء وكتاب من الإسلام وبنى أمية والعباسيين ، غاية ابن شهيد من لقائهم أن يقضوا له ببطولة فى الأدب شعره ونثره ، وغايتنا نحن أن ندلل على أن الفكرة الجاهلية عن شياطين الشعراء ، ظلت تتردد بعد عهد الأساطير ، وكانت وحيا لبعض الأدباء . فاتخذوها وسيلة إلى غاية ، كما فعل ابن شهيد .

وبعض هؤلاء الجاهليين كانت لها شياطين سمعنا بها فى أخبار قصيرة .

١ — فالحُطيئة كان له شيطان أوحى ، حدثنا به أبو الفرج الاصفهانى[2] عن بعض الرواة قال :

« قال رجل : ضفت قوما فى سفر وقد ضلت الطريق ، فجاءونى بطعام أجد طعمه فى فمى ، وثقله فى بطنى ، ثم قال شيخ منهم لشاب : أنشد عمك ، فأنشدنى :

عفا من سُلَيمَى مُسْحُلانُ فحامِرُهْ ... تَمَشّى به ظِلْمانُه وجآذِرُهْ

فقلت له : أليس هذا للحطيئة ؟ فقال : بلى ، وأنا صاحبه من الجن .

---

(١) نفسه ٢١٤ . (٢) ٢/١٧٧ دار الكتب .

والحطيئة كان من المجيدين المجودين أيضاً . فهو راوية زهير وآل زهير . والجارى على نمطهم فى تنخل الشعر وتثقيفه[1] . وهو من أصحاب هذه المدرسة الشعرية التى كانت حريصة على الأناة واتخاذ الشعر فنا وصناعة[2] . وترى فى الجملة الأخيرة التى قالها الأغانى أن الفرق غير ملحوظ بين جن الشعراء وشياطينهم ، كما أشرنا إلى ذلك فى قصص الجمهرة وغيرها .

٢ — بل إن زهير بن أبى سُلْمى لم يخل من أن يكون له شيطان أيضاً فى زعم بعض الرواة . وأن النبى صلى الله عليه وسلم رآه فاستعاذ بالله من شيطانه ، وكان له مائة سنة ، فما لاك بيتا حتى مات[3] . وظاهر الرواية أن الشيطان الذى استعاذ الرسول بالله منه هو شيطان الشعر ، كما يفهم من تعقيب الراوى بأن زهيرا انقطع عن الشعر حتى مات . وقد تكون الاستعاذة بالله من شيطان الإغواء الذى حمل أمية بن أبى الصلت على الكفر ، وكان يحتمل أن يحمل زهيراً على الكفر والمعارضة . ولكن يضعف هذا الرأى أن زهيراً مات قبل البعثة على الراجح .

قبائل هذه الشياطين :

وقد نعرف قبائل هذه الشياطين لا أسماءهم ، فشيطان حسان بن ثابت ينسب إلى بنى الشيصبان إحدى قبائل الجن : فقد روى عن أبى عبيدة[4] أن السعلاة ، وهى نوع من الجن أيضاً — لقيت حسان بن ثابت فى بعض طرق المدينة وهو غلام ، قبل أن يقول الشعر . فبركت عليه وقالت : أنت الذى يرجو قومك أن تكون شاعرهم ؟ قال : نعم ، فقالت : أنشدنى ثلاثة أبيات ، وإلا قتلتك فقال :

إذا ماترعرع فينا الغلامُ ... فما إن يقال له من هُوَهْ
إذا لم يَسُد قبل شد الإزارِ ... فذلك منا الذى لا هُوَهْ
ولى صاحب من بنى الشيْصبانِ ... فحيناً أقول وحينا هُوَهْ

---

(١) نفسه ١٦٥ (٢) فى الأدب الجاهلى ٣٠٠ طبعة ثالثة (٣) الأغانى ٩/١٤٠ الساسى (٤) بلوغ الأرب ٢/٣٦٥ — هامش القاموس ٣/٣٩٦ .

ويعلق الجاحظ على البيت الأخير بقوله : « وهذا البيت أيضا يصلح أن يلحق في الدليل على أنهم يقولون إن مع كل شاعر شيطانا »[1] .

ولم تخبرنا الرواية كيف عرف الغلام أن الذى قابله هو السعلاة ، ولا كيف أدرك أن له صاحبا من بنى الشيصبان ، « فطورا يقول وطورا هوه » ، قبل أن يقول . ولا نسأل كيف عرفت السعلاة أنه كان الشاعر المرجى لقومه ، فالجن عندهم تعلم الغيب . ولكن ماحظها فى أن تقتله إذا لم ينشدها ثلاثة أبيات ؟

وإذا تركنا هذا الجانب الروحى إلى الجانب العلمى حول حسان وجدنا أن نبوغه فى الشعر — وقد ورثه وهو صغير — يرجع إلى أنه من قوم معرقين فيه ، مثل زهير . جاء فى الكامل للمبرد[2] . « وأعرق قوم فى الشعر آل حسان ، فإنهم يعتدون ستة فى نسق ، كلهم شاعر ، وهم : سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ابن المنذر بن حرام » ؛ وقد ورث حسان الشعر عن آبائه ، وورثه أبناءه . ولا شك أن شعره قبل الإسلام كان استعدادا موروثا ظل معه ستين عاما قبل أن يسلم . وصار بفطرته فى الجاهلية أشعر أهل المدر[3] .

أحكام أدبية لبعض الشياطين :

وهاتان قصتان حكم فيهما الجن على طريقة نقاد العرب وأدبائهم ، فجعلوا فلانا أشعر الناس ببيت واحد ، ورتبوهم بحسب هذه الأبيات المفردة . ولكل وجهة فى حكمه :

(١) روى الأغانى[4] بسنده عن عمر بن شبة قال : سمعت أبا عبيدة يقول : بلغنى أن رجلا من أهل البصرة حج ، وروى أنه كان يسير فى ليلة أضحيانة ، فنظر إلى رجل شاب راكب على ظليم قد زمه بخطامه ، وهو يذهب عليه ويجىء ، ويرتجز ويقول :

---

(١) الحيوان ٦/ ٢٣١ انظر حاشية الشيخ الأمير على المغنى / ١١٠ مطبعة التقدم العلمية
(٢) ١/ ١٧٩ صبيح . — الديوان ٦٣ طبع أوربا (٣) الأغانى ٤/ ٣ (٤) ٨/ ٧٥ ساسى .

هل تُبْلِغَنِّيهِمْ إلى الصباح هِقْلٌ كأنَّ رأسَهُ جُمَّاحُ(١)

قال الحاج : « فعلمت أنه ليس بأنسى ، فاستوحشت منه ، فتردد على ذاهبا وراجعا حتى أنست به ، فقلت : من أشعر الناس يا هذا ؟ قال الذى يقول :

وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلا لتَضْرِبِي بسَهْمَيْكِ فى أعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

قلت : ومن هو ؟ قال : امرؤ القيس . قلت : فمن الثانى ؟ قال الذى يقول :

تطردُ القُرَّ بحرٍّ ساخنٍ وعكيكَ القيظ إن جاء بقُرّْ

قلت : ومن يقوله ؟ قال . طرفة . قلت : ومن الثالث ؟ قال الذى يقول :

وتبرُدُ بردَ رداءِ العرو سِ بالصيفِ رَقْرَقْتَ فيه العَبيرا

قلت : ومن يقوله ؟ قال : الأعشى — ثم ذهب به .

(٢) وهناك حكم للنابغة أيضا بأنه أشعر الناس . قضى له به شيطان ، ورواه الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء عن بعض الناس(٢) قال : بينا نحن نسير بين أنقاء من الأرض ، تذاكرنا الشعر ، فإذا راكبٌ أطيلس يقول : أشعر الناس زيادُ بن معاوية (النابغة) . ثم أمعن فلم نره .

والقصتان إسلاميتان ، بل إنهما من العصر العباسى ، ومن أوائله؛ يدل على ذلك الرواة الذين تنتهى إليهم القصتان . وكذلك طريقة الحكم فى الأولى، وجعل الشعراء فى ترتيب ، منهم الأول ، ومنهم الثانى . وكذلك فى القصة الثانية بجعل النابغة أشعر الناس . والأبيات فى القصة الأولى — ماعدا بيتَ امرئ القيس — أبيات سخيفة ، ثم اختيارها مفردة يجعلها ناقصة المعنى سقيمة . ولكن الشيطان الذى حكم هذا الحكم قد يكون من عهد الجاهلية . وطال عمره حتى روى هذه الأبيات السخيفة ، واستحقت فى نظر أبى عبيدة أن تروى بقصتها .

---

(١) الهقل = الفتى من النعام — الجماح كرمان = سهم بلا نصل ، مدور الرأس يتعلم به الرمى ، أو تمرة تجعل على رأس خشبة يتعلم بها الصبيان . وسنبل نبت يشبه أذناب الثعالب : القاموس. والأغانى (٢) الأغانى ٩/١٥٦ ساسى .

بل إن روبرت سمث R. smith يعلق على هذين الحكمين فيقول : إنه عندما يظهر الجنى راكبا ذئبا أو ظليما ويدلى برأيه فى أقدار شعراء العرب . فنحن أمام قصة أدبية لا عقيدة صحيحة[1] .

إنكار مقدرة الجن :

وعجيب أن تنسب هذه الأفكار إلى عصر الأساطير . ولكنى رأيت فى عجائب المخلوقات للقزوينى[2] أن امرأ القيس قاول جنيا يسمى عُمَر ، فى مجلس النعمان بن المنذر فغلبه . فهزئت منه امرأته لأن شاعرا من الإنس غلبه وهو يدعى أنه أشعر الجن والإنس . وخرجت تلك المرأة الجنية لمطارحة امرئ القيس ، فانتصر عليها أيضا فى شعر ساخر ، وأنعم عليه النعمان إنعاما كبيرا .

ومسرح هذه القصة كان فى العراق ، وكان يحضر مجلس النعمان عدد من الشعراء فيهم طرفة وعبيد وامرؤ القيس والأعشى . ولقيهم الجنى بين الخورنق والسدير ، وتحداهم . ونكص الشعراء جميعاً عن الرد عليه إلا امرأ القيس فإنه حاوره وانتصر عليه . وعلى امرأته من بعده .

فإذا صحت نسبة هذه القصة إلى عهد الأساطير ، كانت دليلا على أنه ظهر بعض التمرد على مقدرة الشياطين فى الفن ، كما تمرد على سلطانها بعض الناس فى الكهانة مثل هند ، وكما تمرد على فتنتها وإغوائها بعض الناس فى الخمر ، وفى عبادة الأوثان . وتكون تلك الأسطورة قبيل الإسلام . وهو العهد الذى ظهر فيه التردد والحيرة ، وبعض التمرد على عقائد وأفكار لم تقبلها عقول أولئك المتمردين . لكن هناك ما يجعلها بعيدة الاحتمال ، لأن طرفة قتل سنة ٥٠٠ م قبل ولاية النعمان بن المنذر على العراق (سنة ٥٥٢ م) والقصة كما سردها القزوينى مضطربة ، وأكثر شعرها ضعيف ردىء ويحمل طابعا متأخرا . وليس فيها إحكام ولا انسجام .

---

(١) Religion of the Semites 5. 129

(٢) مخطوط بدار الكتب ورقة ٢٢٧ .

تفسير هذه الظاهرة علميا :

١ — رأينا فيما تقدم فى هذا الفصل ، أن العرب فسروا ظاهرة الإنتاج الشعرى وما يشبهها ، كسحر الكهان ، تفسيرا أسطوريا فى عصرنا الذى نتكلم عنه وهم فى ذلك كغيرهم من الأمم فى العصور البدائية وأشباهها ، بل إن هذه الفكرة التى ترجع الشعر إلى قدرة خفية وراء قدرة الإنسان مازالت موجودة فى عصرنا الحاضر[١] . وخلاصتها أنه لاسلطان للشعراء على إنتاجهم الأدبى ، لأن مصدره خارج عن سلطان إرادتهم[٢] .

٢ — لكن علم النفس الأدبى يفسر هذه الظاهرة تفسيرا علميا فيرجعها إلى مواهب خاصة ، واستعدادات فطرية ، تغذيها عوامل مختلفة كالبيئة والثقافة . وتدفع إليها دوافع مباشرة وغير مباشرة كالغرائز عامة ، أو بعض الغرائز كحب الظهور والجنسية .

ولا نرى شاعرا من الشعراء الذين عرفت شياطينهم أو جهلت إلا وقد خلق مستعدا لقول الشعر ، كما خلق غيره مستعدا للخطابة أو قول الحكمة مثلا ؛ فامرؤ القيس أو حسان أو الأعشى ، أو أى شاعر آخر ، ما كان ليقول الشعر لولا ذلك الاستعداد . وقد تأثر هذا الاستعداد بالبيئة والظروف المحيطة . فامرؤ القيس له حياة لاهية عابثة ، وله فروسية ، وله نظرات فى النجوم أو فى الكون . ونرى أثر ذلك فى معلقته . ثم تتغير حياته بعد قتل أبيه ، فيطوف فى الآفاق ، ويبكى صاحبه الذى كان معه فى رحلته إلى أرض الروم فيقول امرؤ القيس :

فقلتُ له ، لاتبك عينك إنما ... نحاولُ مُلكًا أو نموتَ فنُعذَرَا

وقد تلمح أثر الغريزة الجنسية ظاهرا فى معلقته أو فى قصيدته اللامية التى مطلعها :

ألا عِمْ صبَاحًا أيها الطَّلَلُ البالى ... وهل يعمَنْ من كان بالعُصُر الخالى

---

(١) Stolen Fire, p. 123

(٢) Creative Imagination, 168

كما تلمح فيهما أثر غريزة حب الظهور والسيطرة عندما يصف مغامراته أيضاً . وتدفعه غريزة حب البقاء إلى أن يقول قصيدته فى رحلته إلى قيصر، وقد ذهب إليه ليحاول ملكا أويموت فيعذر .

ومثل النابغة وزهير والحطيئة ممن سموا عبيد الشعر، لأنهم كانوا يجودونه ، دفعتهم إلى ذلك دوافع. فهم مستعدون أولا لقول الشعر ، ولكنهم كانوا يمدحون. ولابد عندئذ من الاختيار والتنقيح ، ومراعاة ذوق الممدوح وعواطفه . ولاشك أنهم كانوا يفعلون ذلك قصدا ، ويغيرون ويبدلون وهم يدركون مايفعلون . وقد كسبوا من شعرهم فى المدح شيئا كثيراً ، فدفعتهم غريزة حب الملك والاقتناء إلى هذا المدح ، ودفعتهم ظروف المدح إلى التجويد والتنقيح .

ولاشك أن شعر حسان فى الهجاء قبل الإسلام أو بعده كان ناشئا عن غريزة المقاتلة وانفعالها وهو الغضب . ونستطيع أن نقول إنه فى الإسلام كان متأثرا تأثرا مباشرا بالظروف التى عاش فيها . فظهر صداها فى شعره ، وقيلت قصائده فى مناسبات هذه الظروف .

والأعشى طالب مال ، وعنده استعداد لقول الشعر ، ولاتأبى طباعه أن يرحل فى طلب هذا المال بقصائده ، فيمدح حتى المحلق الفقير ، ويدفعه إكرام المحلق دفعا إلى قصيدته القافية : « أرقت وما هذا السهاد المؤرق »

وتدفعه رغبته فى الظهور دفعا إلى أن يتظرف بذكر أسماء لأدوات وأزهار أجنبية فى شعره ، كما دفعته دوافع مباشرة إلى مدح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدته التى مطلعها :

ألمْ تغتمض عيناك ليلةَ أرمَدَا وبتَّ كما باتَ السليمُ مُسهَّدَا

ومما يدل على اختلاف الاستعداد أن الأعشى سئل : من أشعر الناس؟ فأخرج لسانه وقال : هذا إذا طمع . وأن طرفة أجاد فى وصف الناقة، كما أجاد امرؤ القيس فى وصف الليل والفرس .

وجماعة التكامل الاجتماعى يقررون مبدأ عاما يجعلونه السبب المباشر للسلوك

ونأخذ مثالا اعتذار النابغة للنعمان فى قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

أتانى — أبيتَ اللعنَ — أنك لُمْتَنِى ‌ ‌ ‌ وتلكَ التى أهتَمُّ منها وأنْصَبُ

فإنه كان مطرودا من رحمة النعمان . وعلى الرغم من حسن منزلته عند آل جفنة كان يحس بأنه غريب فى ذلك المجتمع ، وأنه لا يلائمه ، وكانت نفسه قلقة تحس بالوحشة ، وتريد أن تعود إلى مجتمعها الذى ألفته أولا فى العراق، ولا تستطيع ذلك إلا بعفو النعمان ورضاه . ووسيلة ذلك قصائد الاعتذار ، فاندفع النابغة فى هذا الباب من الشعر . وكان باعثه المباشر أن يتكامل اجتماعيا كما قدمنا .

على أن اعتذار النابغة قد يرجع إلى الشعور بالوحشة ، والحنين إلى ما ألف من نعمة ورخاء ، ومن مجالس وأصحاب ، والرغبة فى استرداد مكانته المفقودة ، والانتصار على الحساد والشامتين . ودوافع ذلك كله طبيعة الإنسان وغرائزه ، ثم عقله وتفكيره .

وهذه القصائد أو الأشعار كانت تنشأ نشأة طبيعية أحيانا ، فيحس الشاعر بمعانيها، ويشهد وقائعها، ويعبر عنها كما رأتها نفسه وأحست بها؛ ففيها جزء خارجى هو الأحداث والوقائع ، وجزء شخصى ذاتى . فحرب عبس وذبيان وقائع حدثت ورآها زهير ،ولكنه تأثر بها تأثرا ذاتيا ، فأعادها على طريقته الخاصة ، ولم يصفها إلا ليصورها تصويرا يتفق مع غايته من مدح هَرِم بن سِنان والحارث بن عوف إكبارا لشأنهما ولعملهما النبيل . وليصور الحرب فى صورة مخيفة، فيكرهها الناس ويفضلوا عليها السلام والوئام .

أما وراثة المواهب الأدبية فأمر مسلم به ومعروف من قديم . فأبو العباس المبرد[١] يقول إن أعرق قوم فى الشعر آل حسان — كما تقدم — وكان آل زهير شعراء ، وكان الشعر فيهم وراثة ، وقال ابن الأعرابى : كان لزهير فى الشعر مالم يكن لغيره ، وكان أبوه شاعرا ، وخاله شاعرا ، وأخته سلمى شاعرة ، وأخته الخنساء شاعرة . وابناه كعب وبجير شاعرين ، وابن ابنه المضرب بن كعب بن زهير شاعرا[٢] ، بل كانت هناك وراثة عن الأخوال[٣] والأجداد؛ فقد كان مهلهل خال

---

(١) الكامل ١/١٧٩ (٢) الأغانى ١٠/٣١٤ (٣) سمط اللآلئ ١/٣٨ دار الكتب

امرئ القيس ، ومن قبله أتاه الشعر ، وكذلك زهير كان خاله بشامة بن الغدير شاعرا ، والأعشى خاله المسيب بن علس ، وكذلك دريد بن الصمة ، وخفاف ابن ندبة ، وكان مهلهل بن ربيعة جد عمرو بن كلثوم لأمه .

وليس الشعراء مستقلين عن بيئتهم . وانظر إلى القصائد العربية فى عصر الأساطير تجد صور البيئة الصحراوية بطبيعتها ومجتمعها وحوادثها ماثلة أمامك لتأثر الشعراء بها ، واستيلائها على أذهانهم ، واتخاذها منبعا لخيالهم ، وموضوعا لقصائدهم .

ولقد يقال إن تلك الشياطين عاشت كما عاش أولئك القوم فى هذه البيئة فتأثرت بما تأثروا به ، وأوحت إليهم . وعلماء النفس ينكرون أن يكون ذلك الشعر من وحيهم ، ويحاولون تفسيره على أنه من المعين الإنسانى العجيب الذى يبدع فيفوق الشياطين والجن ، وهو النفس الإنسانية . ونجد كثيراً من الشعراء وأهل الفن فى عصور مختلفة لا ينتسبون إلى هذه الأرواح ، ولا يتلقون وحيهم عنها ، ولا يقلون فى نبوغهم عمن ينسبون إلى الشياطين . وهذا الحارث بن حلزة لا شيطان له فى الجاهلية ، ولكنه شاعر مبدع من أصحاب المعلقات . وسويد بن أبى كاهل لا يقل عن بشر بن أبى خازم ولا نعرف أن « هبيدا » أو غيره أوحى إليه بشعر . ولبيد بن ربيعة العامرى من فحول شعرائهم ، ومعلقته أقوى من معلقة عبيد ، ولم يقسو كما أقوى النابغة . ولم نسمع له بشيطان يوحى إليه . والخنساء قالت وأجادت خصوصا فى الرثاء . وكان شعرها من وحى نفسها الحزينة وعاطفتها المشبوبة ، وثكلها القاصم .

ولا نرى فى العصور العلمية أثرا للشياطين ، خصوصا عند العلماء النفسيين الذين يلجئون إلى وسائل عجيبة ، وآلات وأبحاث دقيقة فى داخل النفس الانسانية وخارجها ، لمعرفة مصادر الإبداع الفنى وأسسه ودوافعه !

وخلاصة هذا الفصل :

أن العرب أكبروا الشعر وقدروه ، ونظروا إلى قائليه ، فرأوهم يمتازون

عما يعجز عنه غيرهم من البيان . فنسبوا هذا القول إلى الجن والشياطين ، وهي في اعتقادهم تستطيع ما لا يستطيعون . وجعلوا بين الشعراء والشياطين صلة ونسبا . فالشياطين توحى بالشعر إلى هؤلاء الشعراء وتلقيه في روعهم ، أو تحدثهم به في آذانهم ، أو تجريه على ألسنتهم . وليس الشعراء إلا آلات تنطق بهذا السحر المبين .

ولا بد لهؤلاء الشياطين أن يكونوا شعراء ، وأن يرووا من الشعر أحسنه وأن يحكموا فيه . فهم عند العرب شعراء رواة ناقدون : تصورهم العرب في صورة الناس ، وجعلوهم قبائل ، وسموهم بأسماء ، وورثوهم الشعر عن آبائهم من الجن . وإذا شئنا أن نذكر مصدر هذه الفكرة ، فلنرجع إلى شعراء ورثوا عن قومهم ، وإلى أسر نبغ فيها عدد من الشعراء كآل زهير بن أبي سلمى ، وحسان ابن ثابت :

وقد رويت لنا أساطير هؤلاء الشياطين الذين يلهمون الشعراء في أخبار وقصص ، بعضها إسلامي وبعضها مروى عن الجاهلية . ودوّن هذان النوعان في عصر التدوين .

ومما ورد في كلام الجاحظ فهمنا أن الشيطان قد يوحى إلى شاعرين كعمرو هذا ، وإن تباعد الزمن ، فإنه كان شيطانا للمخبل السعدي وللفرزدق أيضاً . . .

وروى لنا أبوزيد القرشي قصصاً أراد بها عرض الآراء الجاهلية في ظاهرة الإنتاج الشعرى أو في شياطين الشعراء ، فعرفنا من قصصه أن الشيطان قد يوحى إلى شاعرين كهبيد . وأن الشعراء يتلقون عن أصحابهم من الجن ، وأن هؤلاء الجن رواة ونقاد . أما الثعالبي ، فيوضح أمرا من عقيدة العرب في شياطينهم إذ يقول : « فمن كان شيطانه أمرد ، كان شعره أجود » .

وكانت هناك أسباب أسطورية مباشرة للنبوغ نذكر منها ما أشير إليه في القصة الأولى من قصص أبي زيد . فإن الهبيد كان يسقى الشعراء من عس فيه لبن ظباء ، فإن شربوا منه صاروا أشعر قومهم ، وإن عافوه لزهومته نبهوا حين

لاينفع الندم، كما أخبرنا راوى هذه القصة. وفى خبر آخر أن عبيدا أتاه آت فى المنام بكبة من الشعر ألقاها فى فيه ، فكانت بدء الوحى إليه ، وقام من نومه وهو يرتجز بشعر[١] .

وقد بدا لى أن أسماء هؤلاء الشياطين اختيرت اختيارا يناسب بعض صفات الشعر التى عرفت عن أصحابهم من الإنس . كما أن بعض أسمائها لم يصل إلينا ؛ ففى قصة الحطيئة يخبرنا الشيطان أنه « صاحبه من الجن » ، ولا يذكر اسما له ، كما أن شيطان حسان كان من بنى الشيصبان ولا نعرف اسمه .

أما مسرح هذه القصص أو الأقاصيص فهو البادية : وأما العقيدة أو الفكرة التى فيها فهى التفسير الجاهلى لوحى الشعراء . وقد انتفع بها ابن شهيد فيما بعد وثقفنا بدليل عليها ، وإن كان قد أورد أسماء لأولئك الشياطين تخالف من سبقه ؛ على أن تغلب امرىء القيس على الجنى أمام النعمان ، وعلى امرأة الجنى أيضاً من بعده، معناه، لو صحت القصة ، أن هناك تمردا على هذه الفكرة نسب إلى الجاهليين كما نسب إلى بشار[٢] فيما بعد .

أما التفسير العلمى الحديث الذى عنى علم النفس الأدبى ببيانه ، فيرجع القدرة على قول الشعر إلى الاستعدادات والمواهب الفطرية المختلفة . ويجعل لها دوافع ثابتة . كما يجعل لها بواعث مباشرة هى الظروف التى تساعد على توجيه السلوك وعلى ظهور آثاره .

ولا ينسى علماء النفس تأثير الثقافة والبيئة وعوامل التربية والوراثة فى هؤلاء الشعراء . فزهير قد يقول فى الحكمة ، والمتنبى يقول فيها أيضاً ، ولكنها تختلف لاختلاف ثقافة كل منهما .

أما ما يحس به الشعراء من ضغط يدفعهم إلى القول وهم لايعرفون كيف قالوا ، ومن عجز عن القول حين يريدون ؛ فلا يهمله علماء النفس أيضاً . إذ يقولون إن الظروف المناسبة ، والدوافع الملائمة، تتفاعل والشاعر فى غفلة عنها حتى تتضح ،

---

(١) الأغانى ١٩ / ٨٤ .   (٢) الحيوان ٦ / ٢٢٨ .

فتحمله على القول ، فيخيل إليه أنه أوحى إليه ، وأنه قال ما ألقى عليه ، مع أنه هو صاحب الشعر والناطق به . بل إن القائلين بالعقل الباطن من أمثال فرويد يرون هذه المنطقة من النفوس الإنسانية مسئولة عن كثير من مظاهر السلوك ومنها الشعر . فهو الذى يحرك الإنسان سواء أراد أم لم يرد . فإذا استعصى عليه أن يدفع الشعراء إلى القول فى اليقظة لاحقهم فى النوم ، لحقق الآمال والرغبات التى كانت تجيش فى النفس ، وتصرفها عنها صوارف ، أو تمنعها من قولها موانع .

وجماعة التكامل الاجتماعى تجعل الحاجة إلى هذا التكامل شيئا ضروريا فى الحياة ، وأنها هى التى تدفع الناس إلى السلوك دفعاً ومنه الشعر أو الأدب بوجه عام ؛ يحس الأديب أو الشاعر بأنه غريب عن مجتمعه فيحاول أن يتكامل معه اجتماعيا، فينشىء قصيدة أو يؤلف قصة تحقق له هذا التكامل؛ إذ تصرف الناس إليه ، أو تجعلهم يتحدثون باسمه . هذا مع إيمانهم بالاستعداد والطبع .

على أن بعض الباحثين مثل « كنمار » D. Kenmare لايزال يعد الشعر وحيا سماويا ، وإلهاما تلقيه الملائكة فى روع الشاعر ، وفنا تحدثه يد العناية فى نفس القائل ؛ فينطق بهذه النفحات العلوية ، ويشيع فى الناس ماتلقاه وحده .

الفصل الخامس

آلهة الشعر عند الأمم الأخرى

أ — عند اليونان :

اليونان من الأمم التى ملأت الدنيا من حولها بآلهة تنظم العالم ، وتسيطر على الأقدار . وتتصل بالناس فتحبو بعضهم وتحرم آخرين ، وتنفع قوما وتضر غيرهم . ومن هذه الآلهة المسيطرة على الناس آلهة الفنون وربابتها . وهى آلهة ذاع صيتها فى عهد الأساطير اليونانية وبعدها . وانتقل صيتها إلى ما وراء بلاد اليونان وإلى ما بعد عهد الأساطير فإن أوربا فى عصر نهضتها كانت تعرف عن هذه الأساطير وصاحباتها من ربات الفنون والشعر الشىء الكثير . وعرفنا نحن فى العصر الحديث اسم أبولو Apollo إلها للشعر ، وأنشأنا مجلة « أبولو » باسمه ١٩٣٢ م ، ومن صفاته أنه كان إلها للموسيقى وزعيما لربات الفنون التى تسمى « ميوزاجيت » Musagate[1] .

أما ربات الفنون[2] ، فكانت واحدة فى الأصل ، ثم صارت ثالوثا يناسب الصفات اللازمة لإنتاج الفنون ، هذا الثالوث هو : التأمل Meditation والذاكرة Memory والغناء Song . ثم صارت تاسوعا حوالى القرن التاسع ق. م ، ولكل منها سيطرة على فن من الفنون ترعاه وتلهمه ، ويستمان بها على النبوغ فيه . ولها صلة بالشعر من قريب أو بعيد . وهذه الإلاهات هى[3] :

(١) كاليوبى Calliopi[4] وهى إلاهة شعر الملاحم « Epic poetry » وقصائد البطولة « Heroic Poems » . وتعد رئيسة لربات الفنون .

(٢) كليو Clio : وهى ربة التاريخ History .

(٣) يوتربى Euterpe : وتعد إلاهة الشعر الغنائى Lyric poetry .

---

(١) Manual of Mythology, P. 118.

(٢) The White Goddess, P. 338.

(٣) Ibid., 343 P. 311

(٤) Myths of Greece & Rome 104.

(٤) ملبومين Melpomene : وهى إلاهة شعر المأساة Tragedy .

(٥) تربسيكور Terpsichore :وهى إلاهة الرقص الغنائى Choral Dancing

(٦) اراتو Erato : وهى إلاهة شعر الحب Erätic poetry .

(٧) بولينا Polymnia : وهى إلاهة الشعر القدس Sacred poetry .

وينسب إليها أنهـا مخترعة الأساطير ، وأنها إلاهة الغناء والفصاحة ، وتظهر فى تماثيلها وصورها مفكرة ، وإصبعها السبابة على شفتهـا ، وفى أحيان أخرى تبدو هادئة منتبهة ، وقد تلبس قناعا يشير إلى الحقائق المختبئة فى الأساطير .

(٨) يورانيا Urania : وهى إلاهة التنجيم Astronomy .

(٩) تاليا Thalia : وهى إلاهة الفكاهة والسخرية أو الملهاة .

وكان لهذه الإلاهات تماثيل تشير إلى عملهن كما قدمنا فى الحديث عن بولينا Polyhmnia وأم هذه الإلاهات جميعا هى نيموزين ربة الذاكرة[1] . Mnemösyne

وعلى الرغم من أن أبولو كان إله الشعر وزعيم رباته ، فإن الالهام بالقصائد كان من عمل هذه الإلاهات .

وكان مستقر هذه الآلهة فى دلفى على جبـل برناسوس ، عند العيون القدسة كاستاليا Castalia وأجانبى Aganipy وبمبلا Pimpla وهيبوكرين Hippocrene . وهى التى كان يشرب منها الشعراء فيلهمون[2] .

وكان عطارد ، وهو هرمس Hermes عند اليونان ، ومركرى Mercury عند الرومان ، إلها للكلام المقنع أو الفصاحة ، وأخذ هذه الصفة من حمايته للتجارة . لأن أهم ما يحتاج إليه التاجر هو القدرة على إقناع عميله ، والتغلب عليه[3]

وللأحلام صلة بالأدب ، وكم أوحى إلى الأدباء فيها بحلو القصائد ، ولذيذ القصص ، وكان الإله هيبوز[4] Hipnos إله النوم يرسل هذه الأحلام ويوحى بها وكذلك كان إله الأحلام مورفياس Morpheus يشكل الأحلام كما تريد الآلهة أن تكون[5] .

---

(١) Manual of Myth. p. 175—180. The White Goddess, P. 334

(٢) Manual of Mythology 175, 337. The White goddess, 136.

(٣) Ibid, 130

(٤) Manual of Mythology P. 222

(٥) Ibid, 130

وكانت جزيرة لسبوس Lesbos موطن الشعراء . ولم يخـــل تفوقها من أسطورة . فإن أورفيوس Orphée أعظم الشعراء قبل هوميروس وأول من اخترع الموسيقى ، قتل وقطعت أوصاله، فجمعتها ربات الشعر وأرسلتها إلى « بريا» على جبل أولمب . أما الرأس والقيثار فحملتهما أمواج البحر حتى وصلا إلى تلك الجزيرة ، ودفن الرأس فيهـا . وكان القيثار يرسل أحلى الأنغام كلما ارتفع الموج أو هبط . وكانت البلابل تغنى عند الرأس أحلى ما سمع من الأنغام فى بلاد الإغريق[١] . واشتهرت الجزيرة بعد ذلك بالشعراء والموسيقيين .

وكان فى بلاد الإغريق إله للشعر قبل أبولو ورباته ، ولـكنه لم يشتهر شهرتهم ، هو ديونيز Dyonesus وكان إلها للخمر أولا ، والخمر تفك عقال الخيال وهو أظهر صفات الشعر . وكان انتقال ألوهية الشعر من ديونيز إلى أبولو تحولا شديداً فى فهم القدماء لطبيعة الشعر ، فإنك تقرأ هوميروس فتحس بأنك فى معبد ديونيز، بين الخمر والحرب والنساء وكل هائج مائج . وتقرأ هوراس فتجد نفسك فى محراب أبولو بين الدعابة والرشاقة ، وكل دمث مترف بديع[٢] .

وقد صار أبولو إلها للشعر والغناء بعد أن صــارت الـكهانة دينا منظما « فى دلفى » . وكان مصدر الإلهام قبل ذلك إله الخمر ديونيز فى الغالب .

نسب اليونان شعرهم إلى آلهة ، ونسبه العرب إلى شياطين ، ولـكن المراد بها فى الحالتين قوة روحية توحى بالشعر . ولم يكن الحاجز حصينا حتى عند اليونان أنفسهم . فقد روى شيشرون عن ديموقريط أنه قضى بأن الشعر العالى لا يتأتى « بغير الجنون ، بغير وحى خاص يشبه الجنون » أو هو من وحى الجن Genii ومفردها Genius . والواقع الثابت أن الأقدمين لمسوا ما بين الشعر وما فوق الطبيعة من صلة ؛ ترى ذلك فى إيتمولوجيا اللغات واضحاً وضوح الصباح . عد إلى اشتقاق كلمة «جنون» فى العربية ، وجينيوس Genius فى الانجليزية وجنى Génie فى الفرنسية ، ثم اكشف عن معنى جنيوس Genius فى اللاتينية ترى أن الجن فى كل حالة مسئولون عن التفوق الذهنى كما هم مسئولون عن الخبل العقلى[٣] .

---

(١) Manual of Mythology P. 268 (٢) هوارس : فن الشعر ص ٥٣

(٣) هوراس . فن الشعر ص ٥٣ — ٥٤ .

وأفلاطون يذيع على لسان سقراط فى « الإيون Ion » أن عامة المحسنين من الشعراء ، سواء فى ذلك كتاب الملاحم ، وكتاب الغنائيات ، لا ينظمون قصائدهم الجميلة على أنها إنتاج فنى ، بل لأنهم ملهمون تملكهم الشياطين(١) . وينقل عنه أن الشعراء الغنائيين يفقدون رشدهم عندما ينظمون أناشيدهم الجميلة ، وحالما يخضعون لسلطان الموسيقى والوزن يوحى إليهم وتمتلكهم الأرواح(٢) .

ب — **ونقل الرومان** : معهم أبولو إلى إيطاليا لأنهم كانوا يقلدون الإغريق وظل تأثيرهم فيهم حتى جاء نفوذ مدرسة الاسكندرية ، التى كانت ترى الشعر فى حاجة إلى الجهد الكبير وإلى الصنعة ، فتخلوا عن ربات الشعر ؛ بل إن بعض هؤلاء الاسكندريين بالغ فأنكر كل أثر للوحى فى الشعر(٣) .

جـ — **عند التيوتون** : وللتيوتون أساطير يرجع بعضها إلى ما قبل المسيحية . ولم يكونوا يكتبون فى هذه الفترة ، ولما جاءت المسيحية أهمل كثير من هذه الأساطير وضاع ، وبقى عدد منها حفظه سكان أرض الجليد Iceland الذين أصلهم من تلك البلاد . وأشهر ما حفظوه مجموعة من القصائد الأسطورية تعرف باسم «إدا الكبرى The Elder Edda» أو «إدا المنظومة Poetic Edda » وتنسب إلى قسيس مسيحى اسمه سيجموند سيجفاسون Sigmund Sigfusson وقد جمعها من أفواه الناس حوالى القرن الحادى عشر الميلادى . وهناك مجموعة أخرى نثرية ظهرت حوالى القرن الثانى عشر الميلادى تعرف باسم «إدا الصغرى» أو إدا المنثورة The prose or Yonger Edda وقد جمعها شخص اسمه سنورى سترلاسن . وفيها قصص عن خلق العالم وأعمال الآلهة ومغامراتهم وأقدارهم كما اعتقدها تيوتون الشمال من الألمان والسكندنافيين .

وأكبر الآلهة عندهم هو الاله « أودن Oden » ، وابنته « ساجا » Saga هى إلاهة الشعر ، كما كانت إلاهات الشعر عند اليونان بنات زيوس أكبر الآلهة . ومن آلهة التيوتون أيضا الإله براجى Bragi وهو إله الشعر والخطابة . وقد عرف بالحكمة ، وأنه أفصح الناس لسانا وأمهرهم حديثا(٤) .

(١) نفسه / ٥١ (٢) نفسه/٥١ (٣) هوراس : فن الشعر ٢٢ — ٢٥ — ٥٥

(٤) Introduction to Mythology by L. Spence, P. 260 — 261
Manual pf Mythology 356 357

د — وعند الهنود : يعتبر « براهما » الإله الأكبر فى البرهمية ، وزوجته الإلاهة « سارا سواتى Saraswati » إلاهة الشعر والحكمة والخطابة والفن الجميل . وكان الإله « جانيشيا » أعقل الآلهة ، وإله الفطنة والسياسة ، ويدعى عند ابتداء الأعمال الأدبية الهندوسية(١) .

وكان الإله « براهما » ذا أثر كبير فى الشعر الهندى ، فإنَّ البحر المسمى عندهم شلوكا Shloka ، الذى نظم فيه تاريخ الإله « راما » كان من وحى براهما . وقد جاء بإرادته على لسان الراهب « فالميكى Valmiki » .

وتقص الأساطير الهندية أن فالميكى كان عائدا إلى كوخه بعد ماسمع قصة « رامايانا Ramayana » ، فرأى فى الغابة رجلا على هيئة الطير ، وامرأة مثله ، يغنيان ويرقصان . لكن الصياد رمى الرجل بسهم فأرداه ، وندبته الأنثى طويلا ، وثارت نفس الراهب شفقة وغضبا ، فلعن الصياد ، واستمر فى طريقه . لكن الصدى ردد كلماته إليه موزونة فى بيت من الشعر المزدوج ، فقال فى نفسه : ليكن اسم هذا البحر الجديد « شلوكا Shloka » .

ووصل فالميكى إلى كوخه ، فظهر له « براهما » المشرق ، ذو الوجوه الأربعة وخالق الدنيا ، فصلى فالميكى له ، ولكن خواطره كانت مشغولة بالرجل الطير وبالبحر الجديد « شلوكا » ، فناداه براهما مبتسما : بإرادتى خرجت تلك الكلمات من فك ، وسيشتهر هذا الوزن بعدك ، فانظم فيه كل تاريخ « راما » . قص أيها الرجل الحكيم كل ماتعلم ، ومالم يصـــل إليك علمه حتى الآن ، عن راما «ولكشمانا » Lakshmana وابنه « جاناكا Janaka » وكل قبيلة « راكشاسا Rakshasas » وسيُلْقَى إليك وحى مالم تعلمه ، وستكون القصيدة حقا من أول كلمة إلى آخر حرف ، وستذيع بين الناس قصتك مادامت الجبال والبحار .

ثم اختفى براهما . وعندئذ شرع « فاليكى » يؤلف « رامايانا الكبيرة » . وقد بحث عن الحكمة العميقة فى قصة راما ، وبقوة « اليوجا Yoga » أو التركيز الذهنى Mental Concentration رأى راما وغيره من أبطال الملحمة كما لو كانوا

---

(١) Manual of Mythology P. 390

فى الواقع ، ورأى ماسيقع . وبعد تفكير مركز ظهرت القصة كلها مصورة فى عقله ، فصاغها أبياتا من ذلك البحر «شلوكا» الذى أوحى به براها ، واستمر فيها حتى بلغت أربعة وعشرين ألف بيت[١] .

(هـ) **أما قدماء المصريين:** فقد آمنوا بوجود الهواتف كما تقدم فى الكهانة، وتعددت الآلهة عندهم وتنوعت أعمالها، ومن أشهرها الإله توت أو تحوت Thoth . وهو المعروف عند اليونان باسم هرمس Hermes الذى أشرنا إليه فيما سبق . ويرجع المصريون إلى هذا الإله « توت » كثيرا من الأشياء ، يقولون إنه هو الذى علمهم إياها . فهو يمثل الذكاء المتقد[٢] ولهذا أصبح إله الحكمة والعلم ، وهو الذى اخترع الكتابة وعلم المصريين علومهم وفنونهم ، وحبب إليهم الموسيقى وعلم الفلك[٣] بل نسبوا إليه أنه كان مؤلف الرسائل للآلهة . فهو الذى ألف الرسائل التى تبودلت بين الإله « رع Ra » من جهة ، وبين الإلاهة نت Neith « والإله » أوزر Osiris من جهة أخرى[٤] .

وكان للكتابة إلا هتان هما : « سيشات[٥] » ومسخنت[٦] » . والظاهر أن هذه الآلهة جميعا كانت للكتابة الديوانية التى هى جمل من أعمال الحكومة . أما رعايتهم للكتابة الأدبية الفنية ، فقد يكون مفهوما ضمنا . فإن هذه الآلهة كانت متصفة بالذوق فى الكلام ، والمهارة فى صناعة الكتابة . جاء فى تمثيلية « انتصار حور على أعدائه » أن : « تحوت ، صاحب العظمة المزدوجة ، سيد الأشمونين ، ومن لسانه يقطر شهدا ... الحاذق فى الكلام[٧] » . . . وجاء فى صلاة لتحوت — ويقصد بالصلاة التمجيد أو الثناء — ما يأتى : « تعال إلى ياتحوت . . . يا كاتب خطابات التاسوع . . . تعال إلى لترشدنى وتجعلنى ماهرا فى صناعتك التى هى أجمل من كل الصناعات . إنها تجعل الناس عظماء ، وقد وجد أن من يحذقها يصبح مشهورا[٨] » .

(١) Mythus of the Hindus & Buddhists P. 23

(٢) Stories of Egyptian, Gods and Heroes P. 29

(٣) على هامش التاريخ المصرى القديم ١ / ٩٧ و ١٣٠ و ٢ / ٣٩.

(٤) الأدب المصرى القديم ١ / ١٣٦ . (٥) نفسه ٣٧٨ .

(٦) نفسه ٢١٦ . (٧) نفسه ٢ / ٢٤ . (٨) نفسه ٢ / ١٤٥ .

وفى صلاة أخرى له :

« أنت تمدنى بما أحتاج إليه من خبز وجعة ، وتحرس فمى عند الكلام[١] » .

وليس عند المصريين إله للشعر فيما قرأت ، إلا أن يكون « تحوت » إلها له ؛ لأنه كان إله الفنون عامة ، وهو الذى علمها المصريين ، وإذا كان لسانه يقطر شهدا ، وكان هو حاذقا فى الكلام ، ويدعى لحراسة الفم عند الكلام ، فلأنه إله ، الحكمة التى قد تكون شعرا وقد تكون نثرا . وتكون توفيقا فى اختيار الجمل والعبارات ، وكل شىء من ذلك قد يكون موزونا وغير موزون .

وكان « أمحتب » ، وزير الملك زوسر ، إلها للطب فى التاريخ القديم ، لكنه كان بارعا أيضا فى الدين والسحر وضرب الأمثال الصادقة ، حتى اتخذه الكتاب مثالا يحتذونه فى حياتهم العلمية ، وصبوا مداد محابرهم تيمنا بذكره قبل البدء بأعمالهم الكتابية[٢] .

والعصور التى تتحدث عن هذه الآلهة هى عصور الحضارة المصرية الراقية ، وكانت حضارتهم علمية ، وكانت الكتابة معروفة عندهم ، ولها منزلتها الكبرى فى الدين والدنيا ، فى أعمال الحكومة والمدارس والتدوين على الآثار ؛ وليس معنى هذا أنهم لم يهتموا بالشعر ولم ينسبوه إلى إله ؛ ولا بد أنهم فعلوا ذلك فى عصور الأساطير التى سبقت عصور التاريخ . وما جاءنا من آلهة للشعر فى الأمم الأخرى كان من مخلفات العصور الأسطورية ، كما كان عند اليونان والرومان والتيوتون والهنود ، كشياطين الشعر عند العرب . لهذا لا أستطيع أن أنفى وجود آلهة للشعر عند المصريين ، فقد كان للشعر عندهم منزلة عالية .

موازنة :

١ — فإذا رجعنا إلى ما كان عند العرب فى جاهليتهم من عقائد فى الأرواح المسماة بالجن أو الخوافى ، وإلى ما كانوا ينسبونه إليها من أعمال ، وعقدنا مقارنة بينه وبين ما كان عند غيرهم من الأمم ، وجدنا تشابها بينها جميعا فى الإيمان بقوى تسيطر على أعمال الناس وتؤثر فيها ، وإن اختلفت الأسماء ، ذلك لأن الأمم

(١) نفسه ٢ / ١٤٦ .

(٢) تاريخ مصر تأليف بريستيد ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٧٤ .

— كما تقدم — تمر بحالات من البداوة متشابهة ؛ وللناس فى كل البلاد طباع متشابهة، وعقول متقاربة ، ونظرات إلى الكون يعرفها علماء الاجتماع والأساطير فى تلك العهود الأولى ، وفى حالات البداوة والفطرة ؛ لهذا تتشابه عقائدهم فى كثير مما يرونه حولهم فى الكون ، ويبتدعون قصصا تشمل هذه العقائد فى الآلهة والأرواح وتفسير النظم التى تسير عليها العوالم العلوية والسفلية ، والقوانين التى يخضع لها ملكوت السموات والأرض .

على أن اتصال الأمم بعضها ببعض قد يؤدى إلى استعارة أمة من أخرى كما استعار اليونان الإله المصرى القديم توت « Thoth » بصفاته ، وسموه اسما من عندهم هو هرمس Hermes ، وكما استعاروا أسطورة إيزيس وأوزيريس[1]».

ويكون تشابه هذه العقائد والآراء والأساطير فى الفكرة العامة غالبا ، أما التفاصيل فقد تخضع لظروف محلية تباعد بينها . فما رأيناه عند العرب من اعتقاد فى أرواح أو قوى خفية ، تستطيع ما لا يستطيعه الناس، وتنفع أو تضر، وتقيم فى الجبال والأماكن غير المعمورة، وعند منابت الشجر وحول العيون، كلها لها شبيه عند غيرهم : فكان عند اليونان مثل هذه الأرواح أو القوى وإن سموها آلهة أحيانا . وقد انتفع كل منهما بهذه الآلهة أو الأرواح فى معرفة الغيب ، والنبوغ فى الفنون . وسكنت هذه الأرواح القديرة بلاد عبقر ووبار عند العرب ، وأقامت فى بيوت الأصنام أحيانا تهتف بأوليائها ، ويسمع لها صوت فيها . وسكنت عذارى الشعر قمم الجبال فى هليكون وبرناس وبندوس ، واختارت عيونا مقدسة أودعت فيها سرها ، فإذا شرب منها الشارب صار شاعرا ملهما ، كما كانت كية الشعر ، أو كان عس الهبيد ، إلهاما مفاجئا يخلق من الناس شعراء .

٢ — غير أن هذه القوى الملهمة كانت آلهة عند اليونان وعند الهنود وقدماء المصريين وفى أساطير التيوتون وعند الرومان . وكانت جنا وشياطين عند عرب الجاهلية . وقد تعددت ربات الشعر عند اليونان لتعدد فنونه عندها ، وتطورت فزاد عددها من واحدة إلى تسع . وقد ذكرنا أسماءها وعملها بإيجاز فيما سبق .

(١) على هامش التاريخ المصرى القديم ١ / ١٣٠)

أما العربُ فقد عرفوا نوعا عاما هو شياطين الشعراء ، وإن تعددت الصفات والأسماء . فهى « هواتف وهواجس » فى قصة الأعشى التى ضل فيها فى الصحراء ، وهى « جن » فى حال الحطيئة ، « وشياطين » فى الجملة .

ويبدو أثر العهد الطويل الذى مرت به الأساطير اليونانية جليا فى تنظيم آلهتها ، وتخصيص كل منها بعمل . فقد كانت جاهلية اليونان ، من قبل هومر إلى العصر العلمى ، حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، أطول من جاهلية العرب زمنا ، وأكثر تأثرا بأمم أخرى ، كمصر . فنظمت ربات الشعر فى هذا الزمن الطويل . ولم يكن عند العرب من فنون الشعر ما كان عند اليونان ، فنسبت هذه الفنون فى الجملة إلى آلهة خاصة بها ، كل فن له عذراء خاصة به . أما العرب فكان عندهم شعر غنائى فقط .

وقد اهتم شعراء اليونان بهذه الآلهة أكثر من اهتمام العرب بشياطينهم ، فاليونان دعوا هذه العذارى أن تعينهم على قول الشعر ، أو أن تقول وتنشد ؛ كما فعل هوميروس فى أول الإلياذة ، وملئوا أساطيرهم الشعبية والأدبية بذكر آلهتهم عامة ، وعنوا بتاريخ هذه الآلهة وأنسابها ودوائر نفوذها ومجموعاتها ، مما لا نجد له نظيرا عند العرب . وعملت منزلة اليونان فى العصر القديم على إحياء تاريخها ، والبحث عما خفى منه . حتى أن أوربا عاشت زمنا على إحياء تراث اليونان والرومان بعد البعث Renaiscence . وكان اهتمامها بالآداب والأساطير عظيما ، بل إن اليونان أنفسهم فى عصرهم العلمى درسوا هذه الأساطير دراسة علمية وتكلموا فى هذه القوى ، وأنكرها بعضهم وعابها آخرون . وظلت هذه الدراسة متصلة فى الأدب اللاتينى وفى مدارس الإسكندرية ، بعدهم بأزمان . فظلت أساطير اليونان والرومان باقية لا حرج فى تدوينها ، والاقتباس منها ، والاستعانة بمثلها فى وضع أساطير أدبية قومية .

أما العرب فقد نظروا إلى هذه الأساطير من الوجهة الدينية ، فوجدوها لاتلائم جد الحياة وما أخذوا أنفسهم به من الاهتمام بالمنقول والمعقول ، بل إن نظرتهم إليها كانت أقل من نظرة الخلف اليونانى إلى ما ورثوه عن عهد جاهليتهم ،

ولم يكثروا من نقلها ولا تدوينها فى عصر التدوين ، لاشتغال علمائهم عنها بالأدب المحض ، من الشعر والنثر الذى يدور حول أغراض عينتها الظروف السياسية والثقافية والدينية .

إنهم انصرفوا عن تدوينها إلى تدوين الدين ، وانصرف الشعر إلى المدح والهجاء والغزل والوصف . أما الكتابة فكانت ناشئة بحكم الضرورة لخدمة الحكومة والدين . ولم يكن هناك من الظروف مايساعد على ظهور كتابة تدون أساطير هذه الآلهة أو الشياطين التى عرفت فى الجاهلية .

لكن الرواة ظلوا يرددونها ، والأعراب فى البوادى ظلوا يتناقلونها ، ومنها ما أبقاه لنا الزمن فدون فى العصر العباسى ، وهو على قلته مادة بحثنا الذى قدمناه.

الباب الثانى

فى العصر الدينى

الفصل الأول

عصر جديد

حدود هذا العصر وما جد فيه :

يمتد هذا العصر حوالى قرن ونصف من الزمان ، ويبدأ بظهور الإسلام وينتهى بقيام دولة العباسيين ، ولسنا نقصد الدقة فى مبدئه ونهايته حين نتحدث عن ظاهرة « شياطين الشعراء » ، أو الاتصال بين الشياطين والناس ، فإن تطور الأفكار ينتقل عبر الحدود الزمنية . ويندر أن ينقطع تيار التفكير بفعل هذه الحدود .

أما أهم حدث فى هذا العصر فهو مجىء الوحى من السماء ، ونزوله بالقرآن لا بالشعر والكهانة ، وعجز الشياطين عن أداء عملها ، من استراق السمع والإخبار بالغيب . وكانت غاية هذا الوحى أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن يصلح ما فسد من عقائدهم ونظمهم ، وأن يقوم حياتهم الروحية والمادية ، ليجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

كان من مقومات الحياة الروحية الجاهلية الإيمان بالشياطين ووحيها إلى الكهان ، فيقضى هؤلاء فى مستقبل الناس ، وأرزاقهم ، وكثير من أمور حياتهم ، رجماً بالغيب ، واعتماداً على أخبار تحملها إليهم الشياطين . وكان أدبهم الرفيع ، وهو الشعر ، وحيا من هذه الشياطين أيضاً . فجاءهم الإسلام بكتاب عزيز ، فى أسمى درجات البيان ، وما ينبغى لهم ، وما يستطيعون . وما هو بقول شاعر ، ولا بقول كاهن ، ولا بقول شيطان رجيم . فتغير مصدر الأدب ومصدر العلم بالغيب ، وجد فى الحياة العربية جديد لم يألفوه ، وهو الوحى والملائكة .

(١) الوحى :

هذه الكلمة من الكلمات القديمة لأنها تدل على المعانى الفطرية التى تعبر عنها الأمم فى بداوتها . ولها فى اللغة كثير من المعانى منها : الإشارة ، والإلهام ، والكلام الخفى ، والأمر ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ، والتسخير ، والرؤيا الصادقة ،

والصوت يكون فى الناس وغيرهم[١] . ثم غلب استعماله شرعا فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله تعالى : وأضاف الراغب الاصفهانى « الأولياء » إلى الأنبياء فى تلقى الوحى عن الله ، وإن اختلف النوع والغاية .

والاتصال بين المعنى اللغوى والشرعى قوى ، سواء أكان الأصل اللغوى هو الإسرار والإعلام فى خفاء ، أو كان المراد به السرعة ، أو هما معاً ، فإن ذلك كله ملاحظ فى المعنى الشرعى .

وقد أوحى الله سبحانه إلى الرسل بطرق مختلفة ، فكلم بعضهم بواسطة أو بلا واسطة ، وكان جبريل الملك الذى ينزل بالوحى غالباً ، وقد يكون الوحى إلهاما أو نفثاً فى الروع ، أو يكون رؤيا صادقة فى النوم .

وجاء القرآن إلى النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل ، وذكر ذلك صراحة فى قوله تعالى: « قُلْ من كانَ عدُوا لجبريلَ ، فإنهُ نزّلَهُ على قلبك بإذْنِ الله[٢] » . وسماه القرآن أحيانا : « روحا » ، أو « روح القدس » أو « الروح الأمين » .

وتحدث النبى صلى الله عليه وسلم عن بعض مراتب الوحى فقال[٣] : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى ، فأعى مايقول .

وقد يلقى الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه كقوله صلى الله عليه وسلم: « إن روح القدس نفث فى روعى ، أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب[٤] » . وقد يكون الوحى مناما صادقا ، ورأى بعض أئمة المسلمين أن الإسراء كان كذلك ، وأصبح النبى صلى الله عليه وسلم فأخبر قريشاً بالعير وما حدث فيها . وكان صادقا ، والرؤيا صحيحة[٥] .

وأوحى الله إلى غير الرسل قولا أو إلهاما أو تسخيراً وتكويناً . فأوحى إلى الملائكة : « أَنى معكم فَثَبّتوا الذين آمنوا[٦] » ، وأوحى إلى « أمّ موسى أن

---

(١) الدين والوحى والإسلام / ٤٣ — ٤٥

(٢) البقرة آية ٩٧ (٣) هداية البارى

(٤) الإحياء ٢٠٦/٣ — الدين والوحى والإسلام /٥٨

(٥) تاريخ الأمم الاسلامية ١٢٧/١ (٦) الأنفال آية ١٢

أرضعيه[١] » وأوحى إلى النحل[٢] « أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر » « وأوحى فى كل سماء أمرها » ؛ وقال « لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا أتينا طائعين »[٣] .

ولم يقتصر الإلهام والتوفيق على حسان ؛ فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ملهماً بنص الحديث[٤] : « إن يكن فى أمتى محدثون فعمر » . ويقول ابن حجر : محدثون بفتح الدال جمع محدث، واختلف فى تأويله فقيل «ملهم» ؛ قاله الأكثر ، وقالوا المحدث هو الرجل الصادق الظن ، وهو من ألقى فى روعه شىء من قبل الملأ الأعلى ، فيكون كالذى حدثه غيره به . . . وقيل : من يجرى الصواب على لسانه من غير قصد . وقيل « مكلم » ، أى تكلمه الملائكة من غير نبوة . وورد هذا من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا . ولفظه: قيل يارسول الله وكيف يحدث ؟ قال : تتكلم الملائكة على لسانه . . . قال ابن حجر : ويحتمل رده إلى المعنى الأول أى تكلمه فى نفسه وإن لم ير مكلما فى الحقيقة ، فيرجع إلى الإلهام ، أو محدث أى يلقى فى روعه ، أو يصيب من غير نبوة .

فكان عمر محدثاً على خلاف فى هذا التحديث بين الإلهام وصدق الظن والإلقاء فى الروع . وكلام الملائكة على لسانه[٥] .

(ب) الملائكة :

ولم نسمع أن العرب فى الجاهلية تحدثوا عن الملائكة حديثاً واضحاً ، أو سمعوا بوحيها أو نزولها على الناس، إلا قبيل الإسلام. فقد عرفها منهم من تهودوا أو تنصروا أمثال أمية بن أبى الصلت[٦] الذى ذكر الملائكة فى شعره . وأشهر رجل منهم ورقة بن نوفل[٧] الذى قصت عليه خديجة خبر « حراء » فعرف أنه الناموس الذى أنزله الله على موسى ، بل إنه سماه الناموس الأكبر[٨] .

وألف الناس الملائكة بعد الرسالة فى حديث القرآن عنها ، وإسناد الوحى إليها ، ونزولها بالقرآن، ومعاونتها فى بعض الغزوات ، وقيامها بكثير من الأعمال؛

---

(١) القصص آية ٧
(٢) النحل آية ٦٨
(٣) فصلت آية ١٢ و ١١
(٤) انظر فتح البارى ٧/ ٤٠ — ٤١
(٥) فتح البارى ٧/ ٤٠ — ٤١
(٦) الأغانى ٤/ ١٢٠ ومابعدها . دار الكتب
(٧) ابن هشام ١/ ١٥١ .
(٨) الأغانى ٣/ ١٢٢

بل إن جبريل عليه السلام كان يتمثل للنبي صلى الله عليه وسلم في صورة دِحية بن خليفة الكلبي ، وكان جميلا وسيما ، وفي هذه الصورة كان يراه الصحابة أحيانا .

واسم الملائكة في اللغة مشتق من « الأَلوكة » ، وهي الرسالة لأنهم وسائط بين الله تعالى وبين الناس ، وذلك عملهم الذي يوحي به اسمهم . واختلف العلماء في حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنهم ذوات موجودة قائمة بأنفسها ، فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك[١] .

وقد أكبرهم بعض الناس فعبدوهم ، وأنكر الملائكة هذه[٢] العبادة ، وبين الله فسادها في قوله : « لَن يَسْتَنكِفَ المسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لله ولا الملائكةُ المقرَّبُون[٣] » . ولا يصح أن يكون العبد معبودا . بل إنهم جعلوهم إناثا ونسبوهم إلى الله تعالى . وجاءت الآيات[٤] ناطقة بذلك وإن لم تبين القائل ولا زمان القول أو مكانه ، لا في العبادة ، ولا في تأنيث الملائكة ، ولا نسبتهم إلى الله . غير أنه يفهم من بعض الآيات أن هؤلاء كانوا في زمن الرسول وعلى مقربة منه . كقوله تعالى : فاستَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ وَلَهُمُ البَنُون» والسورة مكية ، ويكاد يتعين أن الذين جعلوهم إناثا هم قريش . وروى ذلك في تفسير الطبري[٥] ، كما روى فيه أنهم هم الذين عبدوها ، وفي الكشاف[٦] أن لخزاعة هم الذين قالوا : الملائكة بنات الله . وفي تفسير الفخر الرازي[٧] أنهم مشركو العرب . ولا ينفي هذا القول عبادة الملائكة أو تأنيثها في الجاهلية .

فالوحي كان من عمل الملائكة وعلى رأسهم جبريل . والرسل كانوا يتلقون عنهم بقوتهم القدسية[٨] وعند انسلاخهم من البشرية ، لانفرادهم باستعداد خاص

---

(١) للقاموس واللسان البيضاوي تفسير آية ٣٠ البقرة . (٢) سورة سبأ آية ٤٠ و ٤١ .
(٣) النساء ١٧٢ (٤) البقرة آية ١١٦ — الأنعام ١٠٠ — مريم ٨٨ — الأنبياء ٢٦ — سبأ ٤٠ و ٤١ . (٥) جـ ٢٣ ص ٦٠ و ٦٣
(٦) تفسير الآية ٢٦ من سورة الأنبياء . (٧) الصافات (١٤٩ — ١٥٨) الزخرف (١٥ — ١٩) مفاتيح الغيب تفسير الآية ٢٦ من البقرة . (٨) البيضاوي / ١٤٠

يجعلهم قادرين على رؤية الملائكة وفهم ما يأتون به ، على رغم مايلقى الرسل من شدة ، كما جاء فى حديث النبي صلى الله عليه وسلم[1] .

والوحي والملائكة جديدان على العرب إلى حد كبير ، وكذلك أعمالهما ؛ وقد أثرا فى حياتهم وتاريخهم تأثيراً باقياً أبد الدهر . وجاءهم عن طريقهما دين قويم وكتاب حكيم .

لكن بعض العقليات القديمة لم تستطع التخلص من أسر القديم ولا قبول الجديد . فظلت مستمسكة بقديمها ، ونسبت هذا الجديد العظيم إلى ما ألفته من وحي الشياطين .

وكان لهذه الشياطين فى العصر الديني مجال أوسع ، وظهر لها رئيس لم يألفه العرب باسمه الغريب «إبليس» ، وروى له تاريخ ، وظل اسمه واسم غيره من أعوانه مذكورا أبد الدهر .

(١) مقدمة ابن خلدون ٨٥ — ٨٦

الفصل الثانى

الشياطين فى العصر الدينى

أولا : فى صدر الإسلام :

أقر الإسلام بوجود عالم روحى فيه أرواح للخير ، مخلوقة من نور ، هم الملائكه ، وفيه أرواح للشر ، مخلوقة من نار ؛ هم الجان . وقص القرآن عن الملائكة والجن أنباء تبدأ قبل عهد آدم ، وكأنهما يمثلان قوة النزاع بين الخير والشر فى هذه الحياة . وكان الشيطان اسما من أسماء قوة الشر التى وجدت منذ ذلك الزمان .

والشيطان فى القرآن : يراد به فى الغالب صاحب الإغواء الذى يفتن الناس ويزين لهم سوء أعمالهم . كما أريد به فى بعض الآيات من كان يسترق السمع ويخبر الكهان بالغيب ؛ وأكثر ما جاء به القرآن من حديث الشياطين كان موعظة وذكرى وتحذيراً من همزاتهم ، وكثر ذلك فى الآيات التى تكلمت عنهم ، لما لهم من مداخل وحيل لم يسلم منها حتى الرسل الكرام .

وقد عبر القرآن عن الشياطين أحيانا بالجن : فى قصة سليمان[1] . والشيطانُ الذى أبى السجود لآدم كان من الجن ففسق عن أمرر به[2] والذين كانوا يسترقون السمع من الشياطين هم من الجن[3] ؛ والعفريت الذى أراد أن يأتى سليمانَ بعرش بلقيس كان من الجن أيضاً[4] .

وإذا أردنا أن نتحدث بأسلوب المناطقة قلنا إن بين الجن والشياطين عموما وخصوصا من وجه ، كما وردت فى القرآن . فالجن تطلق على كل مُسْتَخْفٍ من الأرواح الخيرة والشريرة حتى شملت « إبليس » رأس الخطيئة ، والجن الذين

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٢ — ص آية ٣٧ (٢) الكهف آية ٥٠
(٣) الجن آية ٩ (٤) سورة النمل ٣٩

آمنوا بمحمد . والملائكة الذين جعلهم بعض الناس شركاء لله(١) . أما الشياطين فيراد بهم مردة الجن والإنس أيضاً(٢) وكان منهم أعداء الأنبياء(٣) . ولفظا الجنة والجان يستعملان غالباً فيما استعمل فيه لفظ الجن، ويقول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجِنة نَسَباً(٤) » فإن قلت لم سمى الملائكة جنة ، قلت : قالوا : الجنس واحد ، ولكن من خبث من الجن ومرد ، وكان شرا كله فهو شيطان . ومن طهر منهم ونسك ، وكان خيرا كله ، فهو ملك » .

وللشياطين تاريخ فى القرآن سواء ذكروا بهذا اللفظ أو بلفظ آخر ، كالجن أو إبليس . ويبدأ تاريخهم بالمعصية وعداوة الناس ، وينتهى بذلك أيضاً . فى قصة آدم(٥) أنه أبى السجود له ، وأخرجه من الجنة ، وتوعد ذريته من بعده ؛ وحذر إبراهيمُ أباه أن يعبده لأنه كان للرحمن عَصِياً(٦) ، وهو الذى مس أيوب بِنُصْب وعذاب(٧) ، ونَزَغ بين يوسف وإخوته(٨) ، وحمل موسى على قتل عدوه فى المعركة التى لم يكن له شأن بها(٩) ، وزين لبلقيس وقومها أن يسجدوا للشمس من دون الله(١٠) إلى كثير من أمثال ذلك .

على أنهم قد خضعوا لسليمان ، وكانوا مسخرين له ، « يَعْمَلون له مايشاء من مَحَارِيبَ ، وتَماثيلَ ، وجِفَانٍ كالجَوَابِ ، وقُدور راسيات(١١) » ، وكانوا « يغوصون له ويَعْملون عملا دون ذلك(١٢) » وهم الذين جاءوه بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفُه(١٣) .

وقد أشير فيما سبق إلى أن للشياطين وحيا أشار القرآن إليه مرتين فى الأنعام ، فجعل « شَيَاطِين الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعض زُخْرُفَ القولِ(١٤) غُرُوراً ، وقال سبحانه « وإن الشياطين لَيوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم(١٥) »

---

(١) تفسير البيضاوى : آية ١٠٠ من الأنعام
(٢) البقرة آية ١٤ (٣) الأنعام آية ١١٢ (٤) سورة الصافات آية ١٥٨
(٥) البقرة آيات ٣٤ — ٣٦ والأعراف وطه و ص (٦) مريم آية ٤٤
(٧) ص آية ٤١ (٨) يوسف ١٠٠ (٩) القصص آية ١٥
(١٠) النمل آية ٢٤ (١١) سبا ١٢، ١٤ (١٢) الأنبياء ٨٢
(١٣ النمل ٣٩ — ٤٠ (١٤) آية ١٠٢ (١٥) آية ١٢١

وقد فسر الإيحاء فيهما بأنه وسوسة ، وعبر عنه فى آيات أخرى بأنه تزيين[١] وإغواء[٢]، ونزغ[٣] ، وتسويل وإملاء[٤]، وقول[٥]، ووعد وأمر[٦]، وفتنة[٧] وغرور[٨] ، وقد يسمى همزات الشياطين[٩] .

وعهد الله إلى بنى آدم ألا يعبدوا الشيطان ، وألا يتبعوا خطواته . وأن يستعيذوا بالله إذا نزغهم نزغ منه أو إذا قرأوا القرآن . وجاء الحديث بالاستعاذة منه فى أحوال كثيرة أخرى .

ويجدر بنا أن نقف قليلا لنتحدث عن استراق الشياطين وإلقائها فى أمنية الرسل والأنبياء . فأولهما شديد الصلة بالكهانة التى اعتقد العرب أنها من خبر السماء عن طريق الشياطين ، وثانيهما أمر عظيم يدل على مبلغ التمرد والجرأة التى عليها تلك المخلوقات . ويختلف هذان النوعان عن وحيها إلى الشعراء فى أنهما من جد القول لا من الأساطير ، وإن أشبها ذلك الوحى فى المصدر ، وهو الشيطان .

استراق السمع والرجم :

أخبرنا القرآن الكريم بخبر الاستراق والرَّجْم فى سورة الحجر فقال سبحانه[١٠] : « ولَقَدْ جَعَلْنَا فى السماءِ بُرُوجاً وزَيَّنَّاهَا للناظرين وَحفِظْناها من كل شَيْطانٍ رجيم ، إلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِين » . وكذلك فى الصافات[١١] ، وفصلت[١٢] والملك[١٣] . ويفهم من الآيات أن الكواكب خلقت زينة للسماء وحفظا لها من الذين يسترقون السمع منها ، وهم الشياطين الذين كانوا يَسَّمعون إلى الملأ الأعلى ، فيقذفون من كل جانب دُحورا ، ومن خطف الخطفة أتبعه شهاب ثاقب . ولكن متى كان ذلك ؟ .

---

(١) الأنفال آية ٤٨ (٢) الحجر آية ٣٩
(٣) الإسراء آية ٥٢ (٤) محمد آية ٢٥ (٥) الحشر آية ١٦
(٦) البقرة آية ٢٦٨ (٧) الأعراف آية ٢٧ (٨) لقمان آية ٣٣
(٩) المؤمنون آية ٩٧ (١٠) الحجر آيات ١٦ — ١٨ (١١) آيات ٦ — ١٠
(١٢) آية ١٢ (١٣) آية ٥

يحدثنا الجن[١] أنفسهم أن الاستماع كان فى زمن الرسالة وقبلها ، وأن السماء لم تُملأ حرساً شديدا وشهُبُا إلا فى زمنها أو قبيل ذلك : « فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما منعت من السمع قبل ذلك لئلا يشكل الوحى بشىء من خبر السماء فيلتبس على أهل الأرض ماجاء هم من الله فيه[٢] » .

وجاء فى سورة الشعراء : « هل أُنبّئُكم على مَنْ تَنَزَّلُ الشياطين ، تَنَزَّلُ على كلّ أفّاكٍ أَثيم ، يُلْقُونَ السمْعَ وأَكْثَرُهُمْ كاذبون » . فيفسر الزمخشرى كل أفاك أثيم بالكهنة والمتنبئة ، إذ كان الشياطين قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون إلى الملأ الأعلى . ويتخطفون بعض مايتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أو ليائهم . وفى الحديث : « الكلمة يتخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه ، فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة[٣] » وقيل الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم ، أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس ، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين .

ويحتمل الآية عددا من الآراء بسبب اختلاف مرجع الضمائر ، ولكنها لاتتعارض ، فإن الشياطين كانوا يسمعون إلى الملأ الأعلى ، ويسترقون السمع ، ويلقون إلى أوليائهم من الإنس بما سمعوا ويزيدون ، والكهنة والمتنبئة يتلقون عنهم ويزيدون ، وهم جميعاً كاذبون يخلطون الحق بما يفترون .

أما سبب عزلهم عن السمع لكلام الملائكة « فذلك لأنه مشروط بمشاركة فى صفاء الذات ، وقبول فيضان الحق ، والانتقاش فى الصور الملكوتية ؛ ونفوسهم خبيثة ظلمانية ، شريرة بالذات ، لا تقبل ذلك[٤] » .

وقد حسب المنكرون الكافرون أن محمدا كاهن يتلقى القرآن عن الشياطين كما كان يتلقى الكهان وحيهم ، فرد الله سبحانه بقوله : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطينُ ، وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ ، وما يستطيعون » . يقول الزمخشرى[٥] : « كانوا يقولون

(١) سورة الجن ٨ و ٩ ؛ (٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٣١

(٣) انظر الكشاف فى تفسير هذه الآيات .

(٤) البيضاوى فى تفسير الآية ٢١٢ من الشعراء .

(٥) الكشاف تفسير الآيات . ٢١ و ٢١٢ من سورة الشعراء .

إن محمدا كاهن ، وما يتنزل عليه من جنس ما يتنزل به الشياطين على الكهنة ، فكذبوا بأن ذلك مما لا يتسهل على الشياطين ، ولا يقدرون عليه ، لأنهم مرجومون بالشهب ، معزولون عن استماع كلام أهل السماء ، ولا يصح أن تتنزل على محمد لأنها تتنزل على كل أفاك أثيم ، وهو الصادق الأمين » .

ولكن متى حدث ذلك الرجم لمن كانوا يخطفون الخطفة، أو يسترقون السمع؟.

يقال إن ذلك كان بعد بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو إحدى آياته[1].

ويقول الزمخشري : « روى الزهري : بينا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في نفر من الأنصار إذا رُمِيَ بنجم فاستنار، فقال : ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ فقالوا : كنا نقول : يموت عظيم ، أو يولد عظيم[2] » . وهذا دليل على أنه حدث في الجاهلية وحدث في الإسلام. ويقول الزمخشري . «والصحيح أنه كان قبل البعث مستدلا بذكره في شعر أهل الجاهلية » . ويطعن الجاحظ[3] في بعض هذا الشعر ، ويعين زمن بعضه بأنه كان بعد مولد الرسول ، ويعد هذا الرجم إرهاصا إن كان وقع .

وقد طعن[4] قوم في استراق السمع ، محتجين بأن للشياطين من الذكاء والحيل والفطنة ، ما يمنعها من أن تعرض نفسها للهلاك ، وكان حقهم أيضاً أن يتعظوا بما جاء في القرآن عن ذلك ، وألا يسترقوا السمع أو يعودوا إليه . ومذهب الجاحظ في الرد عليهم أنه يقول بالصَّرْفَة ، أي أن الشياطين تنصرف قلوبها وأذهانها عما تعرف من القذف والرجم . أو من الوعيد الذي جاء في القرآن ، فتعود إلى السماء ، ويصيبها الشهاب كما أصابها أو أصاب غيرها من قبل .

إلقاء الشياطين في أمنية الأنبياء والرسل :

أما إلقاء الشياطين في أمنية الرسل والأنبياء المذكور في قوله تعالى[5] : وَمَا أَرْسَلْنَا من قبلك مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشيطانُ في

(١) الكشاف ٢/٤٩٤ . (٢) نفسه .

(٣) انظر الحيوان ٦ / ٢٦٤ — ٢٨١ و ٦ / ٤٩٦ — ٥٠٢ « القول في الشهب واستراق السمع . (٤) « الحيوان ٦ /٦٤٢ .

(٥) الحج ٥٢ و٥٣ — انظر تفسير الآيتين في الكشاف وغيره .

أُمْنِيَّتِهِ، فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ». ففيه أقوال منها : أنهم يزينون لهم، ويوسوسون فى صدورهم ببعض الأمور التى يشتهونها . ولا يجاوز الأمر ذلك الهمس، « فينسخ الله ما يلقى الشيطان، ثم يحكم الله آياته » . وقيل فى أمر نبينا عليه السلام إنه حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت .

ولكن هناك سبباً لنزول هذه الآية يرويه المفسرون فيجعل الأمر أخطر مما ذكرنا . يقول الزمخشرى فى الكشاف : « والسبب فى نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعرض عنه قومه وشاقوه، وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به، تمنى — لفرط ضجره من إعراضهم، ولحرصه وتهالكه على إسلامهم — ألا ينزل عليه ما ينفرهم، لعله يتخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم، واستنزالهم عن غيهم وعنادهم، فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة « والنجم »، وهو فى نادى قومه، وذلك التمنى فى نفسه، فأخذ يقرؤها، فلما بلغ قوله : ومناةَ الثالثةَ الأخرى، ألقى الشيطان فى أمنيته التى تمناها، أى وسوس إليه بما شيعها به، فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال : تلك الغرانيقُ العُلا، وإن شفاعتهن لترتجى . ولم يفطن له حتى أدركته العصمة، فتنبه عليه، وقيل نبهه جبريل عليه السلام، أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس . فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى، وطابت نفوسهم، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء، زاد به المنافقون شكا وظلمة، والمؤمنون نوراً وإيقاناً » .

ورد البيضاوى بقوله : وهو مردود عند المحققين، أى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم تلك الزيادة عن الغرانيق . وردّ على تكلم الشيطان فى أثناء قراءة النبى ؛ بأن ذلك يقل الوثوق بالقرآن .

وتاريخ النبى صلى الله عليه وسلم مع قومه فى تبليغ الرسالة يأبى هذه القصة، فقد كان موقفه فى الدعوة إلى الله، وفى إنكار الآلهة، صريحاً من أول يوم .

وما كان حرصه على إيمان قومه ليفتنه هذه الفتنة عن دينه. وما كانت قريش من الغفلة بحيث يخفى عليها ما جاء بعد ذلك فى سورة النجم نفسها من تسفيه للقسمة التى جعلت لله الأنثى ولهم الذكور ، ولا من إنكار لتلك الأسماء التى سموها هم وآباؤهم ، وما أنزل الله بها من سلطان .

فقصة الغرانيق لا يقرها تاريخ الرسول عليه السلام، ولا نفس أسلوب السورة التى حملت عليها حملا .

وكانت الشياطين تتنزل على هؤلاء الناس بالكهانة والشعر فى الحقيقة أو الوهم . ولم يكن القرآن كذلك ، « وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون » . وفى آيات كثيرة من القرآن اتهامهم له بالسحر ، وأنه ساحر . وقصة الوليد بن المغيرة معروفة مسطورة فى كتب التاريخ والسيرة وفى التفسير. وهو الذى يقول الله فيه : « إنه فَكَّرَ وقَدَّر ، فقتل كيف قدر ، ثم قُتِلَ ، كيف قدَّر ، ثم نَظَر ، ثم عَبَسَ وبَسَرَ ، ثم أدْبَرَ واستكبر ، فقال إنْ هَذَا إلا سِحْرٌ يُؤْثَرَ ، إن هذا إلا قول البَشَر » . وهو الذى رد احتمال الكهانة والشعر والكذب ، لأن محمداً لا يتصف بشىء من هذه الصفات . ثم هداه تفكيره وتقديره إلى أنه ساحر، لأنه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه ، وما الذى يقوله إلا سحر يأثُرُه عن مسيلمة وأهل بابل .

وكان بعض قريش فى أول عهدهم بالإسلام متأثرين بعقيدتهم الجاهلية فى مقدرة الشياطين على القول المزخرف ، تلقى به إلى أوليائهم من الشعراء ، وعلى الإخبار بالغيب فى صورة من التعبير مسجوعة . فحملهم عنادهم ، وعمى قلوبهم على عدم إدراك الفرق بين ما يقوله الشعراء والكهان ، وبين ما نزل على محمد من القرآن . لهذا حسبوا قوله من وحى الشياطين وأن الذى يأتيه رئى من الجن[١] ، وأرادوا أن يلتمسوا له علاجا منه ، وعندئذ قرأ صلى الله عليه وسلم سورة « فُصِّلَتْ » حتى أتى إلى موضع السجدة منها فسجد[٢] . فأقر محدثه « الوليد بن المغيرة » أنه سمع قولا لم يسمع مثله قط ، لا من الكهان ولا من أحد من الناس أجمعين .

---

(١) ابن هشام ١ /١٧٩ . (٢) الآيتان ٣٧و٣٨ .

قصصها وتأثرها بالدين :

رأينا فى الجاهليــة أن الشياطين قالت الشعر ، وكانت ترويه وتنقده ، وأنها كانت تنطق به على ألسنة أوليائها من الشعراء ، وأنها أخبرت أولياءها من الـكهان بظهور محمد صلى الله عليه وسلم صراحة أو تلميحاً . وأخبرت بموت العظماء فى آفاق الأرض كما فعلت عنـد موت ابن جدعان . ووُضعت حول ذلك قصص تصور تلك الجن شاعرة ، راوية ، ناقدة ، ملهمة ، وناقلة للأخبار أيضاً .

ولم يكن من السهل أن تنسى تلك الشياطين أو الجن لغتها من السجع والشعر ، ولا أن تختفى أخبارها من القصص والحـكايات ، ولـكن كان من السهل اليسير ، بل من الطبيعى ، أن تتحول إلى جن إسلامية ، تدعو إلى الإسلام وتؤمن به ، وتنذر المتخلفين عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد تثنى على الـكتاب الـكريم ، بل إنها لم تقصر فى بكاء الشهداء ، ورثاء القتلى ، وإذاعة أخبار المتقين ، وأن تهتف فى الأحداث الـكبرى ، والمواقف المشهورة .

وقد بنى أصحاب هذه القصص حكاياتهم على ما جاء فى القرآن من أخبار الجن . فإنه أخبر بأن نفراً من الجن استمعوا القرآن وآمنوا بالله ورسوله ، ثم ولّوا إلى قومهم منذرين قائلين : « يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ موسى ، مُصدقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْه ، يهدى إلى الحقّ وإلى طريقٍ مستقيم ، يا قومنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وآمِنُوا به[1] » الخ .

ففسرت هذه الآيات ، وسميت الجن التى اشتركت فى الحوادث ، ونسبت إلى بلادها ، وعينت أدوارها التى قامت بها ، والمسارح التى ظهرت عليها .

كما تحولت قصص الـكهانة إلى قصص إسلامية أو قصص فيها إرهاص بالإسلام ، وبشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وقدمنا من ذلك قصة سطيح بن مازن فى الجاهلية إذ أتاه عبد المسيح الغسانى

---

(١) الأحقاف من ٢٩ — ٣٢ .

رسول قيل العجم يسأله تأويل الأحداث التي حدثت ليلة ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم[١].
وأشرنا إلى أن العباس بن مرداس[٢] أسلم بدافع من رئيه أو شيطانه الذى كلمه من صنمه « الضماد » ، وإلى إسلام سواد بن قارب بعد أن أتاه رئيه ثلاث ليال ، يضربه برجله فى كل ليلة ليستيقظ ويسمع مقالته، ويقول له : قم ياسواد بن قارب، فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل . ويخبره أنه قد بعث نبى من لؤى بن غالب، يدعو إلى الله عز وجل ، وإلى عبادته ، وينشده بعد ذلك ثلاثة أبيات مكررة ، تتفق فى معناها وأكثر ألفاظها ، وإن اختلفت فى قوافيها[٣].

ولعل قصة خنافر بن التوءم الحميرى[٤] أحسنها سبكا ، ومن أطولها شعرا وسجعا ، وكان شيطانه « شِصَار » لا يكاد يتغيب عنه فى الجاهلية . فلما شاع الإسلام فقده مدة طويلة ولم يجئه إلا بعد الهجرة . فبذل له النصح ، وأخبره أنه « آنس بأرض الشام نَفَرًا من آل العُذام ، حكاما على الحكام ، يذْبُرون ذا رَوْنَقٍ من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف ، ولا بالسجع المتكلف» . فأصغى ، فزجر . ثم سألهم : « بم تهينمون : قالوا : خِطَاب كُبَّار ، جاء من عند الملك الجبار . فاسمع يا شِصار ، عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار . تنج من أُوَارِ النار » . فقال : « وما هذا الكلام ، فقالوا « . فُرْقَان ، بين الكفر والإيمان ، رسول من مُضَر ، من أهل المَدَر ، انبعث فظهر ، فجاء بقول بَهَر ، وأوضح نهجا قد دَثَر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومَعَاد لمن ازدجر ، أُلِّفَ بالآى الكبر » . ثم أخبره أن هذا المبعوث من مضر ، هو أحمد خير البشر ، وحذره أن يتخلف ، ودعاه أن يبغى هذا الدين من «ذات الإِحَرَّيْن» ، والنفر اليمانين ، أهل الماء والطين ، فقال له خنافر : أوضح . فقال : الحق بيثرب ذات النخل ، والحرة ذات النعل ، فهناك أهل الطول والفضل ، والمواساة والبذل » .

---

(١) انظر القصة فى بلوغ الأرب ٣ / ٢٨١ .
(٢) الاغانى ١٣ / ٦٢ .   (٣) بلوغ الأرب حـ ٣ ص ٣٠٢ .
(٤) الأمالى ١ / ١٣٤ دار الكتب .

فلما أشرق الصبح ذهب إلى صنعاء فأصاب بها معاذ بن جبـــل أميرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبايعه على الإسلام ، وتعلم سورا من القرآن . وذكر تلك القصة شعرا فى أعقاب النثر .

وعفيراء الكاهنة الحميرية أخبرت مرثد بن عبـــد كلال بظهور النبى صلى الله عليه وسلم وأنه : يدعو « إلى صلاة وصيام ، وصلة أرحام ، وكسر أصنام ، وتعطيل أزلام ، واجتناب آثام[1] » .

وليس أسلوب هذه القصص غريبا على هذا العصر ، فإنه لاتزال أسجاع الكهان معروفة ، ولا يزال الكهان موجودين وإن تنبأ بعضهم[2] كمسيلمة ، والأسود العنسى ، وسجاح التميمية . بل إن هذه القصص منسوبة إلى قوم كانوا كهانا فعلا ، وليس من اليسير أن يغيروا لغتهم فى يوم وليلة ، خصوصا إذا كانت من وحى تابعهم .

ولكن كيف يتفق هذا مع ماتقدم من أن الشياطين عزلت عن السمع ؟ لقد كانت هذه القصص حذرة . فإن شيطان خنافر سمع الخبر فى الشام وأسلم وجاءه يدعوه إلى الإسلام . وكذلك شيطان سواد بن قارب ، الذى أخبره فى الشعر ثلاث مرات أن الجن أعدت رواحلها وذهبت إلى مكة تبغى الهدى . ولا مانع من أن يكون شيطان العباس بن مرداس قد سمع ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم من الجن الذين آمنو ورجعوا إلى قومهم منذرين ، أو يكون هو قد طوف فى الآفاق يوما ، وسمع برسالة الرسول ، وآمن ، وعاد إلى العباس داعيا إلى الإسلام .

هتافها بالشعر فى الأحداث الكبرى :

على أن هذه الشياطين هتفت فى أحداث الإسلام الكبرى ، وألقت شعرها إلى الجماعات والأفراد . وقد أسلم السعدان سعد بن معاذ ، وسعد بن عُبادة ، وكانا سيدى قومهما ، فأعز الله بهما الإسلام فى المدينة . ولم تسمع قريش بإسلامهما

---

(١) بلوغ الأرب ٣ / ٢٩٦ . (٢) الحيوان ٦ / ٢٠٥ وتاريخ الخميس ٢ / ١٧٣ .

إلا حين سمعت صائحا يصيح على أبي قُبَيْس مرتين في ليلتين ، في شعر ينسبهما إلى قبيلتهما[١] .

وهزمت قريش في بدر ، فمر هاتف من الجن على مكة ينشد بأعلى صوته في اليوم الذى تمت فيه الهزيمة . وبعد قليل جاء الخبر اليقين إلى قريش[٢] .

وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فنزل في طريقه في خيمة أم معبد بنت كعب ، فأخبرتِ الجنُّ أهل مكة بنزوله ، في أبيات من الشعر يسمعونها ولا يرون القائل[٣] .

ولما تخلف سعد بن عبادة عن بيعة أبي بكر ، ذهب إلى حوران من أرض الشام ، وأقام بها حتى مات . وقيل إنه وجد ميتا في مغتسله وقد اخضر جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول[٤] :

قد قَتَلْنَا سيدَ الخزْ   رَج سعدَ بنَ عُبَادَهْ
ورَمينَاهُ بسهمَيـ   ـن فلم نُخْطِ فؤادَه

فعرفوا أنه مات ، وأن الجن قتلته .

وناحت الجن على النخع لما أصيبوا بالقادسية ، فسمع نواحهم بواد من أودية اليمن في نفس اليوم[٥] .

وبكت الجن عمر بن الخطاب قبل أن يقتل بثلاث ، أو بعد أن قتل ، في أبيات منها :

جزى اللهُ خيرا من إمامٍ وبارَكَتْ   يَدُ اللهِ في ذَاكَ الأَدِيم المُمَزَّقِ

وروى أن عائشة سمعت ثلاثة أبيات من الشعر السابق وهى تؤدى مناسك الحج . ونسب هذا الشعر إلى مزرد بن ضرار ؛ أو الشماخ أخيه ، أو جَزْء أخيهما[٦] .

---

(١) آكام المرجان ١٣٦ . (٢) نفسه ١٣٧ . (٣) نفسه ١٣٤ — ١٣٦ .
(٤) نفسه ١٣٧ . (٥) نفسه ١٤٢ . (٦) نفسه ١٤٤ والأغانى ٨ / ٩٨ .

وناحت الجن على عثمان[١] ، وأخبرت فى دمشق . بوفاة على بن أبى طالب[٢] فعرف معاوية الخبر ، وكتب تلك الساعة والليلة وعرف صحته فيما بعد ، وناحوا على الحسين بن على شعرا[٣] ، وعلى شهداء الحرة[٤] حتى إن ابن الزبير لما سمع هذا الشعر قال : ياهؤلاء ؛ قتل أصحابكم . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

والشعر الذى ينسب إلى الجن ضعيف لايليق بمنزلتها فى عالم الأدب عامة والشعر خاصة ، ولا بمقدرتها وعبقريتها ، وإذا كانت القصص ضعيفة النسج أحيانا، بادية السخف أحيانا أخرى ، فلأنها لم تنضج من الناحية الفنية، ولم يكن يراد بها ذات القصة ، وإنما أريدت بها غايات مختلفة ، بعضها دينى كإخبار الجن بنزول النبى صلى الله عليه وسلم خيمة أم معبد ، وانتصار المسلمين فى بدر . وبعضها سياسى أو قبلى كبكاء الجن على شهداء الحرة ، وشعرهم فى إسلام السعدين ، ورثائهم للحسين ، ونواحهم على عثمان ؛ بل إن العامل الأدبى كان ذا أثر أحيانا فى كتابة هذه القصص التى نسبت وقائعها إلى الكهان وشياطينهم ؛ مثل قصة خنافر الحميرى ورئيه شصار ، وكان زمن هذه القصة متأخرا .

وقد أشار الدكتور طه حسين إلى أثر هذه العوامل[٥] وعلق على بعض الأخبار أيضاً . فجعل أخبار الجن فى سورة « الجن » وغيرها ، سببا فى كثير من الشعر المنسوب إليهم إذ يقول « فلم يكد القصاص والرواة يقرءون هذه السورة ، ومايشبهها من الآيات التى فيها حديث عن الجن ، حتى ذهبوا فى تأويلها كل مذهب واستغلوها استغلالا لاحد له ، وأنطقوا الجن بضروب من الشعر ، وفنون من السجع» . ويعد كل ماروى من هذا الشعر الذى قيل فى الجاهلية ممهدا لبعثة النبى، وكل مايتصل به من هذه الأخبار والأساطير التى تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم، وأحبار اليهود، ورهبان النصارى، كانوا ينتظرون بعثة نبى عربى يخرج من قريش أومن مكة ؛ يعد هذا كله منتحلا لخدمة غرض دينى ، لأنه موجه

---

(١) آكام المرجان ١٤٥ . (٢) نفسه ١٤٦ .
(٤) نفسه ١٤٥ . (٣) نفسه ١٤٧ .
(٥) فى الأدب الجاهلى الطبعة الثالثة/١٣٦

إلى العامة . ويقصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبى ، ويرجع شعر الجن فى قتل سعد بن عبادة إلى السياسة .

وإذا محصنا قصة مقتل عمر ، وجدناها تدبيرا فارسيا يشترك فيه معهم كعب الأحبار . والشعر الذى قيل فى رثاء عمر قد عرف قائله . ولكن الرواة نسبوها إلى الجن لأنهم يعرفون أنها تقول الشعر ، ومثل عمر جدير بأن ترثيه الجن والإنس من الشعراء .

هذه القصص و الأشعار تمثل صورة من آراء الناس فى الجن . فهم شعراء يهتفون بالشعر فى المناسبات الهامة ، وتسمع أصواتهم ولا ترى أشخاصهم ، ويؤثرون الليل على النهار ليهتفوا بالناس أو ليحدثوهم ؛ وهتافهم من أجواف الصحارى ، وبطون الأودية ، وقمم الجبال يساير عقيدة العرب فى مساكنهم ؛ أما قولهم فسجع أو شعر ، وأما أخبارهم فيما يستحيل على الناس معرفته فى تلك الأزمنة بمثل تلك السرعة . غير أن هذه القصص إسلامية متأثرة بالدين ، فلا عجب أن يكونوا فيها مؤمنين ، وأن يكونوا دعاة إلى الإسلام وأن يمدحوا مبادئه وكتابه الكريم ، ونبيه صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : فى العصر الأموى :

١ — وهذا العصر امتداد لصدر الإسلام فى كثير من نواحيه ، ولكن من الطبيعى أن يزيد تفكير الناس فى هذا العصر ، وأن تتطور نظرتهم إلى بعض مسائل الدين ؛ ومجتمع هذا العصر كان يشمل عددا من الصحابة وكثيرا من التابعين يتلقون عنهم ، ويجتهدون اجتهادا خاصا فى مسائل تعرض لهم ، وكما كان للدين سلطان كبير فيه ، كان للجاهلية صداها أيضا وآثارها ، وكان لمن أسلم من اليهود والنصارى تأثيرهم ، ومن كل ذلك تعددت صور الشياطين فى هذا العصر . فكانت شاملة لصور قرآنية ، ولصور متأثرة بالحديث ، وأخرى متأثرة بأساطير الجاهلية، وغيرها متأثرة بالأساطير الدينية عند اليهود والنصارى، كما عرفها ناقلوها ممن أسلموا ، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه .

٢ — وكان القرآن كتاب المسلمين ، ومرجعهم الأول ، ومن الطبيعى أن

تتأثر به صورة الشياطين فى العصر الأموى ، فالشيطان مصدر الوسوسة ، وهو الذى يزين زخرف القول وباطل الأعمال . وله قصة مع آدم ذكرت أكثر من مرة فى القرآن ، وقد سأل ربه أن يُنظِرَهُ إلى يوم الدين . فأنظره .

وهذا مجاهد بن جبر (مات سنة ١٠٣) يفسر قوله تعالى « من شر الوَسواس الخناس » بأنه منبسط على القلب ، فإذا ذُكِرَ اللهُ تعالى خنس ، وإذا غفل انبسط على قلبه ، فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلمة[١] » .

ولإبليس جنود وكتائب هو وأولاده . فيأمر أحد أولاده أن يسير بكتائبه فيأتى أصحاب الأسواق ، ويزين لهم الكذب والحلف والخديعة والمكر والخيانة . وقد روى هذا عن معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر[٢] . ولإبليس ذرية ، وله جنود بنص القرآن . وبقية الصورة تطبيق للقرآن على نحو خاص . فالشيطان يزين لكل إنسان من المعاصى ما يناسب عمله ، كما زين هنا لأصحاب الأسواق ما يرونه مفيدا فى تجارتهم ؛ وهذه الذرية تحتاج إلى تسمية ؛ فيسمى مجاهد أولاد إبليس الخمسة ، ويعين عملهم[٣] .

٣ — وللنبى صلى الله عليه وسلم كثير من الأحاديث عن الشيطان ، تأثر بها العصر الأموى فى تصوره . فهذا قوله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يجرى من بنى آدم مجرى الدم من الجسد » . وقول سيدنا على رضى الله عنه فى قوم : اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا ، واتخذهم له أشراكاً ، فباض وفرخ فى صدورهم ، ودب ودرج فى حجورهم . فنظر بأعينهم ، ونطق بألسنتهم ، فركب بهم الزلل ، وزين لهم الخطل[٤] ؛ وهذان القولان يمدان الحجاج بصورة أكثر تفصيلا فى خطبته بعد دير الجماجم فيقول : ياأهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم ، فخالط اللحم والدم ، والعصب والمسامع والأطراف ، والأعضاء والشغاف ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماخ ، ثم ارتفع فعشش ، ثم باض وفرخ ، فحشا كم شقاقا ونفاقا ، وأشعركم خلافا ؛ اتخذتموه دليلا تتبعونه ، وقائدا تطيعونه ، ومؤمرا تستشيرونه[٥] » .

---

(١) الإحياء ٣/٢٤ . (٢) نفسه ٢/٧٨ . (٣) نفسه ٣/٣٣

(٤) نهج البلاغة ١/٤٨ . (٥) العقد الفريد ٢/٣٨٠

وقد عهدنا الشيطان يفتن ويزين . أما صورته وهو يملى على كاتب يسطر عنه ماعليه فجديدة . أوحى بها تقدم الكتابة واستخدامها فى عصر بنى أمية . وهذا الحجاج يرد على كتاب تهديد جاءه من سليمان بن عبد الملك فيقول له : «إنى أعرف أنك كتبت إلى والشيطان بين كتفيك ، فشر مملى على شر كاتب[١]» . وقد يسيطر على القاض ملك أو ملكان يفتيانه ويذكرانه ، كقول عبد الله بن عمرو عن سليم ابن عتر ، فلما تولى القضاء استولى عليه شيطانان يزيغانه عن الحق ويفتنانه[٢] .

٤ — وكانت عناية بنى أمية بتراث الجاهلية عظيمة ، وكان كثير من الأعراب فى البوادى يتناقلون أساطير آبائهم من عهد الأساطير . فظهرت للجن فى هذا العهد صور جاهلية . فعزيفها بالليل مزعج فى الصحراء[٣] ، ولها سمر وأغانى ، وعزيفها كتضراب المغنين بالطبل ، كما جاء فى شعر ذى الرمة ، الشاعر الأموى المجيد فى وصف الفلوات ومافيها . وفى شعر الراعى النميرى أيضا ؛ والعوجى والبعيث[٤] يعرفان مقـــدرة الشياطين فى الصناعة . فيصوران فى شعرهما تلك القدرة .

٥ — أما المعين اليهودى والنصرانى الذى استقى منه قصاص المسلمين فى تصورهم للشياطين ، وفى قصصهم بوجه عام ، فكان مثار حملة شديدة من علماء المسلمين ، لأنه امتلأ بالمبالغات والكذب والاختراع ، حتى حورب القصاص من عهد سيدنا على[٥] ؛ لكن كان فيهم من يحسن القصص ، ويتوخى الصدق كالحسن البصرى .

وترى اسم وهب بن منبه وكعب الأحبار وعبد الله بن سلام يتردد فى كتب التفسير عند هذه القصص ، كما ترى فى قصة سليمان فى سورة النمل ، إذ ورد فيها اسم وهب بن منبه حوالى خمس عشرة مرة فى تفسير الطبرى . واقرأ تلك القصص لترى أن صورة الشياطين فيها أكثر مما جاء به القرآن كثيرا . فقد

---

(١) العقد ٣/٢٥٠ (٢) الولاة والقضاة للكندى ٣١١
(٣) الحيوان ٦/١٧٥ — ١٧٧
(٤) نفسه ١٨٦ و ١٨٧ (٥) فجر الاسلام ١٢٩

سمى فيها العفريت من الجن ، وكذلك الذى عنـده علم من الـكتاب . وصورت مقدرة الشياطين، كما صور غيرها تصورا عجيبا. بل إن بعض التصوير ينافى كرامة الرسل أحيانا، كقصة الشيطان مع سيدنا داود ، إذ جاءه فى صورة حمامة من ذهب فأراد القبض عليه فطار ، فتبعه إلى كوة صغيرة نزل بها؛ فاطلع منها على امرأة جميلة فأغزى صاحبها حتى قتل ، وتزوجها[1] وهذه القصة قديمة ، فقد روى سعيد بن المسيب أن عليا قال[2] : من حدثـكم بحديث داود على مارويه القصاص ، جلدته مائة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء .

٦ — فصورة الشياطين فى هذا العصر الأموى متأثرة بالقرآن الـكريم ، خصوصا فى ناحية الوسوسة ، ومتأثرة بأحاديث الرسول والعصر الجاهلى خصوصا فى ناحية التصوير المـادى ، ومتأثرة بالأساطير اليهودية والنصرانية خصوصا فى ناحية القصص والأخبار . أما تأثرها بالعصر نفسه ، فـكان قليلا كالصورة التى أوردها الحجاج فى كتابه إلى سليمان بن عبد الملك .

ولا ننسى أن صورة شياطين الشعراء قد تأثرت بالإسلام والجاهلية أيضاً . وتفصيل ذلك سيأتى فى فصل خاص .

وبعد : فهذه صورة واضحة للشياطين والجن فى العصر الذى سميناه «العصر الدينى» كما صورها الدين ، بجانب ما تخلف من العصر السابق ، وما طرأ عليها من الخارج ، ظهرت فيه أعمالها وأهمها الوسوسة والإغراء والعداوة ، وظهر فيه بطل أبطالها ، ورأس رءوس الضلال والغواية وهو إبليس . ووضح لنا أنها مخلوقة من نار ، وأنها ستصير إلى النار، إلا من آمن منها واهتدى بهدى الإسلام أو الأديان السابقة . كما ظهرت فيه صورة جاهلية لها متأثرة بالإسلام . فهى جاهلية فى صلتها بالناس ووحيها إليهم ، إسلامية فى موضوعها ، فقد كان ما أصابها من رجم إرهاصا ، وما أوحت به إلى أوليائها من الـكهان تبشيرا برسول الله ، أو دعوة إلى دينه ، أو تحذيرا من مخالفته .

(١ ، ٢) انظر تفسير الـكشاف ٢/ ٢٨٠

الفصل الثالث

العصر الديني والشعر

أكبر الجاهليون هذا الفن الجميل ، وظنوه فوق قدرة الناس فنسبوه إلى الشياطين لكن القاييس تغيرت في هذا العصر الديني ، وثارت شبهات حول الشعر ومنزلته ، وسندرس تلك الشبهات لنرى سببها وتأثيرها في منزلة الشعر ومصدره ، فنقول :

١ — وقفت قريش من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم موقف الإنكار والرفض أولا ، وكانت هناك حرب بينهما من أجل العقيدة . فهم يقولون « إنا وَجدْنا آباءَنا على أُمَّة ، وَإنّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدون[1] » . وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم . « أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ »[2] . « وإذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قالوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنا ، أَوَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لايعقِلونَ شيئاً ولا يهتدون »[3] .

٢ — واشتد النزاع بينهما حول مصدر هذه الرسالة وما كان ينزل من آيات الكتاب الكريم . فأنكروا الوحي ، ونسبة الآيات إلى الله . « بَلْ قَالوا أَضْغَاثُ أحلامٍ ، بَلِ افْتَرَاهُ ، بل هُوَ شاعر[4] » و « كانوا إذَا قِيل لهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرون ، ويقولون أَئِنَّا لَتَارِكو آلِهَتِنا لِشَاعِرٍ مَجْنون[5] » . ولما أعيتهم الحيل قالوا ننتظر به نوائب الزمان حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء : كزهير والنابغة . فنزل قوله تعالى : «أَمْ يقولون شاعر

---

(١) الزخرف ٢٢ (٢) الزخرف ٢٤ (٣) البقرة ١٧٠
(٤) الأنبياء ٥ (٥) الصافات ٣٥ و ٣٦ .

نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ[١] » ؛ فاتهموه فى هذه الآيات بالافتراء والجنون والشعر ، كما اتهموه بالكهانة والسحر فى آيات أخرى ذكرت فيها التهم أو فهمناها فى الرد عليهم .

وتحداهم القرآن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك عجزاً مخزيا وهم أهل الفصاحة والبيان . ثم رد عليهم فى كثير من الآيات . كقوله تعالى . « قُلْ لو شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُه عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عُمُراً من قبله ، أفلا تعقلون[٢] » . وكقوله تعالى . « ولقد أنزلنا إليكَ آياتٍ بَيِّناتٍ ، وما يكفر بها إلا الفاسقون[٣] » . وكان يرد على الاتهام بالشعر مستنكراً قولهم ، منكرا لاتهامهم: قال فى سورة الصافات « بل جاءَ بالحقِّ وصَدَّقَ المرسلين[٤] » . وفى سورة الطور . « قل تَرَبَّصُوا فإنى معكم من المُتَرَبِّصين[٥] » . وقال فى سورة الحاقة . « إنه لقَولُ رسول كريم ، وما هو بقَول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهنٍ قليلا ما تذكرون ، تنزيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِين[٦] » . ثم بين استحالة الشعر عليه لو أراده فى قوله تعالى . « وماعلمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين ، لِيُنْذِرَ مَنْ كان حيًّا ، ويَحِقَّ القولُ على الكافرين[٧] » . وجاء فى الكشاف مايفهم منه أنها كانت ردا على اتهامهم للرسول بأنه شاعر . ويفسر الزمخشرى قوله تعالى : «وماينبغى له» بقوله : وما يصح له ولا يتطلب لو طلبه ، أى جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يأت له ولا يتسهل . فما سر ذلك كله ؟

٣ — آيات اتهامه بالشعر والرد عليها أيضاً كلها مكية . فالذين وجهوا إليه هذا الاتهام هم أهل مكة . ولم يبنوا هذا الاتهام على أساس الوزن والقافية كما يتبادر إلى الذهن من لفظ الشعر . فإنهم ليسوا من الغفلة بحيث يخفى عليهم خروج القرآن على الأوزان والقوافى ، ومخالفته لنظام الشعر اللفظى الذى كانوا يألفونه . ولكنهم نظروا إلى تأثيره — وكان الشعر عندهم عظيم التأثير آخذا بالألباب —

---

(١) الطور ٣٠ (٢) يونس ١٦ (٣) البقرة ٩٩
(٤) الصفات ٣٧ (٥) الطور ٣١ (٦) ٤٠ — ٤٣ الحاقة
(٧) يس ٦٩ — ٧٠ .

فزاد القرآن عليه فى هذه الناحية . وله من موسيقاه اللفظية وحسن انسجامه وائتلاف معانيه مع ألفاظه، ما يجعل موسيقاه أقوى تأثيراً من موسيقى الشعر فى شدته ولينه ؛ وهم لم يألفوا هذا النوع من قبل فى نثرهم وشعرهم . لكنه كان عندهم أقرب إلى الشعر والكهانة ؛ بما فيهما من إخبار بالغيب ، واعتماد على الخيال والوهم . وإن هذين النوعين قد نسبا عندهم إلى الشياطين ؛ فخرجوا من إنكار الوحى إلى اتهام محمد صلى الله عليه وسلم بأنه يتلقى عن الشياطين ؛ فكان الرد عليهم صريحا فى آيات الشعراء فى قوله تعالى : « وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبك لتكونَ من المنذرين ، بلسان عربىٍّ مبين[1] » .

كما نفى عنه الكهانة والشعر ، أو أن يكون مما تنزلت به الشياطين فى قوله تعالى : « وما تَنَزَّلَت به الشياطينُ وما ينبغى لهم وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون[2] » ثم قال : « هل أُنَبِّئُكُمْ على من تَنَزَّلُ الشياطينُ ، تَنَزَّلُ على كل أَفَّاكٍ أثيم يُلْقُونَ السمع وأكثرهم كاذبون[3] » . ثم حمل على الشعراء وأتباعهم فى قوله : « والشعراء يَتَّبِعهم الغَاوون[4] » .

ومعناه أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم ، وفضول قولهم ، وماهم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض ، والقدح فى الأنساب ، والنسيب بالحُرَم ، والغزل والابتهار ، ومدح من لا يستحق المدح ، ولا يَسْتَحْسِن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم إلا الغاوون والسفهاء والشطار . كما يقول الزمخشرى فى الكشاف .

وجاء فى روح المعانى للألوسى أنه مسوق لتنزيهه عليه الصلاة والسلام أيضا عن أن يكون من الشعراء . وفى تعقيبه على قوله تعالى « ألم تَرَ أنهم فى كل وادٍ يهيمون » يقول : ألم تر أن الشعراء فى كل واد من أودية القيل والقال ، وفى كل شعب من شعاب الوهم والخيال ، وفى كل مسلك من مسالك الغى والضلال ، يهيمون على وجوههم ، لا يهتدون إلى سبيل من السبل .

أما اتهامهم النبى صلى الله عليه وسلم بقول الشعر فيقول فيه : الظاهر أنهم

(١) ١٩٢ — ١٩٥ (٢) الشعراء ٢١٠ — ٢١٢ (٣) ٢٢١ — ٢٢٢
(٤) الشعراء ٢٢٤

إنما قصدوا رميه صلى الله عليه وسلم بأنه — وحاشاه ثم حاشاه — يأتى بكلام مخيل لاحقيقة له . ولما كان ذلك غالبا فى الشعراء الذين يأتون بالمنظوم من الكلام ، عبروا عنه عليه الصلاة والسلام بشاعر ، وعما جاء به بالشعر .

٤ — وقد فهم من جملة هذه الآيات التى اتهمت قريش فيها الرسول بأنه شاعر ، ثم دفع هذا الاتهام فى القرآن الكريم ، أن الدين يقف من الشعر موقفا معاديا ، أو أنه على الأقل لايؤيده ولا يحمده ، ولا يوالى الشعراء .

وجاء قوله صلى الله عليه وسلم : «لأَن يمتلئَ جوفُ أحدِكُم قيحاً ، حتى يَرِيَه خير له من أن يمتلئ شعرا » مساعدا على هذا الرأى السابق[١] .

وكان فيما فعله لبيد مايشعر أن قول الشعر شئ غير محمود ، فلم يقل إلا بيتا واحدا فى الإسلام ؛ وكتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة والية على الكوفة : أن استنشد من قبلك من شعراء مصرك ماقالوا فى الإسلام . فأرسل إلى الأغلب العجلى الراجز فقال له أنشدنى . فقال[٢] :

أرَجزاً تريدُ أم قَصِيدا ‏ ‏ ‏ لقد طلبْتَ هيِّناً موجودا

ثم أرسل إلى لبيد ، فقال : إن شئت ماعفى عنه — يعنى الجاهلية — فقال : لا ، أنشدنى ماقلت فى الإسلام . فانطلق فكتب سوره البقرة فى صحيفة . ثم أتى بها ، وقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر ، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة ، وجعلها فى عطاء لبيد . فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة . فكتب الأغلب : يا أمير المؤمنين أتنقص عطائى أن أطمتك ؟ فردعليه خمسمائة . وأقر عطاء لبيد على ألفين وخمسمائة .

وظاهر هذه القصة أيضا أن الشعر لم تكن له دولته المرموقة فى أيام عمر :

وقال سويد بن عدى الطائى — وقد أدرك الاسلام وأسلم —

تركتُ الشعر واستبدَلتُ منهُ ‏ ‏ ‏ إذا داعى مُنادِى الصُّبحِ قاما

كتــابَ اللهِ ليسَ له شريكٌ ‏ ‏ ‏ وَوَدَّعتُ المُـدَامةَ والندَامَى[٣]

(١) ١٣/١ (٢) الأغانى ٩٤/١٤ (٣) الأمالى ٢٠٥/١

فكان مجيء القرآن نثرا لا شعرا ، وظهور النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا ، ناثرا ، وورود هذه الآيات والآثار سببا فى شبهات حول موقف الدين من الشعر .

٥ — ولكن الآيات الكريمة لم تحط من قدر الشعر كله ؛ كما يتضح من أسباب النزول ومن مفهوم الآيات . فإن قوله تعالى : والشعراء يتبعهم الغاوون استثنى منه «الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا » وروى عن ابن عباس[1] أن الآية نزلت فى شعراء المشركين كابن الزبعرى وعدد آخر معه . والاستثناء نزل فى رهط من الأنصار منهم عبد الله ابن رواحة وحسان بن ثابت . فهى على هذه الرواية خاصة .

وإذا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فإن هذا الاستثناء يجعل الشعراء قسمين : أولهما الذين فى كل واد يهيمون ، ويقولون مالا يفعلون ، وهم الذين يقولون منكرا من القول وزورا . والقسم الثانى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وشعرهم يتفق مع تعاليم الدين وأوامره .

٦— أما الحديث الشريف ، لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا ، فقد بينت السيدة عائشة[2] أن المراد بالشعر فى الحديث هو ما هُجِي به النبى صلى الله عليه وسلم . وحمله الإمام الشافعى على الشعر المشتمل على الفحش .

وأما تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم فيدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن شاعرا ، ولكنه كان صاحب ذوق رفيع ، ومبادئ سامية وإحساس رقيق ؛ فكان يقدر الشعر العفيف ، ويستزيد منشده ، ويستمع إليه حتى فى المسجد .

روى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم بنى لحسان منبرا فى المسجد ينشد عليه الشعر[3] «وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بحسان وهو ينشد الشعر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان ، دعنى عنك ياعمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك . فما يغير على ذلك . فقال عمر صدقت[4]» وحسان يشير بقوله : من هو خير منك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[5] .

(١) تفسير الألوسى (٢) نفسه ١٩/ ١٥٠
(٣) تفسير الألوسى (٤) العمدة ١/ ١٠ (٥) الألوسى فى روح المعانى

وأخرج ابنُ سعد ، عن محمد بن سيرين ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن حسان ذات ليلة وهم فى سفر، فجاءه وجعل ينشده، والرسول يصغى إليه، فلما فرغ قال : لهذا أشد عليهم من وقع النبل ، وأخرج ابن سعد أيضا أن جبريل أعان حسانا على مدحته النبى صلى الله عليه وسلم بسبعين بيتا .

وأخرج الديلمى عن ابن مسعود أن الشعراء الذين يموتون فى الإسلام يأمرهم الله تعالى أن يقولوا شعرا يتغنى به الحور العين لأزواجهن فى الجنة .

وجاء حسان إلى النبى صلى الله عليه وسلم يعرض عليه أن يهجو قريشا فأذن له فى هجائهم . ودعا له أن يؤيده الله بروح القدس ما كافح عن الله ورسوله[١] . ودعاه للرد على وفد تميم لما جاءوا مفاخرين[٢] . وقد سمع شعر الخنساء واستزادها من رثائها فى أخويها[٣] بل روى أنه سمع شعرا لأمية بن أبى الصلت فيه مايوافق الدين فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم كالمصدق له[٤] . وسمع النبى صلى الله عليه وسلم عائشة تنشد شعر زهير بن جناب فأثنى على الشعر ووافق عليه[٥] . وأنشد شعرا لشريك بن عامر المصطلق فقال : لو أدرك هذا الإسلام لأسلم[٦] .

وسمع من النابغة الجعدى قصيدته المشهورة : « خليلى عوجا ساعة وتهجرا » فلما أنشده منها[٧] :

ولا خَيْرَ فى حِلْمٍ إذا لم تَكُن لَهُ ... بَوَادرُ تحمى صَفْوَهُ أن يُكَدَّرا
ولا خير فى جَهلٍ إذا لم يكن له ... حليمٌ ما أَوْرَدَ الأَمْر أَصْدَرَا

قال النبى صلى الله عليه وسلم : لايفضض الله فاك . فعاش عمرا طويلا لم تسقط له ثنية .

وما كان أرقه وأسمى نفسه حينما سمع شعر قُتَيْـلة بنت الحارث ترثى أخاها النضر بن الحارث بن كلدة — وهو الذى كان يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم — لقد كان شعرها العفيف المؤثر باعثا للنبى صلى الله عليه وسلم على قوله : لو بلغنى قبل قتله ماقتلته[٨] .

(١) الأغانى ٤/٤ — (٢) نفسه ٤/٦ — (٣) خزانة الأدب
(٤) العقد ٣/٣٨٤ — (٥) نفسه ٣/٣٨٢
(٦ و ٧) نفسه ٣/٨٣ — (٨) نفسه ٣/٣٨٥

وقد مَنَّ على الأسرى من هوازن في يوم حنين لأن أباجرول الجشمي قال شعرا ذكره فيه بنشأته ورضاعه فيهم[١] .

— وما كان أحلمه حين جاءه كعب بن زهير مسلما، مقدما بين يدي إسلامه قصيدته: «بانت سعاد»، ويقال إنه لما مدح فيها المها جرين، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لولا ذكرت الأنصار بخير، فإنهم لذلك أهل. مدحهم بقصيدة أخرى يذكر فيها بلاءهم مع رسول الله وموضعهم من اليمن . وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته ثوابا له على القصيدة . فظلت عند كعب حتى اشتراها معاوية[٢] .

فهل يقال بعد هذا التاريخ إن الإسلام عادى الشعر على إطلاقه، وحارب الشعراء جميعاً ؟ لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم قولا صريحا : إنما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه[٣] .

٧ — وكان كثير من أصحابه يقولون الشعر، ويستشهدون به، ويحثون عليه . فقد كانت عائشة تحفظ أكثر شعر لبيد، وتحفظ شعرا كثيرا غيره، وتحسن الاستشهاد به[٤]

وكتب عمر إلى أبي موسى أن يدعو من قبله إلى تعلم الشعر . وكان من أنقد أهل زمانه له[٥] . ولا يطعن في هذين الخبرين ماقدمناه من تفضيله لبيدا في العطاء ؛ إذ أن لبيدا آثر القرآن على الشعر . أما حسن نقده للشعر فلا يطعن فيه استعانته بحسان بن ثابت عندما شكا إليه الزبرقان بن بدر من شعر الحطيئة . ولا يطعن في تقديره للشعر أيضاً أنه سجن الحطيئة بشعره هذا . . . فالمسألة قذف وسباب . وحرص عمر على الأعراض أكثر من حرصه على الشعر . ولقد اشترى من الحطيئة أعراض المسلمين ، وترك له ميادين أخرى يقول فيها .

٨ — أما شعراء بني أمية وأهل الزهد في دولتهم فلم يقفوا من الشعر موقفا يحط من شأنه. بل إن بني أمية أعانوا على تقدم الشعر، وأثروا في توجيهه ، وإحياء القديم منه، تأثيرا عظيما. ونستدل بمواقف معاوية وعبد الملك وهشام، وعبد العزيز بن مروان في مصر ، وبشر بن مروان في العراق ، وبالحجاج وخالد القسري وغيرهم ، على ما كان للشعر من منزلة عند الخلفاء والولاة .

---

(١) العقد ٣ / ٣٨٥ .
(٢) نفسه ٣٢٦ والعمدة ١ / ٧ .
(٣) العمدة ١ / ٩
(٤) الأمالي ٢ ٢ — العمدة ١ / ١١ .
(٥) العمدة ١ / ٤٦

٩ — أما الصالحون من رجال دولتهم، فكان لهم مُلَح تدل على تقدير للأدب[١] فقد قيل إن ابن سيرين سئل عن رواية الشعر فى شهر رمضان، وقال قوم إنها تنقض الوضوء . فقال :

نُبِّئْتُ أنَّ فتاةً كنت أخطُبُها عُرقوبُها مِثلُ شهرِ الصومِ فى الطول

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول فانشد :

« وهن يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا » البيت ، ثم أحرم للصلاة .

وعاب نافع بن الأزرق من الخوارج على ابن عباس إذ أتاه من العراق ليسأله فى أمور الدين ، فوجده يستمعُ إلى شعر عمر بن أبى ربيعة ويحفظ مايسمع؛ فلم يعبأ ابن عباس بنزمته[٢] .

وقد رضى الحسن البصرى بما قضى به الفرزدق فى شعره . فقد جاء رجل إلى الحسن والفرزدق معه. فسأله عن المرأة من العدو، تؤخذ فى البعوث والسرايا، أفتحل لآخذها من غير أن يطلقها زوجها ؟ فقال الفرزدق إن له شعرا فى هذا هو :

وذاتِ حَليلٍ أنكَحتْنَا رِماحُنا حلالاً لِمَنْ يَبْنِى بها لم تُطَلَّقِ

قال الحسن : صدقت[٣] .

١٠ — فالاسلام لم يقف من الشعر موقف العداوة الكاملة . وما كان ليقتل هذا الفن من أجل بعض المعانى المنكرة التى ترد فى بعض القصائد . وكم للشعر من مزايا ، وكم له من معان تخدم غايات الاسلام . فقد دعا إلى سبيل الله ، وجاهد الشعراءُ بالسنتهم أعداءَ الله . ومدحوا بأشعارهم رسول الله، وأثنوا الثناء الحق على كتاب الله، والصالحين من عباد الله ، وحببوا الناس فى الفضائل ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وقالوا الحكمة والأمثال السائرة . بل إن من غزلهم العفيف ماأقره الإسلام فى قصيدة كعب « بانت سعاد » .

ومادام الشعر صادرا عن شعور نبيل ، وضمائر حية ، وعواطف سامية . فالإسلام لا يأباه . وهو فى جملته قول ينطبق عليه ماينطبق على غيره . فإن كان هجرا أنكره

(١) العمدة ١ / ١١ (٢) الأغانى ١ / ٧٢ دار الكتب (٣) العمدة ١/ ٣٠ .

الإسلام ، وإن كان شريفا أقره ، وهل يكب الناس على وجوههم فى جهنم إلا حصائد ألسنتهم ؟ ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » .

وهكذا فكر الناس فى مصدر هذا الشعر كل على طريقته وبحسب المؤثرات فيه . فالجاهليون أرجعوه إلى الشياطين والجن كما قدمنا . وفى الإسلام كان روح القدس أو جبريل يؤيد حسانا ، كما كان الشياطين يوحون إلى أوليائهم من شعراء قريش . وظلت هذه الفكرة سائدة فى عهد بنى أمية . فكان الشعر عندهم وحى الشياطين والجنة . وأكثره فى الليل وفى الفلوات . وكان بجانب الإلهام ، أرواح الخير ، أبو الشياطين إبليس . وكان للشاعر شيطان ، وقد يوحى الشيطان إلى شاعرين أيضاً . وقد تكون للشيطان كنية . وكان لبعض الصالحين هواتف لا تمت إلى الشياطين بسبب ، وإذا كانت منزلة الشعر فى عصر بنى أمية قد علت ، وصارت له المنزلة العظيمة فى السياسة والمدح والعصبيات والغزل ، وأصبح تأثيره أكبر كثيرا مما كان للشعر الجاهلى ، وكان التفسير العلمى لهذه الظاهرة لا يزال فى طى الغيب ، فقد فسروه على النمط القديم وعدوه من وحى الشياطين إلا قليلا .

الفصل الرابع

شياطين الشعراء فى العصر الدينى

١ — جاء الاسلام فجعل الوحى مصدر الدين وطريق الرسالة . وحمل على الشياطين ، وجعل مايلقونه من السمع إلى أوليائهم كذبا ، ولكنه لم يحرمهم أن يوسوسوا فى صدور الناس ، وأن يهمسوا بالشر ، وأن ينزغوا بين العباد ، وأن يوقعوا بينهم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر : وأن يدفعوهم دفعا إلى كثير من الأعمال والأقوال ، وجعل على رأسهم إبليس الذى أقسم بعزة الله أن يقعُد للناس صراط الله المستقيم ، وأن يغويهم أجمعين ؛ وقد فعل فى صدر الاسلام ؛ فصد كثيرا من الشعراء عن الإسلام كعبد الله بن الزبعرى ، وأمية بن أبى الصلت ، وكعب بن الأشرف وأبى عَزَّةَ الجمحى . وحملهم على شعر آثم . وكفر صريح ، وعناد قوى . وكان أخف ما أوحى به إليهم تلك المراثى التى قالها شعراء من مكة والطائف والمدينة فيمن قتلوا ببدر من المشركين ؛ ونقل ابن هشام[1] بعضها مع تعليق واحد على كثير منها ، وهو قوله : إن بعض أهل العلم بالشعر ينكرها لفلان أو لفلانة من الذين نسبت إليهم .

إن هؤلاء الشعراء من أمثال الحارث بن هشام بن المغيرة ، وضرار بن الخطاب ابن مرداس ، وعبد الله بن الزبعرى وغيرهم قالوا شعرا فى رثاء أولئك القتلى ضاع أكثره . وإلا فكيف يموت أبو جهل أو عتبة أو شيبة بن ربيعة أو غيرهم من صناديد قريش ولا يبكيه شعراؤها ؟ وكيف لا يحمل الحسد والعداوة شاعرا مثل أمية بن أبى الصلت[2] على رثاء القتلى من أهل القليب ؟ لقد كان يتمنى أن يكون رسولا ، غير أن الله سبحانه « أعلمُ حيثُ يجعلُ رِسالَتَه » . فلما بعث محمد رسولا وانتصر على أعدائه فى بدر ، أصيب أمية فى آماله . فلا عجب أن يوحى إليه

---

(١) السيرة النبوية ٢/٣٤ — ٥٣ (٢) نفسه ٤٦

الشيطان بما أوحى به من رثاء أصحاب القليب وغيرهم من قريش . وكيف لا يدفع الشيطان شاعراً خبيث الطوية مثل كعب بن الأشرف(١) إلى مغادرة المدينة والنزول بمكة ، والإقامة بها يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبكى أصحاب القليب من قريش ؟ .

٢ — ولم يسكت شعراء المسلمين ، وعلى رأسهم حسان ، عن إجابة أولئك القوم والرد على شعرهم بشعر تبعث عليه قوة العقيدة ، ويؤيدهم فيه إلهام من العزيز الحكيم ، ويشد أزرهم فى أبياتهم روح القدس ؛ وهم يدافعون عن الدين ، ويردون كيد الشياطين وأوليائهم من المشركين .

وإذا كنا قد نسبنا شعر أولئك الكافرين إلى الشياطين ، وشعر المؤمنين إلى روح القدس أو إلى جبريل ، فذلك مستقى من روح الدين ، ومفهوم من الآيات والأحاديث بجانب ماجاء من النصوص صريحا كقول الرسول لحسان(٢) : أجب عن رسول الله ، اللهم أيده بروح القدس . بل إنه دعا شعراء الأنصار دعوة عامة إلى نصرة النبى بلسانهم كما نصروه بأسلحتهم . وقال صلى الله عليه وسلم لحسان : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجهم وجبريل معك(٣) » . وروى عن عائشة أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت الشاعر إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كافحت عن الله عز وجل ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه لما انقضت غزوة الأحزاب ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا قال النبى صلى الله عليه وسلم(٤) من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب بن مالك : أنا يارسول الله ، وقال عبد الله ابن رواحة : أنا يارسول الله ، وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله . فقال : نعم اهجهم أنت ، فإنه سيعينك عليهم روح القدس .

وهذا النص صريح فى أن روح القدس كان خاصا بتأييد حسان . وظهر أثر ذلك فى شعره ، وفى تعليق الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد روى أنه صلى الله عليه

(١) نفسه ٥٨ (٢) هداية البارى ٢/٢٢٧ والأغانى ٤/٤ ساسى
(٣) الأغانى ٤/٤ (٤) نفسه ٧

وسلم قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى[١]. وحسان أقوى الثلاثة وأشهرهم على الرغم مما قيل من ضعف شعره فى الاسلام ، لكبر سنه ، أو لوقوف الاسلام فى بعض الأغراض التى يجود فيها الشعر[٢] . وأرى أن هذا السبب الأخير لا ينطبق على حسان ، فقد أبيح له أن يهجو . وربما كان الدافع إلى الهجاء قويا فى نفسه لأنه كان دافعا مزدوجا تشترك فيه العصبية والدين . فإذا أضيف إلى ذلك تأييد روح القدس وإعانة جبريل كان ماقيل عن ضعف شعره فى الإسلام غير صحيح . والباقى من شعره يؤيد هذا القول : كرده على وفد تميم بقوله :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم　　قد بينوا سننا للناس تتبع

إلى آخرها[٣] :

ودفاعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصيدة قالها يوم الفتح يرد فيها على أبى سفيان بن الحارث[٤] :

وقال الله قد سيّرتُ جُنداً　　هم الأنصارُ عُرْضَتُها اللقاءُ

لنا فى كل يَوْمٍ من مَعَدٍّ　　سِبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ

فنُحْكِم بالقوافى مَنْ هجَانا　　ونضربُ حين تختلطُ الدماءُ

والاستثناء فى آية الشعراء « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » يراد به هؤلاء الشعراء من الأنصار ، والله تعالى يقول : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد[٥] » وإلهام هؤلاء الشعراء بما كانوا يقولون من صائب القول فى مدح الرسول ، أو هجاء الأعداء ، أو الثناء على الدين ، كان من الله وبتوفيقه ، ونصرا منه لهم فى الحياة الدنيا .

وعندنا فى أخبار حسان أنه لقى السعلاة وهو صغير وأرغمته على القول أو تقتله فقال ، وحدثنا عن صاحبه من بنى الشيصبان ولكننا فى الاسلام نرى جبريل يؤيده . ونراه هو أيضا يخبرنا أنه يتناول قافيته من جو السماء . فقد روى أنه أرق

---

(١) نفسه ٦　(٢) الشعر والشعراء ١/١٠٥　(٣) نفسه ٨

(٤) سيرة ابن هشام ٢/٢٧٩　(٥) غافر ٥١

ذات ليلة ، فمنّ له الشعر ، وعنده ابنته ليلى فى خدرها فقال :

متاريكُ أذْنابِ الأمورُ إذا اعْتَرَتْ   أخذنَا الفروعَ واجتَنَبْنَا أصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئا : فقالت له ابنته : يا أبتاه كأنك أجبلت : قال : أجل . فقالت : فهل لك أن أجيز عنك ؟ قال : نعم . قالت : أعد ، فأعاد قوله ، فقالت :

مقاويل بالمعروف خُرْسٌ عن الخنَا   كِرامٌ يُعَاطُونَ العَشِيرةَ سُؤْلَهَا

فقال الشيخ فقال :

وقافيةٍ مثلِ السِنَانِ رَزِينَةٍ   تناولتُ من جَوِّ السماء نُزُولَهَا

فقالت :

يراها الذى لا ينطق الشعر عنده   ويعجز عن أمثالها أن يقولها

فقال حسان : لا أقول شعرا وأنت حية . قالت : أوَمنك ؟ قال أو تفعلين ؟ قالت : نعم . لا أقول شعراً مادمتَ حيا[1] .

فهذا حسان يتناول قافيته من جو السماء . ولا ندرى كيف كان ذلك . أكان إلهاما أم أراد أن جبريل يؤيده فكان مؤيدا من السماء . وإذا صح هذا الشعر فهو إسلامى قاله حسان بعد ما أسلم . وروح القصة يشعر أنه كان كبيرا ، وكان عزيزاً عليه أن يجهل . وأن تغيض قريحته ، وتخونه بديهته .

ولم يكتف الرواة بأن النبى دعا لحسان أو أن جبريل كان يؤيده ، بل أضافوا إلى ذلك أنه أعانه بسبعين بيتا فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] . ولم تتعين طريقة الإعانة . والغالب على الظن أنها كانت إلهاما بالمعانى ، وتوفيقا فى الشعر الذى بلغ سبعين بيتا أو حولها ؛ وليس هذا غريبا على عصر النبوة ولا على شاعر يؤيده روح القدس . ولكن مفهوم قولهم أنه أنشده إياها وحفظها حسان ثم قالها .

فهل من حرج أن نفسر تأييد حسان بروح القدس على نحو ما فسر به إلهام عمر فيما سبق . فيكون حسان ملهما ، أو ألقى فى روعه شىء من قبل الملأ الأعلى

---

(١) الموشح ٦٢   (٢) الاغانى ٤ /١٤٢ دار الكتب .

فاصاب . وأن الله وفقه فى قوله ودفاعه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ .

ومهما يكن من شيء فان ظهور جبريل فى ميدان الشعر لكى يؤيد حسانا يعد ظاهرة إسلامية قريبة من الوحى لم تتكثر فيما بعد .

٤ — أما الظاهرة القديمة ، ظاهرة اتصال الشياطين بالناس، وحديثها إليهم شعرا أو نثرا كما كان فى أساطير الجاهلية ، وإلقائها الشعر على الشعراء فى حكايات وقصص ، فظلت باقية فى هذا العهد الدينى ، يساعد على بقائها الأخذ بالتقاليد الفنية القديمة اعتزازا بهذا الماضى الفنى الأصيل ، وحنينا إلى موطنه الأول ، وترسما لسمات فحوله الأولين . وهذه ظاهرة تنزع إليها النفوس مهما تتغير الاوضاع السياسية والاجتماعية ، شأنهم فى ذلك شأنهم فى ديباجة القصيد ، من النسيب ومخاطبة الأطلال وما إليهما ، مما بقيت آثاره إلى العصر الحديث[1] .

من أجل هذا ظلت العقيدة فى شياطين الشعراء موجودة ، ورأيناهم إلى جانب وحيهم بالشعر ، يوحون بالغناء والألحان أيضا فى هذا العصر ، وكان لتشجيع بنى أمية لأدب الجاهلية وأخبارها ، ولانتشار الغناء وكثرته ، أثر كبير فى بقاء هذه الآراء . ولم يكن الشعراء فى هذا الوقت من علماء النفس الذين يدرسون ويحللون . ولكنهم كانوا شعراء يقولون فى أوقات لا يحبون القول فيها ، فيحسون أنهم مدفوعون إلى القول بلا إرادة ولا اختيار . وقد يحاولون القول فيستعصى عليهم ، ويطلبونه فيتأبى ، فيحتالون لذلك بالشراب أو المنام أو بالخروج إلى الفلوات . فينسبون ذلك إلى الشياطين كما نسبه من سبقوهم . وكما ينسبه غيرهم من الشعراء فى كل الأمم والعصور حتى فى عصرنا العلمى الحديث ، وإن سميت آلهة أحيانا ، وعبقرية أحيانا ، وطبعا أحيانا .

وقد تتحدث الشياطين فى هذا العصر شعرا أيضا كما رأينا فى قصة إسلام سواد بن قارب[2] . وسأله عمر فى ختام القصة : فهل يأتيك رئيك اليوم ؟ فقال: منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض لنا كتاب الله تعالى من الجن . وتحدثوا

---

(١) الأستاذ الشايب فى تعليقه على هذه الفقرة .

(٢) ابن هشام ١/١٣٢ — ١٣٦ هامش .

نثرا وشعرا فى قصة خنافر الحميرى . فقد جاءه رئيه شصار فدعاه إلى الإسلام ، ومدح له القرآن ، وأرشده الى بلد هذا الدين .

أما الرأى الشائع فيمثله ابن زياد فى الخبر الآتى ، كما يمثل معاوية محبة العربى للشعر :

روى أن معاوية أراد من زياد أن يشخص اليه ابنه عبيد الله ، وقد علم أنه يتورع عن الشعر . فأوفده إليه ، وأقبل معاوية يسأله . فما سأله عن شىء إلا أنفذه ، حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئا . فقال ما منعك من روايته ؟ فقال عبدالله : كرهت أن أجمع كلام الله وكلام الشيطان فى صدرى[1] . فقال معاوية قولا يبين فيه خطأ ابن زياد ويذكر فضل الشعر وأثره فى النفوس ، ثم أثره فى تاريخ الدول ، وذلك أنه أخبره بما كاد يفعله ليلة صفين من الفرار ، لولا أبيات ابن الاطنابة التى ثبتت أقدامه ، ثم رفعت أعلامه . وكتب إلى أبيه أن يرويه الشعر ، فرواه ، فما كان يسقط عليه منه شىء بعد .

أما الشعراء فقد علمنا من أخبارهم ما يدل على إيمانهم بهذه الفكرة وذلك فى قصص وأخبار رويت عنهم وإليك البيان .

١ — شيطان الفرزدق :

قدمنا نقلا عن الجاحظ أن الفرزدق له شيطان اسمه عمرو ، وذلك فى تعليقه على صيدة الحكم البهرانى الذى يخبرنا أنه تزوج فى الشبيبة غولا ، وأنها :

بنت عمرو وخالها مسحل الخـــير وخالى هميم صاحب عمرو

فالبهرانى ذكر نسبها ونسبه . وفسر الجاحظ ذلك بقوله : زعم البهرانى أن هذه الجنية بنت عمرو صاحب المخبل وأن خالها مسحل شيطان الأعشى . وذكر أن خاله هميم ، وهو همام . وهمام هو الفرزدق . وكان غالب بن صعصعة إذا دعا الفرزدق قال : « ياهميم » .

وأما قوله «صاحب عمرو فكذلك أيضا يقال إن اسم شيطان الفرزدق عمرو[2]» .

وعندنا فى هذا البيت عمران : أحدهما أبو الجنية ، وهو صاحب المخبل السعدى الذى مات فى خلافة عثمان ، وكان مشهورا من أيام الجاهلية . وثانيهما ، عمرو

(١) المزهر ٢/١٩٧ . (٢) الحيوان ٦/ ٢٢٥ — ٢٢٦

صاحب الفرزدق . ولا شيء يلفت النظر في هذا إلا اتفاق الاسمين .

لكنه ليس هناك ما يمنع أن يكون عمرو هذا واحدا، عاش زمنا يوحي إلى المخبل السعدي ، حتى إذا مات ظل زمنا ينتظر شاعرا من الإنس يتلقى عنه ، حتى ظهر الفرزدق وفيه استعداد لتلقي ذلك الوحي والنطق بلسان الشيطان ، وليس هناك مانع من هذا الرأي ، فقد عرفناه من قبل . عرفنا هبيد بن الصلادم يحبو القوافي قرمي أسد : عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم[1] . أما فارق الزمن فلا يعد شيئا في حياة الشياطين . فهم يعيشون أزمانا طويلة[2] .

(٢) ويخبرنا أعشى سليم من شعراء العصر العباسي بأن الفرزدق كان له شيطان ، إذ يقول :

وما كان جنيُّ الفرزدق قدوةً   وما كان فيهم مثل فحل المُخَبَّل

وما في الخوافي مثلُ عمرٍو وشيخهِ   ولا بعد عمرو شاعرٌ مثل مِسحل

وأفهم من البيت الأول أن جني الفرزدق كان ينزل عليه بالمعجز المتمنع ، فلا يستطيع أحد أن يقتدي به ، أو يقول مثل قوله . أما فحل المخبل فغير معين . ولا عمرو ، ولا صاحبه ، ولا شيخه إلا إذا استعنا بالجاحظ فعرفنا أن مسحلا شيطان الأعشى ، وأن عمرا شيطان المخبل والفرزدق .

(٣) وحدثنا الفرزدق في شعره أنه كان له شيطان[3] ، وأن شيطانه أشعر خلق الله ، في أبيات مدح بها أسد بن عبد الله القسري والي خراسان (سنة ١٠٦ — ١٠٩ هـ) إذ قال مفتخرا :

لَيُبْلِغَنَّ أبا الأشبالِ مِدْحَتَنا   من كان بالغَوْر أو مَرْوَيْ خُراسانا

كأنها الذهب العِقْيان حَبَّرها   لسانُ أشعرِ خَلْقِ اللهِ شيطانا

لكنه لم يذكر اسمه ، واكتفى بأن مدح مدحته لأسد ، فشبهها بالذهب الخالص وجعل قائلها يتلقاها عن أشعر الجن والإنس .

(٤) وفي قصة أخرى نرى لشيطان الفرزدق كنية ، فهو أبو ليلى أو لبنى[4]

---

(١) الجمهرة ٢١   (٢) نفسه ٢٦ .   (٣) الحيوان ٦/٢٢٧

(٤) النقائض ٢/٥٤٧

أو لبيني ، فى قصة جرت للفرزدق لما قدم المدينة فى إمارة أبانَ بن عثمان . ونذكر هذه القصة لأنها تفيدنا فى بيان الظروف التى قيلت فيها ، حتى إذا ما أردنا تفسيرها علميا ، كانت مواطن الإشارات حاضرة بين أيدينا .

يروى أبو الفرج الأصفهانى[1] بسنده عن الفرزدق أنه كان جالساهو وكُثَيِّر فى المسجد يتناشدان الأشعار . «إذ طلع عليهما غلام شخت آدم ، فى ثوبين ممصفرين ولم يسلم ، بل سأل : أيكما الفرزدق ؟ فقال كثير : أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها ؟ فقال : لو كان كذلك لم أقل له هذا . فقال له الفرزدق : من أنت لا أم لك ! قال : رجل من الأنصار ، ثم من بنى النجار ، ثم أنا ابن أبى بكر بن حزم ؛ بلغنى أنك تزعم أنك أشعر العرب ، وتزعمه مضر ، وقد قال شاعرنا حسان بن ثابت شعرا فأردت أن أعرضه عليك ، وأؤجلك سنة ، فإن أنت قلت مثله فأنت أشعر العرب كما قيل ، وإلا فأنت منتحل كذاب » . وأنشده قصيدة يفتخر حسان فيها بالأنصار منها :

مَتَى ما تُرِدْنَا من مَعَدٍّ عِصَابَةٌ ... وَغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوضَنَا أنْ يُهدَّما

لنا حَاضِرٌ فَعْمٌ وبَادٍ كأنه ... شماريخُ رَضْوَى عِزَّةً وتَكَرُّما

وانصرف الفرزدق مغضبا . فلما كان من الغد عاد إلى موضعه من المسجد ثم قال لأصحابه : قاتل الله الأنصارى «ما منيت بمثله ، ولا سمعت بمثل شعره ، فارقته وأتيت منزلى ، فأقبلت أصعد وأصوب فى كل فن من الشعر ، فكأنى مفحم لم أقل شعرا قط ، حتى إذا نادى المنادى بالفجر ، رحلت ناقتى ، وأخذت بزمامها حتى أتيت ريانا — وهو جبل بالمدينة — ثم ناديت بأعلى صوتى : أخاكم أخاكم أبا لبنى :(وقال سعدان: أبا ليلى . يعنى شيطانه) فجاش صدرى كما يجيش المرجل . فعقلت ناقتى ، وتوسدت ذراعها ، فما قمت حتى قلت مائة بيت من الشعر وثلاثة عشر بيتاً » .

وجاء الأنصارى فسأل الفرزدق : إيش صنعت ؟ فأنشده القصيدة المشهورة .

عَرَفْتَ بأعْشَاشٍ وما كدتَ تعرفُ

وأنكَرْتَ من حَدْرَاءَ ما كنتَ تعرفُ

---

(١) الاغانى ٨/١٨٦—١٨٧ و ١٩/٣٨—٣٩

حتى بلغ آخرها .

فقام الأنصارى كئيبا ، وجاء أبوه فسأل الفرزدق بحق الله ورسوله أن يحفظ فيهم وصية رسول الله ، فقبل الفرزدق ضراعته وعفا عن الأنصار فلم ينلهم بلسانه .

وهذه القصيدة جعلها الفرزدق نقيضة لقصيدة جرير التى مطلعها :

ألا أيها القلب الطروب المكلف أفق ، ربما ينأى هواك ويسعف

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أنه قد شغل بها زمناً من قبل أن يتحداه الأنصارى ؛ فقد شغله جرير بما فى قصيدته من فخر عليه وهجاء له ولقبيلته ، فرد عليه بهذه القصيدة .

حقا إن الأنصارى تحداه بقصيدة فيها فخر حسان بالأنصار ، والقصيدة قديمة قيلت فى عكاظ أمام النابغة ، وفضل عليها قصيدة للخنساء[1] . لكن كان هنا دافعان للفرزدق ؛ أحدها قصيدة جرير التى يريد أن ينقضها ، ثم إجابة الأنصارى إلى ما أراد ، والأول دافع سابق ، ففعل هذان الدافعان فعلهما فى نفس الفرزدق فحملاه على القول فأراد أن يضرب عصفورين بحجر ، فخانته قريحته وانصرف من مجلس الأنصارى مغضبا يسحب رداءه لا يدرى أى طريق يسلك . وفى اليوم التالى اعترف بما اعتراه من إفحام ، فقال لكثير : «فارقتكما فأتيت منزلى ، فأقبلت أصعد وأصوب فى كل فن من الشعر ، فكأنى مفحم أو لم أقل شعراً قط» ، والحق أنه كان مغضبا ، فشغل بالغضب عن القول ، ولكن غرائزه كانت تعمل من حيث لا يدرى . وكيف تغيب عنا غريزة المقاتلة والدفاع عن النفس . لقد كانتا تفعلان فعلهما منذ سمع بقصيدة جرير ، أما نبو طبعه فى ذلك اليوم . فكان وهما ، لأن الفرزدق فى ذلك الوقت كان يستجمع عناصر القصيدة ولو من غير شعور ، ويتخير من المعانى ما يجعله رداً على جرير وعلى الأنصارى معا . ولعل شغله بذلك التخير والاستحضار من الذاكرة ، وانتقاء المناسب من عناصر الفخر والهجاء ، صرفه عن إنشاء القصيدة ؛ حتى إذا سكن الليل ، وهدأ الناس ، كان قد استعد لقولها . فرحل بناقته . وتوسد ذراعها ونادى شيطانه أبا لبنى أو أبا البلى ، فجاءه بالشعر من مقامه فى جبل ريان أو ذباب . وابن رشيق يجعل ذلك عادة للفرزدق كلما

(١) الأغانى ١٨٨/٨

أراد أن يقول شعرا ولا يخصه بهذا الحادث[١] .

والفرزدق شبيه بغيره من الشعراء فى هذا العجز أحيانا ، بل إنه هو نفسه يقرر أنه أشعر مضر . وكانت تمر عليه الساعة وخلع ضرس من أضراسه أهون عليه من عمل بيت من الشعر[٢] فإذا انثالت عليه القوافى ، وتزاحم الشعر فى صدره فى ذلك المكان الخالى ، على تلك الهيئه التى كان عليها ، فى ذلك الوقت من الصباح ، خيل إليه أن صاحبه أبا لبنى قد أمده بتلك القصيدة أو سواها .

ولقد ظهر الشيطان أو الجن باسم إبليس فى الوحى إلى الشعراء ولا شك أنه أثر إسلامى ؛ أشرنا إليه فيما تقدم عند القول على الهجائين من شعراء قريش ، وقلنا إن الشيطان كان يمدهم بتلك المعانى على معنى الوسوسة والهمس فى الصدور . فكان شعرهم من وحيه ، ككل باطل من القول وناب عن الدين . وعلى هذا المعنى كان الحسن البصرى يرى أن الفرزدق ينطق بلسان إبليس[٣] . فقد روى أنه جاء إليه الفرزدق فقال له : إنى قد هجوت إبليس . فقال : كيف تهجوه وعن لسانه تنطق؟

وليس فيما يريده الحسن البصرى غموض . فهو يريد أن إبليس مصدر الشر قولا وفعلا ، وهو الذى ينفث فى صدر الفرزدق بشعره ، فى الهجاء ، وقذف المحصنات وحكايات الفسوق . والحسن البصرى من كبار التابعين ، يعنيه من الشعر موافقته أو مخالفته للدين . فإذا كان خارجاً عن آداب الإسلام وأوامره ، كان وحيا شيطانيا .

لكن الفرزدق نفسه كان يرى أن الشعراء مختلفون فى القدرة ، وكان ذلك واضحاً له من تقدمه هو وجرير والأخطل على غيرهم من شعراء العصر ، وظاهرا أمام عينيه وعقله من اختلاف الشعراء فى القدرة . وكان أدعياء الشعر كثيرين . فعبر عن رأيه هذا على نحو من العقيدة القديمة التى ترجع الشعر إلى الشياطين . أما تصويره لاختلاف الشعراء فلا يخلو من السخرية والفكاهة كما ترى[٤] :

ذكروا أن رجلا أتى الفرزدق فقال : إنى قلت شعرا فانظره . قال: أنشده فقال:

ومنهم عُمَر المحمودُ نائلُه   كأنما رأسُه طينُ الخواتيم

(١) العمدة ١٣٨/١ (٢) الشعر والشعراء ٩/١ البيان والتبيين ١٥١/١ (٣) الأغانى ٣٣/١٩ الشعر والشعراء ١٨ التجارية سنة ١٩٣٢ (٤) مقدمة الجمهرة ٣٠

قال : فضحك الفرزدق ثم قال : يا ابن أخى، إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهَـوْبَر ، والآخر الهَـوْجَل • فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه . ومن انفرد به الهوجل فسُد شعره • وانهما قد اجتمعا لك فى هذا البيت ، فكان معك الهوبر فى أوله فأجدت ، وخالطك الهوجل فى آخره ففسدت . وإن الشعر كان جملا بازلا فنحر . فجاء امرؤ القيس فأخذ رأسه ، وعمرو بن كلثوم سنامه ، وزهير كاهله والأعشى والنابغة فخذيه، وطرفه ولبيد كركرته، ولم يبق إلا الذراع والبطن فتوزعناها بيننا . فقال الجزار : يا هؤلاء لم يبق إلا الفرث والدم فأمروا لى به • فقلنا: هو لك ؛ فأخذه ، ثم طبخه ، ثم أكله ثم خريه • فشعرك من خرء ذلك الجزار .

فقال الفتى : فلا أقول بعده شعراً .

وهذه الحكاية تمثل رأى الفرزدق فى نسبة الشعر إلى الشياطين ، على الطريقة الجاهلية مع خلاف يسير . فهو يقول بشيطانين للشعر عامة • ولم نسمع بذلك من قبل . فهل جاءه ذلك من الإسلام الذى يجعل الأفعال قسمين ، أحدهما مرذول فهو من فعل الشيطان وإغرائه ، والثانى حسن محمود ، هدى الله إليه العبد ووفقه ؟ أما إن إدراك اختلاف الطبع، والتفاوت بين الشعراء لا يحتاج إلى نظر ثاقب ، ولا إلى فحص دقيق . فذلك أمر بين، يدركه أى مشتغل بالأدب من المنشئين والناقدين ، فطبع بعض الشعراء قوى يسمح بالشعر الجيد ، وطبع بعضهم جامد أو ضعيف لا يسمح إلا بمثله من الشعر .

أما الشيطانان اللذان سماهما، وهما الهوبر للشعر الجيد ، والهوجل للشعر الردىء ، فكلمتان لهما معناها فى اللغة • وأكبر ظنى أن الفرزدق استعار كل واحدة منهما للمناسبة التى رآها بين معناها وطبع الشاعر الذى يتلقى وحيها .

فالهوبر[1] : هو الفهد أو جروه أو القرد الكثير الشعر . وفى كل من هذه قوة وتشيطن . فتستعار بهذه المعانى للطبع القوى الماكر الماهر الذكى ، ومن معانيه السوسن أو الأحمر منه ، وعلى هذا المعنى تستعار للطبع الرقيق الذى يصدر عنه الشعر السمح الرقيق .

---

(١) القاموس ٢/١٥٨

أما الهوجل[1] : فهو المفازة التى لا علم بها ، والناقة بها هوج من سرعتهـا ، والبطىء الثقيل ، والأحمق . فإذا شبه الطبع المستعصى المقفر بالفلاة المضلة ، أو البطىء الثقيل الأحمق ؛ أو الطبع الذى يضرب على غير هدى ، بالناقة الهوجاء السريعة ، كان التشبيه صائبا ، وكان الفرزدق مجيدا فى تشبيهه كلاً من الطبعين . وقد جارى فى فكرته الآراء الشائعة عند قومه فى نسبة الشعر إلى الشياطين ولـكنه ابتدع هذا التقسيم أما رأيه فى توزيع جمل الشعر ، فهو رأيه الخاص فى الشعر . وكم اختلف الناس فى هؤلاء وفى غيرهم قبل الفرزدق وبعده .

وحدة الشيطان بين جرير والفرزدق :

(١) تحدثنا عن وجود شيطان عام للشعراء ، وعن شيطان خاص ببعضهم كشيطان الأعشى أو شيطان النابغة ، وعن شيطان لشاعرين فى زمن واحد أو زمنين مختلفين ولـكن الجديد فى « وحدة الشيطان » بين جرير والفرزدق أنه كان يوحى إلى واحد منهما فى مكان فيقول الشعر ، أو البيت أو البيتين فى الغالب . ويتوقع أن يقول صاحبه هذا القول ثم يحدث ما توقعه ، فإذا سئل عن ذلك مع استحالة الاتصـال بينهما ، وانتقال الأبيات من مكان إلى مكان كان تعليل ذلك عندهما : « أما علمت أن شيطاننا واحد ؟ » أو شبه ذلك .

ولـكن الرأى القديم عن وحدة الشيطان فى الجاهلية لم يفصل . ولا نعرف أن هناك شيئا كهذا حدث فى أخبار عبيد وبشر ، اللهم إلا أن يكون المراد بذلك تشابها عاما بينهما من أى نوع ، كتشابه الموضوع ؛ أو أنهما أسديان ، فأثرت فيهما الوراثة والبيئة تأثيرا متقاربا . وما عندنا هنا ليس كذلك . وإليك بعض الأمثلة :

عن أبى عبيدة قال[2] : أقبل راكب من اليمامة (بلاد جرير) فمر بالفرزدق وهو جالس فى المربد . فقال له : من أين أقبلت ؟ فقال : من اليمامة ، فقال : هل رأيت ابن المراغة ؟ قال : نعم ؛ قال : فأى شىء أحدث بعدى ؟ فأنشده :

هاج الهوى بفؤادك المهتاج .

---

(١) القاموس ٤ /٦٧ (٢) الأغانى ٧ /٤٧

فقال الفرزدق : فانظر بتُوضِحَ باكِرَ الأحداجِ

فأنشد الرجل : هذا هوى شَغَفَ الفؤادَ مُبَرِّحُ

فقال الفرزدق : ونَوًى تقاذَفُ غيرُ ذاتِ خِلاجِ

فأنشده الرجل : إن الغرابَ بما كرهتْ لمولَعٌ

فقال الفرزدق : بنوى الأحبة دائمُ التَّشْحَاجِ[1]

فقال الرجل : هكذا والله قال ، أفسمعتها من غيرى ؟ قال : لا ولكن هكذا ينبغى أن يقال : أوما علمت أن شيطاننا واحد ؟ ثم قال : أمدحَ بها الحجاج ؟ قال : نعم قال : إياه أراد .

فتعليل الفرزدق لهذا التوارد أو التوافق فى القول هو « وحدة الشيطان » كما تقدم ، ولكن وقفة قصيرة عند قوله : « ولكن هكذا ينبغى أن يقال » تدل على إدراك الفرزدق لأصول الشعر وطرقه ، ولشعر جرير بوجه خاص .

٢ — وقد روى أن الفرزدق قال : شيطان جرير هو شيطانى ، إلا أنه من فى أخبث[2] . ولا تفسير لذلك إلا اتفاقهما فى طريقة الهجاء ، واستخراج المعانى التى تدور حولها قصائدهما فى الشتم والسباب ، ثم علل الفرزدق ذلك بأن هجاءه أمر وأقذع ، أو أن شيطانهما أخبث إذا تكلم على لسان الفرزدق وقد يراد بذلك الخبث غزل كل منهما . فقد كان الشيطان الواحد المشترك بينهما يوحى إلى الفرزدق بالغزل الخبيث ، وحكايات الفسوق وفاحش الصلات ؛ ويوحى إلى جرير بما هو أعف وأرق .

٣ — وكان لهما من التوارد مايدعو إلى الحيرة وطول التفكير ، بل إنه قد يدعو إلى الطعن فى هذه القصص ، واتهام الرواة بصناعتها . فقد روى عنهما من التوارد ما يأتى :

روى الأصمعى[3] قال : كانت امرأة من عقيل يقال لها ليلى ، يتحدث إليها الشباب ، فدخل الفرزدق إليها فجعل يحادثها وأقبل فتى من قومها كانت تألفه ودخل إليها ، فأقبلت عليه بحديثها وتركت الفرزدق ، فغاظه ذلك . فقال للرجل : أتصارعنى ؟ : قال : ذلك إليك . وقام إليه الرجل فصرعه ، وجلس على صدره ، فضرط الفرزدق ، فوثب عنه الرجل خجلا وقال له : ياأبا فراس ،

---

(١) الحدج : الهودج . الخلاج : الاضطراب . التشحاج : صوت الغراب .

(٢) ثمار القلوب/٥٧ (٣) الأغانى ١٩ / ٢٦

هذا مقام العائذ بك ، والله ماأردت بك ماجرى . فقال : ويحك! مابى أن صرعتنى ، ولكن كأنك بابن الأتان جرير قد بلغه خبرى هذا ، فقال يهجونى :

جَلَسْتَ إلى لَيْلَى لتَحظَى بقُربها فَخَانَكَ دُبْرٌ لايَزَالُ يَخُونُ[1]

فلو كنتَ ذا حَزْم شددت وِكاءَها كما شدّ خرتا للدِّلاص قُيُونُ

قال : فوالله مامضت أيام حتى بلغ جريرا الخبر فقال فيه هذين البيتين نفسهما .

٤ — وشبيه بهذه القصة أيضا قصتان أخريان رواها الأغانى بشأن بيت جرير للفرزدق :

وكنت إذا نزلتَ بدار قــوم رحلت بخِزْيَةٍ وتركتَ عــارا

وأولى القصتين : عن أبى عبيدة قال[2] . نزل الفرزدق هو ومن معه بقوم من العرب فأكرموه وأحسنوا قراه . فلما كان فى الليل، دب إلى جارية منهم فراودها عن نفسها، فصاحت، فتبادر القوم إليها ، فأنقذوها منه ولاموه على فعلته . فجعل يتفكر ويهيم ؛ فقال له صاحب البيت : أتحب أن أزوجك من هذه الجارية ؟ قال : لا والله وماذلك بى . ولكن كأنى بابن المراغة وقد بلغه هذا الخبر قال :

وكنتَ إذَا حللتَ بِدَار قوم رحلتَ بخِــزْيَةٍ وتركتَ عَارا

فقال الرجل : لعله لايفطن لهذا . قال : عسى أن يكون ذاك . قال : فوالله مابعد أن مر بهم راكب ينشد هذا البيت . فسألوه عنه . فأنشدهم قصيدة لجرير فيها هذا البيت بعينه ، ويعيره بذلك الفعل فيها .

والقصة الثانية[3] لاتقل عن هذه غرابة إن لم تزد عليها فى الضعف ، وهى تحمل أثر الصنعة كسابقتها ، وكأنهما وضعتا لتفسير الباعث لجرير على هذا البيت . وكم كان لأبى عبيدة من قصص! أما بيت جرير ، فمستقر فى موضعه ، مكين فيه . وقد كانت أخلاق الفرزدق العامة أكبر مساعد على وضع هذه القصص . وإذا كانت القصة صحيحة فمن الجائز أن البيت شاع فعرفه جرير فقال قصيدته كلها مستعينا بوحى هذا البيت ، ولاعجب فى هذا ؛ فقد توحى الكلمة

---

(١) الوكاء : الرباط — الخرت . الثقب — الدلاص : الدرع — القيون : جمع قين ، وهو الحداد .
(٢) الأغانى ١٤/١٦٩ . (٣) نفسه ١٩/٣٥

إلى الشاعر بقصيدة ، كما يوحى إليه البيت يقرؤه ، أو القصة يسمعها ، أو الخبر ينقل إليه . ومازال ذلك معروفا عند الشعراء .

أو لعل جريرا كان يقول القصيدة أجزاء ثم يلائم بينها ، ويضع الأبيات المشار إليها فى موضع مكين منها أحيانا .

٥ — ومن أواخر ماوقع لجرير والفرزدق أنهما خرجا من العراق طالبى الرصافة ، بشعر مدحا به هشام بن عبد الملك . فلما كانا ببعض الطريق ، نزل جرير لبعض حاجته ، فتلفتت ناقة الفرزدق ، فضربها بالسوط وقال :

إِلاَمَ تلفتـين وأنتِ تحتى ... وخيرُ الناسِ كلِّهمُ أمامى

متى تردى الرّصافة تستريحى ... من الأنساع والدَّبَرِ الدَّوامى

ثم قال للرواة : الساعة يجئ ابن المراغة ، فأنشده البيتين ، فينقضهما بأن يقول :

تلفتُ أنها تحتَ ابنِ قَيْن ... إلى الكيرينْ والفأس الكهام

مَتى ترد الرصافة تخزَ فيها ... كخزيكَ فى المواسِم كلَّ عام

ورجع جرير من حاجته فوجد القوم يضحكون فقال : ما الخبر ؟ فقال أحد الرواة : يا أباحزرة ، إن أخاك أبا فراس وقع له كيت وكيت ، وأنشده البيتين الأولين . فما إن سمعهما جرير حتى ارتجل البيتين اللذين توقع الفرزدق أن يقولها إجابة له . وكان هذا الاتفاق العجيب مدعاة إلى دهشة الرواة فقالوا : والله يا أبا حزرة إنه زعم أنك تقول هكذا . فقال جرير : أوماعلمتم أن شيطاننا واحد[1] ؟

٦ — على أن هناك محاولات لتفسير مثل هذا التوارد — وقد ذكر الأستاذ الشايب فى باب السرقات[2] تفسيرا لذلك إذ يقول :

« والبديع فى هذا الباب هو التوارد الطبيعى الذى ينشأ عن تشابه النفوس وتقاربها إلى درجة الاتحاد ، كما كان بين جرير والفرزدق ، لوحدة أصلهما التميمى ، وتشابه نشأتهما ، وشدة اتصالهما الفنى بحكم التهاجى . فكان من ذلك — إذا صح مايروى — أن تحضر

---

(١) بدائع البدائه على هامش معاهد التنصيص ١/٢١

(٢) أصول النقد الأدبى — الطبعة الثانية ١٩٤٢ ص ٢٧٦

المناسبة فيقولان فيها قولا واحدا . أو يقول الفرزدق مثلا : لو أن جريرا علم بهذا الحادث لقال كذا . ويحدث أن يعلم جرير بالحادث ، فيقول نفس القول ، كأنهما ينطقان بضمير واحد » .

٧ — حقا إن كلا منهما كان يفهم روح صاحبه ، فقد روى عن ذى الرمة[1] أن جريرا استنشده أبياته التى قالها فى « المرئى » ثم قال له ألا أعينك ؟ قال : بلى ، بأبى وأمى ! فأعانه بثلاثة أبيات ضمنها قصيدته . ثم مر ذو الرمة بالفرزدق فقال له : أنشدنى ماقلت فى «المرئى» فأنشده القصيدة ، فلما انتهى إلى هذه الأبيات قال الفرزدق : حس ! أعد على ، فأعاد فقال : تالله لقد علكهن أشد لحيين منك . وعرف لساعته أن الشعر لجرير لا لذى الرمة .

فإذا أضفت إليها قول الفرزدق : «ولكن هكذا يجب أن يقال» ، أدركت أن كلا منهما كان يفهم روح صاحبه ، وطريقته الفنية ، وقاموس ألفاظه ، ومحور معانيه ، وقد يتوقع مايقوله ، فإنه لما قال جرير قصيدته فى الراعى النميرى ، وبلغ فيها إلى قوله[2] :

« بِهَا بَرَصٌ بجانب أَسْكَتَيْهَا » وضع الفرزدق يده على فيه ، وغطى عنفقته . فقال جرير الشطر المتمم للبيت : « كعنفقة الفرزدق حين شابا » وهو يقول: اللهم أخزه ، والله لقد علمت حين بدأ هذا البيت أنه لايقول غير هذا .

وقال يونس[3] ما أرى جريرا قال هذا المصراع إلا حين غطى الفرزدق عنفقته ، فإنه نبهه عليه بتغطيته إياها . وكلام يونس صحيح لو أن جريرا كان يرتجل . ولكن هذه القصيدة التى قالها فى الراعى النميرى كانت قد انتهت فى الليلة السابقة ، بعد ماأصاب جريرا ما أصابه من سهر وحمى وانفعال بسببها ، حتى أخزى الراعى النميرى بها . وتوقع الفرزدق لماقاله جرير أقرب إلى الحق ، فورود هذا الشطر الثانى على خاطر الفرزدق عندما سمع الشطر الأول من جرير ، يرجحه معرفة الفرزدق بمعانى جرير فى الهجاء . ثم إن القافية قد توجهه إلى الوجهة الفنية ، فيقول هذا الشطر كما قاله جرير :

---

(١) الأمالى ٢/ ١٤٠ دار الكتب (٢) الأغانى ٨/ ٤٨

(٣) الأغانى ٧/ ٤٢ ساسى .

٨ — على أن العلم الحديث يحاول تفسير هذه الظاهرة ، وهى توارد الخواطر ، أو مايسمى « بالتخاطر[1] » ، ترجمة للكلمة الانجليزية Telepathy [2] ويعللها أرشر Archer بأنها مصادفة محضة . ولكن تكررها بين جرير والفرزدق ، يجعل الأمر أكثر من مصادفة ، وذلك بالرجوع إلى تشابه نشأتهما، ووحدة قبيلتهما ، وطول ما كان بينهما من هجاء ، وحفظ كل منهما لشعر صاحبه ، مع وحدة الثقافة والزمن .

شيطاه جرير :

١ — ولجرير أيضا شيطان يوحى إليه بالشعر ، لكنا لانعرف اسمه ، فهل كان هو الذى يوحى إلى الفرزدق كما تقدم ، باعتراف الفرزدق نفسه ؟ أما جرير فأخبرنا بصفاته لا باسمه ، كما أخبرنا الرواة أن لجرير أشياعا من الجن تروى شعره ، وتسير به فى الآفاق . وكان شيطانه قوى التأثير لا يستعصى على تأثيره أحد إلا مثل عمر بن عبد العزيز من صالحى المؤمنين . فهذا جرير يحدثنا عن شيطان مكتهل ، إبليس الأباليس ، يلقى عليه الشعر ، إذ يقول :

إنى لَيُلْقِى علىَّ الشعرَ مكتَهِلٌ من الشياطين ، إبليسُ الأباليسِ[3]

فإذا كان الفرزدق ينطق عن لسان إبليس عند الحسن البصرى ، ولا يستسيغ هجاءه له من أجل هذا ، فإن شيطان جرير كان إبليس الأباليس ، وهو مكتهل ذو تجارب صقلت شعره فجاء أجود مايكون .

ونغمة الفخر بشعره بينة فى هذا البيت ، كفخر الفرزدق بأن مدحته لخالد القسرى كالذهب المقيان ، « حبرها : لسان أشعر خلق الله شيطانا » . وهذه صورة من صور اعتزاز كل منهما بشعره ؛ رأيناها فى الفرزدق ، حين يجعل شيطانه أشعر خلق الله من إنس وجن ، ورأيناها عند جرير حين جعل شيطانا مكتهلا من الجن ، إبليس الأباليس . وصدى الجاهلية والإسلام ظاهر فى نسبة كل منهما شعره إلى الشياطين .

٢ — ونعود إلى جرير فنراه يفد على عمر بن عبد العزيز فى أواخر القرن الأول . فلا يأذن له ولا لغيره من الشعراء . وقد أقاموا ببابه زمنا . ثم استعطفه جرير فأذن له ، وسمع شعره ، وأعطاه

(١) الأحلام ١٥٤ (٢) انظر ما كتبه سادلر عن « التليباثى » فى كتابه العقل الباطن ص ٢٩٨ — ٣١٨ (٣) بلوغ الأرب ٢/٣٦٦ .

فلما خرج إلى الشعراء قالوا له : ما وراءك ؟ قال : مايسوءكم ، خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وإنى عنه لراض . ثم أنشأ يقول :

رأيتُ رُقَى الشيطانِ لا تستفزُّه وقد كانَ شيطانى من الجنِّ راقيا(١)

٣ — ولاشك أن حاجة جرير إلى أشياع من الجن ، لا إلى جنى واحد ، كانت شديدة ؛ ليعينوه على ذلك العدد الضخم من الشعراء ، الذين كانوا يهاجونه وينصرون الأخطل والفرزدق عليه . فكان يهجو جملة وتفصيلا كقوله :

لما وضعت على الفرزدق ميسمى وضَغَا البعيثُ ، جدعتُ أنفَ الأخطل

وكقوله :

إن الفرزدقَ والبعيثَ وأمَّه وأَبَا البَعيثِ لَشَرّ ما إستارِ

وغير ذلك .

وقد ساعده أشياعه من الجن فى هجائه للراعى النميرى(٢) . وكان راعى الإبل هذا يفضل الفرزدق على جرير . فلما أكثر الراعى ، شكاه جرير إلى قومه . وقد كان الفرزدق يهجوهم ، وجرير يمدحهم . وتعرض له جرير يوما بعد أن خرج من مجلسه مع الفرزدق فى مِربد البصرة ، واستوقفه وعاتبه قائلا : « يا أباجندل : إن قولك يستمع ، وأنت تفضل الفرزدق على تفضيلا قبيحا ، وهو ابن عمى . ويكفيك من ذاك إذا ذكرنا أن تقول : كلاهما شاعر كريم ؛ ولا تحتمل منى ولا منه لائمة » .

فلم يرد عليه الراعى ، ولحق بهما ابنه جندل ، فرفع كرمانية معه وضرب بها عجز البغلة التى عليها أبوه ، فرمحت جريرا ، وألقت قلنسوته من فوق رأسه ، فما اعتذر الراعى ولا اهتم به . عندئذ جن جنون جرير ، وذهب من فوره إلى البيت الذى كان ينزله ؛ وللماصلى العشاء « أسرجوا له وأتوه بباطية من نبيذ ، فجعل يهمهم ، فسمعت صوته عجوز فى الدار ، فاطلعت عليه ، فإذا هو يحبو على الفراش عريانا لماهو فيه . فانحدرت وقالت إنه مجنون ، رأيت منه كذا وكذا . فقال لها أصحابه . اذهبى لطِيَّتك ، نحن أعلم به وبما يمارس . فما زال كذلك حتى كان السحر

(١) العقد الفريد ١/٢٠٨ (٢) القصة فى الأغانى ٧/٤٦ — ٤٧

وقد قالها ثمانين بيتا فى بنى نمير ، وختمها بقوله :

فغض الطرف إنك من نُمَيْرٍ   فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

ثم كبر وقال: أخزيته ورب الكعبة ! ثم أصبح ، حتى إذا عرف أن الناس قد أخذوا مجالسهم فى المربد ، ذهب إلى حيث يجلس عبيد الراعى ، ونادى ولم يسلم . ثم أنشده القصيدة ، فنكس الفرزدق وراعى الإبل ولما فرغ منها سار ، وخزى راعى الإبل وارتحل إلى بلاده مع قومه مسرعين. وحلف راعى الإبل أنه لما وصل إلى أهله بالشريف — وهو أعلى ديار بنى نمير — وجد البيت عندهم . وأقسم بالله ما بلغه إنسى قط ، وإن لجرير لأشياعا من الجن . فتشاءمت به بنو نمير ، وسبوه وابنه .

وأشياع جرير من الجن ، لا يراد بهم حقيقتهم إلا عند راعى الإبل ومن على شاكلته ، فليس هناك ما يمنع أن يروى أحد العائدين مع الراعى تلك القصة فى قومه فتشيع سريعا ، ويسمع بها الراعى نفسه فى أهله عقب وصوله ، من أكثر من مصدر . ولا عجب فى أن تشيع ، لما فيها من هجاء مقذع ، ومن أبيات تتعلق بالقبيلة وحسبها ، مما يجعل اهتمامهم بها كبيرا ، وتناقلهم لقصتها سريعا ، حتى عجب راعى الإبل من شيوعها فى قومه بهذه السرعة .

وإن غرابة الحالة التى كان عليها جرير وهو ينشىء تلك القصيدة ، وذهوله عن نفسه وانصرافه إلى شعره ، واستعانته عليه بالنبيذ ، وتقلبه فى الفراش عريانا ، يخيل إلى جرير نفسه ، وإلى من رآه ، أنه مجنون كما قالت صاحبة البيت . فإذا كان شاعرا نسب هذا الشذوذ إلى الجن ، وكانت خاتمة ليلته هذا الشعر القوى المنسوب إلى الجن أو الشياطين ، كتلك القصيدة البائية التى سميت الفاضحة ، والمخزية ، من قصائد جرير .

وكان شيطان جرير يغيب عنه أحيانا فلا يستجيب له الشعر: روى[١] أن رجلا من تميم ، رهط الفرزدق ، جعل أربعة آلاف درهم وفرسا لمن فضل من الشعراء الفرزدق على جرير . فلم يقدم عليه أحد إلا سراقة البارقى فإنه قال :

إن الفرزدقَ برَّزَتْ أعراقُه   سَبْقاً وخُلِّفَ فى الغُبارِ جَريرُ
ذهبَ الفرزدقُ بالفضائل والعُلا   وابنُ المَراغةِ مُخَلَّفٌ محْسُور

(١) الأغانى ٧/٦٣ ساسى .

وأرسل بشر بن مروان بالقصيدة إلى جرير ، وأمره أن يجيب عنها حالا . فأخذها ومكث ليلته يجتهد أن يقول شيئا فلا يمكنه . فهتف به صاحبه من الجن من زاوية البيت : أزعمت أنك تقول الشعر ؟ ما هو إلا أن غبت عنك ليلة حتى لم تحسن أن تقول شيئا . فهلا قلت :

يا بشرُ حق لوجهك التبشيرُ   هلا قَضَيْتَ لَنا وأنْتَ أميرُ

فقال له جرير : حسبك ، كفيتك؛ وقيل إنه سمع قائلا يقول لآخر : قد أنار الصبح فقال جرير :

ياصاحبيّ هل الصباحُ منيرُ   أم هل لِلَوْمِ عَوَاذِلٍ تَفْتيرُ

إلى أن فرغ منها . وفيها يقول :

قد كان حقُك أن تقولَ لبارقٍ   يآل بَارِقَ فيمَ سُبَّ جريرُ

يُعْطى النساءُ مهورَهُنَّ كرامةً   ونِسَاءُ بارقَ مالهُنّ مُهُورُ

فأخذها الرسول ومضى بها إلى بشر ، فقرئت بالعراق ، وأفحم سراقة ، فلم ينطق بعدها بشيء من مناقضته .

وَرَدُّ جرير من قصائده القوية . ولكن البيت الذى استفتح به عليه صاحبه من الجن، والقصيدة كلها من بعده ، صدى قوى صريح لأبيات سراقة ، فالبحر والقافية متحدان . وفى أثناء الخبر تُحِسُّ بأن الباعث على البيت الأول ، والملهم به شىء آخر غير صاحبه من الجن ؛ لقد سمع رجلا يقول لآخر : قد أنار الصبح ، فهداه ذلك إلى البيت الأول ، بل إن البيت الذى يقال إنه سمعه من صاحبه الجنى وحى طبيعى أوحى به الظرف نفسه ، فالرسالة قادمة من بشر بن مروان ، وبشر أمير يستطيع أن يقضى على سراقة لتعرضه لجرير بلا سبب ؛ وذلك معنى البيت الأول .

أما اجتهاده ليلة قبل أن يقول ، فذلك هو دور الإعداد والاختيار والتذكر ، ثم التهيؤ للنظم كما قدمنا فى محاولة الفرزدق أن يرد على ابن حزم الأنصارى .

لكننا لا نطلب من الفرزدق ولا من جرير ولا من الرواة أن يعللوا بما يعلل به المحدثون ، فإن الأساطير الجاهلية وأخبار الجاهليين وعقيدتهم فى شياطين الشعر كانت موجودة فى هذا العصر لم يمحها الإسلام . وتلك أصداؤها تتردد فى هذه القصص بجانب بعض الأخبار التى تكشف التعليل الصحيح ، وإن كان ذلك قليلا .

وقد عرفنا شيطان جرير مكتهلا وإبليس الأباليس ، ولكنه مجهول الاسم والكنية إلا في العصر العباسي عند البديع الذي كناه « أبا مرة » في مقامته الإبليسية كما سيأتي .

شياطين لغيرهما من الشعراء :

وعندنا شعراء آخرون قالوا الشعر بوحي من شياطينهم ، وسمعنا بذلك منهم أو من غيرهم :

١ — روى أن « كُثَيِّرا[1] » قال: ماقلت الشعر حتى قُوِّلته ، قيل له وكيف ذاك؟ قال: بينا أنا أسير يوما نصف النهار على بعير لى بالغميم أو بقاع حمدان ، إذا راكب قد دنا مني حتى صار إلى جنبي ، فتأملته ، فإذا هو من صفر ، وهو يجر نفسه في الأرض جرا . فقال لى : قل الشعر ، وألقاه علي ، قلت : من أنت ؟ قال : أنا قرينك من الجن . فقلت الشعر .

فهذه قصة ابتدائه الشعر . وليس هناك دليل على أنه صاحبه طول حياته أو تخلى عنه ، وإن كان الأول أرجح لبقاء « كثير » شاعراً طول حياته .

والقصة نفسها من وحي الأساطير ، وشبيهة بما قدمناه في الجاهلية . فالمكان واد أو ماء . والوقت نصف النهار حين يشتد الحر ويأوى كل حي إلى الظل ، فلا يبقى في تلك الفلوات والأودية إلا الجن والشياطين . وكان كُثَيِّر على بعير له كما هي العادة ، وكان قرينه من الجن من صفر يجر نفسه في الأرض جرا .

والجاحظ يعلل ذلك وشبهه — إذا صحت القصة — بالوهم الذى يحدث من الوحشة والانفراد ، وتراثى الأشياء على غير حقيقتها في البادية ، إذ يقول نقلا عن النظام : قال أبو إسحق : يكون في النهار ساعات ترى الشخص الصغير في تلك المهامه عظيما ، ويوجد الصوت الخافض رفيعا ، ويسمع الصوت الذى ليس بالرفيع ، مع انبساط الشمس غدوة من المكان البعيد . ويوجد لأوساط الفيافى والقفار ، والرمال والحرار ، في أنصاف النهار ، مثل الدوى ، من طبع ذلك الوقت وذلك المكان[2] » .

وبمثل هذا يفسر ماروى عن ظهور الجن لكُثَيِّر في الصحراء .

وهذه الفكرة كانت معروفة عن كثير أيضا ، فقد خرج أبو السائب المخزومى[3] وابن أبي عتيق يوما يتنزهان في بعض نواحي مكة . وفقد أبو السائب طويلته فقال له ابن أبي عتيق : ما فعلت طويلتك ؟ قال : ذكرت قول كُثَيِّر :

(١) الأغانى ٣٥/٨ ساسى (٢) الحيوان ٢٤٨/٦ (٣) العقد ١٠٢/٤

أرى الإزارَ على لُبنَى فأحْسُدُه إن الإزارَ على ما ضمَّ محسودُ

فتصدقتُ بها على الشيطان الذى أجرى هذا البيت على لسانه . فأخذ ابن أبى عتيق طويلته فرمى بها وقال : أتسبقنى أنت إلى بر الشيطان ؟ .

ومع أن هذا الفعل منهما أشبه بعمل السفهاء أو السكارى ، فإنه قد روى لغاية نفهمها وننتفع بها ، وهى إثبات الشيطان لكثير بعد ما أثبت هو لنفسه أنه قال الشعر بوحى منه .

شيطان الكميت :

وقدمنا فى الباب الأول(١) عند الكلام على شيطان عَبيد أن الكميت بن زيد الأسدى — وهو من شعراء هذا العصر — كان يتلقى الشعر عن شيطان يقال له مدرك بن واغم ، وأن هذا الشيطان من أسرة شعراء ، فأبوه واغم ، وعمه الصلادم من أشعر الجن ، وابن عمه هبيد هو شيطان عبيد بن الأبرص ، وبشر بن أبى خازم من بنى أسد أيضا . وليس من المستبعد أن يكون للعصبية أثرها فى اختراع هذه الشياطين الأسدية ، وإن كانت الفكرة نفسها شائعة فى الأساطير العربية .

٣ — **شيطان أبى النجم** (٢) وكان لأبى النَّجْم العجلى شيطان ، وكان يعينه على الشياطين الأخرى فيغلب الشعراء ، فلا يظهرون معه . كما أخبرنا الرواة فى قصته مع العجاج .

فقد بلغه أن العجاج هجا ربيعة فى قصيدة أنشدها بالمربد ، ولامه مبلغه على قعوده فى بيته ، وسكوته عن نصرة قومه . فقال له : صف لى حاله وزيه الذى هو فيه . فوصف له . فطلب جملا قد أكثر عليه من الهناء ، وأخذ سراويل له ، فجعل إحدى رجليه فيها واتزر بالأخرى . وانطلق إلى المِرْبد . فلما دنا من العجاج خلع خطام جمله وأنشد :

« تذكر القلبُ وجهلاً ما ذَكَر » .

وجعل الجمل يدنو من الناقة يتشممها ، والعجاج يتباعد عنه لئلا يفسد عليه ثيابه ورحله بالقطران ، وأبو النجم ينشد حتى وصل إلى قوله :

إنى وكلّ شاعرٍ من البَشَرْ شيطانه أنثىَ وشيطانى ذكَرْ

ما رآنى شاعرٌ إلا استتَرْ فِعْلَ نجومَ الليل عايَنَّ القمرْ

(١) انظر الجمهرة (٢) الأغانى ٩/٧٤ .

فهرب العجاج ، وربح أبو النجم المعركة ، وتعلق الناس قوله : « شيطانه أنثى وشيطانى ذكر » .

وهو يريد بالذكورة القوة ، لا أن شيطانه انفرد بها من بين الشعراء ، فقد كانت شياطينهم جميعاً ذكوراً . وأبو النجم شاعر ساخر ، يريد أن يتغلب على خصمه ، ففعل بجمله وسراويله ما فعل ، ووصف شيطانه بهذا الوصف فانتصر ، ونسبة شعره إلى شيطانه ، والشعر جميعه إلى شياطين هو ما كان يقوله العرب . وأبو النجم شاعر ككل الشعراء ، وله موهبة فى نوع خاص من الشعر ، لم يدر تعليل قوته فيها إلا أنها من فعل شيطان مذكر . أما الشياطين ففيها المذكر والمؤنث ، ولكن لا توحى الذكور إلى أحد إلا إليه فى ظنه . أما الباقون فشياطينهم من النساء .

شيطان ابن أبى عتيق وابن أبى ربيعة :

وأخبرنا أبو الفرج[1] أن ابن أبى عتيق عذل عمر بن أبى ربيعة فى ذكر زينب بنت موسى فى شعره ، فقال عمر :

لا تلمنى عَتِيقُ ، حسبى الذى بِى إن بِى ياعتيقُ ما قَدْ كفانى

لا تلمنِى وأنتَ زينتَهَا لِى

فبدره ابن أبى عتيق فقال : « أنت مثل الشيطان للإنسان »

فقال ابن أبى ربيعة : هكذا قلته ورب البيت . فقال ابن أبى عتيق : إن شيطانك ، ورب القبر ، ربما ألم بى فيجد عندى من عصيانه خلاف ما يجد عندك من طاعته . فيصيب منى ما أصيبُ منه .

فابن أبى ربيعة له شيطان ، وكان أحياناً يلم بابن أبى عتيق فيعصيه ، وشعرهما هذا مثل لتوارد الخواطر أيضاً ، وقد قدمنا تعليله فى وحدة الشيطان عند جرير والفرزدق .

٥ — وكان لنصيب شيطانُه أيضاً[2] . وكان له ناصحاً حين لقنه قصيدته التى مطلعها :

قفا أَخَوىَّ إنَ الدَّارَ ليست كما كانت بعهـــدكما تكونُ

كما أخبرنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

---

(١) الأغانى ١/٩٨ دار الكتب . (٢) الأغانى ١/٣٤٥ دار الكتب

٦ — **شيطان ذي الرمة** [1] وكان جرير يقول : ما أحب أن ينسب إلى من شعر ذى الرمة إلا قوله :

« ما بال عينك منها الماءُ ينسكبُ » ، فإن شيطانه كان له فيها ناصحاً .

٧ — ولقى جُبَيها الأشجعى [2] ، الشاعر البدوى ، الفرزدق بالمربد . فسأله : أتعرف شاعراً منكم يقال له جبها ؟ قال : نعم . فاستنشده شعراً له فأنشده قصيدة عينية من قصائده . فقال الفرزدق : فاقسم بالله إنك لجبها أو إنك لشيطانه !

فماذا يريد الفرزدق ؟ قد يريد أنه قرينه من الجن . وهو الذى يوحى إليه بشعره . وقد لقى الفرزدق فأنشده كما أنشد مسحل جرير بن عبد الله البجلى شعراً من معلقة الأعشى . وقد تبادر إلى ذهن الفرزدق أول ما تبادر أن هذا الذى يروى الشعر هو شيطان الشاعر إن لم يكن الشاعر نفسه .

٨ — وابن مَيَّادَة [3] قد أنطقه الشيطان بشعر وصف فيه امرأة جلت جلاء غنى لا جلاء فقير كما قال راوى القصيدة ، وهو يضحك .

خلاصة الرأى :

هذا رأى العصر الأموى فى شياطين الشعراء ، أخبرنا به الرواة ، ورأيناه فى أشعار هؤلاء الشعراء ، وأخبارهم ونوادرهم . وقد بدا لنا فيه أن الذكر من الشياطين أقوى شعراً كما فهمنا من بيت أبى النجم . وأن المكتهل منهم موضع فخر الشاعر إذا كان صاحبه كما قال جرير . وأن الشيطان قد يلم بشاعرين فى وقت واحد كالشيطان الذى اصطفى جريرا والفرزدق معاً ، ومن شياطين هؤلاء الشعراء من كان مسمى كشيطان الفرزدق والكميت . وأكثرهم لا نعرف اسمه ، حتى شيطان جرير . وليست عندنا فكرة واضحة عن الطريقة التى كان يوحى بها هؤلاء الشياطين إلى الشعراء ، فالشيطان أحياناً يغيب فيعيا الشاعر ، ويجىء إذا نودى فيوحى بالقصيدة ، كقول الفرزدق « عزفت بأعشاش » ، وقد يظهر بعد غيبة فيوحى بالمطلع كقول جرير « يا بشرُ حق لوجهك التبشير » . وقد لا نعرف شيئاً خاصاً فنكتفى بأنه يوحى فقط .

---

(١) الأغانى ١١٣/١٦ ساسى . (٣) الأغانى ١٤١/١٦ ساسى (٤) الأغانى ٢٧٧/٢ دار الكتب.

وقد جد فى هذا العصر إبليس ، أو إبليس الأباليس . وهذا من آثار الدين الذى تحدث عنه كثيراً ، وجعله مصدر الشر ومظهر التمرد .

ولا ننسى أنه قد ظهر للشعر الجيد شيطان هو الهوبر ، وللردىء شيطان آخر هو الهوجل ، كما أشار الفرزدق .

نقد الجن للشعر :

وكان للجن نقد وتعليق فى الجاهلية(1) ومن نقدهم وتعليقهم على الشعر فى هذا العصر ما رواه المرزبانى عن أبى عبيدة قال : لما قال ذو الرُّمَّة :

أيا ظبيةَ الوَعْسَاءِ بين حُلاحِلٍ وبين النقا آأنت أَم أُمُّ سالِمِ(2)

فعيناكِ عيناها ، وجيدُكِ جيدها ولونك ، لولا حُمْشَةٌ فى القوادِمِ(3)

أجابه جنى من حيث لا يراه :

أأنت الذى شبهتَ ظبيـــةَ قفرةٍ لها ذنبٌ فوق استِهَا أمَّ سالِمِ ؟

وقَرنان إما يَعْلَقَا نِك يتركاَ بجنبيكَ يا غَيْلَانُ مثلَ المَيَاسِم

وهذا النقد الجنى تظهر فيه رائحة الشعوبية التى قويت فى العصر العباسى ، فإن بعض أساليب العرب وتشبيهاتهم وموضوعات شعرهم ، كانت موضع نقد وسخرية على لسان الشعوبيين من أمثال بشار وأبى نواس وسهل بن هرون وآخرين .

ولهذه القصة أخرى مثلها مع أكثر من شاعر : فإنه لما قال نُصَيب :

أهيمُ بِدَعدٍ ما حييتُ فإن أُمتْ فيا حزنى من ذا يهيم بها بعـــدى !

أجابه جنى من حيث لا يراه ، ساخراً من حزنه على حرمان دعد من رجل يهيم بها بعده فى شعر فاحش .

ولما قال جرير :

طرقَتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا وقتَ الزيارةِ فارجعى بســلام

---

(1) الموشح ١٦٩ (2) الوعساء = رابية لينة من رمل ، أومكان بعينه . حلاحل = مكان

(3) حمشة القوادم = دقة السيقان .

أجابه جنى :

لقد قال زأىُ ابن المراغة إذ سرى إليـــه غزالٌ فى خُدُور ظلام
فقال له من فرطِ لـــؤمٍ وذِلة أيا طيفَ ذَا المُنْزدارِ بن بِسَلام
فألاًّ ، وأسبـــابُ الجهالة كاسمها تقولُ : أقِمْ يا طيفُ خيرَ مُقَام

ولما قال الفرزدق :

هما دلّتـــانِى من ثمانينَ قامـةً كما انقض بازٍ أقتمُ الريش كاسِرهْ

أجابه جنى :

فلو كنت حراً يا فرزدق لم تَبُح بمكنون ما لاقيتَ والليلُ ساتِرُه
فأصبح منشوراً من السر ما انطوى وألأمُ مأمـــونٍ على السرِّ ناشره

ولعلك تحس بأن الجنى الذى أجاب جريراً ، أو الآخر الذى أجاب الفرزدق ؛ تعمد أن يجيبه على طريقة النقائض ، فيختار البحر والقافية ويرد عليه بما يعيبه ، ويظهر سيئاته ، وجوابه نقد لبيت الإنس من ناحية المعنى والأخلاق . ولا أشك كثيراً فى أن الجنى الذى أجاب جريراً هو الفرزدق أو الأخطل أو مقلد لهما ، والذى أجاب الفرزدق هو جرير أو تقليده ، ولجرير نفسه أبيات للرد على الفرزدق عند ماذكر هذه الحادثة فى شعره ، ومنها :

تدليـــت تزنى من ثمانينَ قامةً وقصَّرتَ عن باع العُلا والمكارم

وراوى الخبر هو أبوعبيدة ، وكان متعصباً على العرب فاتخذ من نفسه جنّياً ينقد الأبيات ويعيبها ، لأنه كان موكلا بهدم مفاخر العرب بمثل هذا النقـد وبوضع القصص الفاجرة ، وبطرق أخرى .

الفصل الخامس

انصراف عن شياطين الشعر

كانت « شياطين الشعراء » فكرة معروفة فى هذا العصر الدينى ، جاءت إليه من أساطير الجاهلية ، وتقبلها بقبول حسن ، لأنها توافق تفكيره ، الأسطورى . حتى إنه لو لم يرثها عن الجاهلية لقال بها شعراؤه وأذاعوها فى الناس .

ولكننا رأينا من الشعراء فى الجاهلية من يقول بغير هذه الفكرة فى ضمن كلامه ، ويجعل الشعر صناعة تحتاج إلى جهد وتنقيح ، ومحو وإثبات ، وإضافة ، كالذى روى عن زهير ومدرسته ، مدرسة الصنعة والتنقيح . وقد يقال إن هذه المدرسة كانت تنقح وتهذب ما يأتى إليها من وحى الشيطان . وهذا القول نفسه يطعن فى مقدرة الشياطين ، ويخالف ماعرف عنهم من العبقرية والشيطنة والخبث والدهاء . ثم إن عمل هذه المدرسة عمل طبيعى يتفق مع ماعرف عن حاجة كل إنتاج إلى التهذيب ، وإن اختلفت درجته باختلاف الناس والعصور .

وقد أدرك عدد من شعراء هذه المدرسة الإسلام ، فكان عملهم فى العصر الدينى كعملهم فى العصر السابق ، وموقفهم فى شعرهم كموقفهم فى الجاهلية ، حتى من نُسِبَ شعرهُ إلى الجن كالحطيئة . فأبو الفرج الاصفهانى(1) يقص علينا أن الحطيئة كان راوية آل زهير ، فأتى كعبَ بنَ زهير ، ودعاه أن يقول شعرا يذكر فيه نفسه والحطيئة من بعده ، فقال كعب :

فمن للقوافى ؛ شانَها من يحوكها إذا ما ثوى كعب وفوَّز جَرْوَلُ(2)

كفَيْتُك ، لا تلقى من الناس واحدا تنَخَّلَ منها مثل ما نتنخلُ(3)

نقول فلا نعيا بشىء نقوله ومن قائليها من يسىء ويُجْمِلُ

(1) الأغانى ٢/١٥٦ دار الكتب (2) ثوى : مات . فوز . مات (3) تنخل : تخير أحسن الشىء

تُثَقِّفُها حتى تلينَ متونُهـا فيقصر عنهـا كل ما يُتَمثَّل[1]

ومعنى ذلك أنه ليس للقوافى أحد بعده هو والحطيئة ، وأنه ليس فى الناس من يتخير مثل ما يتخيران ، وأنهما قديران على إبداع الشعر ثم العودة عليه بالتثقيف حتى يرق ويلين فيقصر عنه كل مايتمثل. فغضب مُزَرِّدُ بن ضرار أخو الشمّاخ، لأن كعبا أخره عن الحطيئة، مع أنه لا يقول شعرا معيب القوافى ، ولا ينتحل شعرا . ثم وازن نفسه بهما فلم يكن دونهما إذا قال بلا تعمل ولا تكلف ، ولا مقصرا عنهما إذا هذب شعره ونقحه . وذلك فى الأبيات الثلاثة[2] .

وباستك إذ خلفتنى خلف شاعر من الناس لم أكفِئْ ولم أتنحَّلِ

فإن تخشبا أخشِبْ ، وإن تتنخَّلاَ وإن كنتُ أفتى منكما — أتنخل

فلستَ كحسان الحسام ابنِ ثابتٍ ولستَ كشمّاخٍ ولا كالمخبَّلِ

وكان رأى الحطيئة أن « خير الشعر الحولى المحكك[3] » . وأن الشعر جهد ومران وتعلم ، فمن حاوله من غير مهارة فيه أخفق ، وذلك حيث يقول :

الشعر صعب وطويل سُلَّمُهْ إذا ارتقى فيه الذى لا يعلَمُهْ

زَلتْ به إلى الحضيض قدَمُه يريد أن يعربَهُ فيُعجِمُه

وكان يرى أن الشعر وراثة ، وهو رأى قال به فى الإسلام ، فى خبر لقى فيه الفرزدق ، وشهد له وهو غلام ، ثم سأله : « أأنجدَتْ أمك » ؟ فرد عليه الفرزدق ، « لا ، بلْ أبى » . يريد الحطيئة : إن كانت أمك أنجدت فإنى أصبتها فأشبهتنى» كما يقول ابن سلام[4]. وكان يؤمن بالبواعث الطبيعية ، فقد سئل فى الإسلام عن أشعر الناس ، فأخرج لسانا كأنه لسان الحية وقال : هذا إذا طمع[5] .

ومن شعراء هذه المدرسة التى ترجع الشعر إلى الصنعة، ولا تعترف بفضل لغير الجهد والتعب، أموى يسمى سُوَيدُ بن كُراع العكلى الذى بين لنا شيئا من هذا الجهد إذ يقول فى إحدى قصائده[6] .

(١) يتمثل : يضرب مثلا (٢) الأغانى ٢/٢٦٥ دار الكتب (٣) البيان والتبيين ٢/٢٥
(٤) طبقات الشعراء ١١٥ (٥) الأغانى ٣/١٧٠ دار الكتب (٦) البيان والتبيين ٢/٢٤

أبيتُ بأبواب القوافى كأنما   أُصادِى[1] بها سِرْباً من الوحشِ نُزَّعا
أكالئُها[2] حتى أعرسَ بعد ما   يكون سُحَيرٌ أو بُعَيدٌ فأهجَعا
عَوَاصِىَ إلا ما جعلتُ وراءها   عَصَا مِرْبَدٍ[3] تغشى نحوراً وأذرُعا
أهبتُ بغر الآبداتِ[4] وراجعت   طريقاً أملته القصائد مَهْيَعا
بعيدة شأوٍ لا يكاد يردها   لها طالب حتى يكِلّ ويظلَعا
إذا خِفتُ أن تَردِى[5] على رددتها   وراء التراق خشيةً أن تَطلَّعا
وجشمنى خوفُ ابن عفانَ ردَّها   فثقفتها حولا جَرِيدا[6] ومربعا

ومنهم الأخطل — وهو من الشعراء المجودين . قال مرة لعبد الملك : زعم ابن المراغة أنه يبلغ مدحتك فى ثلاثة أيام ، وقد أقمت فى مدحتك : « خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا » سنة فما بلغت كل ما أردت[7] .

وعدى بن الرقاع يبين جهده فى إعداد قصائده ، وتقويم المعوج منها ، كما يفعل المثقف بالقناة ، يعالجها حتى تستقيم ؛ فيقول[8] :

وقصيدة قد بت أجمع بينها   حتى أقوِّم ميلَها وسِنَادَها[9]
نظَر المثقِّفِ فى كعوب قناته   حتى يقيمَ ثِقافُه منآدَها[10]

ولو كان للشيطان على شعره سلطان ، لما أجهد نفسه ، ولبات نائماً ينتظر وحى الشيطان إليه فى يقظة أو منام .

وقال عبيد بن ماوية الطائى من شعر له « فى الأناة[11] » :

وقافيةٍ مثل حد السنان   تبقى ويذهب من قالها

(١) أصادى : أدارى وأعارض (٢) أكالئها : أراقبها (٣) مربد : كنبر : مربط الإبل
(٤) الآبدات : الشوارد السائرة — مهيعا : واضحا (٥) تردى : تستعصى وتحرن .
(٦) جريدا : كاملا . (٧) الأغانى ٧/١٦٤ (٨) الشعر والشعراء /١٧
(٩) السناد : عيب من عيوب القافية . (١٠) الثقاف : حديدة تعدل بها القناة المعوجة .
(١١) أسرار الحماسة ١/٨ المنآد : المعوج .

مجودّتٌ فى مجلس واحـــد قراهـــا وتســـعين أمثـــالها

والأحوص بن محمد الأنصارى يمدح عمر بن عبد العزيز فيقول [١] :

فلأشكرَنّ لك الذى أوليتنى شكرا تحلّ به المطىُّ وتَرْحلُ

مِدَحاً تكون لكم غرائبُ شعرها مبذولة ، ولغيركمْ لا تبذَلُ

فإذا تنخلتُ القريضَ فإنه لكمُ يكونُ خيارُ ما أتنخّلُ

وهذا هوالفرزدق يذكر أنه أخذ الشعر عن الفحول السابقين مع عدد آخر من الشعراء الذين وهبوا له القصائد أو أخذ عنهم [٢] إذ يقول :

وهب القصائدَ لى النوابغُ إذ مَضَوا وأبو يزيدَ وذو القروح وجَروَلُ

وهو نفسه الذى كان يقول : أنا عند الناس أشعر العرب ، ولربما كان نزع ضرس أيسر على من أن أقول بيت شعر [٣] ، فأين يكون شيطانه عمرو عندئذ ؟ فى الحق أنه يعبر عن الظروف التى تعترى الشعراء حين يضعف الدافع ، أويخمد الطبع وتكل القريحة ، أوتكون المعانى فى دور الاختمار ، ويكون الشاعر فى دور الإعداد والاختيار . وليس بلازم أن يكون ذلك شعوريا . وقد عرف الفرزدق ذلك أيضا فقال قوله هذا . وما كان شيطانه ليستجيب له لولا أنه كان أروى لأحاديث امرئ القيس وأشعاره من غيره ، كما قال راويته أبوشفقل [٤] ، ولا كان يستطيع هذا الشيطان أن يحسن شيئا من الفخر الذى عرف به الفرزدق ، لولا ذلك الحسب العريض ، والماضى العريق الذى كان يعتد به من رجاله ومفـــاخر قومه ، فى الجاهلية والإسلام .

وقد غاب هذا الشيطان عن الأخطل ؛ فلم يذكره لهما أو لأحدهما لما حكموه بين الفرزدق وجرير ، بل أدرك أن لكل منهما طبعا يخالف الآخر فقال عنهما : جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت صخر [٥] .

ومن يقرأ النقائض بينهما يدرك أنها لم تكن من وحى شيطانهما الواحد ولا المتعدد ،

(١) الأغانى ١٨/١٩٧ (٢) النقائض / ٢٠٠ طبع أوربا (٣) البيان والتبيين ١/ ١٠٠

(٤) طبقات الشعراء ٧٠ والقاموس ج ٣/ ٤٠١ (٥) الأغانى ١٠ /٢ ساسى .

وإنما كانت « ظاهرة نفسية طبيعية ، نشأت حتما عن ملكة الشعر أو موهبته التى تزكو فى نفوس الشاعرين ، فتتجاوب أصداؤها على ألسنتهما أوزانا وقوافى ، وأخيلة ومعانى ، وتنتقل هذه النغمة بطريق العدوى من نفس الأول إلى نفس الثانى ، فإذا بهذا صدى ذلك ، وإذا بالثانى يلتزم موسيقا الأول ، ويرد عليه معانيه بنفس الألحان والأوزان[١] » . وما كانت تحتاج إليه هذه النقائض ، من علم الشاعر بمفاخره ومثالب خصمه ، ليس إلا نتيجة دراسة طويلة ، ومعرفة مكتسبة تلقاها ، حتى إذا احتاج إليها تخير منها مايشرف قومه ، ويدمغ خصومه . فأين أثر الشيطان فى هذا العلم المكتسب بالفاخر والثالب ؟ .

ولو شئنا أدلة أخرى على أثر البيئة والظروف المباشرة ، والغرائز والبواعث ، وما وراء ذلك من العوامل المؤثرة فى الأدب ، لوجدنا فى تاريخهما مايجعلهما شاعرين خاضعين للدراسة النقدية والنفسية . وللمؤثرات العامة والخاصة .

ولا ننسى أنهما قالا كثيرا ، ونسبا شعرهما إلى نفسهما ، ودلا بذلك على أن الشعر من عملهما فى رأيهما أيضا . فالفرزدق يقول :

إذا ماقلتُ قافيةً شرُودا ... تلقفها ابنُ حمراء العِجَان

ويقول : « وهبَ القصائد لِى النوابغُ إذ مَضَوْا » وجرير يقول :

أعددت للشعراء سما ناقعا ... فسقيتُ آخرَهم بكأسِ الأول

ويقول :

وإنى لقوالٌ لكل غريبةٍ ... ورُودٍ إذا السارى بليلٍ ترنما

خرُوجٍ بأفواه الرواة كأنها ... قرا هِنْدُوَانىٍّ إذا هُزَّ صَمَّمَا

واجتمع ابن ميادة[٢] وعقال بن هاشم بباب الوليد بن يزيد ، فغمز عقالٌ ابن ميادة واهتلاه ، فقال ابن مَيَّادة :

فجرنا ينابيعَ الكلامِ وبحرهُ ... فأصبح فيه ذو الرواية يسبَحُ

---

(١) تاريخ النقائض فى الشعر العربى ١ — ٢ (٢) الأغانى ٢/٣٠٩ — أخبار ابن ميادة .

وما الشعر إلا شعر قيس وخندف ... وقول سواهم كُلفَةٌ وتَمَلُّح

فقال عقال يجيبه :

ألا أبلغ الرّماح نقض مقــالة ... بها خطل الرمّاح أو كان يمزح

لئن كان فى قيس وخندف ألسُن ... طوال ؛ وشعر سائر ليس يُقْــدَحُ

لقد خرق الحيُّ اليمانون قبلهم ... بحور الكلام تستقى وهى تطفح

وهم علّموا مَنْ بعدهم فتعلموا ... وهم أعربوا هذا الكلام وأوضحوا .

فانظر إلى هذه المناقضة وما فيها من فخر كل منهما بفضله ، أوفضل قومه ، على الشعر . وفى الشعر أصيل ومتكلف . وفى الشعراء أساتذة هم اليمن ، وتلاميذ هم بقية العرب . ولا نحس برائحة للشياطين فى هذا الفخر ، وإنما هو فخر بالطبع المواتى ، والقريحة المتدفقة .

وقد نسب للكميت شيطان مذَسّب ؛ شيطان ابن شيطان ، هو مدرك بن واغم . ولكن تاريخ الكميت لا يشجع على الإيمان بشيطانه هذا . فابن سلام يقول : « وكان الكميت شديد التكلف فى الشعر ، كثير السرقة[1] » ولا تليق صفة من هاتين بشيطان ابن شيطان كمدرك . ثم إن الكميت كان مشهورا بالتشيع لبنى هاشم . وقصائده فيهم تسمى الهاشميات ، وهى من جيد شعره . وقيل إنها كانت أول ما نظم ، وفيها من مدح الرسول وآل بيته ما يأبى أن يقوله شيطان . فهل كان شيطانه مؤمنا محبا لآل البيت ، لا يرى له شيعة إلا آل أحمد ، ولا مذهبا إلا مذهب الحق ؟ والثابت فى تاريخ الكميت أنه مدح الأمويين وأثنى عليهم . فهل كان شيطانه يعد هذا مذهب الحق أيضا ؟

لو أرجعنا باعث الهاشميات إلى التشيع ، وأرجعنا مدح بنى أمية إلى خوف بطشهم ، لكان الحبُّ والخوف باعثين قويين للكميت ؛ أما المعانى فكان يستقيها من ثقافة عصره الدينية والعربية التى تشمل أخبار الجاهلية وأدبها ؛ فلما هجا اليمن ، وتعصب لمضر كانت هذه الثقافة مددا له ، كما كانت الثقافة الدينية مددا له وعونا حينما كتب الهاشميات ؛ ولا نرى مكانا لشيطانه مدرك بن واغم مع هذه المؤثرات والظروف الطبيعية .

(١) طبقات فحول الشعراء ٢/٥٦٣ .

وسمعنا أن لذى الرُّمة شيطانا ، ولكن الرجل كان يجهد نفسه فى قول الشعر . وانظر حديثه عن الجهد الذى يبذله فى شعره ، من أبيات فى قصيدة مدح بها بلال بن أبى بُرْدةَ والى البصرة إذ يقول :

وشعرٍ قد أرقتُ له غريبٍ أجنبُه المساند والمحالا
فبتُّ أقيمه وأُقَدُّ منه قوافىَ لا أُعدُّ لها مثالاَ
غرائبَ قد عُرِفنَ بكل أرضٍ من الآفاق تُفْتَعَلُ افْتِعالا

فهذا دليل الصنعة والتنقيح ، يشهد به الشاعر على نفسه ، ويبدى الجهد الذى يبذله فيه. ولو تأملت الألفاظ: أرقت ، وغريب ، وأجنبه ، وبت أقيمه وأقد منه : لرأيت مدى هذا الجهد الذى يبذله ويأرق فيه ، ليباعد بينه وبين العيوب ، وكيف يبيت ليله يقوم معوجه، ويصلح مالا يراه سليما ، ويقطع منه شعرا لا يرى له مثالا فى الحاضر أو الغابر . وغاية ذلك الجهد أن سارت فى الآفاق قصائده الغرائب ، وطوفت فى أنحاء البلاد أشعاره النوادر . وكان مجيدا فى وصف البادية وما فيها ، حتى إنه لما استحسن الفرزدقُ شعره سأل ذو الرمة : مالى لا أذكر مع الفحول ؟ فقال له الفرزدق: قصر بك عن غاياتهم بكاؤك فى الدِّمَن ، ونعتك الأبعارَ والعطن[1] » . وقالوا : إنما وضع منه أنه كان لا يحسن الهجاء والمدح ، وكانت لهما سوق رائجة فى هذا العصر . وقد يكون اقتصار شاعر كذى الرمة على ما يلائم طبعه من المعانى والأغراض أخره عن طبقة الفحول ، ولكنه كان متأثرا فى شعره بالبيئة التى عاش فيها وهى البادية ، وكان من وصافيها المشهورين ، وذلك أمر طبيعى ليس للشيطان عليه سبيل.

وبعد : فهل كان شيطان الشعر واحدا يوحى إلى كل الشعراء ، إن كان الأمر كذلك فهو أدل على قدرته وأرفع لمكانته ، ولكن كيف يصدر عنه شعر الفحول وشعر العاجزين من الناظمين ؟ وإذا كان الأول لائقا به ، فهل يليق به ذلك العجز مع ماهو معروف عن الشياطين عامة من القدرة والقوة والاحتيال ؟ .

لقد خرج الفرزدق من هذا المأزق فجعل للشعر شيطانين : الهوبر للشعر الجيد، والهوجل

(١) خزانة الأدب ١/١٠٧ السلفية .

للشعر الردىء ، وهو تقسيم لا بأس به باعتبار أن القسمين موجودان فعلا ، وهذا أقل تقسيم يمكن أن ينقسم إليه الشعر والشعراء ، وإن كانوا قد انقسموا بعد ذلك إلى أربعة أقسام أو أكثر أو أقل .

ولكن الفرزدق قسم جمل الشعر ، فبدا من تقسيمه أن لكل شاعر من القسمين نصيبا من الجمل يخالف طعمه طعم الآخر ، وتخالف قيمته وطبيعته ما أخذه غيره من الشعراء ، فدل بذلك على انتباهه إلى اختلاف الشعر اختلافا أكثر مما بين الجيد والردىء ، كإدراكه لاختلاف الشعراء فى الأغراض والمعانى والأساليب ، وكثير من صفات الشعر وأغراضه . وكان الشائع عند القائلين بشياطين الشعراء أن لكل شاعر شيطانا ، وإن كنا لم نسمع منهم فى العصر الدينى إلا بعدد قليل . وقد حاولت تفسير هذه الشياطين وإرجاعها إلى حالات طبيعية وظروف خاصة لا صلة بينها وبين الشياطين .

أغراض الشعر الأموى فى ضوء علم النفس :

وإليك أغراض الشعر المهمة فى هذا العصر ، نقدمها مع بيان الصلة بينها وبين الدوافع الطبيعية التى أشرنا إليها فى التمهيد ؛ من الغرائز والذكاء والمواهب :

المدح : باعث هذا الغرض القوى هو غريزة حب المال أو الاقتناء ، أو الخضوع ، أو حب الظهور ، فقد كان المال غاية المادحين خصوصا فى عصر التكسب ، والشعر مملوء بهذا كقول جرير لعبد الملك :

أغثنى يافداكَ أبى وأمى ... بسَيْبٍ منكَ إنك ذو ارتياحِ

وسأل عبد الملك كثيرا عن أشعر الناس فقال : من يروى أمير المؤمنين شعره [1] . وكان اعتراف عبد الملك للأخطل بجودة مدحته « خَفَّ القَطِينُ » أحسن عنده من المال ؛ وقد جعلته شاعر بنى أمية [2] . وكان ثناء الخليفة على شعر الشاعر خيرا عنده من المال ؛ لما له من أثر فى ظهوره وذيوع شعره . وأحس عمر رضى الله عنه بهذا الباعث عندما بلغه مدح

---

(١) الأغانى فى ٨/٣٤

(٢) ٧/١٦٧ .

الحطيئة لأبي موسى ، واستحسن أن يعطيه ، شاريا عرضه ، لا أن يعطيه للمدح والفخر [١] .

الهجاء : ونستطيع أن نرجعه إلى غريزة المقاتلة أو الدفاع عن النفس ، ويؤيد ذلك اعتذار جرير للحجاج عن هجاء ذلك العدد الضخم من الشعراء ، فإنه كان مدافعا يرد على من يهجوه [٢] . أما البادئون بالهجاء فكانوا يندفعون بغريزة المقاتلة أو حب الخصام ، أو حب المال . وممن هجوه مدفوعين بحب المال سراقة البارقي ؛ فإنه أخذ رشوة من محمد بن عمر ابن عطارد بن حاجب بن زرارة أربعة آلاف درهم وفرسا ليفضل الفرزدق على جرير .

وكان الحزين الكناني [٣] يكف عن الهجاء بدرهمين ، فشهوة حب المال كانت تدفعه إلى الهجاء ، إلا أن يشترى الناس منه أعراضهم بذلك الثمن البخس . وقد اشترى عمر رضي الله عنه أعراض المسلمين من الحطيئة ، [٤] بثلاثة آلاف درهم بعدما سجنه . وما فعله أبو موسى في الخبر الذى تقدم قريبا ، يوافق مافعله عمر ، ويدلنا على أن الحطيئة كان مرهوب اللسان ، تخشى الهجاء ، وأنه كان يبغى من ورائه الكسب ، فإذا اشترى الناس منه أعراضهم فقد حقق رغبته ، وأرضى غريزة في نفسه ، وهي حب الملك أو المال .

ولا ننسى أثر غريزة المقاتلة أو الدفاع عن النفس في النقائض ، أو في الجزء المقصور على الهجاء . ولم تسكت هذه الغريزة عن دفع الفرزدق ، حتى في أيام قيده الذى نذره ليحفظ القرآن . فإنه بلغه هجاء جرير لقومه فرد عليه ، وقال :

فإن يك قيدى كان نذرا نذرته فما بىَ عن أحساب قومىَ من شُغُلِ

الفخر ومعه الحماسة : ويدفع إليه حب الظهور ، أو مركب الرفعة ، وقد يدفع إليه الدفاع عن النفس ، أو السيطرة والظهور . وقد تكون غريزة المقاتلة أيضا . وانظر إلى قول الفرزدق :

إن الذى سَمَكَ السماءَ بَنىَ لنا بيتاً دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ [٥]

وإلى كثير جدا من أبياته في الفخر ، وكذلك فخر جرير . وقد نؤكد أن دافع جرير إلى الفخر كان ينبعث أحيانا من مركب النقص الذى جاءه من ضعة أصله . فكان فخر

---

(١) الأغانى دار الكتب ٢/١٧٦ (٢) الأغانى ٧/٤٠ (٣) الأغانى ٨/٢٩

(٤) الأغانى ٢/١٨٢ دار الكتب (٤) تاريخ النقائض ١٨٣و٢٠٥

الفرزدق بأبيه غالب ، وجده صعصعة الذى أحيا الوئيـد ، ثم بمجاشع عامة . وكان فخر جرير بما وراء أبيه وجده كقوله :

مُضَرٌ أبى وأبو الملوكِ ، فهل لكم يا خُزْرَ تَغْلِبَ من أبٍ كأبينا
هـذا ابنُ عمى فى دِمَشقَ خليفةٌ لو شئتُ ساقكمُ إلىَّ قطينا

وقد يكون الفخر بالدين لا بالنسب ، وبمآثر الاسلام لا الجاهلية ، فتدفع إليه غريزة التدين مثلا كما فى شعر الخوارج .

والغزل : أظهر غريزة تدفع إليه هى الغريزة الجنسية . فجرير مع عفته كان رقيق الغزل كثيره . وهذا نوع من إعلاء الغريزة Sublimation ، وكان هذا الغزل تنفيسا عن الغريزة فى شعر ابن أبى ربيعة ؛ وقد يكون دافعه عنده حب الظهور .

الرثاء : وإذا بحثنا عن أقوى الميول الفطرية اتصالا به ، ودفعا إليه ، وجدنا ذلك ممثلا فى المشاركة الوجدانية ، أو الأبوة ، إلا إذا كان تملقا وزلفى فيـدفع إليه عندئذ حب المال أو الخضوع والاستكانة أو حب الظهور .

ولا ننسى أثر الدوافع المباشرة أو البواعث ، فالنقيضة مثلا لها دوافع مباشرة هى النقيضة التى تثيرها ، والأحكام التى كان يطلقها الأخطل أو الراعى أو غيرها ضد جرير كانت تثير نفس الشاعر وتحرك دوافعه ، ويستمين بذكائه ، وما عنده من أخبار أو معانى تجىء من اللاشعور أو شبه الشعور فينظمها ، مستعينا بمواهبه الفطرية القـادرة على القول المنظوم ، محاكيا أو مبتدعا .

وقد تتعدد البواعث والدوافع ؛ فترى القصيدة من قصائد جرير مبدوءة بالغزل يتبعه الفخر أو يتلوه الهجاء . وقد تتداخل هذه المعانى ، فترى الشاعر ينتقل من معنى إلى غيره ، ثم يعود إلى الأول والثانى أو غيرها ، يتردد بينها . وفى كل ذلك يصدر شعره عن بواعثه ، على حسب قوتها وضعفها .

وفى الحق أن الإبداع الفنى عملية معقدة ؛ اكتفى القدماء بنسبتها إلى الشياطين أو الآلهة ؛ أما المحدثون فدرسوها من حيث حالة القيام بها ؛ وما يسبقها من استعداد لها ، وما يدفع إليها

من دوافع نفسية داخلية مباشرة أو سابقة ، ومايبعث عليها من بواعث خارجية تثير النفس وتحملها عليها ، ثم درسوا مدى استجابة النفس لهذه البواعث ، واختلاف الشاعر أو الفنان فى وقت عنه فى الآخر ؛ واختلاف الفنانين كل عن الآخر فيها ؛ وأجهدوا أنفسهم فى ذلك لمعرفة العمليات اللاشعورية التى تؤدى إلى إبداع الفن ؛ أو العمليات الشعورية التى تحدث حتى تظهر القصيدة أو التمثال أو القطعة الموسيقية . وكلما بعد العهد بالشعر أو الآثار الفنية الأخرى ، وضاعت أخبار الظروف والأحوال التى نشأت فيها ،كان من العسير الوقوف على كيفية إبداعها ، وعواملها الخارجية والداخلية .

والخلاصة :

أن الشعر العربى فى أوائل هذا العصر كان صادرا عن منبعين : أحدهما دينى متأثر بالدين والاسلام ، فكان حسان يقول وروح القدس يؤيده ، وكان غير المسلمين من الشعراء يقولون بوحى من شياطينهم أو أباليسهم ، وكذلك عدد من الكهان تلقوا عن شياطينهم وحيا بشعر ونثر ، أو هتافا منظوما ومنثورا ، بدعوتهم إلى الإسلام ، وترك عبادة الأصنام ، وهتف الجن فى مناسبات بالشعر ، يخبرون بموت عظيم ، أو انتصار فى معركة ، أو رثاء لبطل. ولكن هؤلاء كانوا جميعا يختارون أبطال المسلمين أو معاركهم أو أحداثهم .

وفى العصر الأموى رأينا صدى الجاهلية فى أن لكل شاعر شيطانا ، ولكن الذين عرفنا شياطينهم من الشعراء يعدون على الأصابع ، أشهرهم الفرزدق وله شيطان اسمه «عمرو» ، وآخر أو هو نفسه يكنى «أبا لبنى» ؛ وعرفنا من الفرزدق أنه أشعر خلق الله شيطانا ، وأن للشعر شيطانين الهوبر للشعر الجيد ، والهوجل للشعر الردىء ؛ وتلك فكرة لم نسمع بها فى الجاهلية . أما جرير فله شيطان لانعرف اسمه ، ولكنه « مكتهل » : من الجن « إبليس الأباليس » ، وكان شيطانه من الجن راقيا ، وإن لم يستطع أن يستفز عمر بن عبد العزيز برقاه ، والكميت له شاعرة ذو النسب العريق «مدرك بن واغم» ، والآخرون كابن ميادة وابن أبى ربيعة ونصيب لانعرف شيئا كثيرا عن شياطينهم .

وظهرت وحدة الشيطان فى الجاهلية ، ولكنها لم تكن واضحة ، فإن هبيدا كان يحبو القوافى قرمى أسد ، عبيدا ، وبشر بن أبى خازم . وفى هذا العصر عرفنا وحدة الشيطان واضحة فقد كان يوحى إلى جرير والفرزدق بشعر واحد فى وقت واحد ، أو يتوقع واحد منهما ردا على أبياته فيقول صاحبه مثل ماتوقع . وكذلك نجد مثالا لهذه الحالة عند ابن أبى

ربيعة وابن أبي عتيق . وقد سمى هذا فيما بعد « التوارد » وله تفسير أدبي قدمناه ؛ وتفسير علمي أوردناه مستعينين بالحديث الموجز عن التلباثي « Telepathy » أو التخاطر ، أو توارد الخواطر .

وكان من أثر الدين أن ظهر عندنا إبليس ينطق الفرزدق عن لسانه كما يقول الحسن البصري ، وكان شيطان جرير إبليس الأباليس ، وبهذا نرى أن العصر قدم بعض الزيادة في الأرواح التي توحي إلى الشعراء ، فزاد روح القدس أو جبريل ، وزاد إبليس ، ثم رأيناه مكنيا بكنية ، وسمعنا بنوعين منه في خبر مروى عن الفرزدق .

ولكن هذا القول لم يكن عاما ، فجبريل أيد حسانا بدعوة النبي له ولم يدع لغيره ، ودعا له مادافع عن نبيه وإبليس لم يكن يوحي بالشعر وحده ، ولكنه يوحي زخرف القول غرورا ، ويوسوس في صدور الناس بالقول عامة ، وبالعمل أيضا .

وسمعنا من الشعراء — حتى الذين نسب قولهم إلى الشياطين — أنهم يبذلون جهدا كبيرا في عمل القصائد . أما الذين لم يذكروا جهدهم فقد دلت عليه أخبارهم ، وعرفنا أنهم كانوا يبذلون جهدا ويتحملون عناء في سبيل الوصول إلى الدرجة العالية في الشعر ، ويعدون أنفسهم بالحفظ والتقليد ومعرفة الأخبار ؛ وعرض الشعر على أهل الصنعة ؛ كما عرض نصيب شعره على الفرزدق قبل أن يرحل به إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ، وكما عرض عليه الكميت إحدى هاشمياته فأمره أن يذيعها .

وحاولنا أن نقيس هذا الشعر ، وتلك الشياطين التي توحي به ، بمقاييس العلم الحديث ، فرأيناه يخضع لأصول علم النفس ، ويعتمد على أسس نفسية في إبداعه ؛ سواء في ذلك حالة الإبداع نفسها ، أو ما يسبقها من إعداد النفس لها ؛ ولم ننس ماوصل إليه العلماء من حديث عن المواهب والذكاء ، وأن الله قد « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » فأعطى كل شاعر خلقه الذي يمتاز به على غيره ، ليكون في النهاية شاعرا لامثيل له ، وإن عاش مع غيره في ظروف متشابهة وماثل غيره في بعض الصفات .

وقد تطور العصر الاسلامي بعض التطور كما قدمنا ، فكان زيادة على الجاهلية ومقدمة العصر العلمي التالي .

الفصل السادس

صلة الشياطين بغير الشعر من الفنون

عرف العرب من الفنون الجميلة أظهرها وأهمها وهو الشعر . وكانت للشعراء منزلة عالية عند العرب ، فعدوه من صنعة الجن ، ونسبوه إلى شياطين توحي به في بعض العصور ، أو إلى قوة قادرة تؤيد صاحبه . أما الأمم الأخرى فجعلت هذه القوى آلهة تلقي على الشعراء وحيها ، وتلهم أرباب الفنون آثار نبوغهم وقدرتهم .

عرف اليونان فنونا أخرى كالموسيقى والغناء والنحت والتصوير ، وعرف العرب هذه الفنون أيضاً . ويرجع عهدهم بذلك إلى جاهليتهم الأولى[1] . بل إلى ماقبل الجاهلية ؛ إذ أن هذه الفنون أنواع من التعبير تصاحب الأمم من عهودها الأولى ، لكن بعض الأمم تنبغ فيها أكثر من بعض ، ويعني بها بعضها أكثر من غيره . وكان اهتمام العرب منصرفا إلى الشعر أكثر من الفنون الأخرى ، وكان الباقي منه أظهر وأشهر مما بقي من فنونهم الأخرى ، وكان تعلق الدارسين به أقوى ، لما له من قيمة ذاتية بسبب التقدم الذي أصابه في الجاهلية والإسلام . ولم يستطع أن يجاريه فيه فن آخر من الفنون العربية . ثم إنه كانت له منفعة مادية ، إذ استعان به دارسو القرآن ومفسروه على توضيح آيات الكتاب ، واستدلوا به على فهم المراد منه . واستعان به دارسو تاريخ العرب على استخراج كثير من أحوال مجتمعهم عما كان فيه من عقائد ونظم ، وأخلاق وحروب ، ومآثر ومفاخر وعادات ، وعلى وصف طبيعة البلاد ، ونوع المعيشة التي كانوا يعيشونها ، وما كان يعيش في بلادهم من حيوان وطير أليف ووحشي ، وغير ذلك مما تجده في الشعر العربي .

ويظهر أن الفنون التي اتصلت بالشعر ، كالنقد والغناء ، ألحقت به في نسبتها إلى الجن أيضاً ، وإن لم تصل إلى الدرجة التي بلغها الشعر في ارتباطه بالشياطين . أما النحت والتصوير فلم ينسبا إليها ، وإليك التفصيل .

---

(١) في علم النفس ١ / ١٦٩ .

٦ — الغناء :

الغناء والموسيقى فنان من الفنون الجميلة التى تنشأ مع الأمم ، ولها أثر فى حياتها . بل إنهما طبيعيان يلجأ إليهما الناس بفطرتهم ، لدفع الهموم ، والاستعانة على المشقات ، وإشباع الرغبة فى الصوت الجميل ، واللحن المؤثر . وكم لهما من سلطان على النفوس ، وتأثير فيها زمن السلم والحرب ، وفى أوقات الراحة والتعب ! ولا ننسى أن تأثيرهما قد يتجاوز الناس إلى الحيوان والطير ، والجماد أيضاً[1] . ولها سحر يجعلهما من صنعة الجن كالشعر .

١ — لكن العرب لم ينبغوا فيهما مثل ما نبغوا فى الشعر ؛ فأخبار الغناء عندهم قليلة ، روى لنا شىء منها عن جاهليتهم الأولى ، وشىء عن جاهليتهم قبيل الإسلام وفى الإسلام أيضاً . فقد كان لمعاوية بن بكر العمليقى[2] قينتان ضرب بشهرتهما المثل ، وقيل إنهما أول من غنى الغناء العربى . ولما جاء وفد عاد إلى مكة يستسقون لقومهم فى أحد الأزمنة التى حبس فيها المطر عن منازلهم بالأحقاف ، نزلوا على ابن أختهم معاوية بن بكر المتقدم فأقاموا عنده شهراً ، وكان يكرمهم ، وتغنيهم الجرادتان أو القينتان . وتذكر معاوية أخواله فألقى إلى الجرادتين بشعر فيه تذكير لوفد عاد . فلما غنت الجرادتان بهذا ، تذكروا ما جاءوا من أجله ، ودعوا ربهم ، واستسقوا لقومهم .

وكان لعبد الله بن جدعان فى الجاهلية أمتان تغنيانه بشعر أمية بن أبى الصلت فى مدحه[3] . وكانت هريرة أيضاً هى وأختها خليدة قينتان مشهورتان لبشر بن مرثد ، وكانتا تغنيان النَّصب[4] . وقد شبب الأعشى بهريرة فى مطلع معلقته . «وَدِّعْ هريرةَ إن الركب مرتحل» . وهى التى قلنا عنها فيما مضى إنها بنت صاحبه الجنى .

وأقوى النابغة فاستحى من حوله أن يقوّموا قافيته فى قصيدته الدالية :

« مِنْ آلِ مية رائحٌ أو مُغتَدى »

« فلقنوا الشعر مغنية رددت على مسامعه الشطر المعيب » . فالتفت إلى الإقواء ، وأصلح الشطر[5] .

---

(١) العلم فى فنجان ١/٥٦ للأستاذ حسن عبد السلام — دار المعارف (٢) الأغانى ٨/٢ ساسى .
(٣) مجمع الأمثال للميدانى ١ / ١١٤ (٤) الأغانى .
(٥) نفسه ٧٧ — النصب نوع من أرق أنواع الحداء (٦) الأغانى ٩ / ١٥٧ ساسى :

وخرج قيان مكة فى غزوة بدر، باشارة أبى جهل لإثارة الحماسة ، أو ليتم النعيم والاستمتاع، وكأنما كان يحسب نفسه خارجا فى نزهة ، فدارت عليه الدائرة[١] .

٢ — وأباح الإسلام بعض الغناء وحرم بعضه . وقد استقبل صلى الله عليه وسلم عند وصوله إلى المدينة مهاجرا ، بالنشيد[٢] .

طلع البدرُ علينا   من ثنيَّات الوداع

وروى أن جارية من قريش نذرت إن عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر سالما أن تضرب بالدف وتغنى بين يديه . وأوفت بنذرها فاستمع إليها الرسول ، ورأت عمر فنفرت، فقال الرسول : إن الشيطان ليخاف منك ياعمر[٣] . وزفت عائشة امرأة من الأنصار ، فأمرها رسول الله أن تغنيها بيتين من الشعر .

٣ — وجاء عهد الترف والنعمة وكثر الغناء بالحجاز فى عهد بنى أمية . وكان فى مكة والمدينة عدد من المغنيات كثير . وأقيمت الحفلات ، وأقبل الناس فى مواسم الحج وغيرها يستمعون إلى هذا الغناء ، وتنوع فى مكة والمدينة ، وكان لكل منهما مذهب فيه ، ومفاخرات به. بل إن حاضرة الخلافة كانت لا تجد فيها من يغنى غناء أهل الفن فى الحجاز[٤] ، فكانت تستقدم من هناك بعض المشاهير ، لإمتاع الخليفة وأهل الترف وأعيان الحاضرة .

وكان طبيعيا أن ينهض الفن نهضة كبيرة ، وأن يسمو بعض المغنين إلى درجة فوق مستوى الناس ، فينسب غناؤهم إلى الجن ، يوحون به إليهم فى اليقظة والمنام ، ويلقنونهم أصول صنعتهم ، ويسيطرون على ألحانهم وعلى مصيرهم أيضا . ولكن ذلك كان قليلا بنسبة المغنين والمغنيات . فإننا لا نسمع بأحد منهم اتصل بالجن أو تلقى عنهم ، إلا معبدا والغريض وابن سريج .

٤ — روى عن معبد بن وهب أنه قال : كنت غلاما مملوكا لآل قطن مولى بنى مخزوم . وكانوا تجارا أعالج لهم التجارة وكنت آتى بالليل صخرةً ملقاة بالحرة ، فأستند إليها ،

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٣٧٧ (٢) الإحياء ٢ / ٢٤٤ .
(٣) ديوان حافظ إبراهيم ١ / ١٤ ، عبقرية عمر/٢٣ .
(٤) الأغانى ١ / ٥٣ دار الكتب .

فأسمع وأنا نائم صوتا يجرى فى مسامعى . فأقوم فأحكيه . فهذا كان مبدأ غنائى[1] .

وتفسير ذلك فى عهد الأساطير أن هاتفا كان يهتف به ويعلمه أصول الصنعة . وإذا وجعنا إلى تاريخ حياته، وجدنا أنه كان حسن الغناء ، جميل الصوت منذ الصغر . ولا شك أن صوته كان يثير فى نفسه أكبر الآمال ليترك الخدمة والرعى ، وما يشبههما من أعمال الموالى ، ليصير من كبار المغنيين ، ينعم بالمال الوفير ، والخير الكثير ، ويصبح مشهورا فى النوادى والحواضر كما كان غيره . وكانت هذه الآمال التى تشغل خاطره طول يومه سببا فى تلك الأصوات التى كانت تجرى فى مسامعه وهو نائم ، ويخيل إليه أنها ألحان فيقوم فيحكيها . أو إن شئت فقل إن تلك الأصوات كانت حفيف الريح تمر بسمعه وهو بين النوم واليقظة فيترجمها ألحانا إذا أصبح ، أو أنه كان يسرح بخياله فى الألحان ، فيخيل إليه أنه كان نائما لشدة استغراقه فى التفكير . ويعمل العقل الباطن عمله فى تلك الحال ، فيوحى إليه تلك الصنعة .

أما تاريخه فيدل على أنه كان صاحب فن واختراع فيه ، وتلك سمة العبقرية[2] وليس عجيبا أن يخيل إليه أنه يتلقى فنه عن قوى خارجية . ومثل هذه القدرة، كيفما كانت ، ليست فى عهد الأساطير وشبهها من عمل الناس بل من وحى الشياطين .

ولكن هذا التاريخ يدل أيضا على أنه تلقى أصول الصنعة من صغره إذ كان يختلف إلى نشيط الفارسى ، وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر ، حتى اشتهر بالحذق والغناء .

٥ — والغَريض أبو مروان : مولى العبلات ، كان من أشهر مغنى الحجاز[3] فى هذا العصر . فكان كأهل الفن ، أقل جماح فى خياله يميل به إلى ناحية الجن والشياطين ؛ وقد كان؛ فإن فنه تلقاه عن الجن وكان له مستمعون من الجن، وموته كان على يد الجن أيضا.

قالت بعض مولياته : إنه جاء يوما بحديث فأنكرناه عليه ، وعلمته إحداهن النياحة فبرز فيها . وجاءها يوما فقال : نهتنى الجن أن أنوح ، وأسمعتنى صوتا عجيبا ابتنيت عليه لحنا فاسمعيه منى . واندفع يغنى بصوت عجيب فى شعر المرار الأسدى :

حلفت لها بالله ما بين ذى الغضا   وهضب القَنان من عوان ولا بكر

---

(١) الأغانى ١ / ٤١ دار الكتب   (٢) الأغانى ١ / ٣٩ دار الكتب .

(٣) الأغانى ٢ / ٣٧٣ و ٣٧٤ .

أحبُّ إلينا منكِ دَلاًّ ومارى ... به عند ليلى من ثواب ولا أجر

فكذبته سيدته ، وقالت لنفسها : شئ فكر فيه وأخرجه على هذا اللحن . لكنه كان يأتى كل يوم فيقول : سمعت البارحة صوتا من الجن بترجيع وتقطيع ، وقد بنيت عليه صوت كذا وكذا بشعر فلان ؛ فلم يزل على ذلك ومولياته ينكرن عليه . ثم تقول إحداهن : فإنا لكذلك ليلة ، وقد اجتمع من نساء أهل مكة جمع لنا ، سهرنا فيه ليلتنا ، والغريض يغنينا بشعر عمر بن أبى ربيعة :

أمِنْ آل زينب جَدّ البكورُ ... نَعَمْ ، فلأىٍّ هواها تصيرُ

إذ سمعنا فى بعض الليل عزيفا عجيبا ، وأصواتا مختلفة ذعرتنا وأفزعتنا ؛ فقال لنا الغريض : إن فى هذه الأصوات صوتا إذا نمت سمعته ، وأصبح فأبنى عليه غنائى . فأصغينا إليه فإذا نغمته نغمة الغريض بعينها . فصدقناه تلك الليلة .

ولا غرابة فى مثل هذا الخبر عن مغن كالغريض كان حسن الوجه ، حسن الصوت ، حسن اللحن ، اجتمع عليه جماعة من النساء . قد استهواهن من قبل بحديثه عن الجن ، ثم غناهن بشعر عمر بن أبى ربيعة ، الذى كان يقال فى تأثيره الشىء الكثير .

ومع هذا فقد كادت إحدى مواليه تكشف سر صناعته إذ قالت : « شىء فكر فيه وأخرجه على هذا اللحن » لكنه كان يغنى فى وقت من الليل يمكن أن تثور فيه الرياح ويعزف حفيفها ، فيخيل إليهم أنه صوت جن ، ولعله هو الصوت الذى تعود أن يسمعه إذا نام الناس وظل هو يقظان يؤلف بين الأشعار والألحان ، فيترجمه ألحانا وينسبه إلى الشياطين .

وليس هذا الوهم غريبا على هؤلاء النسوة ولا على الغريض نفسه ، وقد توهم ناس من الحجاج يوما أن صوته صوت جن . فإنه غنى الحاج فى مكان يسمع منه صوته ولا يرى ، وترنم ، ورجع صوته ، وغنى فى شعر عمر بن أبى ربيعة .

أيها الرائح المُجِدُّ ابتكارا ... قد قضى من تِهامة الأوطارا

فما سمع السامعون شيئا كان أحسن من ذلك الصوت وتكلم الناس فقالوا : طائفة من الجن حجاج[1]

---

(١) الأغانى ٢/٢٣٦

كما شك ابن الزبير فى غناء سمعه ليلا على أبى قبيس وقال : لقد سمعت صوتا إن كان من الجن إنه لعجب ، وإن كان من الإنس فما انتهى منتهاه شىء ! فنظروا فاذا هو ابن سريج يتغنى[1] .

وتلك الجن التى صحبته فى حياته ، وسمع منها ، وترجم ألحانها وأصواتها ، كانت تستمع إليه معجبة . ويستخفها الطرب من جمال صوته . ثم رأت أن ذلك لا يليق بوقارها فنهته أن يتغنى ببعض الأصوات التى أصبت سفهاءهم ، وسفهت حلماءهم ، وقد روى فى موته أقوال :

زعم المكيون أن الغريض خرج إلى بلادعك فغنى ليلا :

هم ركب لقوا ركبا كما قد تجمع السبل

فصاح به صائح : اكفف أبا مروان فقد سفهت حلماءنا ، وأصبيت سفهاءنا . قال : فأصبح ميتا .

أو أن بعض مواليه أرغمه على أن يتغنى بصوت، فتغنى به حتى التوت عنقه، وخر صريعا ومات . وقيل فى ذلك إن الجن[2] لوت عنقه . وقيل أيضا : إنما نهته الجن أن يتغنى بذلك الصوت ، فلما أغضبه مواليه تغناه ، فقتلته الجن فى ذلك[3] .

وقيل إنه صار إلى اليمن ، وكان دائم الحنين إلى مكة طول مقامه هناك ، ثم اعتل فسأله بعض الناس : ماقصتك ؟ فقال: جاءنى منذ ليال قوم، وكنت أغنى فى الليل . فقالوا : غننا، فأنكرتهم وخفتهم ، فجعلت أغنيهم . فقال لى بعضهم : غننى :

لقد حثوا الجمال ليهربوا منا فلم يئلوا

ففعلت : فقام إلىّ هن منهم أزب ، فقال لى : أحسنت والله ،ودق رأسى حتى سقطت لا أدرى أين أنا . فأفقت بعد ثالثة وأنا عليل . وتوقع أن يموت ، فمات من غد ودفن[4] .

فمن أولئك القوم الذين جاءوه ، واختاروا له هذا البيت ليغنيه ؟ لعلهم من جن الحجاز ؛

---

(١) الأغانى ١ / ٢٦٦ و ٣٠٢ (٢) العقد ٤ / ١٠٨ (٣) الأغانى ٢ / ٤٥٠

(٤) الأغانى ٢ / ٤٠٠ .

تبعوه واختاروا له هذا البيت ليفهم أنه لامهرب له منهم ولا ملجأ . ولعل هذا الجن الأزب كان أكثرهم غيظا من فراره من البلد الحرام ، فدق رأسه فمات .

والروايات كلها تجمع على غرابة موتته ، ولكنها تربطها بالجن لتستقيم أخباره ويموت كما عاش ، على صلة بهذه الأرواح الخفية ، يتلق عنها فى حياته ، ويلقى حتفه على يدها فى مماته . لكن سبب قتلهم له غير واضح : أكانوا يريدون أن يبقى بمكة ليغنيهم ، فلما هرب حرموا غناءه فغاظهم ذلك ، فذهبوا إلى اليمن فقتلوه هناك ؟ أم أرادوا أن يخصهم ببعض أغانيه ونهوه أن يغنى به غيرهم ، فلما أرغمه مواليه غاظ الجنّ ذلك فقتلوه ليستريحوا ؟ أم أنه أصيب بفالج عاجله كما ورد فى بعض الروايات ؟

على أن أثر الدين كان واضحا فى موقف آخر : فقد غنى ابن سريج[1] للوليد بن عبد الملك مرة فسأله : أنى لك هذا ؟ قال : هو من عند الله : قال الوليد : لو قلت غير هذا لأحسنت أدبك . قال ابن سريج : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، قال الوليد : يزيد فى الخلق مايشاء ، قال ابن سريج : هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكرُ أم أكفرُ . قال الوليد : ولعلمك والله أكبر وأعجب إلى من غنائك .

إن الغناء قوى الصلة بالشعر ، وقد تأثر به فى هذا العصر كثيرا ، وأبدى المغنون من المواهب والتجديد والإبداع ما ألحقهم بالشعراء فى النبوغ ، فنسب غناء بعضهم إلى الشياطين ، لكنه كالشعر ، موهبة وصناعة واكتساب .

ب — التصوير :

١ — ويراد به عمل الصور مجسمة أو مرسومة ، فيشمل النحت من الحجارة ، والتماثيل من الخشب والمعادن ، والصور المرسومة بالأقلام والألوان . وقد عرف العرب ذلك كله فى بلادهم . وكان بعضه للعبادة كالتماثيل . أو للزينة أو للذكريات ، كصورة إبراهيم فى الكعبة ، فإلى من نسبوه وعمن تعلموه ؟ .

يروى ابن الكلبى أنه كان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها عندهم هُبَل ، وكان ، فيما بلغه ، « من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، مكسورة اليد اليمنى ،

(١) الأغانى ١ / ٢٩٩ دار الكتب .

أدركته قريش كذلك ، فجعلوا له يدا من ذهب[١] » . ولا شك أن تمثالا كهذا يحتاج في صنعه إلى مهارة وآلات دقيقة .

ولما هدم السيل الكعبة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . برق منها غزال من الذهب، وحلي وجواهر؛ وكان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة . منها صورة إبراهيم الخليل في يده الأزلام ، ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس...ومع هذه الصورة صور كثير من أولادها إلى قصي بن كلاب وغيرهم ، في نحو من ستين صورة[٢] . » وهذا الهدم الذي أشير إليه هو الذي أعقبه بناؤها والرسول عليه الصلاة والسلام في الخامسة والثلاثين من عمره ، والذي كاد يحدث بينهم حربا لاختلافهم فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه ، حتى قيض الله لهم محمداً صلى الله عليه وسلم لحل النزاع برأيه الراجح .

٢ — ولهم من قبل ذلك أصنام وأوثان وتماثيل من ذهب ، كالغزالين اللذين وجدهما عبد المطلب وهو يحفر زمزم . وإليك بعض التماثيل المشهورة :

وَدّ — وصفه مالك بن حارثة قال : كان تمثال رجل كأعظم ما يكون الرجال . قد ذبر عليه حلتان، متزر بحلة ، مرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوسا ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل[٣] .

الفَلْس — صنم لطيء يقال إنه كان أنفا أحمر في وسط جبلهم « أجا » أسود كأنه تمثال إنسان[٤] .

وقد يكون هذا الصنم نشأ من عوامل التعرية . ولو نسب عمله إلى الشياطين ما كان ذلك غريبا على عهدهم الأسطوري . ولكنهم لم يفعلوا .

وإساف ونائلة — صنمان كانا في المسجد الحرام على هيئة رجل وامرأة . كان أحدهما بلصق بالكعبة ، والآخر في موضع زمزم . فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى الآخر ، وكانوا يذبحون وينحرون عندها[٥] . وكانت قريش وخزاعة ومن حج البيت تعبدها[٦] .

ولم تصنعهما الشياطين أو الجن طبعا ، ولكن أصلهما لم يخل من أسطورة ؛ فإساف ونائلة رجل وامرأة من اليمن قدما مكة للحج ، ودخلا الكعبة . ففجرا بها في غفلة من الناس ،

(١) الأصنام / ٢٧ (٢) مروج الذهب ١ / ٢٧٦ (٣) الأصنام / ٥٣
(٤) نفسه ٥٦ (٥) نفسه ٢٩ (٦) نفسه ٩ ، والقاموس أسف

فمسخهما الله حجرين فعبدتهما قريش . لكن هل يجدر بمثلها أن يعبد ؟ قد يكون ذلك في زمن متأخر بعد أن تنسى القصة . والذى يهمنا هو وجود تمثالين من حجر ، على هيئة رجل وامرأة ، لم يعرف العرب أصلهما ، فنسبوهما إلى قدرة عالية سوتهما كذلك . وإن لم تكن من نوع الشياطين .

وذو الخَلَصة — كان بتَبالةَ بين مكة واليمن . وكان مَرْوَةً بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ؛ وهو الذى استقسم عنده امرؤ القيس حينما أراد الغارة على بنى أسد ليأخذ بثأر أبيه . فخرج له القدح الناهى ، فكسر القِداح ، وضرب بها وجه الصنم وقال : لوكان أبوك قتل ماعوقتنى ، ثم غزابنى أسدفظفر بهم . فلم يستقسم بشىء عنده حتى جاء الإسلام . فكان امرؤ القيس أول من أخفره[1] . وهدمه جرير بن عبد الله البجلى بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

بل كان لأهل كل دار من مكة صنم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر مايصنع فى منزله أن يتمسح به . وكان أول مايصنعه إذا عاد أن يتمسح به أيضاً[3] .

ولا ننسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد الحرام يوم فتح مكة ، والأصنام حول الكعبة ، فجعل يطعن بسية قوسه فى عيونها ووجوهها ويقول : « جاءَ الحقُّ وزَهقَ الباطلُ ، إن الباطل كان زَهُوقاً » . ثم أمر بها فكفئت على وجوهها . ثم أخرجت من المسجد فحرقت .

٣ — وهذه الأخبار وغيرها تدل على وجود آثار للفن . منها ماهو منحوت من حجارة . ومنها المنجور من الخشب ، ومنها المرسوم بالألوان والأقلام ، ولم تنسب هذه الصناعة إلى أحد بالرغم من كثرتها ، وضخامة بعضها . فهل كان عملا شائعا عند العرب لايعجبون من عمله ودقة صنعه ؟ إنهم كانوا يعرفون سليمان ، وما صنعت الجن لسليمان . وجاء القرآن فأخبرهم أن الله سخر له « الشياطين كلَّ بَنَّاء وغَوَّاص » ، وأن الجن كانوا « يعملون له مايشاءُ من محاريبَ وتَماثيل وجفانٍ كالجواب وقُدُورٍ راسيات » .

لعلهم أكبروا تلك التماثيل أن تكون من عمل الشياطين ؛ ولكن كيف لاتكون من عملها وهم يعتقدون أنها تكلمهم منها وأنها تحل فيها ؟ وكيف لم ينسبوها إلى قوة عالية ، وهى

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٥٥ (٢) الأصنام ٣٤ و ٣٦ (٣) السيرة ١ / ٥٢ ، الأصنام ٣٣

فوق مستواهم فى الضخامة والدقة ، والحاجة إلى الآلات الدقيقة أو الضخمة؟ .

لا أرى تعليلا لذلك إلا أنها كانت من صنع أيديهم أو من صنع قوم يعرفونهم ، فلم تكن غريبة عليهم ، لهذا لم يجعلوا لها شياطين تلهم بها وتسيطر على فن صانعيها .

جاء فى أخبار مكة للازرقى [١] أن أهل مكة لما أعادوا بناء الكعبة زوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها . وجعلوا فى دعائمها صور الأنبياء ، وصور الشجر وصور الملائكة . فكان فيها صورة إبراهيم خليل الرحمن ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، والملائكة عليهم السلام أجمعون [٢] .

وكان معهم فى مكة نجار قبطى يقال له « باقوم » [٣] ووجوده معهم يعيننا على حل يسير لهذه المشكلة ، فهو يدل على استعانتهم بالأجانب فى تلك الفنون ، كما أن هذه الفنون نفسها ليست مما تتزين به معابدهم . لأن وصفها يجعلها شبيهة بما نراه فى الكنائس . فهم قد نقلوها مما عرفوا من كنائس النصارى أو بيع اليهود ، ولم يكن الفن أصيلا عندهم ، لهذا لم يهتموا بمصدره ولا بشيطان يلهم أصحابه به .

ولا ينقض هذا الرأى أن الصور كانت كثيرة حتى فى البيوت . فقد تكون صنعتها من السهولة بحيث لا تحتاج إلى عبقرية خاصة . وكان منهم من اتخذ له النقش أو التصوير بالأصباغ والألوان صناعة . ورأوا أن تعلمها يسير ، وأن أرباب تلك الصناعة لم يكن لهم القدر والمنزلة التى كانت للشعراء ، فلم يفكروا فى نسبة عملهم إلى الشياطين . فإذا احتاجوا إلى مهارة خاصة فى الأمور الهامة اختاروا مثل « باقوم » أو غيره من الأجانب الذين يتقنون صناعتها . بل إنه نبغ منهم صناع ، يذكر منهم « أبو تُجْزَأَة » ، الذى كان يصنع الأصنام فى الجاهلية ويبيعها [٤] . ولكنه نادر ، ولم ينسب فنه إلى الشياطين للأسباب المتقدمة .

٤ — لم نسمع بشيطان أو جنى يوحى إلى أصحاب تلك الصنعة من الأجانب أو من العرب ، وجاء القرآن فأخبرهم أن الشياطين فعلت شيئا من ذلك لسليمان . فلم ينقلوا الفكرة من القرآن إلى آثارهم من الصور والتماثيل والأوثان ، من الخشب أو المعادن أو الأحجار ، وقد سمعنا

---

(١) ١٠١ — ١١١ طبع ليزج (٢) التصوير عند العرب ١١٩ .

(٣) أخبار مكة للأزرقى ١٠٠ — ١١٠ — ١١٤ — وهو نجار بناء قالت له قريش : ابنها لنا بناء الشام .

(٤) التصوير عند العرب ١٠٦

عن آثار بديعة عندهم فلم يحملهم ذلك على نسبتها إلى شياطين ، وأرى السبب فى ذلك أنه لم تكن لهم صور متقنة غريبة تستحق أن تنسب إلى الشياطين ، ولم يكن مصوروهم من المنزلة والخطر بحيث يعتقدون اتصالهم بالشياطين وعملهم بوحى منهم كما كان الشعر والشعراء .

ودليل ذلك أنهم رأوا عملا عجيبا مرة ، فنسبوه إلى الجنة ، فقد روى المسعودى[١] عن أبى عبيدة[٢] معمر بن المثنى ، عن منصور بن زيد الطائى ، أنه رأى قبر حاتم طيء ، وإذا قدر عظيمة من بقايا قدور مكفأة ، ناحية من القبر . . . وعن يمين قبره أربع جوار من حجارة ، وعلى يساره أربع جوار من حجارة ، كلهن صاحبة شعر منشور ، محتجرات على قبره كالنائحات عليه ، ولم ير مثل بياض أجسامهن ، وجمال وجوههن ، مثلهن الجن على قبره . يقول الراوى ولم يكن قبل ذلك ، والجوارى بالنهار كما وصفنا ، فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه ، ونحن فى منازلنا نسمع ذلك إلى أن يطلع الفجر .

والقصة وهم ، أو أسطورة من العصر الأموى تقريبا ، فإن منصور بن زيد الطائى هذا لقن الخبر أبا عبيدة ، وقد عاش أبو عبيدة فى القرن الثانى (١١٢ — ٢١١ هـ) . ولما رأى العرب جمال صنع الجوارى نسبوهن إلى الجن . فقالوا : مثلهن الجن على قبره .

يقول المرحوم تيمور باشا ، والظاهر أن تماثيل هذه الجوارى كانت بالغة الغاية فى الإتقان . فإن حاكى الخبر مزجه بخرافة . فزعم أن الجن مثلتهن على القبر . ولا عجب من ذلك ، فقد كانت العرب إذا رأت شيئا مستحسنا ، أو هالها عمله ، نسبته إلى الجن على ماهو مفصل فى أقوال السلف من علمائنا المحققين[٢] .

كذلك رأينا من هذه الجوارى واحدة دقيقة الصنع بمصر وصفها كريب بن مخلد الجيشانى وسماها صنما ، إذ يقول[٣] :

من كان فى نفسه للبيض منزلة ... فليأت أبيض فى حمام زبان
عبل لطيف هضيم الكشح معتدل ... على ترائبه فى الصدر ثديان
لا روح فيه ولا شفر يقلبه ... لكنه صنم فى خلق إنسان

(١) مروج الذهب ١ / ٢٣٠ . (٢) التصوير عند العرب ٥٢ .
(٣) الولاة والقضاة للكندى فتوح مصر لابن عبد الحكم ١١٤ .

إنه تمثال رومانى أو يونانى لأنثى ، لعلها إحدى الإلاهات التى نقلها العرب إلى حمام زبان، فى عهد عبد العزيز بن مروان . وعلى الرغم من أن يزيد بن عبـد الملك أمر والى مصر ، حنظلة بن صفوان ، بكسر تلك التماثيل ، ومحو تلك الأصنام سنة ١٠٤ هـ ، فقد بقى منهـا كثير ، وعجب العرب من صنعته وعجزوا عن تفسيره . وعدوا صنعته سحراً وجاءوا بقصص عنه عجيبة . يرجع بعضها إلى عهد عبد العزيز[1] ويكثر ذلك فى عهد الطولونيين والإخشيديين، وقد وجدوها فى الدفائن والـكنوز والمطالب ، التى كانوا يحفرونها للبحث عن الذهب ، كما وجدوها ظاهرة فى كثير من البلاد ، لـكنها ليست من صنعة الجن ، ولم تنسبها العرب إلى الشياطين لما تقدم .

(١) مروج الذهب ١/١٥٧ — ١٥٨ .

البابُ الثالِث

فى العصر العلمى

الفصل الأول

معالم هذا العصر الجديد[1]

١ — هذا العصر الجديد ، الذى سميناه « العصر العلمى » ، يمتد زمانا من بدء القرن الثانى إلى أوائل القرن الخامس الهجرى . وهذا التحديد الزمنى تقريبى ، فإن بعض العلوم والعلماء قد ظهرت قبله ، وكان نشاطها فيه امتدادا لحياتها فى العصر الأموى ، كالنحو والفقه وعلم الكلام .

ويعد هذا العصر أزهى عصور العلم والنشاط العقلى فى الإسلام . وكان العقل الإسلامى فيه دائب النشاط ، خصب الإنتاج ، عميق البحث، حر العمل ، جريئا فى اقتحام الميادين ، لايتأخر عن الخوض فى أدق المسائل . وكلما وصل إلى غاية تطلع إلى أخرى وراءها ، وإذا غزا ميدانا من ميادين البحث حاول الاستقصاء ، وجابَ نواحيه المختلفة ؛ وبلغت الحرية به حد التفكير فى كثير من المسائل الشائكة التى تتصل بالعقائد والإلهيات ، ثم إبداء الآراء فيها والبرهنة عليها بصراحة عجيبة ، وبراهين قوية .

كانت الدولة الإسلامية فى أول هذه الفترة وحدة ملتئمة ، وشملا مجتمعا من الصين والهند إلى المحيط الأخضر ، لا يخرج على سلطانها إلا الأندلس . وكانت جماعات المسلمين فيها أخلاطا ، من عرب وفرس وروم وقبط وبربر وهندوترك ، وكانت المذاهب والنحل فيها متعددة ؛ فالإسلام دين الدولة ، وأكثر الناس يتبعونه ، ولكن عددا آخر من أهل الديانات والمذاهب كان يعيش فى ظل الإسلام ، كالذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا .

٢ — وكانت دولة الإسلام وارثة لبلاد وأمم شغلت من قبل بالعلوم العقلية، وبالأبحاث الدينية ، والخلافات المذهبية ، كالروم والفرس واليونان والقبط . وكانت فيها حركات علمية

---

(١) أهم مرجع لهذا الفصل هو : ضحى الإسلام — الجزء الثانى —

ومدارس ومراكز عرفت بالنشاط العقلى ، فكانت مدرسة جنديسابور قائمة إلى العصر العباسى وكانت حران مدينة قديمة فى شمال العراق ، اتصلت مدرستها بالخلفاء العباسيين ، وقربوا من خلفاء بنى أمية . وكان لها أثر عظيم فى نشر الرياضيات ، وبخاصة «الهيئة» ، بين المسلمين

وكانت الاسكندرية مركزا من مراكز الفلسفة اليونانية ، وظهر بها مذهب الاسكندرانيين المسمى «الأفلاطونية الحديثة» ، ومؤسسه مصرى هو أفلوطين (٢٩٥ — ٢٦٩هـ) وظلت الاسكندرية مدينة علم وأدب وفلسفة ولاهوت ، واتصل بها المسلمون فى العهد الأموى ، واعتمد عمر بن عبد العزيز فى صناعة الطبيب على ابن أبجر الطبيب الإسكندرى . كما انتفع بها العباسيون والطولونيون . أما مراكز النشاط العقلى الإسلامى فكانت كثيرة منتشرة فى أنحاء البلاد ؛ فى الحجاز والشام والعراق ومصر وخراسان وفارس والمغرب .

ولم يكن قيام الدويلات الإسلامية الصغيرة المنفصلة عن بغداد مؤثرا فى تقدم الحركة العلمية ؛ ولا معوقا لها ، بل إنه على العكس من ذلك ، نافست هذه البلاد فى النهوض بالعلم والأدب ، ورعاية العلماء والحكماء ، كدولة الطولونيين والإخشيديين بمصر ، والحمدانيين فى حلب ، والبويهيين والسامانيين والغزنويين والزياريين فى بلاد المشرق .

٣ — وقد امتازت هذه الفترة من تاريخ الإسلام بالنشاط الشامل . فوضعت فيها أسس كل العلوم تقريبا . بل إن القرن الثانى الهجرى شهد تدوين أغلب العلوم وتنظيمها ، سواء فى ذلك العلوم النقلية والعلوم العقلية[1] . فقل أن نرى علما إسلاميا نشأ بعد ولم يكن قد وضع فى العصر العباسى ، ومن ناحية أخرى ترجمت كتب الفلسفة من منطق ورياضة وهيئة وطب وغيرها ، وبدأ العلماء يؤلفون فيها . إنما جد بعد ذلك توسيع هذه العلوم وزيادة جزئياتها وإجادة تأليفها أو ضعفه ... الخ » .

ووضعت مناهج للبحث يسير عليها العلماء . فاعتمد المفسرون والمؤرخون ، والمحدثون وعلماء اللغة والأدب ، على الرواية وصحة السند ، واعتمد أصحاب العلوم العقلية كالطبيعة والرياضة والطب ، على معقولية الحقائق وامتحانها عقلا أو تجربة ، وهناك علوم استخدمت

(١) A Literary His. of the Arabs P. 367

المنهجين كالفقه والنحو بعد العصر الأول . ومن العلوم التى آثرت العقل فى البحث ، وأكبره رجالها إلى حد عظيم علم الكلام . وكانت نشأته إسلامية ، ثم تأثر بالفلسفة .

وكان للعقل أثره الكبير فى المناظرات والجدل بين الفقهاء والنحاة ، ورجال الفرق الدينية من اليهود والنصارى والمسلمين ، كما كان للشعوبية اعتماد كبير على العقل فيما ثار بين المتعصبين من خلاف حول مزية شعب على آخر ، أو مساواته بغيره ؛ وما كان أكثر هذه المجالس التى تثار فيها المناظرات فى شتى المسائل والعلوم ؛ ومن أشهرها « خلق القرآن » الذى شغل المعتزلة وأهل السنة زمنا ؛ ومثل هذه المجادلات تفيد العلم وترهف العقل ، وتحتاج إلى حضور البديهة ، فإذا أضيف إليها المنطق والبحث والاستقصاء كان لنا من ذلك مسائل علمية منظمة ، كالمناظرات التى كانت بين الفقهاء وعلماء الكلام وأصحاب المذاهب . وقد يشتغل العقل مستقلا فى وضع الفروض والمسائل والرد عليها ، كما حدث فى الفقه والنحو ، ولا أظن تعليلات الفقهاء والنحاة وتأويلاتهم إلا نوعا من الفلسفة ، وصل إليه العلماء بعد جهود كبيرة فى وضع القواعد والأصول .

أما التأليف فقد كثر فى كل العلوم ، وعنى العلماء بوضع مناهج يسيرون عليها فى كتبهم ، وبخاصة فى أواخر هذا العصر ؛ كما ظهر من العلماء مؤلفون مكثرون ، حتى ليعجب الإنسان من مقدرتهم على تأليف ذلك العدد الضخم من الكتب كالجاحظ[1] فى القرن الثالث ، والمدائنى معاصره الذى عد له ابن النديم ٢٣٩ كتابا[2] وزاد عليها ياقوت فى معجمه[3] عددا آخر . وهذا أبو الفرج الأصفهانى يؤلف كتابه «الأغانى» فى أكثر من عشرين مجلدا بجانب كتبه الأخرى .

أما العلوم المنقولة عن الأمم المختلفة فكانت كثيرة أيضاً . وقد وصل المسلمون فى عصرهم هذا إلى دور متقدم فيها هو دور النقد والتأليف ، بعد دور الترجمة الذى بدأ فى عهد المنصور

---

(١) مقدمة البيان والتبيين ١/١٨ السندوبى (٢) الفهرست / ١٠٠ وما بعدها
(٣) حـ ١٤/ ١٢٩ مطبوعات دار المأمون .

أو قبله . وكان علم اليونان قريبا منهم ، فترجموا أهم فروعه كالفلسفة والمنطق والنقد والرياضة والفلك والطب . وقد أهملوا الأدب لأسباب منها: أنه أدب وثنى مع إكبار العرب لأدبهم . وظهر منهم فلاسفة من أمثال الكندى الذى عاش فى القرن الثالث. والفارابى المتوفى سنة ٣٣٩هـ. وكان المشتغلون بالفلسفة يحكمون العقل حين بحث الأشياء ، سائرين خطوة خطوة مع البراهين العقلية والنظر المجرد ، حتى يصلوا إلى النتيجة فيصدروا أحكامهم .

وقد ظهرت حرية الرأى وحرية التفكير عند الزنادقة والمتكلمين ، وأخص المعتزلة ، قبل أن تظهر عند الفلاسفة ، كما ظهرت عند الفقهاء أيضا ، وكان لها أثر عظيم فى بحث أمور الدين ومسائله واتجاه علومه .

ولو أردنا التطويل لخرجنا عن الإيجاز المطلوب فى هذا الفصل . ويمكن تلخيص هذه الحركة العلمية فى كلمة موجزة هى : أن أكثر علوم الإسلام قد وضعت فى هذا الوقت ، وترجمت أكثر كتب الأمم الأخرى التى اتصل بها العرب ، وظهر فى المسلمين علماء أحرار الفكر ، ناضجو التفكير ، وصلوا بالعلوم التى اشتغلوا بها إلى مدى بعيد من التنظيم والتحقيق والتقدم .

وكانت العوامل التى ساعدتهم على ذلك كثيرة ، كتسامح الخلفاء والأمراء وتشجيعهم للعلم والعلماء ، ثم كثرة الجدل والمناظرات ، والارتحال فى طلب العلم ، والبحث عن المعلومات فى أقصى البلاد .

٤ — وشارك الأدب والأدباء فى هذه النهضة العلمية وتأثروا بها فى كثير من نشاطها . فجمع الأدب القديم؛ وارتحل الرواة إلى البوادى يجمعونه من بيئته البدوية ، وجاء رواته من الأعراب إلى الحضر ، ونقل معه بعض مايحيط به من أخبار وقصص ، كما نقل بعض خرافات العرب وأساطيرهم ، وللأصمعى فى ذلك القدح المعلى .

وكانت هناك عوامل أدت إلى اختراع بعض الشعر والأخبار ، منها أنها كانت تروج فى الأمصار(١) ، أو تتصل بالسياسة أو بالعصبيات(٢) ، أو برغبة الرواة فى الكسب . وعرف بوضع الشعر حماد الراوية ، وخلف الأحمر . وقال الأصمعى : « أقمت بالمدينة زمانا

---

(١) فى الأدب الجاهلى ١٧٦ . (٢) فى الأدب الجاهلى ١١٧

مرابد بها قصيدة واحدة صحيحة ، إلا مصحفة أو مصنوعة ، وكان بها ابن داب يضع الشعر وأحاديث السمر . وكلاما ينسبه إلى العرب ، فسقط وذهب علمه وخفيت روايته . . و . ممن كان يجرى مجرى ابن داب الشرقى بن القطامى وكان كذابا[1] » :

وكان فى الكوفة والبصرة حركة قوية لجمع اللغة والأدب ، وما يتصل بهما من أيام العرب وأخبارها ، وكان بينهما مفاخرات ومجادلات ، وكانت الكوفة أقرب إلى الخلفاء والأمراء وأكثر صلة بهم . فكانوا يتخيرون مايحسن فى السمر والمنادمة ، ويتزيدون فيما يعجب ، وبخاصة ماليس فى التزيد فيه حرج كبير ، كالحكايات والقصص عن الأعراب .

وكان من الطبيعى أن تتلو هذه المرحلة ، مرحلة الجمع والتدوين ، مرحلة التنظيم والنقد، وإذا كانت مرحلة الجمع والتدوين ظلت إلى آخر العصر الذى نتكلم فيه ، ورأينا أبا الفرج الأصفهانى يمشى على طريقة المحدثين فى أخباره هو وأبو على القالى مثلا ، فقد كان الأصفهانى نفسه ناقدا يضعف بعض الروايات ، ويكذب بعض الأخبار ، أو يطعن فى بعض الرواة .

ومن أوائل الذين عنوا بالتنظيم فى التأليف الأدبى ابن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦ هـ) فى « عيون الأخبار » فقد جعله أبوابا أو « كتبا » كما فعل ابن عبد ربه من بعد . كل باب يضم أخبارا متلائمة ، وكل باب يشارك ماقبله وما بعده فى صفة ما . وتعرض ابن قتيبة لمصادر الكتاب فى أوله .

وألفت كتب فى النقد ، أشهرها ما كتبه الآمدى فى « الموازنة بين الطائيين ، وما كتبه القاضى الجرجانى فى « الوساطة » بين المتنبي وخصومه وكذلك ما كتبه قدامة ابن جعفر ، متأثرا أكثر من غيره باليونان وعلومهم .

٥ — ومن الذين عرضوا لخرافات العرب من المتكلمين — وقد أشرنا فيما تقدم إلى إكبارهم للعقل — إبراهيم بن سيار النظام وتلميذه الجاحظ . وقد تحدثا بوجه خاص عن الشياطين والجن و الغيلان وشبهها ، فرفضا[2] صحة الفكرة ، وإن سلما بوجودها عند الأعراب؛ فكان لمقاييسها العقلية أثرها فى أبحاثهما الأدبية[3] .

---

(١) المزهر ٢ / ٢٥٩ .   (٢) النظام تأليف أبو ريدة / ٤٨ .

(٣) نفسه / ٥١ والحيوان ٦ / ٢٤٨ وما بعدها ١٨٥ و ٣٠٨ .

وكان من أثر هذا العصر العلمى أن نَسِيَ الأدباء والعلماء ، أو انصرفوا ، عما كان يؤمن به أسلافهم من نسبة الشعر إلى الشياطين ، نتيجة لخوض العلماء والمتكلمين فى هذه الشياطين ، وإنكار بعضهم لها ، وتأويل ماورد من الآيات والأحاديث فيها ، وظهور الأبحاث التى تدرس قوى النفس وأعمالها . فهل من عجب بعد كل ماتقدم أن يضيق هذا الزمن بشياطين الشعراء ؟ .

٦ — حقا إن الأساطير تضعف فى مثل هذا العصر ، ولكنها لاتموت ، فلها مكان فى الدراسة التاريخية عند الكلام على عقائد القدماء ، ولها لذة ومنزلة حين تروى ، أما عامة الناس فإيمانهم بها قوى ، واختراعهم لها مستمر ، لأن عصورهم العقلية الخاصة التى يعيشون فيها لاتمتاز كثيرا عن عصور الأساطير .

أما الإيمان بالإلهام ووحى المنام والقول ببركة الرسول ، والإجادة فى موضوعات متصلة بكبار الصحابة وآل البيت ، فلها مكان فى هذا العصر الذى قوى فيه التشيع ونما فيه التصوف ، وكتبت فيه السيرة العطرة ، والتراجم النبيلة للصحابة والتابعين والصالحين فكان العصر العلمى واسع الصدر يسمح للآراء القديمة بالظهور . وكان مصدر الشعر فيه راجعا إلى أصول علمية ، وإلى أفكار أسطورية ، وإلى مصادر شبيهة بما رأيناه فى العصر الدينى . ولم يقتصر الكلام على مصادر الشعر فى هذا العصر ، بل تعداها إلى الإنتاج الفنى عامة كالإنشاء القصصى ، والتلحين الموسيقى .

ولهذا رأينا فيه شياطين للخطابة والكتابة والغناء ، بجانب شياطين الشعراء كما رأينا للإنتاج الأدبى مصادر أخرى ترجع إلى النفس الإنسانية ، أو تكون إلهاما فى اليقظة أو فى المنام .

ولم يقتصر أمر هذه المصادر الأسطورية والمتصلة بالدين على ماروى منها عن الجاهلية وصدر الإسلام والعهد الأموى ، ومانسب إلى بعض الغنائيين فى هذا العصر ، بل وضعت قصص على نمط القصص القديمة ، عرضت فيها الآراء الأسطورية فى صورة أدبية لطيفة ، أو أريد بها غاية خاصة رمى إليها واضع القصة ، ومن النوع الأول قصص أبى زيد القرشى فى أول الجمهرة . ومن الثانى رسالة التوابع والزوابع لأبى عامر بن شهيد . وقد يكون إنكارها غاية من سردها فى ثنايا القصة كما فعل أبو العلاء فى رسالة الغفران .

الفصل الثانى

من الماضى

وحى الشياطين إلى الشعراء

العصر العلمى الذى نحن فيه الآن لم يستقل استقلالا تاما عن عصر الأساطير ولا العصر الدينى . فلم يهمل رواية الأخبار القديمة ، ولا الأساطير الجاهلية التى تفيض بأحاديث الشياطين والجن والغيلان ، وقد تركت هذه الأخبار صدى فى هذا العصر العلمى ، فنسب إلى الشعراء شياطين تلهمهم ، تقليدا للفحول السابقين ، وإحياء للذكرى الماضية فى الجزيرة العربية ، وتظرفا بالانتساب إليها ، واستدلالا على جودة الشعر وقوة الشاعر .

وبجانب هذه الفكرة التقليدية لا يخلو العصر نفسه من إيمان بهذه الأساطير؛ ولا ينسلخ من الحياة الروحية انسلاخا تاما مهما تمسك بالمادية ، وركن إلى المحسات ، وكان إكبار الأدباء للقديم فى جملته عظيما ، وبالغوا فى ذلك حتى قال الأصمعى فى الكميت : جُرْمُقَانى من جراميق الشام لايحتج بشعره [1] ، ولم يبلغ شعر فحول الأمويين عندهم إلا أنه قد حسن ، وكادوا يأمرون صبيانهم بروايته [2] وسمع الأصمعى من إسحق الموصلى بيتين فقال : « هذا والله الديباج الخسروانى [3] » . ظنا منه أنهما لشاعر قديم . فلما أخبره أنهما لليلتهما قال له : « لا جرم أن أثر التكلف فيهما ظاهر » .

فلا عجب أن يكون شعر المجيد منهم وحى شيطان كما كان شعر القدماء ، ولولا روح العصر لكثرت عندنا أساطير الجن وشياطين الشعراء كما كانت فى الجاهلية . وعلى كل فقد بقى أشياء تشبهها فى هذا العصر ، كالذى روى فى قصيدة الحكم بن عمرو البهرانى [4] . وقد سأل ابن الاعرابى رجلا من غنى : « أترون الجن ؟ قال : نعم . مكانهم فى هذا الجبل-

---

(١) الوساطة تحقيق أبى الفضل والبيجاوى ص ١٠ (٢) العمدة ١/٥٧ .

(٣) « « « ص ٥٠ والأغانى ٥/٧١ (٤) القصيدة بتمامها فى الحيوان ٦/٨٠ ـ ٨٤.

وأشار بيده إلى جبل يقال له سواج [١]. وروى الخليل بيتا أنشده إياه أحد الأعراب ، عن احتفاظ الغول برجل حمار مهما تصورت فى أحسن صورة ، وأن شق عين الشيطان بالطول [٢] .
وتخيلت امرأة أن الجاحظ على صورة الشياطين ، فأخذته إلى صائغ ليرسم لها صورة شيطان مثله على بعض الحلى [٣] .

بل عرف العرب فى هذا العصر شياطين من الشام والهند ، وزعموا أن العدد والقوة فى الجن والشياطين لنازلة الشام والهند ، وأن عظيم شياطين الهند يقال له تنكوير ، وعظيم شياطين الشام يقال دركاذاب [٤] .

إذاً يمكن فى مثل هذا العصر أن يكون للشعراء شياطين وإن لم تصل إلى ما عرفناه من قبل . ويمكن أن يتلقى الشعراء شعرهم من مصادر روحية ، وإن ضعف الإيمان بذلك وقل ، وصار عرضة للنقد والإنكار .

١ — شيطان بشار :

تحدث الرواة والمؤلفون أنه كان لبشار شيطان ، وبشار عاش أكثر حياته فى الدولة الأموية ، فلا عجب أن يكون له شيطان . أما اسم هذا الشيطان فهو « شنقناق » وقد ورد هذا الاسم فى شعر أبى النجم [٥]. وفى شعر الحكم [٦] البهرانى . وورد فى شعر بشار أيضا فى قوله :

دعانى شِنِقْناقٌ إلى خَلْف بكره فقلت : اتركنىّ فالتفردُ أحمدُ

« يقول : أحمد فى الشعر ألا يكون لى عليه معين » كما فسره الجاحظ . فقال . أعشى سليم يرد عليه :

إذا أَلِف الجنىُّ قِرداً مُشَنَّفاً فقل لخنازير الجزيرة أبشرى

فجزع بشار من ذلك جزعا شديدا لأنه كان يعلم ، مع تغزله ، أن وجهه وجه قرد [٧] .
والشنقناق رئيس من رؤساء الجن . ولكن بيت بشار ، ورد أعشى سليم عليه ، مع ما يفهم من كلام الجاحظ ، وما صرح به الثعالبى فى ثمار القلوب [٨] ، يجعل «شنقناقا» شيطان بشار .
وجاء حديث عن شيطان يوحى إلى بشار ، وإن لم يسم ذلك الشيطان .

(١) الحيوان ١٨٢/٦ (٢) نفسه ٢١٤ (٣) مقدمة البيان والتبيين السندوبى
(٤) الحيوان /٢٢٢ (٥) الحيوان نفسه /٢٣١ (٦) نفسه ٨٢ و ٢٣٠
(٧) نفسه ٢٢٨ (٨) ص ٥٥

روى فى الأغانى عن أبى عبيدة (١) أنه قال : « ما زال بشار يهجو حمادا ولا يرفث فى هجائه إياه حتى قال حماد :

من كان مثلَ أبيك يــــا أعمى أبوه ، فلا أبا لهْ

أنت ابنَ بُرْدٍ مثلُ بــــردٍ فى النذالة والرذالة .

وأبياتاً أخرى أقذع فيها . فلما بلغت هذه الأبيات بشارا أطرق طويلا ثم قال : جزى الله ابن نهبى خيرا ! فقيل له : علام تجزيه الخير ؟ أعلى ما تسمع ؟ فقال : نعم والله ، لقد كنت أرد على شيطانى أشياء من هجائه ، إبقاء على مودته ، ولقد أطلق من لسانى ما كان مقيدا عنه ، وأهدفنى عورة ممكنة منه .

فلم يزل بعد ذلك يذكر أم حماد فى هجائه إياه ، ويذكر أباه أقبح ذكر ، حتى ماتت أم حماد . فهجاها ميتة أيضا .

ونرى هنا أن بشارا كان يسيطر على شيطانه ، فيرد عليه أشياء يأتيه بها فى هجاء حماد ، إبقاء على المودة التى كانت بينهما . وهو خاضع لإرادة بشار فى ظاهر النص . ولا نجد ذلك فى حديث الشعراء من قبل . فإن الشياطين كانوا يتحدونهم أحيانا أن يقولوا فلا يستطيعون . وذلك شيطان جرير يغيب عنه فلا يستطيع أن يرد على سراقة البارقى . فلما فتح له الباب انطلق جرير .

وكان الشياطين يعرفون ما يقولون ، أما الشعراء فكانوا ألسنة فقط . وهذا شيطان الأعشى يلقاه فيسأله عن هريرة فلا يعرفها ، ثم يظهر أنها بنت ذلك الشيطان ، وأنها أديبة كأبيها . أما بشار فجرىء معتد بنفسه ، يحمد فى الشعر ألا يكون له عليه معين كما يقول الجاحظ ، ويأبى أن يكون رديفا لصاحبه شنقناق ، أو تابعاً له كما يقول فى بيته .

وإلام نرجع كبر بشار هذا ؟ أنرجعه إلى اعتداده بنفسه (٢) وافتخاره بذكائه ؟ (٣) أم نرجعه إلى أنه كان من أصحاب الكلام (٤) . ولهم آراء فى الشياطين والجن تصل إلى إنكار

---

(١) ٨١/٢٢ ساسى (٢) الأغانى ١٥٤/٣ دار الكتب
(٣) الأغانى ٢٤٢/٣ دار الكتب (٤) نفسه ١٤٦
(٥) الزمخشرى تفسير آية ٢٧ من سورة الأعراف . انه يراكم هو وقبيله
(٦) النظام أبو ريده ٤٨

رؤيتها ، (٥) بل إلى إنكار وجودها أصلا (٦) ؟ . أم نرجع ذلك إلى العصر العلمى الذى عاش فى أوائله ، وقد حكم الناس عقولهم فى هذه الأمور الروحية ، ورأوا أن الطبع بديل من هذه القوى الخارجية ؟ أم نرجعه إلى عصبية بشار على العرب — وقد كان شعوبيا — فأبى أن يستعين على شعره بما يستعين به شعراؤهم من جن وشياطين ؟ .

لقد بلغه أن رجلا أثنى على بيته :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئتَ ، وأىُّ الناس تصفو مشاربه

وقال إنه لشاعر كبير . فقال بشار لمن بلغه : ويلك ، أفلا قلت له : هو والله لأكبر الجن والإنس (٣) !

وكان يعد ذكاءه من عماه لا من الشياطين . فقد روى أنه لما قال بيته :

كأن مُثَار النقع فوق رءوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُه

قيل له : ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ، ولا شيئا فيها ؟ فقال : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ، ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء ، فيتوفر حسه ، وتذكو قريحته . ثم أنشد قوله :

عميتُ جنينا والذكاءُ من العمى فجئتُ عجيب الظن ، للعلم موئلا
وغاض ضياءُ العين للعلم رافداً لقلبٍ إذا ما ضيَّع الناسُ حصَّلا
وشعرٍ كنَوْرِ الروض لاءمْتُ بينه بقولٍ إذا ما أحزنَ الشعرُ أسهلاَ

وقد شاركه إبراهيم بن سيابة فى فضل العمى . فقال له : ما رأيت أعمى قط إلا وقد عوض من بصره إما الحفظَ والذكاء ، وإما حسنَ الصوت ، فأى شىء عُوِّضت ؟ فقال له بشار : ألاّ أرى ثقيلا مثلك (٤) !

وبشار وابن سيابة على حق فى إرجاع الذكاء والحفظ والامتياز الأدبى إلى العمى ؛ والعاهات بوجه عام لها أثر فى الأدب ، وأعظمها أثرا هو العمى (٥) .

وأرى أن بشارا لم يكن مؤمنا إيمانا عميقا بهذا الشيطان الذى نسبه إليه الرواة والأدباء ؛ إدراكا منه لقوة قريحته ، وجودة طبعه . أما شيطانه الذى كان يوحى إليه بالهجاء المقذع

(١) الاغانى ٣/١٥٤ دار الكتب (٢) الأغانى فى ١١/٧ ساسى
(٣) فى الأدب المقارن ٣٢ — ٣٨ للمؤلف

فى أم حماد وأبيه ، ويرد عليه هجاءه فليس شيطانا حقاً ، ولكنه طبعه الخصيب ومعانيه الصادرة عن ذكائه ، سماها شيطانا تقليدا للفكرة التى أدركها قوية فى العصر الأموى ، وعرفها عامة شاملة فى العصر الأسطورى .

٣ — شيطان مروان الأصغر ، وهو مروان بن أبى الجنوب بن مروان بن أبى حفصة ، نسب هذا الشاعر لنفسه شيطانا ، ولكن روح التهكم والسخرية فى هذه النسبة قوية واضحة ، وقد حدثنا أبو النجم عن الذكورة والأنوثة فى شياطين الشعراء ، ووقف عند هذا الحد ، أما مروان بن أبى الجنوب فجعل شيطانه فاسقا يأتى الفاحشة ، وينزو على شيطان على بن الجهم إذا التقيا ، كما يرتكب شعره هذه الفاحشة مع شعر ابن الجهم أيضا . وقصة ذلك كما رواها الأغانى [1] أن على بن الجهم كان يطعن على شعر مروان بن أبى الجنوب ؛ وفضل نفسه عليه عند المتوكل ، وأخبر المتوكلُ مروان بهذا . ثم حكم بينهما ابن حمدون فقال : أشعرهما عندى أعرقهما فى الشعر ، يعنى ابنَ أبى الجنوب ، إذ كان آل أبى حفصة شعراء . وأبى علىّ بن الجهم هذه الحكومة . فقال له المتوكل : إن كنت صادقا فاهجِ مروان ، فقال قد سكرت . فقال المتوكل لمروان : اهجه أنت ، وبحياتى لا تبقِ غاية ، فقال مروان :

إن ابنَ جهمٍ فى المغيب يعيبنى ويقول لى حسنا إذا لا قانى

صغرت مهابته وعظّمَ بطنُه فكأنما فى بطنه ولدان

ويح ابنِ جهمٍ ليس يرحم أمه ! لو كان يرحمها لما عادانى

فإذا التقينا . . . شعرِى شعرَه ونزا على شيطانِه شيطانى

فانخذل ابن الجهم ، وضحك المتوكل وجلساؤه ، واستزاد ابنَ أبى الجنوب من الهجاء فقال شعرا :

لعمرك ما الجهمُ بن بدرٍ بشاعرٍ وهذا على بعده يدَّعى الشعرا

ولكن أبى قد كان جارا لأمه فلما ادعى الأشعارَ أوهمنى أمرا

وهذا الشعر العابث يحمل فى طياته قول مروان بالوراثة وإيمانه بها ؛ فهو ينكر على علىّ أن يكون شاعرا وأبوه ليس بشاعر ، فمن أين ورث ؟ إن أبا مروان كان جارا لأمه ، وبقية البيت مفهومة تؤيد نظرية الوراثة فى الشعر . وللحطيئة رأى كهذا قدمناه [2] .

(١) الأغانى ٣/١١ ساسى (٢) طبقات الشعراء ١/١١٥ (انظر ١٧٦ من هذا الكتاب)

٣ — وكان فى القرن الثانى قول بالشياطين عند بعض الناس بجانب من قدمنا . فقد روى الثعالبي أن جعفر بن يحيي البرمكى الكاتب العظيم ، والبليغ الموجز سئل : لم لا تقول الشعر ؟ فقال شيطانه أخبث من أن أسلطه على نفسى[١] .

ولا شك أن جعفرا يردد الفكرة الشائعة عند العرب من أن لكل شاعر شيطاناً . ولعله كان متأثراً فى هذا برأى معاصره الأصمعى الذى يعلل ضعف حسان فى الإسلام بأن الشعر نكد لا يجود إلا فى الشر ، أى أن شيطانه خبيث يميل إلى الأغراض التى ترضيه[٢] .

والذى منع جعفرا ، من قول الشعر فيما أرى ، أن طبعه لم يكن يجود بما يرضيه منه ، والشعر طبع واستعداد . ومن قبله كف ابن المقفع عنه لنفس السبب[٣] . وقد يضاف إلى ذلك أن الشعر نزلت مكانته عن الكتابة فكان الشعراء تبعاً للكتاب يمدحونهم و يأخذون جوائزهم . ووصل هؤلاء بكتابتهم إلى مرتبة الوزارة . أما الشعراء فلم يصل بهم شعرهم إلى هذه المنزلة ؛ ولكن هذا السبب أضعف، لأن الشعر جرى على ألسنة الخلفاء كالرشيد والمأمون .

وما أوردنا قول جعفر البرمكى إلا دليلا على أن فكرة شياطين الشعراء كانت موجودة فى أواخر القرن الثانى .

٤ — وروى الجاحظ[٤] أيضاً أن بعض الشعراء قال لرجل : أنا أقول فى كل ساعة قصيدة ، وأنت تقرضها فى كل شهر ، فلم ذلك ؟ قال : لأنى لا أقبل من شيطانى مثل الذى تقبله من شيطانك ؟ ولم يعين الجاحظ زمن هذين الشاعرين . لكنهما إما من شعراء عصره أو من الذى قبله . وثانيهما يقرر أن لكل منهما شيطانا ، وهو حر فى قبول ما يأتيه به شيطانه إذا أعجبه ، أو رفضه إذا لم يعجبه ، أما صاحبه فأقل إباء ، أو بعبارة أخرى : أحدهما مجود متمهل ، والثانى ليس كذلك .

٥ — شيطان ابن دريد :

وأبو بكر محمد بن الحسن بن دريد اتصل أدبه بالشياطين أحياناً ، أو أنه كان له شيطان يوحى إليه بالشعر . فقد جاء فى رسالة الشياطين لأبى العلاء المعرى[٥] أن أبا بكر بن دريد

(١) ثمار القلوب /٥٧ . (٢) يفهم من كلام المرزبانى فى الموشح /٦٢ عن الأصمعى أن شعر حسان لان فى الاسلام لأنه دخل فى باب الخير .

(٣) البيان والتبيان ١٥١/١ (٤) نفسه ١/ ١٥٠ (٥) رسائل أبى العلاء ص ١٠٨

ذكر لأصحابه أنه رأى فيما يرى النائم ، قائلا يقول له : لم لا تقول فى الخمر شيئاً ؟ فقال : وهل ترك أبو نواس مقالا ؟ فقال له زائره : أنت أشعر منه حيث تقول :

وحمراءَ قبل المزج صفراءَ بعده أتت بين ثوبَىْ نرجسٍ وشقائق
حكت وجنةَ المعشوق صرفا فسلطوا عليها مِزاجا فاكتست لونَ عاشق

فسأله أبو بكر : من أنت ؟ فأجابه : أنا شيطانه . وسأله عن اسمه فقال : أبو زاجية ، وأنه يسكن الموصل .

أما رواية ابن خلكان[1] عن هذه المسألة ، فقد وردت فى ترجمته لابن دريد وقال فيها : « إن الشيخ أبا على الفارسى النحوى قال : أنشدنى ابن دريد هذين البيتين لنفسه (يعنى البيتين السابقين) وقال : جاءنى إبليس فى المنام وقال : أغرت على أبى نواس . فقال ابن دريد : نعم . فقال : أجدت إلا أنك أسأت فى تقديم « حمراء » على « صفراء » فأبى ابن دريد هذا النقد الإبليسى ، أو هذا الاعتراض على « اللف والنشر » غير المرتب . لأن النقد نغص عليه لذة مجلس الشراب الذى كان فيه . فقال لإبليس : وما هذا الاستقصاء فى هذا الوقت يابغيض !

ولكن ياقوتا[2] يرويها فيجعل الزائر فى المنام من أهل الشام حقاً ، واسمه أبو ناجية ، وابن دريد هو الذى أنشد البيتين دليلا على أنه أشعر من أبى نواس فى وصف الخمر . أما النقد فمن عمل ابن دريد .

وسواء أكانت القصة مشتملة على شيطان أم لا فأكبر ظنى أنها إحدى طرائف ابن دريد وأخباره التى كان يضعها . وقد روى عنه أبو على القالى بعض أحاديث الشياطين التى توحى إلى الكهان . فليس غريبا أن يضع قصة يخترع فيها شيطانا يلقى عليه الشعر وهو لا يدرى ، حتى يأتيه فى النوم أبو زاجية أو ناجية الموصلى ويعرفه أنه صاحبه . وقد أحسن حبك القصة على النمط المعروف فى مثلها .

٦ — وهذا زائر آخر فى المنام من الإنس لا من الجن ولكنه يفعل فعل الشياطين فيلقى بالفن إلى إنسى فيصير أشعر أهل زمانه كما ورد فى الأغانى[3] : أما الزائر فكان جريرا والمزور كان إسحق الموصلى المغنى المشهور . يروى ابن إسحاق عن أبيه قال : رأيت فى منامى

(١) وفيات الأعيان ١/٦٢٩ (٢) معجم الأدباء ١٨/١٣٣ (٣) ٥/٥٢ ساسى

كأن جريرا جالس ينشد شعره وأنا أسمع منه . فلما فرغ أخذ بيده كبة شعر فألقاها في فمي فابتلعتها ، فأولَ ذلك بعض من ذكرته له أنه ورثني الشعر . ثم مات اسحق وهو أشعر أهل زمانه .

٧ — أبو نواس :

ونعرج قبل الفراغ من هذا الفصل على شاعر[1] عرف الشيطانَ وسلك سبيله زمناً طويلا ، وتحدث عنه في شعره ، وذلك الشاعر هو الحسن بن هانئ أبو نواس .

لهج أبو نواس بذكر الشيطان في شعره ، وعول عليه كثيرا في غواياته ومغامراته وانتفع بخدماته التي أرادها منه . فقد أعانه على الفساد وذلل له من يعصيه ، وصار قوادا له ، وكان يستفتيه ، ويلقى له المودة في صدر من يريد . ويهدده أبو نواس إذا عصاه بأن يكف عن الشعر والسكر ، ويدرس القرآن . وهو في جملته شيطان وسوسة وإغراء لا شيطان شعر . غير أنه هو الذي زين له المعاني التي امتلأ بها شعره في الخمر والغلمان . وقد أعجب بشعره غاية الإعجاب ، وأظهر استمداده أن يسجد لهذا الشعر ألف سجدة لو أمر بهذا السجود : حدث إبليسُ والبة بن الحباب عن أبي نواس وهو غلام ، فقال له : إن له لشأنا ، فوالله لأغوين به أمة محمد ، ثم لا أرضى حتى ألقى محبته في قلوب المرائين من أمته ، وقلوب العاشقين لحلاوة شعره . قال والبة : فعلمت أنه إبليس ، فقلت : فما عندك ، قال : عصيت ربي في سجدة فأهلكني ، ولو أمرني أن أسجد لهذا ألف سجدة لفعلت .

ورواية الأغاني[2] شهادة صريحة من إبليس لشعر أبي نواس . ولكنها ليست نصاً صريحاً في أنه هو الذي يوحي إليه بالشعر وإن فهم منها ذلك . يقول الأغاني : إن والبة كان نائما ذات ليلة وأبو نواس إلى جانبه . فأتاه آت في منامه فسأله عنه ثم قال له : هذا أشعر منك وأشعر من الجن والإنس ، أما والله لأفتنن به الثقلين ، ولأغرين به أهل المشرق والمغرب . قال والبة فعلمت أنه إبليس ، فقلت له : فما عندك . قال : عصيت ربي في سجدة فأهلكني ولو أمرني أن أسجد له ألفا لسجدت » .

---

(١) أبو نواس — عباس محمود العقاد — فصل الشيطان / ١٢٠ — ١٣٥ .
(٢) ١٦/ ١٤٥

وبعد فإن شياطين الشعراء قد ظهروا فى هذا الفصل ضعافا لا ينظر إليهم بعين الإجلال والإ كبار كما كانوا فى عهد الأساطير . فبشار يأبى أن يكون تابعاً لشيطانه ، و يكبح جماح الشيطان ، ويرد عليه أشياء لا يرضاها فى هجاء أم حماد . ثم يتحدث عن الذكاء الذى جاءه من عماه وهو جنين . ويحس إبراهيم بن سيابه أنه لا بد لبشار عن هذا العمى من عوض . بل إنه عد نفسه أكبر الجن والإنس فى قوله : « إذا أنت لم تشرب مرارا . . إلى آخره » . فكيف يرجى من هذا أن يتلقى عن شيطان ؟ أو أن يكون عميق الإيمان بفكرة الشياطين ؟

وابن أبى الجنوب ساخر فى فكرته عن شياطين الشعراء ، يخرج بهم عن الجد والوقار الذى تمتعوا به فى الجاهلية . وهذا الاستهزاء نفسه يحمل فى ثناياه إلحادا فى هذه الفكرة - كما يبدو أنه آمن بالوراثة فى الشعر .

أما الشاعران اللذان روى الجاحظ محاورتهما ، فتدل قصتهما على أن كلا منهما كان له الحرية والخيار فى قبول ما يأتيه به شيطانه وفى رفضه . وكان أحدهما سمحاً متساهلا فى قبول كل ما يلقى إليه ، وكان الثانى دقيقاً متخيرا .

وليس عندنا من النمط القديم إلا ابن دريد ، وإن كان لا يعرف شيطانه إلا فى المنام - أما إسحق الموصلى فطريقة نبوغه فى الشعر شبيهة بما حدث لعبيد ، وإن كان صاحب عبيد هاتفاً وصاحب إسحاق هو جرير .

الفصل الثالث

آراء الشعراء فى مصدر شعرهم وظروفه

١ — تقدم الحديث عن شعراء نسبوا شعرهم إلى الشياطين أو قيل عنهم ذلك ، ولكن بعض الشعراء لم يؤمنوا بالفكرة إيمانا عميقا كما بدا لنا من قبل ، ورأينا حديثا للشعراء عن مواهبهم واستعدادهم ، وعن القوى النفسية التى ينبع منها شعرهم ، كالفكر والذكاء والقريحة والعقل والطبع والقلب والنفس ، وغيرها من الألفاظ التى جاءتهم بها الترجمة أو تحددت معانيها اصطلاحيا .

وقد رأينا كيف نسب بشار شعره إلى الذكاء . والسيد الحميرى[1] يدل على تمكنه من صناعته ، وأن لسانه لا يخونه إذا دعاه ، وأنه بعيد عن عيوب الشعر ، إذ يقول :

وإن لسانى مِقْوَلٌ لا يخُوننى ... وإنى لما آتِى من الأمر مُتْقِنُ
أحوكُ ولا أُقْوِى ولست بلاحِنٍ ... وكم قائل للشعر يُقْوِى ويلحن

وابن المولى يقول[2] :

إنى وجدِّكَ يوم أترك زاخرا ... بحراً يُنَفِّلُ سيبُه الأنفالا
لَأَضَل من جلبَ القوافِىَ صَعْبةً ... حتى أذلَّ متونَها إذلالا

وهذا اسحق بن إبراهيم الموصلى[3] ، من كبار الشعراء فى العصر العباسى وإن غلب عليه الغناء ، يقول عن قصيدة مدح بها ، وأفرغ جهده فى إتقانها .

فلما أقتُ المَيْلَ منها ولم أدع ... بها أَوَداً مما يُعَابُ ولا كَسْرا
أتيتكَ أهديها إليك تقربا ... وشكراً لنُعمى منك تستغرقُ الشكرا

---

(١) الموشح ١٤ (٢) الاغانى ٣/٢٩٢ دار الكتب (٣) الموشح ١٤

وهذا أبو حاتم السجستانى(١) يقول مثل ماقال إسحق الموصلى مخاطبا ممدوحه :

خذها إليك هديةً من شاعرٍ لا يستثيبُ ثوابَها إهداؤُه
نظمُ ابْنِ آدابٍ تنخلَ شعرَه لم يَمْحُ رونقَ شعرِه إكفاؤُهُ

فهؤلاء الأربعة : الحميرى وابن المولى والموصلى والسجستانى يشيرون إلى الجهد الذى بذلوه ، وإلى ما حاولوه من تجنب اللحن والبعد عن عيوب الشعر كالإقواء والإكفاء وكسر الأبيات .

وأحسَّ كثير منهم بالطبع الذى لابد منه مع الكسب . ولا خير فى الكسب بدونه وقد حاول الأصمعى(٢) الشعر مع كثرة روايته وحفظه فلم يستطع . فقال :

أبى الشعرُ إلا أن يفىء رديُّه علىَّ ، ويأبى منه ما كان مُحْكَمَا

وهذا أبو نواس(٣) يؤمن بطبعه ويستجيب له كلما دعاه إلى وصف الخمر ، فاذا منعه الخليفة وحاول التقليد شكا ذلك ، وأطاع أمر الخليفة كارها ، وقال :

أعِرْ شعرَك الاطلالَ والمنزل القفرا فقد طالما أزرى به نعتُك الخمرا
دعانى إلى وصف الطلول مُسَلّط تضيق ذراعى أن أرد له أمرا
فسمعا أميرَ المؤمنين وطاعةً وإن كنت قدجشّمْتَنى مَرْكَباوَعْرا

وقد كان طبعه يواتيه فى هجاء تلك الطلول ، لا فى مدحها أو وصفها وصف إعجاب وتأثر ، كما كان الشعراء من قبله .

وكان أبو تمام(٤) على سرعته بديهته وشدة ذكائه ، يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك فى شعره . بل قالوا عنه إنه كان ينصب القافية للبيت ليعلق الأعجاز بالصدور وذلك هو التصدير فى الشعر ، ولا يأتى به كثيرا إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه(٥) .

وأولى بنا أن نعود إلى قول أبى تمام نفسه فى شعره ، فقد نسب الشعر إلى المقول . وأخبرنا أنه من فيضها ، تهمى به ، حيث يقول فى مدح أبى دلف(٦) .

---

(١) الموشح ١٤ (٢) العمدة ١/ ٧٥ (٣) ديوان أبى نواس شرح محمود كامل ١٩٢
(٤) العمدة ١ / ١٣٩ (٥) نفسه / ١٤٠ (٦) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ١٢١

إليك أرحْنَا عازبَ الشعر بعد ما تمهَّل فى روض المعانى العجائب
غرائب لاقت فى فنائك أنسها من المجد فهى الآن غيرُ غرائب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرَتْ حياضك منه فى العصور الذواهب
ولكنه صوبُ العقول إذا قَنَتْ سحائب منه أعْقِبَتْ بسحائب

ويتحدث عن جهده فى تذليل المعانى فى قوله من مدح ابن أبى دواد :

إليك بعثتُ أبكار المعانى يليها سائقٌ عَجِلٌ وحادى
يذللها بذكرك قرن فكر إذا حرنت فتسلس فى القياد

ولما لم يقبل أحمد بن أبى دواد هذه القصيدة أنشده أخرى . وقال فى وصفها[1] .

خذها مهذبةَ القوافى ، رَبُّها لسوابغ النعماء غير كَنُود
حَذَّاءَ تملأ كل أذن حكمةً وبلاغةً ، وتُدِرُّ كل وريد

ثم يقول عنها :

كالدر والمرجان أُلِّفَ نظمهُ بالشَّذْرِ فى جيدِ الفَتَاة الرُّودِ
كشقيقةِ البُرْدِ المُنَمْنَمِ وَشْيُه فى أرض مَهْرَة أو بلاد تزيدِ

فقد بذل أبو تمام جهدا فى تهذيبها حتى شبهها بعقود الدر والمرجان يجمعها الصائغ بدقة وفن ، ويفصل بينها بحبات الذهب . فإذا لاءمت جيدا جميلا زاد حسنها وجُمِّل صنعها وكأنه يعنى بذلك ابن أبى دؤاد . فإذا شبهها بشقيقة البرد المنمم وشيه فهو يعنى أنه أحسن وشيها وتحليتها ، وأجاد فى زينتها . ولم تهبط عليه ليكون أداة النطق بها كما يفهم من شياطين الشعراء . ومدح محمدَ بن عبد الملك الزيات الكاتبَ الوزير فقال :

لك القلم الأعلى الذى بسنانه تصاب من الأمر الكُلَى والمَفَاصلُ
إذا ما انتضى الخمسَ اللِّطافَ وأفرغت عليه شعابُ الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت لنجواه تقويضَ الخيام الجحافلُ

(١) نفسة ٢٤٣ — ٢٤١ .

إذا استغزر الذهنَ الجليّ وأقبلت أعاليـــه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رَفَدَته الخنصران وسددت ثلاثَ نواحيـــه الثلاثُ الأنامل
رأيتَ جليلاً شأنهُ وهو مرهَفٌ ضَنًى ، وسمينا خطبُه وهْوَ ناحل

ومدح البحترى محمد بن عبد الملك الزيات فجعل أسلوبه من عمله ، وجعل التفنن من صناعته . ولم ينسبه إلى الشياطين ، بل جعل حججه ومعانيه سهلة الألفاظ وقال عنها إنهـا مختارة بعيدة عن التعقيد إذ يقول :

حُزْنَ مستعملَ الـكلام اختيارا وتجنبْـن ظلمـــةَ التعقيـــد
وركبنَ اللفظَ الغريب فأدركـــن به غايةَ المـرام البَعيـد

وهذا يحي بن على المنجم[1] يدل على أنه لا يرسل القول إرسالا ، ولـكنه يعنى بنقده واختيار ما يجود وتعلو درجته ، فيقول :

ربَّ شعر نَقَدْتُه مثلما ينـْــقدُ رأسُ الصيارفِ الدينارا
ثم أرسلتُـه فـكانت معانيـه وألفاظـه مَعًا أبـــكارا
لو تأتّى لقالةِ الشعر ما أسـقط منه حَلّوْا به الأشعارا

والبحترى[2] يقرأ قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

والعقل قسمان إن نظرت فمو هوب وثان للمرء يكتسبه
كم خامل خامل بهمتـــه ونا بهِ قاعدٍ به لَقَبُه
وإنمـــا المرء عقله فإذا أحرز عقـــلا فعنده أدبه

فلا يقر البحترى بوجهة نظره . ويرى أن الشعر لا يحتمل المنطق لما رآه صار مقدمات ونتائج ، حتى كاد يخرج عن جمال الصورة والمعانى الجديرين به . فقال :

كلفتمونا حـــدود منطقـكم والشعر يكفى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ منطق ما نوعـــه وما سببه

(١) العمدة ٢/٨٤ (٢) ديوان البحترى ١٢٩

والشعـــــر لمْحٌ تـكفى إشارته وليس بالهَذْرِ طُـوِّلتْ خُطَـبُه[1]

ومع هذا فالبحترى من شعراء الصنعة وإن كان أقرب هؤلاء إلى الطبع والاسترسال ، لـكنه لا يعتمد على شيطان يوحى إليه بشعره ؛ أما عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فيجعل الأدب عقلا محضاً .

وانظر إلى قول البحترى عن الجهد الذى يبذله إذ يقول :

علىَّ نَحْتُ القوافى من مقاطعها وما علىَّ إذا لم تفهم البَـقَر[2]

ولابن زيدون[3] أبيات كثيرة يردفها لفظ القريحة والخاطر والطبع كقوله : « صفت القريحة واستفاض الخاطر » . ويقول عن بعض المعانى البديعة إنها :

تتوالى على النفـــوس درا كا عن فتى مُـوسِـرٍ من الطبع مثرى

وكان هو نفسه جيد الصنعة شديد التأنق فى شعره وفى نثره .

وأبو العلاء صاحب آراء ونقد نثرى وشعرى فى هذه المسألة - وهو القائل[4] :

وقد كان أرباب الفصاحة كلـما رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وهو قول لا يحمل موافقة المعرى على هذه الفكرة بل إنه كان على العكس من ذلك يرى أن الشعر طبع وصنعة ، وأن الهموم والمشاغل وأحداث الدهر تصرف عن الشعر إذ يقول[5] :

ولولا ما تـكلفنا الليالى لطال القول واتصل الروىُّ

ولـكنَّ القريض له مَعَـانٍ وأَوْلاَها بِهِ الفـكر الخلىُّ

وظهر الـكلام فى الروية والبديهة والمخترع والبديع والسرقات والأخذ والتوليد . وعرف بذلك شعراء فى القديم والحديث . قالوا : كان أبو العتاهية[6] أقدر الناس على ارتجال وبديهة ، وقالوا عن أبى نواس كذلك[7] . وبديهة أبى تمام مشهورة ، وقصتها تذكر فى مدحه لأحمد ابن المعتصم بحضرة الفيلسوف الـكندى . بل إن ابن رشيق يعلق على هذه القصة بقوله :

---

(١) ديوان البحترى — ١٣٢

(٢) نفسه ٤٢ (٣) ديوان ابن زيدون ١٦٨ و١٧٣ (٤) شرح التنوير على سقط الزند

(٥) نفسه ٨٦/٢ (٦)و (٧) العمدة ١٢٧/٢

وإن أعجب ما كانت البديهة من أبى تمـــام لأنه رجل متصنع لا يحب أن يكون هذا فى طبعه[1] ويقول ابن الرومى فى البديهة[2] والروية :

نار الروية نار جدُّ مُـنْضِـجَةٍ   وللبديهة نارٌ ذات تلويحِ

وقـــد يفضلهـا قوم لسرعتها   لـكنها سرعةٌ تمضى مع الريح

ولا بن المعتز[3] بيت يفضل فيه الروية لأنها أسلم عاقبة وأقرب إلى الصواب إذ يقول :

والقول بعد الفـكر يؤمن زيغه   شـــتان بين رويةٍ وبديه

وكثر كلام الشعراء عن الظروف التى تحيط بهم فتعينهم على الشعر ، وعن العادات التى التزموها كلما هموا بقوله ؛ ولا شك أن ذلك كان موجوداً من قبل ، ولـكن تفسيره كان مختلفا ؛ فالفرزدق ركب ناقته وخرج إلى جبل ريان ، ونادى : أخاكم أبا لبنى ، وتوسد ذراع ناقته فانفتح له الشعر ، لأن أبا لبنى أمده بالقريض . وجرير لا يستطيع أن يرد على سراقة البارقى إلا إذا جاءه صاحبه وفتح له الباب بقوله : « يا صاحبى هل الصباح منير » . بعد أن قضى ليله ساهرا .

أما الآن فأبو نواس يُسأل كيف عملك حين تريد أن تصنع الشعر ؟ فيقول : أشرب حتى إذا كنت أطيب ما أكون نفساً ، بين الصاحى والسكران ، صنعت وقد داخلنى النشاط وهزتنى الأريحية[4] . وقيل للسيد الحميرى[5] : ألا تستعمل الغريب فى شعرك ؟ فقال : ذاك عى فى زمانى ، وتـكلف منى لوقلته ، وقد رزقت طبعا واتساعا فى الـكلام ، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والـكبير ، ولا يحتاج إلى تفسير . وقال الخليع « الحسين[6] بن الضحاك» من لم يأت شعره من الوحدة فليس بشاعر . وربما تغنى بعضهم بشعر لغيره أو لنفسه أو بما صنعه من القصيدة ، فيسرع إليه القول . وكأن ترجيع الغناء بالشعر يعين الطبع على الاستمرار فقد روى أن أبا الطيب[7] كان يصنع قصيدته التى أولها « جللا كما بى فليك التبريح » . وهو يتغنى ويصنع . فإذا توقف بعض التوقف ، رجع بالإنشاد من أول القصيدة إلى حيث انتهى منها .

(١) نفسه ٢٨   (٢و٣) نفسه ١٢٩ .

(٤) نفسه ١٣٨   (٥) الصناعتين ٥٨   (٦) (العمدة/١٤٢   (٧) نفسه ١٤١

وابشر بن المعتمر[١] صحيفة كتبها لمن أراد أن يكتب . بين فيها الظروف والأحوال التي تعين على إنشاء القول الجيد . وتساعد على الإجادة فى البيان . ولكن الذى نعرض له الآن هو أمر الشعراء ؛ وتلك نصيحة فحل من فحولهم إلى كبير من كبرائهم فى تخير الظروف والأوقات لقول الشعر ؛ هى وصية أبى تمام إلى البحترى[٢] :

قال أبو عبادة الوليد بن البحترى : كنت فى حداثتى أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه إلى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه ، حتى قصدت أبا تمام فانقطعت فيه إليه ؛ واتكلت فى تعريفه عليه . فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة ، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم أن العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم . فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق .

وإذا أخذت فى مدح سيدٍ ذى أيادٍ فأَشْهِرْ مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأَبِن معالمه ، وشرف مقامه ، وتقاض المعانى ، واحذر المجهول منها . وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية . وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام .

وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ؛ واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين .

وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنته العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى[٣] » .

بل إن من الشعراء من نسوا تلك الحالة الروحية وربطوا بين الشعر وبين البواعث المادية خصوصا شعر المدح . وأحسوا بقوة هذه البواعث فى حملهم على الشعر فأشاروا إليها فى أشعارهم . فهذا أبو نواس يقول : « لا أكاد أقول شعرا جيدا حتى تكون نفسى طيبة ، وأكون فى بستان مونق ، وعلى حال أرتضيها ، من صلة أو صلة بها أو وعد بصلة . وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعارا لا أرضاها[٤] . فهذا باعث واضح هو انتظار المال ،

(١) البيان والتبيين ١/١٠٤ (٢)،(٣) العمدة ٢/٩٢
(٤) أخبار أبى نواس السفر الاول

وتلك ظروف مساعدة هى طيب النفس والبستان المونق . وله كثير من الأبيات يشير فيها إلى هذا الباعث وأثره فى شعره كقوله فى مدح العباس بن عبيد الله (١) .

صببتُ على الأمير ثياب مدحى   فكلٌّ قال أحسن واستجادا

ولولا فضلُه ما جاد شعرى   ولا ملك الثنا منى القيادا

وفى قصيدته المشهورة التى مدح بها الخصيب ردد هذا المعنى ، ويتحدث عن مجيئه إلى مصر للغنى ، إذ يقول لامرأته(٢) :

دعينى أكثِّرْ حاسديكِ برحلةٍ   إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ

إذا لم تزر أرضَ الخصيب ركابُنا   فأىَّ فتىً غيرَ الخصيبِ تزورُ

فتى يشترى حسنَ الثناءِ بماله   ويعلم أن الدائراتِ تدورُ

وكان القدماء ينبعثون إلى الشعر إذا ثارت نفوسهم برؤية الأطلال والدمن ، وتذكر الأحباب الذين كانوا ثم ارتحلوا . أما أبو نواس فرأى أن يكون صادقا فى عاطفته عندما تغيّر الحال ، وتبدلت البيئة ، ولم يرض أن يفعل ما كان يفعله عدد من شعراء زمانه من تقليد للقدماء ، بل استجاب لباعثه الخاص ، وفتنته الخمر وما يحيط بها ، فأكثر من نعتها ووصف كأسها ومجالسها ووقت شربها ، ونعى على من يبكون الرباع البالية والمنازل المقفرة ، وبكى الخمر مشاكلة لمن يبكون الديار فقال فى الخمر (٣) :

لتلكَ أبكى ولا أبكى لمنزلةٍ   كانت تحل بها هندٌ وأسماءُ

وأبو تمام أشار إلى باعثه كثيراً فى شعره فقال من قصيدة يمدح بها أبا المغيث موسى (٤) :

سل مُخبِراتِ الشعر عنى هل رأت   فى قدْح نار الشعر مثلَ زنادى

لم تبق حَلْبةُ منطق إلا وقد   سبقت سوابقَها إليك جيادى

أبقين فى أعناق جودك جوهرا   أبقى من الأطواق فى الأجياد

(١) شرح ديوان أبى نواس ١٣١   (٢) نفسه ١٦٨
(٣) نفسه ٦٧   (٤) هبة الأيام ١٦٢ و وانظر ص ١٦٨ و ١٦٩ و ١٧٢ .

ولو لم تنسب هذه الأبيات إلى أبى تمـام ، لدلت عليه بما أثقلها من بديع واستعارات مع تـكرار الحروف المتشابهة . وفى البيتين الأخيرين تسع قافات .

بل انظر إلى تصريحه الواضح فى منزلة الجود من نفوس الشعراء ، إذ يقول مخاطبا عياش ابن لهيعة الحضرمى الذى جاء إليه فى مصر لمدحه ثم ذمه وهجاه [1] :

وحياةُ القريض إحياؤُكَ الجـو ... دَ فإن مات الجود مات القريض

وكم بعث البخل قصائد رنانة فى الهجاء والذم كقول أبى تمام فى عياش هذا [2] :

ليسُوِّدَنَّ بقاعَ وجهك منطق ... أضعافَ ما سوَّدتَ وجْهَ قصيدى

وليفضَحَنَّكَ فى المحـافل كلها ... صَدَرى كما فضحَتْ يداكَ وُرُودى

وكم أثار الموت من أشجان وأشعار ! وهذا أبو تمام يحث قوافيه على البـكاء فى موت خالد بن يزيد (سنة ٢٣٠ هـ) إذ يقول :

ألا غربُ دمعٍ ناصرٍ لى على الأسى ... الا حُرُّ شِعْرٍ فى الغليل مساعدى !

فلم تـكرم العينـان إن لم تساحا ... ولا طاب فرع الشعر إن لم يساعد

لِتَبْكِ القوافى شجوَها بعد خالدٍ ... بُكاء مُضِلاّتِ السماحِ نَوَاشِدِ

وكم فى أشعار غيره كالبحترى وابن الرومى وابن المعتز والمتنبى من حديث عن تلك البواعث المادية التى لا تختص بموضوع من الشعر دون موضوع : فمنها مثيرات المدح والفخر والغزل والشكوى والعتاب والهجاء والرثاء وغيرها من المعانى ، وما سكت عنه الشعراء منها أكثر ، وله فى أخبارهم أحاديث معروفة .

واعتقد أن الغالب على هؤلاء الشعراء فى العصر العلمى أن شعرهم يصدر عن نفوسهم ، وأنه ينبع من معين داخلى لا خارجى . وأنهم كانوا يحسون بالدوافع إليه ، والبواعث عليه ، سواء أكانت خاصة أم عامة . وهل كان غرام أبى نواس بالخمر وعصبيته على العرب إلا دافعا قويا مال به إلى وصف الخمر وحمله على أن يفتتح بها أكثر قصائده ، وألا يخالف تلك القاعدة

---

(١) هبة الأيام ١٧٤ (٢) نفسه ص ١٧٨ و ١٧٩ و١٩٥و٢٠٠

إلا مضطرا ، فلا يصف الطلول ، ولا يبكى « لمنزلة كانت تحل بها هند وأسماء » إلا إذ دعاه مسلط لا يستطيع أن يرد له أمرا ، وهو الخليفة [٢] .

وما أعظم ما أثارت حروب سيف الدولة من نفس المتنبي فقال فيهـا جياد القصائد . وهل كانت مدائحه وأهاجيه فى كافور إلا وليدة حب الظهور . فلما تأخرت منزلته عند سيف الدولة ولم يعد فى المقدمة ، ونبت به حلب ، جاء إلى مصر لينال ولاية عند من « تهب الدُّولاتِ راحتُـه» ، فلما خاب أمله تغـيّرت أنغامه وأشعاره ، فاقتص لأمله الخائب ، بالهجاء المر ، فى القصائد الرائعة التى دمغ بها كافورا وأهل مصر معه ؟

حقا إن شعر العصرين الأسطورى والدينى كانت له دوافعه العامة وبواعثه الخاصة ، وأحس بها بعض الشعراء وعبروا عنهـا فى أشعارهم ، ورويت فى أخبارهم ، وهل كان التـكسب بالشعر إلا باعثا على المدح ؟ وهل كان إحياء العصبيات القديمة إلا دافعا إلى الفخر والهجاء ؟

وقد روى لنا فى أخبار أرطاة بن سهية أنه سكت عن قول الشعر ، فسأله عبد الملك فى ذلك فقال : « يا أمير المؤمنين ، ما أطرب ولا أغضب ولا أرغب ولا أرهب ، وما يكون الشعر إلا من نتائج هذه الأربع [١] .

وكانت النقائض بواعث مباشرة لجرير والأخطل أو لجرير والفرزدق ، كل نقيضة تثير فى الشاعر المعنى بها خواطر ومعانى وذكريات . فينشىء نقيضته متضمنة هذه الأشياء كلها للرد على صاحبه .

غير أن الفرق بين شعراء العصرين السابقين وشـعراء العصر العلمى هو إدراك شعراء العصر العلمى لأنفسهم ونسبتهم الشعر إلى أعماقها ، أو إلى قواها المتصلة بالإنتاج الأدبى . أما السابقون فـكانوا يردون ذلك إلى الشياطين أو يعدونه وحيا وإلهاما .

و بقيت من آثار السابقين بقية رأينا صـداها فى التأليف القصصى الذى يدير بعض القصص حول شياطين الشعراء .

---

(١) ديوان ابن نواس ١٩٢ (٢) الاغانى ١١/١٣٤ ساسى

الفصل الرابع

شياطين الشعراء فى التأليف القصصى

ا ـ عند أبى زيد القرشى

عرف العرب القصص فى جاهليتهم وإسلامهم ، وكان بعضه من عملهم ووحى حياتهم، وبعضه منقولا إليهم من قريب أو بعيد . وجاء فى القرآن الكريم بعض القصص العربية وغير العربية ، عن العرب وغيرهم ، عبرة لأولى الألباب ، وموعظة وذكرى ، وتثبيتا للرسول والذين آمنوا معه ، وكان فى الحديث الشريف قصص أيضا بعضها واقع وبعضها تمثيل [1]

وتحدث العرب فى القرن الأول بأخبارهم وأيامهم ، وذكر أبطالهم فى الجاهلية والإسلام وتحدثوا بأحاديث الأمم الأخرى ، وعرف عندهم فى صدر الاسلام نوع يسمى القصص [2] وقيل إنه استحدث فى عهد عثمان ، وإن أول قاص هو تميم الدارى ، ثم زاد القصص وكثر وكان بعضه مقبولا وبعضه كذبا ووضعا . ودخل على العرب كثير من القصص التى تعتمد على المنقول من اليهود والنصارى . وشجع الأمويون القصص حتى صار عملا رسمياً يأخذ أصحابه عليه أجرا . وكان اهتمامهم بكل ماهو عربى مشجعا على العناية بأخبار العرب وقصصهم وأدبهم ، وما يتصل بهذا الأدب من حكايات وأحاديث ، بعضها حق وبعضها أساطير .

وكثر فى العصر العباسى الاهتمام بأشعار العرب فخرج الرواة إلى البادية يجمعون الأشعار والأخبار . ويضيفون ذلك إلى ما يأخذونه عن علماء الأمصار ، وقد يكون فى هذا بعض الزيادة ، وضعها أمثال حماد الراوية وخلف الأحمر من الرواة والعلماء ، أو بعض المتخصصين من رواة البوادى ممن كانوا يتكسبون بمثل هذه الأشعار والأخبار [3] ، وقد يقدمون للقصائد التى يروونها بمقدمات تتصل بتاريخها أو قائلها أو مناسبتها .

وقد عنى بجمع مختارات من الشعر ثلاثة بقيت لنا مجموعات القصائد التى اختاروها ، وأولهم المفضل الضبى وسمى كتابه المفضليات . وثانيهم الأصمعى وسمى كتابه الأصمعيات . وثالثهم أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى وسمى كتابه جمهرة أشعار العرب .

---

(١) هداية البارى ١ /١١٧ . (٢) فجر الاسلام ١٩٠ (٣) الاغانى ٥/١٧٣ المزهر ٢ / ٢٥٣

وأبو زيد شخصية غير معروفة؛ قالوا إنه مات سنة ١٧٠ هـ . ولكن تاريخ حياته وهويته أحاط بهما الغموض . وهو فى ثنايا الكتاب يقول : حدثنا المفضل بن محمد الضبى فإن صح ذلك فهو تلميذ من تلاميذه [١] .

وقد جعل أبو زيد القرشى للكتاب مقدمة أظهر فيها إعجابه بشعر القدماء ، وفضل الشعراء من الجاهليين والإسلاميين فقال : « ونحن ذاكرون فى كتابنا هذا ما جاءت به الأخبار المنقولة ، والأشعار المحفوظة عنهم ، وما وافق القرآن من ألفاظهم ، وما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعر والشعراء ، وما جاء عن أصحابه والتابعين من بعدهم ، وما وصف به كل واحد منهم ، وأول من قال الشعر وما حفظ من الجن [٢] » .

وهذا موجز لما كتبه فى المقدمة ، وما عناه بأشعار الجن يشمل أشياء أكثر من هذه الأشعار وأهم منها . فهو قصص تتضمن بعض الأساطير عن الجن ، بعضها يتعلق بوحيها إلى الشعراء ، كالقصص الثلاثة الأولى . وبعضها حكم بأن أشعر الناس امرؤ القيس ثم الأعشى ثم طرفة : ومنها ما هو إخبار ببعث النبى صلى الله عليه وسلم ، كجنى سواد بن قارب وجنى جزيرة بحر الخزر . ومنها أسطورة قديمة أحسن الجنى فيها إلى عبيد لما بدأه بالإحسان . ثم قصيدة فيها قصة تبع أبى كرب . وبين هذه الأخبار المتعلقة بالجن أبيات للأعشى يذكر فيها مسحلا . ثم آراء للفرزدق فى شيطانى الشعر الهوبر والهوجل .

والقصص الثلاثة الأولى من وضع أبى زيد القرشى ، أراد أن يتحدث فيها عن بعض ما شاع فى الجاهلية والإسلام من وحى الشياطين إلى الشعراء ، وإلقائهم الشعر على ألسنتهم . وهذا حديث تلك القصص :

ا — أما القصة الأولى ، فالشياطين فيها لشعراء الجاهلية إلا واحدا هو شيطان الكميت وقد رواها « ابن المروزى » عن أبيه الذى حدثه بأنه خرج على بعير صعب القياد ، ومر به على جماعة ظباء ، فى سفح جبل ، وعلى قلته رجل عليه أطمار . فلما رأته الظباء هربت ، فأغلظ له القول ذلك الرجل الذى على الجبل ، وتهدده ، وأنكر عليه المروزى ذلك ، واستمر فى تجاهله فجعل يرد البعير فى مراعى الظباء ليغضبه ، فصاح به الجنى صيحة أفزعته وأفزعت بعيره ، فعلم المروزى أنه جان فمأتبه ، فرق له الجنى ودعاه أن يذكر الله ، وبذكر الله تطمئن القلوب .

---

(١) ضحى الاسلام ٣/٢٧٦ (٢) انظر مقدمة جمهرة اشعار العرب

هنا نجد قصة من قصص الجن جاهلية فى مسرحها وأشخاصها ومجرى حوادثها ، إلى أن نجد هذا الأسلوب القرآنى « وبذكر الله تطمئن القلوب » .

ثم نجد المروزى يسأل الجنى مفاجأة : أتروى من أشعار العرب شيئا ؟ فقال نعم . أروى وأقول قولا فائقا مبرزا . ثم أنشأ يقول :

طاف الخيال علينا ليلة الوادى ... من آل سلمى ولم يلمم بميعاد
أنىّ اهتديت إلى من طال ليلهم ... فى سبسب ذات دكداك وأعقاد[1]
يكلفون فلاها كل يعملة ... مثل المهاة إذا ما حثها الحادى[2]
أبلغ أبا كرب عني وأسرته ... قولا سيذهب غوراً بعد إنجاد
لا أعرفنك بعد اليوم تندبنى ... وفى حياتك ما زودتنى زادى
أما حمامك يوما أنت مدركه ... لا حاضر مفلت منه ولا بادى

يقول المروزى : « فلما فرغ من إنشاده قلت : لهذا الشعر أشهر فى معد بن عدنان من ولد الفرس الأبلق فى الدهم العراب .. هذا لعبيد بن الأبرص الأسدى! فقال: ومن عبيد لولا هبيد ؟ فقلت : ومن هبيد ؟ فأنشأ يقول :

أنا ابن الصلادم أدعى الهبيد ... حبوت القوافى قرمى أسد
عبيداً حبوت بمأثورة ... وأنطقت بشراً على غير كد
ولاقى بمدرك رهط الكميت ... ملاذا عزيزا ومجدا وجد
منحناهم الشعر عن قدرة ... فهل تشكر اليوم هذا معد ؟

فقلت : أما عن نفسك فقد أخبرتنى ، فأخبرنى عن مدرك ، فقال : هو مدرك ابن واغم صاحب الكميت . وهو ابن عمى . . . وكان الصلادم وواغم من أشعر الجن . ثم قال : لو أنك أصبت من لبن عندنا ! فقلت : هات ، أريد الأنس به . فأتانى

---

(١) سبسب : مفازة — دكداك : أرض غليظة — أعقاد : رمال متلبدة .
(٢) يعملة — ناقة نجيبة .

بعُس فيه لبن ظبي ، فكرهته لزهومته . فقلت : إليك ! ومججت ما كان في فمي منه . فأخذه ثم قال : امض راشدا مصاحبا . فوليت منصرفا . فصاح بي من خلفي : أما إنك لو كرعت في بطنك العس لأصبحت أشعر قومك . فندمت ألا أكون كرعت عسه في جوفي على ما كان من زهومته . وأنشأت أقول في طريقي :

أسفت على عُسِّ الهبيد وشربِهِ لقد حرمتنيه صروفُ المقادِرِ

ولو أنني إذ ذاك كنتُ شربتُهُ لأصبحتُ في قومي لهم خيرَ شاعِرِ

وإلى هنا ينتهي ما رواه أبو زيد في هذه القصة عن ابن المروزي عن أبيه الذي جرت له حوادثها . ولا شك أنها قصة متأثرة بأساطير العرب في الجاهلية عن الجن ، فالجن مصورة في صورة الظباء ، ومقامها في سفح جبل . ووقت خروجها ولقائها للناس يغلب أن يكون في الليل ، وأن يكونوا منفردين أو تائهين ، فتعترض هذه الجن طريقهم لتروعهم .

وقد استعانت القصة بهذه الآراء الأسطورية لتصل إلى آراء أخرى تريد توضيحها أكثر مما سبق . تلك هي الآراء الخاصة بالصلة بين الجن والشعر والشعراء . فالجن رواة أشعار ؛ يسأل المروزي ذلك الشيخ الجني : أتروي من أشعار العرب شيئا ؟ فيجيبه : نعم أروى . ويعقب على ذلك بأنه شاعر مُفلق يقول قولا فائقا مبرزا . فلما سأله أن ينشد شيئا من شعره ، جاءه بأبيات عبيد ، فلما اعترض المروزي على ذلك ، أخبره الجني أنه كل شيء في حياة عبيد الشاعر ، أي أن الشاعر لا يمد شيئا إلا بشيطانه : ومَنْ عبيد لولا هبيد ! ثم أخذ يعرفه بنفسه في تلك الأبيات ؛ فهو هبيد بن الصُّلادم . وهو الذي يوحي إلى سيدَيْ أسد ؛ عبيد ابن الأبرص ، وبشر بن أبي خازم ، أي أن الشيطان قد يوحي إلى شاعرين معاً . وقد رأينا من قبل في قصيدة البهراني أن اسم صاحب المخبل السعدي هو (عمرو) وكذلك اسم صاحب الفرزدق ، ويحتمل أن يكون « عمرا » واحدا ، كما يحتمل أن يكون « عمرين » . ولا مانع أن يكون واحدا يوحي إلى شاعرين كهبيد . ولا اعتراض بتباعد الزمن بين المخبل والفرزدق كما أنه لا اعتبار له بين بشر بن أبي خازم وعبيد المتعاصرين ، وإن كان عبيد أسبقهما إلى الموت[1] .

(١) مات عبيد قبل مولد الرسول بحوالي خمسة عشر عاماً (تاريخ آداب اللغة العربية ١/١١١) وبشر قال شعراً في رجم الشياطين . ويرى الجاحظ أن ذلك كان حول مولد الرسول . وأنه أدرك الفجار (انظر الحيوان ٦/٢٧٣ — ٢٧٥) .

ومن المعروف أن الشياطين تطول أعمارها مئات السنين[1] ، فلا غرابة فى إيحاء واحد منها إلى شاعرين من عصرين متباعدين .

وفى هذه القصة إشارة إلى أن الشياطين قد يرثون الشعر عن آبائهم كإرث الإنس ، وأن بعض الأسر قد تعرف به ، فعندنا أربعة من أسرة واحدة من أشعر الجن هم : الصلادم ، وابنه هبيد ؛ وأخوه واغم وابنه مدرك . أما عس الهبيد الذى أراد أن يسقيه المروزىّ وكرهه لزهومته ، ولو شربه لكان أشعر قومه ، فلا أراه إلا تفسيرا للنبوغ فى الشعر والقدرة عليه بلا سبب ظاهر ، ولا تعليم مباشر فى كثير من الحالات ، فلا بد أن يسقاه الشاعر سقياً من يد جنى . فإن قبله على ما فيه من غضاضة وزهومة فقد صار أشعر قومه . ويخيل إلى أنه يراد بهذه الزهومة الحرج أو الصعوبة التى يجدها قائل الشعر أحيانا ؛ أما العس فيراد به الاستعداد للشعر والنبوغ المفاجىء فيه .

وترى فى القصة أثرا للعصبية . فالشعراء الثلاثة : عبيد وبشر والكميت هم جميعاً من بنى أسد ، وأسماء هؤلاء الشياطين عربية ، ولا حرج فى أن تتسمى شياطين العرب بأسماء من لغتهم . لكننى أرى فى هذه الأسماء معناها اللغوى ، وألمح فيها دلالاتها اللغوية . فالصُّلادم والصِّلدم والصِّلدام . الأسد والصلب والشديد الحافر . وكذلك الحال فى واغم ؛ فهو المحرك ملاغمه بالكلام ، أو المتكلم لا عن يقين . أما الهبيد : فهو حب الحنظل . وربما كان ذلك مأخوذا من أول بيت قاله عبيد فى الهجاء . وكان مقذعا .

ب — أما القصة الثانية[2] ، فقد نشأت من القصة الأولى ، وجاءت بعدها فى الجمهرة ، وأخبرنا راويها مظعون بن مظعون أنه سمع من أبيه ابن المروزى ، الحديث السابق ، وكان أبوه قد لقى الهبيد ، فأراد هو أن يلقى هاذرا أو مدركا اللذين تحدث عنهما الهبيد لأبيه . فكان يخرج إلى الفيافى ليلا ونهاراً ، ويذاكر من يلقى من الركبان جميعاً ، ويخبره بعضهم بشىء مما يريد ، حتى جمع من ذلك علما حسناً . فلما كبرت سنه لزم « زرود » ، ولكنه استمر يسائل كل من يرد عليه من الناس حتى لقى رجلا من الشام فأخبره أنه كان يسير ببلقعة من الأرض ، فرفعت له نار ، فدفع إليها ، فوجد شيخاً كبيرا وصبية صغاراً أنزلوه على الرحب والسعة ،

---

(١) جهرة أشعار العرب ٢٢ . (٢) جمهرة اشعار العرب ٢٢

وانتسب لهم حميريا شاميا ، ثم سأل رب مثواه أن ينشد للنابغة . فأنشده ، وأنشده لامرئ القيس ، وعبيد أيضا . فهو راوية كبطل القصة السابقة ثم اندفع ينشد للاعشى . فقال له الشيخ الشامى : إن هذا الشعر للأعشى . فقال صاحب الخيمة : نعم ؛ فأنا صاحبه : يقول الشيخ الشامى ، قلت : فما اسمك ؟ قال . مسحل السكران بن جندل فعرفت أنه من الجن . فبت ليلة ، الله بها عليم ، ثم قلت له : من أشعر العرب ؟ قال : ارو قول لافظ بن لاحظ ، وهياب وهبيد ، وهاذر بن ماهر قلت : هـذه أسماء لا أعرفها . قال : أجل ؛ أما لافظ فصاحب امرىء القيس . وأما هبيد فصاحب عبيد بن الأبرص وبشر . وأما هاذر فصاحب زياد الذبيانى وهو الذى استنبغه « ثم أسفر لى الصبح فمضيت وتركته » .

ومسرح هذه القصة هو البادية ، وراويهـا رجل من أهل الشام غير معروف . أما الغاية منها فهى الغاية من سابقتها ، ولم تزد شيئاً يذكر أو يليق بالعمر الذى أنفقه مطعون بن مطعون يجمع أقاصيص تلك الشياطين . وربما أن يلقى هاذرا أو مدركا اللذين وردا فى شعر الهبيد ، فلم يلقهما بعد هذا العمر الطويل فى البحث والتقصى والمذاكرة . ولقد زاد ثلاثة أسماء هى : مسحل السكران صاحب الأعشى ، ولافظ صاحب امرىء القيس ، وهاذر صاحب النابغة . فصار عندنا من هؤلاء الشياطين سبعة . لم نعرف أصحاب ثلاثة منها من الإنس وهم : الأخوان الصلادم وواغم من أشعر الجن كما قال هبيد . ولعل قدرتهما كانت أقوى من أن يحتملها شاعر واحد ، فتفرقت بين الشعراء . وكان الشعر القوى الشديد من وحى الصلادم .

وقد نسبت القصة الثانية صاحب هياب من الشعراء ولعله أريد له أن يكون «شائعاً» بين الشعراء كصاحبه الصلادم وواغم .

وأميـل إلى القول بأن الأسماء التى أطلقت على هؤلاء الشـياطين قد أخذت من وحى شعر الإنس الذين تلقوا عنهم . فقصيدة النابغة فى المتجردة مثلا كانت هذرا ماهرا . ومنهـا يمكن أن يؤخذ اسم شيطانه هاذر بن ماهر .

أما شيطان الأعشى ، مسحل السكران فلعل لقبه جاءه من أن صاحبه الأعشى أجادنعت الخمر ، وأنه كان متكسباً يجود شعره وينتخله ، ومن معانى المسحل : المنخل . والمنحت

والغى . وهذا الاسم جاءنا فى شعر صاحبه الأعشى فى ثنائه عليه ، وتحدثه بفضله ، وبيان الصلة الأدبية بينهما[1] .

وما كنت ذا قول ولكن حسبتنى إذا مسحل يُسدى لى القول أَعلق

شريكان فيما بيننا من مودة صفيان ، إنسى وجن موفق

يقول فلا أعيا بقول يقوله كفانى ، لا عى ولا هو أخرق

حـ — والقصة الثالثة[2] التى أوردها أبو زيد القرشى عن ابن داب ، حدثه بها رجل من أهل « زرود » عن أبيه عن جده ، فهى أقدم من القصتين السابقتين ، ولكن روحها جميعا متشابهة ، فقد خرج صاحبها على فحل كأنه فدن إلى البادية طبعاً ، ووجد خيمة وشيخا ، وسلم ، ولقى تحذيرا ، فعجب لذلك . وعرف أن الذى يكلمه من الجن ، فابتدره بالقول المكرر : أتروى من أشعار العرب شيئاً ؟ وكان الجواب : نعم ، وأقول : فهو راوية وشاعر . وأنشده بيتا من معلقة امرىء القيس ، وأنكر عليه الإنسى هذا الادعاء قائلا : هذا لامرىء القيس ، فأجابه الجنى : لست أول من كفر نعمة أسداها . وأخبره أنه صاحبه لافظ بن لاحظ . ولكن الإنسى أنس به بعد طول محاورة ، وجعله صاحب رأى فى الشعر بجانب الرواية والإنشاد ، فسأله : من أشعر العرب ؟ فقال :

ذهب ابن حجر بالقريض وقوله ولقد أجاد فما يعاب زياد

لله هاذر إذ يجود بقوله ان ابن ماهر بعدها لجواد

فسأله الإنسى عن هذا الاسم المجهول « هاذر » فقال له إنه صاحب زياد الذبيانى « وهو أشعر الجن ، وأضنهم بشعره ، فالعجب منه كيف سلسل لأخى ذبيان به ! »

وتجد فى هذه القصة والسابقة تعليقا على «هاذر» . فهو الذى استنبغ النابغة فى القصة السابقة ، وهو أشعر الجن فى هذه القصة وأضنهم بشعره . ولا ننسى أن النابغة كان شاعرا مجودا ، وزاد على الشعراء فكان حكما بينهم فى عكاظ . ولم تخرج هذه القصة فى شيطانيها عن امرىء القيس والنابغة ، وما أشبه هذا الخلاف على أشعر الجن بالخلاف الذى رأيناه بين النقاد

(١) انظر /٨٩ من هذا الكتاب (٢) جمهرة اشعار العرب /٢٣

على أحسن الشعراء . ولا شك أن هذا الذى نراه هنا قول موجز لما تردد بعد[1] من آراء هؤلاء الشعراء ، وتفضيل بعضهم على بعض، كما ترى مسطورا فى مقدمة الجمهرة بعد هذه القصص.

ونخرج من قصص الجمهرة الثلاثة بما يأتى .

١ — هذه القصص عباسية . وقعت حوادثها فى عصر العباسيين ، ورواتها الذين لقوا الشياطين من العصر العباسى فى الأغلب .

٢ — الذين تحدثوا فيها من الشياطين جاهليون وهم : هبيد ، صاحب عبيد وبشر فى القصة الأولى ، ومسحل السكران بن جندل صاحب الأعشى فى القصة الثانية ، ولافظ بن لاحظ صاحب امرىء القيس فى القصة الثالثة . وقد عاشوا حتى العصر العباسى ، وخبروا رواة هذه القصص بحديثهم وحديث إخوانهم من شياطين الشعراء.

٣ — هؤلاء الشياطين جميعاً للفحول من الشعراء ، وهم جاهليون إلا مدرك بن واغم صاحب الكميت ، وقد ذكر فى هذه القصص ثمانية من هؤلاء الشياطين هم : هبيد، ومسحل السكران بن جندل ، وهاذر بن ماهر ، ولافظ بن لاحظ ومدرك بن واغم ، ثم الصلادم ، وواغم أخوه ، وهياب . وهؤلاء الشياطين رواة أشعار ونقاد ، بجانب وحيهم بالشعر إلى أوليائهم من الناس .

٤ — بعض هؤلاء الشياطين يوحى إلى أكثر من شاعر كهبيد ، وبعضهم يوحى إلى شاعر واحد مثل لافظ ، وهاذر ، ومدرك . وبعضهم لا نعرف لهم صاحبا ، وهم الثلاثة الأخيرون .

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٣ وما بعدها

الفصل الخامس

شياطين الشعراء فى الإنشاء القصصى (المقامات)

ب — عند البديع

عرف العرب فى القرن الرابع الهجرى نوعا من القصص يسمى المقامات ونسب ابتداعه إلى كاتب من كبار الكتاب فى هذا العصر هو أبو الفضل أحمد بن الحسين ، وشهرته بديع الزمان الهمذانى[1] .

والمقامات قصص قصيرة يودعها الكاتب مايشاء من فكرة أدبية أوفلسفية، أو خطرة وجدانية ، أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون[2]. وقد تكلف منشئوها كثيرا من قيود اللفظ والصناعة ؛ كايثار الغريب ، وسوق الألغاز والأحاجى ، ومراعاة صناعات لفظية أخرى قد تدل على قدرة الكاتب وحضور ذهنه ، ولكنها تبعد بهذه المقامات عن القصص كثيرا .

ولعل مقامات البديع أقلها تكلفا ، لأنه أملاها ارتجالا أو كالارتجال وهو فى نيسابور ، فقل غريبها وسجعها ، وقرب تناولها ، وترابطت أجزاؤها ولم تثقلها الألغاز والأحاجى والصناعة اللفظية كما أثقلت غيرها .

وقد حاول البديع فيها أن يبنيها على الكدية أو الشحاذة . ولكنه كان يودعها بعض الآراء الأدبية أو التاريخية . وكان للشعر نصيب فى هذه المقامات فتحدث عنه فى ست منها هى :

١ — المقامة القريضية[3] : التى فاضل فيها بين الشعراء وانتهى إلى أن المتقدمين أشرف لفظا ، وأكثر من المعانى حظا ، والمتأخرين ألطف صنعا ، وأرق نسجا .

---

(١) سبقه إلى هذه المقامات أستاذه ابن فارس (سنة ٣٩٠ هـ) وقيل إن ابن فارس قلد فيها ابن دريد فى أحاديثه التى نقلها عنه القالى . وقد أنشأ البديع مقاماته بعد ارتحاله إلى نيسابور سنة ٣٨٢ هـ .

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع ١ / ١٩٧ . (٣) مقامات البديع شرح الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٨ ص ٩ طبعة بيروت .

٢ — المقامة الغَيْلانية[1] : باسم غَيْلان بن عقبة ، وهو ذو الرمة . غايتها أن الفرزدق لم يعبأ بذى الرمة ولا بهجائه لما سمعه وقال : أذو الرميمة يمنعنى النوم بشعر غير مثقف ولا سائر؟ ورماه بالانتحال وادعاء أشعار غيره، فانكسر ذو الرمة .

٣ و ٤ — المقامة المراقية[2] والمقامة الشعرية[3] وكلتاهما فى الإلغاز عن أبيات من الشعر .

وأهم هذه المقامات الست من وجهة نظرنا : المقامة الأسودية والمقامة الإبليسية . نخصهما بمزيد من القول والاقتباس .

٥ — المقامة الأسودية :

هى مقامة كغيرها من المقامات فى الشكل والصورة ، فعيسى بن هشام هو المتحدث ، وأبو الفتح الإسكندرى يظهر فى آخرها شحاذا ، أو ظافرا بغنيمة من الشحاذة ؛ وقد حدثنا عيسى بن هشام فيها أنه هام على وجهه هاربا حتى أتى البادية ، فأدته الهَيْمة ، إلى ظل خيمة. فصادف عند أطنابها فتى يلعب بالتراب ، مع الأتراب . وينشد شعرا يقتضيه حاله ، ولا يقتضيه ارتجاله . واستبعد عيسى بن هشام أن يكون ذلك الشعر من عمل الفتى . فسأله : يافتى العرب؛ أتروى هذا الشعر أم تعزمه ؟ فقال : بل أعزمه : ثم أنشد :

إنى وإن كنتُ صغير السنّ ... وكان فى العين نُبُوٌّ عنّى

فإن شيطانى أمير الجنّ ... يذهب بى فى الشعر كلَّ فنّ

حتى يرد عارض التظنّى ... فامض على رِسْلك واغرُبْ عنى

ثم طلب عيسى بن هشام أمنا وقِرىً ، فأنزلوه فى بيت الأسود بن قنان الفارس، الكريم الأصل واليد والفعال ، وهو الذى سميت باسمه المقامة . وهناك وجد أبا الفتح الإسكندرى ، وعاشا زمنا معا ثم افترقا .

والفكرة التى يريد البديع أن يعرضها واضحة فى وجود الفتى الصغير ، الذى يلعب بالتراب مع الأتراب ، ويقول شعرا مناسبا لموقفه ، ولكنه فوق مستواه . واستبعد عيسى

(١) نفسه ٤٣ . (٢) نفسه ١٤٩ (٣) نفسه ٢٣٠ .

ابن هشام أن يكون ذلك من عمله . وهو على صواب فى هذا ؛ فإن غلاما يلعب فى التراب، لايجيد الشعر ، ويستبعد أن يقول أى شىء منه إلا إذا أعانه أمير الجن . ودفعته الدهشة إلى أن يسأل الفتى : أتروى هذا الشعر أم تعزمه ؟ فقال الفتى إنه يعزمه . أى يقوله عن قريحة وقوة ملكة . وأراد أن يزيل دهشة عيسى بن هشام ، فنسب شعره إلى أمير الجن ، فهو الذى يستطيع أن ينطق الكبار والصغار بشعرهم .

وهذه فكرة قديمة طبعا ، والأبيات نفسها رواها الجاحظ فى كتاب الحيوان[1] . ولم يكتف الغلام بالشعر الذى يقوله ، بل جعل شيطانه أميرا يذهب به فى كل فن من فنون الشعر . ويصرفه فيه حتى يقطع ريبة المرتاب فى شأنه .

فهذه المقامة لم تأت بجديد فى الفكرة وإن وضعتها فى صورة قصصية خاصة هى صورة المقامة .

٦ — المقامة الإبليسية[2] :

وهذه مقامة أخرى عرض فيها بديع الزمان فكرة شياطين الشعراء القديمة . قال البديع :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : أضللت إبلا لى، فخرجت فى طلبها ، فحللت بواد خضر ، فإذا أنهار مصردة ، وأشجار باسقة ، وأثمار يانعة ، وأزهار منورة ، وأنماط مبسوطة ، وإذا شيخ جالس ، فراعنى منه مايروع الوحيد من مثله ، فقال : لابأس عليك . فسلمت عليه وأمرنى بالجلوس . فامتثلت . وسألنى عن حالى فأخبرت . فقال لى: أصبت دالتك ، ووجدت ضالتك ، فهل تروى من أشعار العرب شيئا ؟ قلت : نعم . وأنشدته لامرئ القيس وعبيد ولبيد وطرفة . فلم يطرب لشىء من ذلك وقال : أنشدك من شعرى ؟ فقلت له : إيه . فأنشد :

بان الخليط ولو طووعت ما بانا   وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

حتى أتى على القصيدة كلها . فقلت : ياشيخ : هذه القصيدة لجرير ، وقد حفظتها الصبيان ، وعرفتها النسوان ، وولجت الأخبية . ووردت الأندية . فقال : دعنى من

---

(١) نقيبة ٢٣٠   (٢) مقامات البديع / ١٩٠

هذا ؛ وإن كنت تروى لأبى نُواس شعرا فأنشدنيه » . فأنشده عيسى بن هشام من قصيدة أبى نواس التى مطلعها :

لاأندبُ الدّهرَ ربما غَيّرَ مأنوسٍ ولستُ اصبوُ إلى الحادين بالعيسِ

قال عيسى بن هشام : « فطرب وشهق وزعق . فقلت : قبحك الله من شيخ ! لا أدرى أبانتحالك شعر جرير أنت أسخف ، أم بطربك من شعر أبى نواس ، وهو فويسق عيار ! » .

ولم يعبأ الشيخ بهذا القول وحدثه بألغاز ؛ واحد منها عن المذبة،وآخر عن السراج ، ثم قال له : « فما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا . وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة. وأنا الشيخ أبو مرة » .

قال عيسى بن هشام : ثم غاب ولم أره . ومضى عيسى بن هشام فوجد الرجل الذى أرشده إليه ، والمذبة التى ألغزفيها ، والمسرجة التى وصفها ولم يصرح بها . ثم أرشده الرجل إلى غار مظلم فدخله فوجد إبله ، وعاد بها فوجد أبا الفتح الإسكندرى ، فحمله على قعود كما طلب .ثم أخبره بخبرالشيخ. فأومأ أبو الفتح إلى عمامته وقال : هذه ثمرة بره . فقال له عيسى : يا أبا الفتح شحذت على إبليس ، إنك لشحاذ !

وليست هذه المقامة غريبة على ما كتبه أبو زيد القرشى فى مقدمة الجمهرة فالشبه واضح والخلاف يسير . فانا نرى فى هذه المقامة الابليسية أن عيسى بن هشام أضل إبلا له . فخرج فى طلبها . وكذلك كان خروج راوى القصة الثالثة فى الجمهرة . فإنه خرج فى طلب لقاح له أيضاً . ولقى كل منهما شيخا . ولما أنس الراوى بالشيخ فى القصتين سأله أن ينشده شعرا . فأنشد الشيخ فى القصة الأولى من شعر امرئ القيس ، وفى الثانية من شعر جرير ، مدعيا أنه من عمله ، وأنكر الإنسى هذا الادعاء ، وأخبره بصاحبه . فكان رد الجنى أنه هو صاحب الأبيات ، وأنه هو الذى يلقيها على الشاعر لأنه صاحبه من الجن . فإذا زادت واحدة منهما عن الأخرى فالزيادة فى التفاصيل ، من ذلك أن شيطان جرير يخبر عيسى بن هشام أن لكل شاعر معينا منهم ؛ أما شيطان القصة التى أوردها القرشى فيجيب على سؤال ويفضل امرأ القيس والنابغة . ويقول إن شيطانه هاذر بن ماهر أشعر الجن وأضنهم بشعره .

على أننا نجد الخيمة التى دفع إليها عيسى بن هشام فى المقامة الأسودية موجودة فى القصة الثالثة لأبى زيد . وقد ارتاع الإنسى فى قصة أبى زيد القرشى الأولى ، كما ارتاع هنا عند رؤية الجنى ، وذلك شىء طبيعى : ولكن الاتفاق والحرص على إظهار هذا الروع يلفت النظر . ثم إنك تجد فى المقامة الأسودية غلاما ينشد الشعر القوى الذى يعلو على مستوى سنه . ولا سبب لذلك إلا أنه تلقاه من شيطانه أمير الجن . كما تدل الأبيات على ذلك . وفى آخر القصة الثالثة عند أبى زيد نرى هاذر بن ماهر صاحب زياد الذبيانى ، أشعر الجن ، وأنه علّم بُنَيَّةَ لافظ بن لاحظ قصيدة له ، من فيه إلى أذنها .

وأرى بعدما قدمت أن البديع قد عرف ما كتبه أبو زيد القرشى ، وتأثر به فى كتابة هاتين القامتين . أما الفكرة العامة ، فكرة وجود شيطان لكل شاعر ، فلم يأخذها من هذا المصدر أو ذاك ، وإنما أخذها مما كان شائعا عند العرب عن وحى الشياطين إلى شعرائهم ، والتى قررها الجاحظ فى الحيوان ، والثعالبى فى يتيمة الدهر .

ولم يأت البديع بجديد فى حديثه عن شياطين الشعراء ، إلا أنه كنى شيطان جرير ، وعرفنا أنه الشيخ أبو مرة .

الفصل السادس

شياطين الشعراء في التاليف القصصي

(الرسائل الأدبية)

حـ — عند ابن شهيد

رسالة التوابع والزوابع :

وردت هذه الرسالة فى « كتاب الذخيرة » لابن بسام غير كاملة . يفهم ذلك من قوله عنها : فصول من رسالة سماها بالتوابع والزوابع ، وإن صدرت عنه مصدر هزل ، فتشتمل على بدائع وروائع » .

بدأ ابن شهيد هذه الرسالة بخطاب أبى بكر بن حزم ، مشيراً إلى تعجبه منه : « كيف أوتى الحكم صبيا ، وهز بجذع نخلة الكلام فاساقط عليه رطبا جنيا ؟ أما إن به شيطاناً يهديه ، وشيصبانا يأتيه ! وأقسم أن له تابعة تنجده ، وزابعة تؤيده ، ليس هذا فى قدرة الإنس ، ولا هذا النفس لهذه النفس[1] » .

وكانت فرصة تحدث فيها ابن شهيد عن حنينه إلى الأدب ورجاله ، وسعيه فى اكتسابه « أيام كتاب الهجاء » . ونبوغه فى الأدب لحسن استعداده . وتوالت عليه منه العجائب ، كما يقول[2] : وحاول يوما أن يرثى حبيبا له ، فقال أبياتاً ثم أفحم . فظهر له فارس بباب مجلسه على فرس أدهم وصاح به : أعجزا يا فتى الإنس ؟ فأجابه : لا وأبيك ، للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان . فأجازه الفارس ببيت أثبته فى قصيدته ثم سأله : من أنت ؟ فقال : أنا زهير بن نمير من « أشجع » الجن . فسأل وما الذى حداك إلى التصور لى ؟ فقال :

---

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ٢١٠ . وطبعها بطرس البستانى . وقسم النص إلى : المدخل ، توابع الشعراء توابع الكتاب ، نقاد الجن ، حيوان الجن . (٢) نفسه ٢١١

هوًى فيك ، ورغبة فى اصطفائك، فرحب به ابن شهيد؛ وعلمه زهير بن نمير هذه الأبيات:

والى زهيرَ الحب يا عزّ إنه   متى ذكرته الذاكرات أتاها

إذا جرت الأفواه يوما بذكرها   يخيل لى أنى أقبّل فاها

فأغشى ديار الذاكرين وإن نأت   أُجاوِرُ من دارى هوى لهواها

ثم يقول ابن شهيد[1] :

يستحضره بها كلما أراد لابن حزم : « وكنتُ أبا بكر متى أرتج على ، أو انقطع بى مسلك ، أو خاننى أسلوب ، أنشد الأبيات فيمثل لى صاحبى . فأسير إلى ما أرغب . وأدرك بقريحتى ما أطلب. وتأكدت صحبتنا وجرت قصص لولا أن يطول ذكرها لذكرت أكثرها ! ولكنى ذاكر بعضها » . يقول أبو عامر[2] :

« تذاكرت يوما مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء ، وما كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وقلت : هل حيلة فى لقاء من اتفق منهم ؟ قال : حتى أستأذن شيخنا . وطار عنّى ثم انصرف كلمح البصر ، وقد أذن له ، فقال : حل على متن الجواد ، فصرنا عليه ، وسار بنا كالطائر ، يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدو فالدو ، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا وجوا لا كجونا ، متفرع الشجر، عاطر الزهر . فقال لى : حللت أرض الجن أبا عامر ، فبمن تريد أن نبدأ . قلت : الخطباء أولى بالتقديم لكنى إلى الشعراء أشوق » .

ولقى شياطين بعض الشعراء ، مقدما بين يدى هذا اللقاء وصفا لمقامهم ، أوالطريق إليهم، أومجلسهم وزيهم فوصف لنا وأديا تتكسر أشجاره ، وتترنم أطياره ، لقى فيه عتيبة بن نوفل صاحب امرئ القيس[3] . وغادر هذا الوادى ، إلى غيضة شجرها شجران: سام يفوح بهارا وشحر يعبق هنديا وغارا . فرأينا عينا معينة تسيل ، ويدور ماؤها فلكياً ولا يحول . وهو مقام عنتر بن العجلان صاحب طرفه[4] .

وخرج لهما عتاب بن حبناء صاحب أبى تمام[5] من شجرة غيناء . تتفجر عند أصلها عين ماء ، كأنها مقلة حوراء . وكان مقام أبى الطبع البحترى[6] ، فى ناورد أمام قصر عظيم . أما مقام أبى نواس فجدير بالذكر لجمال عبارته وحسن صورته . يقول ابن شهيد :

وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل « دير حنا » ، فشق سمعى قرع النواقيس ، فصحت

(١) ٢١٢ (٢) ٢١٢ (٣) ٢١٣ (٤) ٢١٤ (٥) ٢١٦ (٦) ٢١٩

من منازل أبى نواس ورب الكعبة العلياء ! وسرنا نجتاب أدياراً وكنائس وحانات ، حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصوك نوافحه . فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على أهل « دير حنة » ! فقلت لزهير : أو هل صرنا بذات الأكيراح[1] ؟ قال : نعم . وأقبلت نحونا الرهابين مشددةً بالزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب واللحى ، إذا نظروا إلى المرء استحى . مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح . فقالوا : أهلا بك يا زهير من زائر . وبصاحبك أبى عامر ! ما بغيتك ؟ قال : حسين الدنان . قالوا : إنه لفى شرب الخمرة ، منذ أيام عشرة ، وما نراكم منتفعين به . فقال : وعلى ذلك . ونزلنا ، وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه ، وعكفت غزلانه ، وفى فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده طرجهارة ، وحواليه صبيه كأظب تعطو إلى عرارة . فصاح به زهير : حياك الله أبا الإحسان ! فجاوب بجواب لا يعقل ، لغلبة الخمر عليه» ودنا منه ابن شهيد ، فقرع أذنه بإحدى خمرياته كما أشار زهير . « فصاح من حبائل نشوته: ألأشجعى ؟ قلت : أنا ذاك ! فاستدعى ماء قراحا فشرب منه ، وغسل وجهه فأفاق ، واعتذر إلىّ من حاله . فأدركتنى مهابته ، وأخذت فى إجلاله ، لمكانه من العلم والشعر . فقال لى : أنشد ، أو حتى أنشدك ؟ فقلت إن ذلك لأشد لتأنيسى ، على أنه ما بعدك لمحسن إحسان»

وأنشده شيطان أبى نواس بعض قصائده وسمع منه قصيدته التى مطلعها :

أصفيحٌ شِيمَ أم برقٌ بدا أم سَنَا المحبوب أورى أزندَا

ثم أنشده من رثائه مرتين ، ومن جحدرتيه فى السجن فأبكاه طويلا . ثم قطعة من مجونه ، فلما سمع آخر بيت قام يرقص به ويردده ، ثم قال : هذا والله شىء لم تلهمه نحن. ثم استدناه فدنا منه ، فقبل بين عينيه وقال : اذهب فانك مجاز[2] .

وسارا من بعده فى أثر فرس حارثة بن المغلس ، صاحب أبى الطيب حتى أدركاه ، وأنشده ابن شهيد فأجازه ، وتنبأ له بموت قريب بين قريحة كالجمر ، وهمة تضع إخمصه على مفرق البدر[3] .

---

(١) صاك الطيب — لزق ، والمراد فاح . الأكيراح ، الأكراح ، والمفرد كرح بكسر الكاف — بيت الراهب . أو هو معرب كلمة سريانية معناها الكوخ والأكيراح — موضع تخرج إليه النصارى فى الأعياد (قاموس) (٢) ٢٢٥ (٣) ٢٢٨

أما أسماء هذه الشياطين الذين لقيهم هو وشيطانه . فليست من الأسماء التى عرفناها لهؤلاء الشياطين فى الشرق . ولكنها من اختراع ابن شهيد، لا حظ فيها اتصالها بأصحابها نوعاً من الاتصال ؛ فصاحب امرئ القيس « عتيبة بن نوفل »، سجع مع سقط اللوى بين الدَّخول فحَومل ، ويوم دارة جلجل وهى أسماء وردت فى معلقة امرئ القيس . فناسب بينها و بين اسم الشيطان المقيم فيها . وعنتر بن العجلان صاحب طرفة، عجل به الموت بعد العشرين بقليل ولم يمهله . وصاحب قيس بن الخطيم الفارس المعروف ، هو أبو الخطار ، والخطار هو الرمح ، أو هو الرجل الذى يرفع سيفه أو رمحه ويضعه ، أى الذى يهزها ، فمناسبة الاسم لصاحبه واضحة . وحسين الدنان اسم شيطان أبى نواس لا يحتاج إلى شرح ، وكذلك أبو الطبع اسم شيطان البحترى الذى عرف بقوة طبعه فى الشعر . وحارثة بن المغلس مأخوذ من الحرث : وهو السير على الظهر حتى يهزل ، وكم أهزل أبو الطيب من خيل ، وأنضى من مطى ! وكم غلس فى سيره ، وركب الظلماء فى ارتحاله .

وأما الغاية القصوى من لقائه لهؤلاء الشياطين فنتبينها من محاورته لهم، وإنشاده أشعاره بين أيديهم ، وحكمهم له فى ختام المقابلة طائعين أو كارهين ، فشيطان امرئ القيس ينشده ويسمع منه ، ثم يجيزه ، وكذلك شيطان طرفة . وهذا أبو الخطار شيطان قيس بن الخطيم يشتد فى أثره ، فإذا أدركه قال له : أنشدنا يا أشجعى ، وأقسم إن لم تجد ليكونن يوم شر. فأنشده ، ولما انتهى تبسم أبو الخطار ، وقال : لنعم ما تخلصت ! اذهب فقد أجزتك . وهذا شيطان أبى تمام ينصح له فيقول : إن كنت ولا بد قائلا ، فإذا دعتك نفسك إلى القول فلا تكد قريحتك ، فإذا أكملت فجمام ثلاثة لا أقل ، ونقح بعد ذلك ؛ وما أنت إلا محسن على إساءة زمانك . وأبو الطبع يجيزه كارهاً وهو يقول لزهير بن نمير : لا بورك فيك من زائر ، ولا فى صاحبك أبى عامر ! وحسين الدنان يرقص من أبياته ، ويفيق من سكره على حسنها ، ثم يقول : هذا والله شيء لم نلهمه نحن ، ويقبل ما بين عينيه . ويجيزه حارثة بن المغلس شيطان أبى الطيب قائلا : إن امتد به طلق العمر ، فلا بد أن ينفث بدرر ، وما أراه إلا سيحتضر ، بين قريحة كالجمر ، وهمة تضع أخمصه على مفرق البدر . بل شهد له فرعون ابن الجون تابعة شيخ كبير من الأندلس[1] .

(١) الذخيرة ١/٢٥١ .

وإذا رجعنا إلى تاريخ ابن شهيد فى عصره ، وجدناه يقف فى هذه الرسالة موقف المدافع عن نفسه ، المتحدث بعلو كعبه فى الأدب شعره ونثره ، لكثرة خصومه وحساده ومنافسيه ، والطاعنين فى شعره ، الذين اتهموه بأنه يسرق من القدماء ، وأنه قليل الحظ من النحو وعلم الكتب . كالكاتب أبى بكر المعروف بأشكمياط الذى عابه باستباحة كنوز غيره[1] .

وقد سألته الأوزة ، وهى تابعة شيخ من مشيخة زمانه ، إن كان يحسن النحو والغريب فأجابها أنه يحسن ارتجال شعر ، واقتضاب خطبة على حكم المقترح والنُّصبة .[2] وهزىء من علم الكتب فى مناقشته لأنف الناقة لما قال له : طارحنى كتاب الخليل فقال : هو عندى فى زنبيل ، إلى آخرها[3] .

وكان شيطانه من « أشجع » قبيلته ، وطوع إرادته ، وما كان ابن شهيد بالذى يجهل أثر الطبع أو ينكر وجوده فى الشعر والنثر . ولعله كان أكثر اعترافا به لقلة علمه وكراهته للكتب .

أما زمن هذه الرسالة فقد حققه البستانى[4] فجعله حوالى سنة٤١٤ هـ . وأنه كتبها بعد ما جاوز الثلاثين ، مخالفاً فى ذلك رأى بروكلمان الذى جعل زمنها حوالى ٤٠٤ هـ أى قبل رسالة الغفران بعشرين عاماً . من أجل هذا قدمتها على رسالة الغفران فى الحديث عنها ، وإن كان أبو العلاء قبله فى الميلاد بتسعة عشر عاماً ، وبعده فى الوفاة بحوالى ربع قرن .

ونترك الحديث عن شياطين الكتاب ونقاد الجن إلى فصل آخر .

---

(١) ١٩٥ (٢) ٢٥٦ (٣) ٢٣٤ (٤) رسالة التوابع والزوابع ، بطرس البستانى مطبعة المناهل ٩٣ .

الفصل السابع

شياطين الشعراء فى التاليف القصصى

د ـــ عند أبى العلاء

أبو العلاء المعرى شاعر حكيم فيلسوف . كان عظيم الذكاء قوى الحفظ ، واسع العلم بآثار أسلافه العرب ، فى اللغة والأدب والأخبار والفقه والحديث والفلك . وكان صاحب آراء وفلسفة . وكانت بينه وبين بعض علماء عصره ، وأهل الرأى منهم مراسلات ومناظرات وذكر ياقوت أن له كتابا يسمى ديوان الرسائل . وهو ثلاثة أقسام[1] :

الأول — رسائل طوال تجرى مجرى الكتب المصنفة مثل كتاب رسالة الملائكة . وكتاب الرسالة السندية ، جزء ، وكتاب رسالة الغفران ، جزء ، وكتاب رسالة الفرض ، جزء ؛ ونحو ذلك .

الثانى — رسائل دون هذه فى الطول ، مثل كتاب رسالة المنيح ، وكتاب رسالة الإغريض

الثالث — كتاب الرسائل القصار ، كنحو ما تجرى به العادة فى المكاتبة ، وقيل إنه ثمانمائة كراسة ، وكتاب خادم الرسائل فى تفسير ما تضمنته هذه الرسائل ، مما يحتاج إليه المبتدئون فى الأدب .

وهذه الرسائل تجرى على النمط العام للرسائل ، فهى إما رد على رسائل تلقاها أبو العلاء أو ابتداء برسالة إلى أحد الأصدقاء ، من العلماء أو الرؤساء .

ولم يذكر اسم رسالة الشياطين فيما أورده ياقوت . ولكنها طبعت مع رسالة الملائكة فى كتاب واحد[2] وبعث المعرى بهذه الرسالة المعجبة الفريدة جوابا عن كتاب رجل يعرف بأبى الحسين أحمد بن عثمان النكتى البصرى ، وألم فيها أبرع إلمام بشياطين الشعراء .

---

(1) معجم الأدباء ١٦٩/٢ دار المأمون .

(2) رسالة الغفران السفر الثانى حـ٤ ص٤٧٥ تحقيق كامل كيلانى .

وقد عرض لهذه الشياطين فى رسالة الغفران أيضا كما ترى :

أولا : رسالة الشياطين :

١ — هى رسالة إخوانية فى ظاهرها ، علمية فى مضمونها ، جمعت آراء عن الشعر ومصدره وكيفية نظامه . فإنه بعد أن أثنى أبو العلاء على أدب صاحبه ، نظمه ونثره . خاطبه بقوله : « فليت شعرى من يقول المنظوم فى خاطره ، أجنى مرد ، أم ملك بالعبادة تفرد[1] . لكنه لايطيل هذا التساؤل وإنما يتنقل منه إلى مناقشة مسألة أخرى تتصل به . أيمكن أنْ تلقى الجن فى روعه شيئاً ، وخلده مأهول بالقرآن ؟ أم يكون شعره من عمل الملائكة ، وهى لاتنطق بمثل شعره ؛ ولانعلم أحدا روى شعرا عن الملائكة ؟

لكنه يستدرك فيذكر نَوْح الجن على عمر ، وقولها فى قتل سعد بن عبادة ، وكأنه أحس بعض الاعتراض على إنكاره أن الملائكة تعين الناس فقال : «وله — أدام الله عزه — أن يحتج بقول النبى صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت لما أمره بإجابة شعراء قريش : روح القدس معك . فلمدع أن يقول : إن حسان ومن جرى مجراه من قالة الحق ، تعينهم الملائكة على ذلك[2] » . ولعل روح الإنكار لوحى الملائكة بالشعر لا تزال قوية فى تعبيره السابق حين يقول . ولمدع . . . الخ . ويساعدنى على هذا الفهم مجىء كلمة « مدع » فى أثناء كلامه .

٢ — أما إمكان التلقى عن الشياطين فمعروف شائع عند العرب ، يقرره أبو العلاء إذ يقول لصاحبه : « ولا ينكر — أدام الله عزه — ما ذكرته من أمر الجن فقد علم أنه مشهور عند العرب أن لكل شاعر شيطانا يقول الشعر على لسانه . ولا شك أنه قد روى قول الراجز .

إنى وإن كنت صغيرَ السنّ ... وكان فى العين نُبُوٌّ عنى

فإن شيطانى أميرُ الجنِ ... يذهب بى فى الشعر كل فن

وقد زاد ادعاؤهم لذلك حتى سموا الشياطين بأسماء يعرفونها بينهم « ثم ذكر بيت الأعشى

(١) رسائل أبى العلاء ١٠٥ طبع بيروت . (٢) ١٠٦ .

« دعوت خليلي مسحلا ... الخ » وأنهم زعموا أن مسحلا شيطان الأعشى ، وأنهم رووا أخبارا كثيرة فى ذلك ، لا ريب فى أن صاحبه النكتي قد اطلع عليها . وجاء بعد ذلك بمنام ابن دريد الذى رواه عنه ابن خالويه . والذى رأى فيه شيطانه أبا زاجية الموصلى .

٣ — ويتبع ذلك بحديث عن أعمار الجن ، وأن الواحد منهم قد يلقى نوحا ويلقى النبى صلى الله عليه وسلم . فإن كان الشاعر منهم ينتقل من رجل إلى رجل فيجوز أن يكون قد انتقل إليه — أدام الله عزه — صاحب النابغة أو الكندى ، فما ذلك ببديع ولا بدى . وقد مر فى أسفاره بالموصل (يعنى النكتى البصرى) وأغلب ظنى أن أبا زاجية علق به ورغب فى صحبته . لأنه ذكره بصاحبه الأزدى (ابن دريد) .

٤ — ولم ينس أبو العلاء ماقدمه فى أول الرسالة من أن خلد صاحبه مأهول بالقرآن فلا يسلك عفريت فى صدره ، إلا أن يكون مسلما إذ يقول : « ولا مرية فى أنه قد أسلم ، ولولا ذلك لم يرغب فى استصحاب رجل من أهل التفسير لكتاب الله جل سلطانه ، عالم بلغة الرسول صلى الله عليه وسلم ، متظاهر بالصيانة وحسن المذهب ، منذ كان فى المهد إلى أن هم برمبح أبى سعد[1] ، أو ليس جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث معناه أن الإنسان لا يخلو من شيطان موكل به قيل : ولا أنت يارسول الله . قال : ولا أنا . ولكنى أعنت عليه فأسلم . وكيف لا يسلم صاحبه — أدام الله عزه — وقد أملى فى تفسير سورة الإخلاص كتابا نسخته عند أبى بكر المؤدب أدام الله سلامته[2] ؟

٥ — ونخرج من هذه الرسالة بأن أبا العلاء لا يبدى رأيه بصراحة فى شياطين الشعراء ولكنه يعتمد على ما جاء عن العرب من أساطير . بل إنه أميل إلى الانكار حيث يعبر عما روى من ذلك بقوله : زعموا ، وادعوا ، وحين أشار إلى أن رثاء الجن لعمر بن الخطاب منسوب فى الحماسة إلى الشماخ بن ضرار وأن الملائكة لا تقول الشعر ولا توحى به خلافا لما هو موجود من الأشعار المنسوبة إليهم . أما تأييد روح القدس لحسان فهذه خصوصية ، وأشار إلى أن الشياطين قد تطول أعمارها وتوحى إلى أكثر من شاعر فى رأى العرب ، وأن الصالحين من الناس لا يتلقون إلا عن مسلمى الشياطين .

---

(١) هرم وشاح . (٢) رسائل أبى العلاء ١٠٨ و ١٠٩ .

ثانيا : رسالة الغفران :

١ — رسالة كتبها ردا على ابن القارح[١] فى سنة ٤٢٤ﻫ ، وهو فى الثالثة والستين من عمره . تحدث فيها عن أشياء كثيرة من أمور الآخرة . وقد سار بطل القصة على نجيب فى الجنة ولقى كثيرا من الناس أكثرهم شعراء دخلوا الجنة؛ وكان يسأل كل من لقى عن سبب دخوله . فيقول إنه غفر له بسبب بيته كذا ، أو موقفه من كذا ، ومن هنا سميت رسالة الغفران .

١ — وبدا له أن يطلع على أهل النار فسار فى مدائن ليست كمدائن الجنة ، ولا عليها النور الشعشانى . وهى ذات أوحال وغماميل[٢] . وتلك جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . فعدل إليهم يلتمس عندهم أخبار الجنان ، وما لعله يوجد لديهم من أشعار المردة. وسأل فى ذلك الخيتعور أحد بنى الشيصبان، وهم من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم صلى الله عليه ، وليسوا من ولد إبليس فقال له : «أخبرنى عن أشعار الجن ... فقد جمع المعروف بالمرزبانى قطعة صالحة » . فيقول ذلك الشيخ : « إنما ذلك هذيان لا معتمد عليه ، وهل يعرف البشر من النظم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض . ؟ وإنما لهم خمسة عشر جنسا من الموزون قلما يعدها القائلون ، وإن لنا لآلاف أوزان ماسمع بها الإنس ، وإنما كانت تخطر بهم أطيفال منا عارفون ، فتنفث إليهم مقدار الضوازة من أراك نعمان... وقد بلغنى أنكم معشر الإنس تلهجون قصيدة امرئ القيس : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » . وتحفظونها الحزاورة[٣] فى المكاتب ، وإن شئت أمليتك ألف كلمة على هذا الوزن مثل : منزلِ وحوملِ ، وألفاً على ذلك الفَرى[٤] يجىء على : منزلُ وحوملُ . وألفا على : منزلا وحوملا ، وألفا على منزلُه وحوملُه ، وألفا على منزلِه وحوملِه . وكل ذلك لشاعر منا هلك وهو كافر ، وهو الآن يشتعل فى أطباق الجحيم[٥] » .

---

(١) أديب معاصر لأبى العلاء أرسل إليه رسالة ورجا أن يتلقى ردها ليشرف به . فأجاب أبو العلاء رجاءه . ورسالة ابن القارح مطبوعة فى السفر الأول من رسالة الغفران ١٧ — ٦٠ تحقيق وشرح كامل كيلانى

(٢) غماميل = جمع غملول ، بضم الغين ، وهو الوادى الضيق الكثير الشجر والنبت الملتف أو كل مجتمع أظلم وتراكم من الشجر .

(٣) الصبيان . (٤) الصنع ، الشكل . (٥) رسالة الغفران ١ / ٨٦ و ٨٧ .

وعجب ابن القارح من حفظ الخيتعور ، وكيف لم ينس . وأراد أن ينتسخ شيئا من تلك الأشعار ، فقال له الخيتعور أبو هدرش : إن شئت أمللتك مالا تسقه الركاب ، ولاتسعه صحف دنياك . وهم أن يكتب ، ثم عدل عن ذلك ، لأنه شقى بجمع الأدب فى الدار العاجلة. واكتفى بما معه ، لاسيما وقد شاع النسيان فى أهل أدب الجنة .

أورد الخيتعور فى هذه الرسالة أخبارا كثيرة أخرى عن الجن ، بعضها دينى وبعضها أسطورى ، فى قصيدتين طويلتين ، إحداهما رائية ، والأخرى سينية . وسأله ابن القارح : لله درك يا أباهدرش . فكيف ألسنتكم؟ أفيكم عرب لايفهمون عن الروم، وروم لايفهمون عن العرب . كما نجد فى أجيال الإنس[1] ؟ فأجابه : هيهات أيها المرحوم . إنا أهل ذكاء وفطن ، ولابد لأحدنا أن يكون عارفا بجميع الألسن الإنسية ، ولنا بعد ذلك لسان لايعرفه الأنيس .

٣ — فرسالة الغفران تكبر الجن وتعظم شأن أدبهم . والذى جمعه المرزبانى من أشعار الجن هذيان لايعتمد عليه . وللجن آلاف من الأوزان ماسمع بها الإنس ، ولايعرف هؤلاء من النظم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ، ومساحة الأرض ؛ وشعرهم لا يساوى شيئا إذا قيس بأشعار الجن . ومن الأدلة على مقدرتهم فى النظم كلمات الشاعر الجنى الكافر على قافية امرىء القيس : منزل وحومل[2] .

أما وحيهم إلى شعراء الإنس فلا يعدشيئا مذكورا ، ولا ينسب إلى شاعر فحل من الجن، ولم ينزل فحول الجن إلى مستوى الوحى بالشعر إلى الإنس . وإنما كانت تخطر بهم أطيفال منهم عارفون فتنفث إليها مقدار الضوازة من أراك نعمان .

٤ — وأرى أن أبا العلاء ينكر أشعار الجن التى جمعها المرزبانى . ثم يسخر من فكرة شياطين الشعراء أيضاً ، بسبب قلة الأوزان التى يقال فيها شعر الإنس ، وذلك لايليق بهم ، ولا بما عندهم من آلاف الأوزان التى لم يسمع بها الإنس . وهل نفهم من ذلك أن أبا العلاء كان ضيق الصدر بهذه الأوزان أيضاً ، ويود لو اتسعت وتحرر الشعر العربى من قيودها إلى أوزان أوسع ؟

---

(١) رسالة الغفران ٩٤ (٢) ص ٨٧ .

وكان العرب ينسبون شعرهم إلى هذه الشياطين إعجابا به ، وإكبارا له . أما أبو العلاء فرآه عبث أطيفال من الجن . وليت هؤلاء الأطفال ينفثون بكل ما يعرفون ، فربما كان عندهم خير من هذا ، ولكنهم نفثوا بأقل ما يستطيعون .

فأبو العلاء فى الرسالتين يعرض الفكرة ويحاول أن ينقدها . ويؤثر فى نقده أن يدور قليلا ، ولا يصرح بالإنكار .

وأما حديث أبى العلاء مع أحد خزنة الجنة ، زفر ، فقد تضمن أن الشعر قرآن إبليس اللعين ، وأن بنى آدم تعلموه من الجان . وأن إبليس نفثه فى إقليم العرب فتعلمه نساء ورجال . وسياق هذا الحديث لايدل على الإيمان بفكرة شياطين الشعراء وإنما انتفع بها أبو العلاء فى قصته .

وتلك حالة الشك التى تغلب على كثير من آرائه ، ولكنه صرح بإنكار الشياطين والملائكة فى اللزوميات[1] اعتمادا على أنه لم يدركها بحسه ، وكأنه ليس هناك من وسائل العلم إلا الحس ، وذلك إذ يقول :

قد عشت عمرا طويلا ماعلمت به ... حسا يُحَسُّ لجنى ولا مَلَكِ[2]

موازنة عامة :

ولو استعرضنا شياطين الشعراء فى التأليف القصصى ، لوجدنا أبا زيد القرشى يعرض الفكرة الجاهلية فى زمن إسلامى . فيجعل الراوى الذى يحدث بالقصة إسلاميا من عصره أو قبله بقليل ، أما شياطين الشعراء الذين ظهروا فى القصص الثلاث وهم هبيد ومسحل السكران ولافظ بن لاحظ فهم جاهليون . ولكن أبا زيد القرشى يعلم من الأساطير أن الشياطين تعمر طويلا . وساعده ذلك على إظهار هذه الشياطين فى الدولة العباسية .

ولم يخالف بديع الزمان الفكرة الجاهلية ، وكل مافعله أنه عرضها فى ثوب أدبى حديث ، هو ثوب المقامة التى عرف بها ونبغ فيها . ففى المقامة الأسودية يعجب من الشعر

(١) ص ٨٧ (٢) لزوم ما لا يلزم ٢/١٣٩ (٣) انظر فلسفة أبى العلاء مستقاة من شعره . ١٢٢ — ١٢٣

الذى أنشده الغلام الصغير ، فيخبره أنه له . لأنه يتلقى شعره من شيطانه أمير الجن الذى يذهب به فى كل فن من فنون الشعر . وفى المقامة الإبليسية يظهر الشيخ لعيسى بن هشام ، ويهديه إلى المكان الذى يجد فيه إبله الضالة . ولكنه يستنشده من أشعار الفحول فينشده، فلا يطرب لذلك . ويقول هو شعرا يتبين عيسى بن هشام أنه لجرير ، فلا يخفى دهشته من هذا الانتحال ، ويبدى مافى صدره ؛ فيجيبه الشيخ أنه هو الذى أملى على جرير شعره، وأن كل شاعر له معين من هذه الشياطين . وقد تقدم أن الفرق بين البديع وأبى زيد القرشى غير ملحوظ .

أما ابن شهيد فلم تكن غايته أن يبدى هذه الأساطير القديمة فى أسلوب أدبى جديد . ولكنه أراد شيئا آخر وراء ذلك ؛ أراد أن ينفع بهذه الأساطير انتفاعا أدبيا ، فقد كان له خصوم وحساد لايعترفون له بما يظنه فى نفسه من مقدرة ونبوغ ، فجعل شياطين الشعراء تشهد له ، وتجيز شعره ، فيستغنى بشهادتهم ، وهم مصدر الشعر وأربابه . وتكون شهادتهم إفحاما لخصومه ، وتقريرا لفضله .

أما أبو العلاء فذو آراء خاصة يتخذ من قصصه وأشعاره وسيلة لعرضها ، وعلى هذا كان رأيه نقديا ، فهو يعرف الأساطير التى تنسب الشعر إلى الشياطين ، ولا يريد أن ينسب أدب صاحبه إلى الشياطين لأنها لاتستطيع أن تنفث شيئا فى صدره المملوء بالقرآن والتفسير، ولا يمكن أن يكون هذا الأدب من وحى الملائكة لأنها لاتنطق بمثل شعره ، ولم يرد عنها شعر . فإذا أحس اعتراضا عليه بما شاع عند العرب ، جعل ذلك زعما وجعل الذى يقول إن حسان وغيره من قالة الحق تعينهم الملائكة (مدعيا) . ولم ينس أن تأييد جبريل لحسان جاء به الحديث ، فجعل ذلك خصوصية .

ولم ينس الإشارة إلى طول أعمار الشياطين ، وأنها قد توحى إلى أكثر من شاعر مع تباعد الأزمان . ولكنه لم يقرر ذلك ، بل علق عليه — إن صح — احتمال وحيها إلى صاحبه النكتى البصرى . وكذلك كان أمره مع الجنى الذى نفى وحيه إلى البصرى . فإنه عاد فجعل ذلك ممكنا لو كان الجنى مسلما ؛ وفى الجن مسلمون .

أما رأيه فى رسالة الغفران ، فيظهر أنه سخرية من الفكرة وعدم إيمان بها فلا شعر للجن ، ولا وحى لهم إلى الناس ، وأول الأمرين هذيان ، وثانيهما عبث صبيان .

فأبو زيد القرشى وبديع الزمان يعرضان الفكرة القديمة ، وابن شهيد ينتفع بها فى بيان فضله ، وإفحام خصومه . أما أبو العلاء فيسخر منها ويشك فيها .

ذيل :

ونختم هذه الفصول فى التأليف القصصى بالإشارة إلى أن قصص الكهانة ، وكثيرا غيرها من قصص الجن ، دونت فى هذا العصر ، لأنه كان عصر التدوين ، بعضها بلا تعليق ولا نقد كقصة طريفة الكاهنة فى المسعودى[١] ، وغيرها من القصص المذكورة فى سيرة ابن هشام . وقد يشك العلماء فيها عند تدوينها ، كالجاحظ الذى لم يقف عند حد الإنكار بل تجاوزه إلى محاولة التعليل فى قصص الجن .

وإذا كان من المعتزلة والفلاسفة من أنكر الجن أصلا كالنظام[٢] وابن سينا[٣] فلا عجب أن ينكروا قصصها . وأن يعدوها من باب الأساطير .

وقد حاول مؤلفو قصص الكهان ورواتها أن تكون صورة صادقة لما عرف من ذلك فى عهد الأساطير ، وطبعوها بطابعها من حيث المكان الذى يتلقى فيه الكاهن عن الشياطين ، واللغة التى تدون بها تلك الكهانة ، والأحداث التى كان يحتاج فيها إلى هؤلاء الكهان .

ولا شك أن بعض هذه القصص قديم منقول عن العصر الأسطورى . فقد كانت هناك كهانة بنص القرآن . ورويت عن هذه العصور الأسطورية قصص لم يكذبها الجاحظ ، وإن عاب الإيمان بها ضمنا ، عندما عاب الإيمان بقصص الشياطين والجن عامة[٤] ، وبعض هذه القصص كغيره من قصص الجن ، كان موضع شك فى التأليف الحديث[٥] .

وقد تقدمت إحدى هذه القصص وهى قصة خنافر بن التوءم الحميرى ورئيه « شصار » الذى أتاه فى منامه وهداه إلى الإسلام ، وحمله على الارتحال إلى المدينة لمبايعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد روى هذه القصة أبو على القالى عن ابن دريد ، وابن دريد متهم بالتلفيق ، وأحاديثه التى رواها عنه القالى يجرى أكثرها على ألسنة ناس مجهولين يغلب على الظن أنهم من اختراعه كالقصص ذاتها . ويميل كثير من العلماء المحدثين إلى اعتبار هذه الاحاديث أصلا للمقامات التى وضعها ابن فارس وتلميذه البديع .

---

(١) مروج الذهب ٢٢٩/١ (٢) النظام ٤٨ (٣) Magic, Divination and Demonology
(٤) الحيوان ١٨٥/١ و ٣٠٨ (٥) فى الأدب الجاهلى . الكتاب الثالث ١٣٥/٣ . (الدين وانتحال الشعر) و ١٥٢/٤ (القصص وانتحال الشعر) وانظر تاريخ اداب العرب ٣٧٦/١ — ٣٧٩ .

الفصل الثامن

بعض التحول فى ظاهرة شياطين الشعراء

لا نعنى بهذا التحول فى ظاهرة شياطين الشعراء شيئاً جديداً كل الجدة، لم يكن للعصر السابق أو الذى قبله عهد به . فإننا سنتحدث فى هذا الفصل عن الوحى بالشعر فى المنام أحلاما أو هتافا . وقد سمعنا فى العصر الأسطورى أن الهواتف كان لها أثر فى حياة عمرو بن كلثوم . وهى التى هتفت بعبد المطلب أن يحفر زمزم . وأول شعر قاله عبيد كان بعد أن أتاه آت فى المنام وألقى كبة من شعر فى فيه .

كما هتفت هذه الهواتف فى أحداث الإسلام الكبرى . وكان أول ما بدئ به الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة .

وما ظهر فى العصر العلمى لا يعدو ما سبقه فى العصر الأسطورى والدينى . فالهاتف أو القائل أو المنادى أو الآتى فى المنام هو روح من الأرواح فى عقيدة القائلين به ، وهو لم ينطق بالشعر حقيقة ، وإنما توهمه من روى الخبر أو نسب إليه . فهو إذن من باب شياطين الشعراء وإن اختلفت الأسماء . هذا إذا صحت الأخبار التى جاءت عن أصحاب الوحى ومصادره الأولى . وإليك القول :

(أ) وحى الأحلام والهواتف :

١ — الأحلام ظاهرة لازمت الناس منذ كانوا ، وكان لها أثر كبير فى عقائدهم الأولى ، وتوهمهم للمستقبل ، وقضائهم فى كثير من الأشياء . وقد رأى بعض المحدثين من علماء النفس أنها «صدى للميول الفطرية والنزعات من خوف وغضب واشمئزاز ونفور ومحافظة على الذات ، وما يصطبغ بهذه الحالات الوجدانية من أفكار[1] » وقيل إن العقل لا ينام نوماً كاملا عند ما ينام الجسم . وهذه الأحلام هى عمله فى أثناء النوم[2] ، أو أنها تحقيق

(١) الأحلام ٨٥ الدكتور الطويل . (٢) الأحلام نفسه ٢٧٥ .

مقنع لرغبة مكبوتة أومضغوطة كما يقول فرويد[١] . واللاشعور لا ينام أبداً ويجد الفرصة فى النوم عند خمود العقل الواعى فيحقق ما يريده فى غيبته[٢] .

وهذا التفسير للأحلام كله صحيح مجرب . وترجمة هذه الأحلام قد تكون شعراً يقصه علينا الشعراء إذا انتبهوا . ولكنى أبادر فأقول إن هذه الترجمة كثيراً ما يشترك فيها العقل الواعى فيكمل ما نقص[٣] بل إن بيرجسون يرجع عدم الدقة فى الأحلام إلى أن الحواس لا تتعطل أثناء النوم ، ولكن عملها يزيد اتساعاً . أما الأحلام التى فيها تنبؤ بالمستقبل أو توقع لما يحدث فيه ، فتفسيره ظنى لم يقطع به الباحثون فى الأحلام[٤] .

٢ — ومن الشعراء المشهورين الذين أوحى إليهم بشعر أو قصص فى النوم سكيلوس « Aschylus » . فقد جاءه إله الخمر ديونيس وهو نائم وأمره أن يكتب مآسى .. فلما استيقظ حاول أول محاولة فنجح[٥] .

ومنهم كولردج Coleridge الذى قام من نومه بقصته العظيمة قبلاخان (Kubla Khan).

ومنهم روبرت ستيفنسن Robert. L . Stevenson من شعراء الانجليز المحدثين . وله كثير من الحديث عن هذه الأحلام وما أوحى إليه به فيها .[٦] ويقول ادوارد لوكس هوايت E. L. white عن إحدى قصصه : لقد رأيت القصة بتمامها فى النوم ، ولا أقصد أننى رأيتها مستيقظاً ، لكنى حلمت بها نائماً[٧] .

وما أكثر الحديث عن الوحى بالأدب فى المنام .

٣ — وقد رأينا فى العصر العباسى وحياً بشعر فى المنام إلى شاعر كاد ينكر وحى الشيطان إليه وهو بشار[٨] .

قال محمد بن الحجاج : جاءنا بشار فقلنا له : ما لك مغتماً ؟ فقال مات حمارى فرأيته فى النوم ، فقلت له لم مت ؟ ألم أكن أحسن إليك ؟ فقال :

---

(١) نفسه ٢١٣ (٢) Suggestion & Autosuggestion p. 109 (٣) الأحلام ٢٣٤ (٤) Suggestion & Autosuggestion. p. 111 (٥) The outline of Literature, 180 (٦) Creative Imagination p.168 (٧) Ibid, 168 (٨) الأغانى ٣٣١/٣

سيدى خذ بى أتاناً عنـــد باب الأصبهانى

تيّمَتنى ببنانٍ وبدَلٍّ قد شجانى

تيمتنى يومَ رُحنـــا بثنـــاياها الحسانِ

وبغُنـــج ودلال سَلَّ جسمى وبرانى

ولها خد أسيـــلٌ مثـــل خد الشيفرانى

فـــلذا مت ولوعشـــت إذاً طال هوانى

فقلت له : ما الشيفران ؟ فقال : ما يدرينى ؟ هذا من غريب الحمار فإذا لقيته فاسأله .

ولم يكن حمار بشار يقول الشعر أو يعرف الغريب ، وإنما وقع عبء ذلك كله على بشار. وقد يكون رأى هذا المنام حقاً ، وقد يكون بعض عبث بشار .

بل إن قصة هذا الحلم نفسها تنسب إلى أبى العنبس الصيمرى بعد ذلك بمائة عام[1] .

٤ — وحدث للمنصور كثير من الأحلام فى المنام وسمع فيها شعراء ، أو هتف به هاتف بالشعر . ومنها ما فسره بأنه انقضاء أجله . ورأى مرة مناما أفزعه فى قصر الخلد الذى بناه وتأنق فيه . رأى قائلا فى باب القصر يقول[2] :

كأنى بهـــذا القصر قد باد أهله وأوحش منـــه أهلُه ومنازلُه

وصار رئيس القصر من بعد بهجة إلى جدَث يُبنَى عليه جنادلُه

ولا يخفى ما يدفع إلى مثل هذا الحلم فى نوم المنصور . فقد كان مريضاً مشغولا بالتفكير فى الموت من هذا المرض خائفاً أن يحرم المتعة . فكان حلمه صدى لهذا الخوف .

٥ — وقيل حدث هذا لابنه المهدى[3] . وقد رأى هذه الرؤيا بقصر السلامة فى بغداد وكان محدثه شيخاً واقفاً بباب القصر . أو أنه سمع هاتفاً يقول البيت الأول ، السابق — وأجابه المهدى :

---

(١) مروج الذهب ٤/٤٣ . (٢) البداية والنهاية ١٠/١٢٧ .

(٣) نفسه ١٠/٢٥٦ .

كذاك أمور الناس يبلَى جديدها وكل فَتًى يوماً ستَبْلَى فَعَائله

واستمر الحوار بينهما قليلا ، وعرف المهدى أنه راحل من الدنيا بعد ثلاث وعشرين ليلة أو قبل شهر . فمات بعد تسعة وعشرين يوماً .

٦ — وكان للهادى جارية اسمها غادر يحبها ويغار عليها ، ويخشى إن هو مات أن يتزوجها الرشيد . فأقسم له أخوه ألا يتزوجها أبداً . فلما أفضت إليه الخلافة تزوجها مرغمة وتحلل من أيمانه التى أقسمها للهادى . وبينما هى نائمة ذات ليلة: إذ انتبهت مذعورة فزعة ، وأخبرت الرشيد أنها رأت الهادى فى المنام وهو يقول :

أخلفتِ وعـــدى بعـــد ما جاورتُ ســكان المــقابر

ونسيتِـــنى وحنثت فى أيمانك الــكذبِ الفـــواجر

إلى آخره ... وقامت من النوم والأبيات مكتوبة فى قلبها لم تنس منها كلمة ، ولم تلبث أن ماتت بعد ساعة[1] .

وهذه الأبيات من شعر هذه الجارية ومن عمل اللاشعور أو الضمير الحى الذى كان يحس بالغدر ، وأن صاحبته نكثت أيمانها من بعد عهدها . وظل اسمها « غادر » يذكرها بغدرها . فكان هذا الشعر صدى لتلك الأفكار التى تلازمها ، ولهذه الخيانة التى أرغمت عليها ، وسمعت صوتها الداخلى يناديها فى النوم فانتبهت مثقلة بالخيانة التى تمثلت لها ، وترجمتها شعراً حسبته من قول الهادى .

٧ — وكثرت الهواتف فى النوم أو فى مناسبات تتصل بهذا العصر وبالظروف الخاصة التى تشغل بال الحالمين أو الذين يسمعون الهتاف . فقد هتفت بموت أبى حنيفة ورثته ببيتين سنة ١٥٠ هـ[2] . وناحت على وكيع بن الجراح سنه ١٩٧ هـ[3] . وسمع قائل يقول يوم مات الليث بن سعد .

ذهب الليث فــلا ليثَ لكم ومضى العـــلمُ غريباً وقُبرْ

---

(١) نفسه ١٠/١٠٦ . (٢) آكام المرجان /١٤٩ . (٣) نفسه ١٥٠ .

والتفت الناس فلم يروا أحدا وذلك سنه ١٧٥ هـ[1] . وفى تاريخ نيسابور للحاكم أن خبر موت الرشيد أذاعته الجن ليلة مات[2] . وسمع قائل يقول لعمرو بن شيبان الحلبى :

يا نائم الليـــل فى جثمان يقظان   أفض دموعك ياعمرو بن شيبـان

وأبياتاً أخرى كتبها وهو بالشام عن هاتفه الذى أخبره فيها بقتل المتوكل[3] . بل رأى أحد سكان سامرا فى نومه أن قائلا ينشده شعراً فى رثاء المتوكل ، ونعياً على من قتلوه فبكى فى النوم أشد البكاء ، فانتبه من نومه فزعاً وقد حفظ الأبيات[4] .

واشتهر الهتاف بالأخبار البعيدة أنه عمل الشيطان .

٨ — وقال أبو الطيب بن غلبون أنه رأى مناما أخبره فيه هاتفه أن من قال بخلق القرآن كفر . فقد بات ليلة من الليالى فى أيام فتنة الناس بخلق القرآن وهومهموم لما أصابهم فيقول : فبينا أنا نائم على فراشى إذا بهاتف قد جاءنى فقال قل :

لا والذى رفـــع السما   ء بلا دعايم للنظـــر
فــتزينت بالساطعـا   ت اللامعات وبالقمر
ما قال خلق فى القرآ   ن بخلقه إلا كفر
بل هو كلام مــــنزل   من عند خلاق البشر

قال : فلما فرغ قال اكتب ، فمددت يدى إلى كتاب من كتبى وكتبت . . . فلما أصبحت ذكرت الرؤيا . فمددت يدى إلى طاقة كانت بجانبى فوجدت خطى إلى كتاب من كتبى بما قال لى الهاتف . فجلست ولم أخرج إلى الطريق . فلما علا النهار خرجت إلى الحى فمشيت قليلا . فإذا برجل قد قام وسلم على ، وقال : أخبرنى بالرؤيا التى رأيتها البارحة . فقلت: من أخبرك بها ؟ قال : قد ذاعت فى الناس وتحدثوا بها[1] .

وتؤكد هذه القصة ما يراه المحدثون فى الأحلام من أنها صدى لما يشغل الخاطر نهارا .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/١٦٦   (٢) آكام . المرجان ١٤٩
(٣) نفسه ١٥٠   (٤) آكام المرجان ١٥١ .
(٥) تنبيه الأخيار على ما قيل فى المنام من الأشعار ٣٩ (مخطوط بدار الكتب) .

فدفاع ابن غلبون الذى حدثه به الهاتف ليس إلا آراءه ودفاعه . فظاهر أنه كان ينكر خلق القرآن ويعده كفرا ، فجرى لسان هاتفه بما فى نفسه هو .

أما تدوين الأبيات على كتاب وهو نائم ، وتحقق ذلك له بعد أن استيقظ فأمر فيه شىء من الغرابة . لكن كثيراً من الناس يستطيعون أن يقوموا بأعمال جسمانية وهم نائمون . وينتقلون من مكان إلى مكان . بل إن بعضهم يأتى فى النوم أعمالا لا يستطيعها وهو فى اليقظة ، كأن يمشى على جدار ولا يقع . ولا شك أن كتابة هذا الشعر أيسر .

أما أنه يخرج إلى الطريق فيجد الرؤيا قد ذاعت فى الناس من غير أن يتحدث بها هو فأمر غريب ! إنها تحتاج إلى هاتف يحدثهم إن كان ذلك ممكناً ، أو نلجأ فى حلها وتأويلها تأويلا ما إلى التليبياثى أو قراءة الأفكار . وعجائب هذا كثيرة .

٩ — وهذه الهواتف كانت معروفة من قبل ، ولم يبين نوعها . لكنها كانت تعد من الجن فلما أخبرت بحوادث دينية ، وبكت على الصالحين ، ودخلت فى جدل كلامى ، وتحدثت بالحكمة والموعظة الحسنة ، تغير وصفها شيئاً ما فصارت من الملائكة أو من صالحى الجن .

ولا نطعن فى صحتها بأنها أخبار آحاد ، أو أن فى رواتها من لا يوثق به . بل نفترض صحتها لأن وقوعها ممكن ، وموضع الخلاف هو التفسير . فالذين سمعوا أو رأوا فى المنام أو فى اليقظة توهموا أن أحداً حدثهم أو أوحى إليهم . وعلماء النفس يقولون إنه حديث النفس إلى صاحبها فى وقت تقل فيه المؤثرات الخارجية ، وينشط فيه العقل الباطن أو التفكير الداخلى فيكون من ذلك تلك القصص وأشباهها .

ولا أرى فيما تقدم تحولا فى ظاهرة شياطين الشعراء . فإن الأحلام والهواتف فى المنام قديمة . والذى اختلف هو موضوع الوحى . وأرى أن التحول ظهر فى الفصل الأول ، إذ لم يعد لهذه الشياطين الوقار الذى كان لها ، ولا بقى الإيمان بها قوياً كما كان من قبل .

وكان التحول هنا فى انصراف بعض الشعراء إلى القول برؤيتهم للرسول أو الصحابة أو آل البيت وقولهم بوحى منهم ، وكان للتشيع أثره فى هذا . حقاً إن بعض المتشيعين لآل البيت فى العصر الأموى ، كالفرزدق وكثير — جارى الفكرة القديمة فكان له شيطان يوحى إليه . وتأرجح الكميت بين الشيطان الملهم وهو مدرك بن واغم ، وبين رضا رسول الله

صلى الله عليه وسلم حتى أرسل له أكثر من مرة من يقرئه السلام ويقول له : إن الله غفرله بقصيدته البائية «طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب[1]» ، وغيرها. ولكن العقيدة تغلغلت بمرور الزمن وتطورت وأصبح علم علي ، كرم الله وجهه ، وأدبه وشجاعته ، مضرب الأمثال وموضوع القصص عند الشيعة . فكان شعراؤهم يتلقون الوحي من عقيدتهم . ويفسرون ذلك بأنه جاءهم من بركة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو أن علياً كرم الله وجهه أو غيره كان يمينهم على قول الشعر . ومن هؤلاء :

السيد الحميري : (١٠٥ — ١٧٣ هـ) .

وهو شاعر شيعي مطبوع ، امتدت حياته إلى العصر العباسي وعاش فيه زمناً ، وكان من أكثر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام ، وكان متعصباً لآل البيت ؛ يقول فيه بشار[2] : « لولا أن هذا الرجل شغل عنا بمدح بني هاشم لشغلنا ، ولو شاركنا في مذهبنا لتعبنا » .

هذا السيد الحميري بلغ تلك المنزلة العالية من الطبع والكثرة ببركة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي بشره قبل أن يقول الشعر . فقد « روى الحسن بن علي بن المعتز الكوفي عن أبيه عن السيد قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، وكأنه في حديقة سبخة ، فيها نخل طوال ، وإلى جانبها أرض كأنها الكافور ليس فيها شيء . فقال : أتدري لمن هذا النخل ؟ قلت : لا يا رسول الله قال : لامرئ القيس بن حجر ، فاقلعها واغرسها في هذه الأرض . ففعلت . وأتيت ابن سيرين وقصصت رؤياي عليه. فقال : أتقول الشعر ؟ قلت : لا . قال : أما إنك ستقول شعراً مثل شعر امرئ القيس ، إلا أنك تقول في قوم بررة أطهار . قال : فما انصرفت إلا وأنا أقول الشعر[3] . »

ولا حرج على السيد الحميري أن يرى هذه الرؤيا في المنام ، ولكنه يحدثنا أن ذلك كان قبل أن يقول شعراً . والمنام نفسه يحتاج إلى تفسير ، اهتدى إليه ابن سيرين فوفق في التأويل . فوجود نخل لامرئ القيس في أرض سبخة يشير إلى شعره ، والأرض التي تشبه الكافور مع خلوها ، هي موضوعات المدح والحب والتشيع لآل البيت . أما خلوها ففيه نظر ؛

(١) الأغاني ١١٩/١٥   (٢) الاغاني ٥/٧ الساسي   (٣) نفسه ٦/٧

فقد سبقه إلى هذا الشعر عدد من شعراء العصر الأموى وأشهرهم الكميت . وأما الرؤيا فكانت بدء شعره ببركة الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت .

ولم يقتصر الأمر على رؤيته للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتوجيهه له عندما أمره أن يخلع النخل من الأرض السبخة ، ويغرسها فى أرض الكافور ، بل إنه كان ينشد النبى صلى الله عليه وسلم شعره فى المنام[٢] ، والرسول يستمع إلى قصيدته التى مطلعها :

أَجِدٌّ بآل فاطمةَ البُكورُ ... فدمع العين منهمر غزير

ولا ننسى قبل أن نصدق هذه الأحلام أن السيد الحميرى كان غالياً فى حبه غلواً أخرجه عما يليق بالمسلم من إكبار لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] . وقد شغلته هذه المحبة لآل البيت فى اليقظة ، وامتد أثرها إلى المنام . فكان شعره فيهم وحياً من هذه المحبة ، متأثراً بتوجيهها .

٢ — وهذا خبر آخر عجز فيه الشاعر عن أن ينطلق فى شعره ، فلم يقل إلا الشطر الأول من قصيدة فى مدح آل البيت . فجاءه تمامها فى النوم شعراً ، قاله على كرم الله وجهه ، وإليك الخبر :

جاء فى يتيمة الدهر[٣] فى ترجمة أبى القاسم بن على بن بشر أنه كان له جد لأمه يعرف بكولان ، عمل تسعاً وأربعين قصيدة فى مدح أهل البيت . وأراد أن يكملها خمسين فقال : « بنى أحمدٍ يا بنى أحمدٍ » ثم أرتج عليه ، فلم يقدر على زيادة ، فنمه دلك ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم وشكا إليه شكوى عامة من الفقر والمرض ، فقال له : تصدق يوسع عليك ، وصُم يصح جسمك . فقال يا رسول الله ، وأعظم مما شكوته إليك أنى رجل شاعر أتشيع ، وأخص بالمحبة ولدك الحسين ، وتداخلنى له رحمة لما جرى عليه من القتل ، وكنت قد عملت فى أهل بيتك تسعاً وأربعين قصيدة ، فلما خلوت بنفسى فى هذا الموضع « مكة » حاولت أن أكملها خمسين . فبدأت قصيدة قلت فيها مصراعاً وأرتج على ، ونفر عنى كل ما كنت أعرفه .

---

(١) الأغانى ٧/٨ (٢) نفسه ٧/٩ الساسى (٣) ١/٣٦٠

فأفهمه الرسول أن هذا ليس من عمله لقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » . ثم قال له : اذهب إلى على فاسمع ما يقوله . فذهب فسلم عليه ، وقص عليه قصته ، وقال المصراع الأول : « بنى أحمد يا بنى أحمد »

فقال سيدنا على تكملة للبيت والقصيدة :

بكت لكم عَمَدُ المسجدِ

بيثربَ واهتز قبر النبى	أبى القاسم السيد الأصيد
وأظلمت الأفق أفق البلاد	وذُرَّ على الأرض كالإثْمِد
ومكة مادت ببطحائها	لإعظام فمل بنى الأعبد
ومالَ الحطيمُ بأركانه	وما بالبَنِيَّة من تجلَد
وكان وليكو خاذلا	ولو شاء كان طويل اليد

قال : ورددها على ثلاث مرات فانتبهت وقد حفظتها .

ولا نقف طويلا عند ضعف الشعر وغثاثته، ولكنا جئنا به وبقصته لنتبين أثر التشيع فى حبك القصص حول مصدر الشعر والوحى به . وتفسير القصة أن هذا الشاعر قد عمل تسعاً وأربعين قصيدة قبل هذه فى مدح آل البيت . فعواطفه كلها منصرفة إلى هذه الناحية، ومحبة الرسول وآله توجه شعوره وتسيطر على قصائده . فلما عجز عن القصيدة الخمسين شغلته زمنا وكانت حاله تنم عن اهتمام عظيم بإنجازها . وليس لمثل هذه القصيدة التى تقال فى مدح آل البيت إلا الاستنجاد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، عسى أن يعينه ببركته . وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، ويوحى إليه الرسول بالقصيدة فى النوم كما أمل ، لكن الرجل تذكر قوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » . فأعفى الرسول من قول الشعر ، وذهب إلى علىّ ، ذى القدم الراسخة فى البيان شعراً وخطابة ، ومناط أمل الشيعة وغوثهم ، ومنشأ عقيدتهم ، وكان على رضى الله عنه عند حسن ظنه فأتم له القصيدة .

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد مرة أخرى أن القصيدة من شعر الرجل ، وأن عليا

رضى الله عنه لم يقل منها بيتاً . ولـكن الرجل توهم ذلك ، واشتاق إليه فى اليقظة ، وتمنى أن يعينه لما أرتج عليه ، وانحلت المشكلة فى النوم بهذا الحلم الذى قدمناه ، وتيسر له فى النوم ما كان عسيراً فى اليقظة فأتم القصيدة .

ونرى مما تقدم أن بعض التحول قد ظهر فى مصدر الشعر ، فقال هؤلاء الشعراء ، أو اعتقدوا أن شعرهم ينبع من محبتهم لآل البيت . وأنهم يتلقون وحى قصائدهم ، أوقصائدهم نفسها من هذا المصدر . أو أن الرسول عليه السلام توقع لهم الإجادة والنبوغ بما أخلصوا فى حب آل البيت . فإذا عجز أحدهم لجأ إلى ينبوع الحـكمة والمعرفة ، فاستقى منه ، كما فعل كولان فى قصيدته الحسين .

وقد تشيع دعبل بن على الخزاعى ، وله حديث طويل فى التشيع . ومن أشهر قصائده مرثيته فى آل البيت ومطلعها :

مدارس آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزلُ وحىٍ مُقْـفِرُ العَـرَصاتِ

ولا شك أن هذه القصيدة من خير القصائد فى موضوعها فى الشعر العربى . ولما سمعها على بن موسى الرضا أغمى عليه أكثر من مرة ، وأثنى عليها ، وكافأه عليها بعشرة آلاف درهم . وقد استحقت إعجاب الجن وثناءهم عليها ، ولـكن الجنى الذى أثنى عليها كان شيعياً أيضاً .

ذلك أن دعبلا كان فى نيسابور يعمل قصيدة فى عبد الله بن طاهر فى ليلة من الليالى ، فسلم عليه صوت ، فاقشعر بدنه . فقال له الصوت ، لا تُرَع — عافاك الله — فإنى رجل من إخوانك من الجن ساكنى اليمن ، طرأ إلينـا طارئ من أهل العراق فأنشدنا قصيدتك « مدارس آيات خلت من تلاوة » إلى آخرها فأحببت أن أسمعها منك ؛ فأنشده دعبـل إياها ، فبكى حتى خر ، ثم سأله عن اسمه فقال إنه ظبيان بن عامر[1] .

لقد كان دعبل من اليمن ، والذى أعجب بقصيدته جنى من اليمن أيضاً ، وكان دعبل

(١) الأغانى ١٨/٣٩ الساسى .

يتعصب لليمن على مضر حتى هجاهم كثيراً ، ورد على الكميت بشعر ينقض شعره ، فلم يرض رسول الله عليه وسلم عن ذلك . وروى دعبل[1] أن الرسول عليه السلام جاءه في النوم وقال له : ما لك وللكميت بن زيد ؟ . فقال : يارسول الله ما بيني وبينه إلا كما بين الشعراء . فقال : لا تفعل ؛ أليس هو القائل :

فلا زلت فيهم حيث يتهموننى ولا زلت فى أشياعكم أتقلبُ

فإن الله قد غفر له بهذا البيت . قال دعبل : فانتهيت عن الكميت بعدها .

ونحن نرى فى هذين الخبرين شيئاً يتصل بموضوعنا ففى أولهما جنى يعجب بشعر دعبل فى التشيع أو بقصيدة من خير قصائده فى آل البيت . وفى الثانى يقرر دعبل أن النبى صلى الله عليه وسلم رضى عن الكميت حتى دفع عنه هجاء دعبل ، وأمره بالكف عن التطاول عليه .

---

(١) الأغانى ١٦/١١٨ الساسى .

الفصل التاسع

شياطين الشعراء تختفي أمام البحث العلمي (عند العلماء)

سمينا هذا العصر بالعصر العلمي، فقد احتل العقل منزلة عالية فيه، وكان له سلطان كبير، خصوصا عند المتكلمين، كما كانت حركة العلم فيه قوية نشيطة، وحرية الرأي والتفكير موفورة في أكثر الأحيان. فظهرت آراء ناضجة حرة، معتمدة على أساس متين من المنطق والعقل والبحث والتجربة، وتجاوزت هذه الآراء يسير الأمور إلى ماهو خطير، كالبحث في العقائد وصفات الإله والأمور الروحية عامة، وكذلك المسائل الدينية.

وكان للمعتزلة نشاط عظيم، وتحرر من حرفية النصوص، ونقد وتأويل لما يروى، وتحكيم للعقل وصل بهم إلى آراء تكاد تكون إنكارا تاما للأساطير والخرافات، ومنها أساطير الجن والشياطين. وكان النظام والجاحظ على رأس الذين بحثوا هذه المسألة، ووصلوا فيها إلى رأي يذكر صراحة، أو يفهم من طريقتهم وآرائهم الأخرى.

النظام[1]:

كان أبو إسحق أديبا بجانب الفلسفة، ولم نر في أدبه، ومنه الشعر، أي إشارة إلى أنه يتلقى وحيا من الشياطين. بل نراه على العكس من ذلك، يتحدث حديث الفلاسفة. ويأتي بالمعاني الدقيقة في شعره ونثره. فإذا أضيف إلى ذلك أنه ينكر الجن رأسا كما يقول الشهرستاني[2]، وأنه يكذب مزاعم العرب عن الغيلان والتغول؛ جاز لنا أن نستنبط تكذيبه لشياطين الشعراء، وحسبان ذلك أوهاما وخرافات. ونحن نعرف من تاريخه أنه كان يؤمن بركنين أساسيين لابد منهما في العلم، وهما: الشك والتجربة. ولايستقيم الإيمان بشياطين الشعراء مع هذين الركنين.

---

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن سيار بن هانىء النظام، أحد كبار المعتزلة في البصرة، وفرسان أهل النظر والكلام على مذهب المعتزلة. وكفاه فضلا أنه أستاذ الجاحظ، وأحد كبار المعتزلة في الإسلام. (النظام، أبوريده ص١)

(٢) الملل والنحل ٧٤ (المطبعة الأدبية سوق الخضار سنة ١٣١٧ هـ).

١ — «أما أوهام العوام فى الطيرة والأحلام فينكرها[1]» ، ويوافق المعتزلة عامة فى أن الإنس لايستطيمون رؤية الجن . لأن طبيعة تكوين هؤلاء لا تمكن الإنس من رؤيتهم ، مستدلين بقوله تعالى : « يابنى آدم لايفتننكم الشيطانُ كما أخرج أبويكم من الجنة ، يَنزِع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيلُه من حيث لا تَرَونهم » .

يقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية : « وفى ذلك دليل بين على أن الجن لا يُرَون ، ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس فى استطاعتهم :وأن زعم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة[2] » .

٢ — وما روى عن العرب من أشعار وأحاديث حول الجن والغيلان ، وأنهم سمعوهم أو كلوهم ، حديث خرافة عند النظام ، له تحليل نفسى ، وتعليل عقلى : ذلك « أن الوحشة عملت فى القوم ، لنزولهم بلاد الوحش ثم يقول : « وإذا استوحش الإنسان مثل له الشىء الصغير فى صورة الكبير ، وارتاب وتفرق ذهنه ، وانتقضت أخلاطه ، فيرى مالا يرى ، ويسمع مالا يسمع . ويتوهم الشىء الصغير أنه عظيم وجليل ، ثم جعلوا ماتصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه ، وأحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك إيمانا ، ونشأ عليه الناشىء ، وربى به الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافى ، وتشتمل عليه الغيطان فى الليالى الحنادس، وعند أول وحشة أو فزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ، يرى كل باطل ، ويتوهم كل زور . وربما كان فى الجنس والطبيعة نفاجا كذابا ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول فى ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة . ومما زادهم فى هذا الباب وأغراهم به ، ومدلهم فيه ، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار ، وبهذه الأخبار ، إلا أعرابيا مثلهم وإلا غبيا لم يأخذ نفسه قط بتمييز مايوجب التكذيب والتصديق أو الشك ، ولم يسلك طريق التوقف والتثبيت فى هذه الأجناس فقط » .

وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر ؛ فالرواة عندهم كلما كان الأعرابى أكذب فى شعره ، كان أطرف عندهم ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك أحاديثه أكثر . فلذلك صار بعضهم يدعى رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها ، أو تزويجها[3] » .

---

(١) ضحى الإسلام ١١٤/٣ (٢) نفسه ٨/٧ (٣) الحيوان ٢٤٨/٦ — ٢٥٢ تحقيق هارون

بل إنه عرض لماروى من ذلك عن الصحابة بالتكذيب فأنكر ماروى عن ابن مسعود من أنه رأى قوما من الزط فقال : « هؤلاء أشبه من رأيت بالجن ليلة الجن[١] » .

٤ — وبعد فالنظام من المعتزلة الذين يقولون إن « إرادة الإنسان حرة ، وقدرته تخلق مايعمل ، وفى استطاعته أن يفعل ، وألا يفعل ، وهو يفعل مايختار[٢] »

ومن آرائه أن الروح تشابك البدن ، لكنه كان يرى أن الفعل للروح وحدها ، وهى تفعل فى نفسها ، وتفعل فى هيكلها وظرفها ، وهى التى تحس وتدرك بنفسها[٣] .

فليس فى آرائه إذا أى إشارة إلى تأثير الشياطين فى الشعراء أو وحيهم إليهم. بل إنه على العكس من ذلك ينكرها ، ولا محل لها بين آرائه .

الجاحظ :

١ — أما أبو عثمان ، عمرو بن بحر ، الجاحظ ، تلميذ النظام ، وكبير الأدباء فى المعتزلة ، فقد بحث ماجاء عن العرب من خرافات وأساطير حول الجن فأنكرها . وكان له فى ذلك طرق مختلفة ، منها طريقته فى التعبير عند رواية تلك الأساطير ، فتراه يقول أحيانا : « والأعراب يتزيدون فى هذا الباب ، وأشباه الأعراب يغلطون فيه، وبعض أصحاب التأويل يجوز فى هذا الباب مالايجوز[٤] »

وكثيرا مايقدم لهذه الأخبار بقوله : زعموا ، يزعمون ، ومن قول الأعراب ، والعوام تروى ، والعامة تزعم ، وهم يدعون ، والأعراب وأشباه الأعراب لايتحاشون من الإيمان بالهاتف ؛ أو شبه ذلك .

٢ — وهو يفند الروايات التى وردت فى ذلك، ويؤول ما يحتمل التأويل ويفسر مايحدث به، أو يروى له تفسيرا نفسيا عقليا كأستاذه النظام ، وانظر إليه حين يتحدث عن سكنى الجن أرض « وبار » إذ يقول : « الموضع نفسه باطل ؛ فإذا قيل لهم دلونا على جهته ، ووقفونا على حده وخلاكم ذم ؛ زعموا أن من أراده ألقى على قلبه الصرفة ، حتى كأنهم أصحاب موسى فى التيه[١] » .

---

(١) ضحى الإسلام ٣/٨٧ (٢) نفسه ٥٥ (٣) النظام أبو ريده ١١١ (٤) الحيوان ٦/١٦٤
(٥) الحيوان ٦/٢١٦

وورد « فى بعض الرواية أنهم كانوا يسمعون فى الجاهلية من أجواف الأوثان ،همهمة، وأن خالد بن الوليد حين هدم العُزّى رمته بالشرر حتى احترق عامة فخذه ، حتى عاده النبى صلى الله عليه وسلم » ويعقب الجاحظ على ذلك بقوله : « وهذه فتنة لم يكن الله تعالى ليمتحن بها الأعراب وأشباه الأعراب من العوام ، وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب . ولو علمت أو رأيت بعض ماقد أعد الهند من هذه المخاريق فى بيوت عباداتهم ، لعلمت أن الله تعالى قد من على جملة الناس بالمتكلمين الذين قد نشئوا فيهم[1] » .

ويروى أن عمرو بن العاص قام فى الناس فى طاعون عمواس فقال : « إن هذا الطاعون قد ظهر ، وإنما هو وخز من الشيطان، ففروا منه فى الشعاب »، وبلغ معاذ بن جبل،فأنكر ذلك القول عليه[2] .

ويروى ماحدثه به أبو نواس عن لقائه لأعرابى فصيح بالمربد عن مراكب الجن، وقد أجاب الأعرابى أبا نواس بأن هذا من أكاذيب الأعراب[3] .

فإذا وردت آية ، أو روى حديث عن الشياطين لايقبله العقل ، تأوله الجاحظ كما يفعل المعتزلة ، فهو لايثبت الشياطين ولا ينكرها ، فى قوله تعالى ؛ « طَلْعُها كأنه رءوس الشياطين» وإنما يعد ذلك تعبيرا بلاغيا ، هو تشبيه شىء بشىء فى القبح كما شاع عند العرب وعرف[4] . وطريقته فى إيراد الأحاديث المثبتة للشيطان تدل على أنه لايقبل ظاهر ألفاظها[5] أو أنه ينكرها كما يفهم من حديثه مع من يحاوره . وقد أورد تعليل النظام وتحليله لإيمان الأعراب ونشأة عقيدتهم فى عزيف الجن ، وتغول الغيلان كما قدمناه[6] بطريقة تفيد تأييده لآرائه .

٣ — وكان يعد وجود المتكلمين نعمة حين يذكر أسطورة من هذه الأساطير ، أو يورد تأويلا لخبر، أو تفسيرا لآية. فإنه حين تحدث عن تناجل الأجناس المختلفة قال:«وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها ، كالذى يدعون من أولاد السعالى من الناس ، كما ذكروا عن عمرو بن يربوع ، وكما يروى أبو زيد النحوى عن السعلاة التى أقامت فى بنى تميم حتى ولدت فيهم» ثم قال «ولم أعب الرواية وإنما عبت الإيمان بها والتوكيد لمانيها ؛ فما أكثر من يروى هذا الضرب على التعجيب منه ، وعلى أن يجعل الرواية له سببا لتعريف الناس حق

(١) ٦/٢٠١ (٢) ٦/٢٢٠ (٣) ٦/٢٣٩ (٤) ٦/٣١١ (٥) ٦/٣٢٣
(٦) ٦/٢٤٨ — ٢٥٢

ذلك من باطله . وأبو زيد وأشباهه مأمونون على الناس ، إلا أن كل من لم يكن متكلما حاذقا ، وكان عند العلماء قدوة وإماما ، فما أقرب إفساده لهم من المتعمد لإفسادهم[1] »

٤ — وله حديث تحت عنوان « باب الجد من أمر الجن[2] » جادل فيه قوما يطعنون فى استراق السمع . ومن أهم مطاعنهم أن الجن من الذكاء والفطنة بحيث لا يجهلون صدق الوعيد فى القرآن ؛ وليسوا من الغفلة بحيث لا يتعظون بما يصيبهم أو يصيب غيرهم من رجم وإصابة بالشهب ؛ وإذا كانوا كذلك فلا يعقل أن يعرضوا أنفسهم للرجم الذى جاء به القرآن . ويرد الجاحظ عليهم بأن الله ألقى عليهم الصرفة ، كما ألقى على قلوب بنى إسرائيل وهم يجولون فى التيه . وأمثلة أخرى كثيرة لها .

وله هو استدلال قوى على أن هذا الرجم كان فى زمن النبوة أو إرهاصا بها ؛ وقد كذب الأشعار والأخبار التى تشير إلى هذا الرجم خارج هذه الدائرة .

وليست شياطين الشعراء بعيدة عن شكه أو إنكاره . فإنه يجعل وجودها من مزاعم الأعراب إذ يقول : فإنهم « يزعمون » أن مع كل فحل من الشعراء شيطانا يقول ذلك الفحل على لسانه . وجعل حديث البهرانى زعما أيضا .

حقا إن رأى الجاحظ والنظام فى أساطير الجن وخرافاتها يتفق مع آراء المعتزلة وإكبارهم للعقل ؛ وتحكيمه فى كل الأمور . أما رأيهما فى شياطين الشعراء فهو جزء من من آراء المعتزلة فى أفعال العباد وحرية الإرادة . وهم لا يقولون بنسبة شىء إلى الشياطين على المعنى الذى يفهم عند العرب ، من وحيهم إلى الشعراء

وقد تركت آراء المعتزلة ، وآراء اليونان المترجمة ، وانصراف العلم إلى البحث فى النفس الإنسانية وقواها ، آثارا فى تفكير العلماء تتبينها واضحة جلية حين نقرأ آراء علماء النقد فى مصدر الشعر وظروف إنشائه ، واختلاف المواهب فيه ، والدوافع إلى قوله ، والقدرة على اكتساب المهارة فيه .

---

(١) ١٨٥/١ (٢) ٢٦٤/٦ — ٢٨٢

الفصل العاشر

شياطين الشعراء تختفى أمام البحث العلمى (عند الأدباء)

١ — جاء العصر العلمى فروى الآراء والقصص القديمة ، واتخذ منها وسائل لهو وتسلية ، وأبواب دراسة وبحث ، وأمثلة تحتذى ، أو موضوعات يدور حولها الأدب . ولـكنهم لم يقفوا من فـكرة الشياطين القديمة وقصصها موقف القبول والتسليم ، حتى ما جاء منها فى القرآن الـكريم وأحاديث الرسول كما سبق .

أما العلماء المشتغلون بالنقد والأدب فقد خضعوا للعصر العلمى الذى كانوا يعيشون فيه ، فبحثوا عن مصدر الشعر فى داخل النفس الإنسانية لا فى خارجها ، وسكتوا عن شياطين الشعراء فلم يثبتوهم ولم ينـكروهم ؛ لأن انصرافهم إلى النفس كان شاغلا لهم إلى حد كبير .

حقاً إن إرجاع الشعر إلى القوى النفسية بدأ من العهد الأسطورى ، ولـكنه كان ضعيفاً، لا يكون فـكرة عامة ولا رأيا شاملا ؛ وكذلك الـكلام فى الدوافع والبواعث ، والظروف المساعدة على قول الشعر وإجادته . أما فى هذا العصر فقد نظمت الدراسة ووضحت الآراء، ووضعت على شـكل أحكام عامة ، أو قواعد مقررة ؛ بسبب مجهود العلماء ، وحسن انتفاعهم بما درسوه من آثار أسلافهم فى العصرين الأسطورى والدينى ، وما قرره علماء العصر العلمى من أمور تخص النفس الإنسانية وقواها المختلفة ، كأحاديثهم فى الذكاء والطبع والقريحة والعقل . وكان بعض هذه الآراء من جهودهم كحديث المتـكلمين الأولين فى أفعال العباد ؛ أو مما نقل إليهم ؛ كتقسيم النفس إلى ناطقة وغير ناطقة كما يرى أرسطو . وتقسيم العقل إلى موهوب ومكسوب[1] .

وكان هناك جماعتان من الباحثين ؛ إحداهما عربية المادة والتفـكير ، متأثرة بالثقافة

(١) نقد النثر / ٦ .

العامة الشائعة ، ومنها الجاحظ . وجماعة أخرى تأثرت باليونان عامة ، وكتاب الشعر لأرسطو خاصة ؛ وهم الذين ترجموا هذا الكتاب ، كالفارابي ومتى بن يونس وابن الهيثم وابن سينا .

والجماعة الأولى أشهر في تاريخ النقد والأدب ، لبقاء كتبها ، وأهمية الموضوعات التي تعالجها هذه الكتب ؛ ووضوح أسلوب هذه الجماعة ، وخفة دراستها . ويمثل هذه الجماعة في تاريخ التأليف العربي : ابن سلام (المتوفى سنة ٢٣٢ هـ) والجاحظ (سنة ٢٥٥ هـ) وابن قتيبة (سنة ٢٧٦ هـ) وقدامة بن جعفر (سنة ٣٣٧ هـ) والقاضي الجرجاني (سنة ٣٩٢ هـ) وأبو هلال العسكري (سنة ٣٩٥ هـ) وابن شهيد (سنة ٤٢٦ هـ) وابن رشيق (سنة ٤٥٦ هـ) .

وكان بعض كتب هذه الجماعة خاصا بالشعر ، كالعمدة لابن رشيق ، وبعضها في النظم والنثر كالصناعتين لأبي هلال العسكري ، وبعضها مستقلا بهذا الفن أو ذاك كنقد الشعر ، ونقد النثر ، لقدامة . وبعضها في الموازنات لكنه لايخلو من حديث في المقدمة عن صناعة الشعر أو مصدره أو دراسة ما يتصل به . وقد يكون الكلام عاما في الموهبة الفنية وإن أريد تطبيقه على الخطابة مثلا كحديث الجاحظ في البيان والتبيين : وهذه آراؤهم كما تظهر لي من كتبهم .

ا — ابن سلام — وكتابه طبقات الشعراء — قسم ابن سلام الشعراء الجاهليين والإسلاميين إلى طبقات كما يفهم من اسم الكتاب . وقد راعى في هذا التقسيم ماتشابهوا فيه وما اختلفوا . وتراه في الحديث عنهم يلاحظ أثر البيئة(١) والزمن(٢) في اختلافهم . واسترعى انتباهه وراثة الشعر(٣) وأثر الدوافع في كثرة الإنتاج وقلته(٤) . كما تحدث عن أثر الثقافة في الشعر(٥) . ولكنه لايقرر ذلك على أنه قواعد وأصول ، وإنما يعرض للأخبار التي تؤدي إلى هذا . وأهم ما اهتم به في مقدمته هو الانتحال ، ووضع الرواة الشعر على ألسنة سابقيهم من الشعراء(٦) .

ب — وأما الجاحظ ، فله آراء كثيرة في مصدر الأدب وظروف إنتاجه ، وإن كان

---

(١) طبقات الشعراء ٧٣ (٢) نفسه ٢٤ (٣) نفسه ٣٧ (٤) نفسه ١٠٢
(٥) نفسه ١٠٤ (٦) نفسه ٢٣

حديثه عن الخطابة أكثر . وقد نقل عن أبى دواد بن جرير[1] رأياً يرجع فيه الخطابة إلى الطبع والمران والحفظ ، ثم التعمل والصنعة فى مراعاة الإعراب ، وتخير الألفاظ ، مع التلطف وحسن الاختيار . وهذا الرأى هو : « رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه » ومقاله هذا ينطبق على الإنتاج الأدبى ؛ فإن أى فن آخر يحتاج إلى ما تحتاج إليه الخطابة ، ليكون صاحبه مجيداً فى فنه . أما الطبع فأساس لأى نبوغ ، والمراد به أن يكون المرء قد وهب المقدرة على القول والفعل فى ناحية من النواحى الفنية . ولكنه لابد مع الطبع من الممارسة والمران . ولا يستغنى أى فنان عن العلم بما يتصل بفنه ، والاطلاع على ما ظهر من آثار فنية فى ميدانه ، ويتلقى أصول الصنعة أيضاً ، ليجتمع الطبع مع تجارب الآخرين ، ويتعاونا على الإجادة . ولكنه يحذر التكلف إذ يقول : « والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه » .

وأدرك الجاحظ أن المواهب الأدبية قد تتعدد ، فذكر أسماء عدد من الكتاب الخطباء الشعراء ، كسهل بن هرون[2] ، ومن جمع بين الشعر والخطابة كالكميت وبشار . وفى حديثه عن اختلاف المواهب باختلاف الناس يقول : « وقد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليس له طبيعة فى الكلام .. ويكون له طبع فى تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ، ولا يكون له طبع فى قرض بيت من الشعر . وفى الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز ، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد ، ومنهم من يجمعهما .. وفى الشعراء من يخطب ، وفيهم من لا يستطيع الخطابة ، وكذلك حال الخطباء فى قرض الشعر[3] .

وهو يشير إلى أن الاكتساب واجب إذا سبقه الطبع . وأن النبوغ عندئذ ممكن ؛ ويضرب مثلا لذلك واصل بن عطاء الذى استطاع بالمماناة والمكابدة أن يسقط الراء من كلامه فى الخطابة ، مع كثرة دورانها فى الكلام[4] . كما أن إهمال الطبع يؤدى إلى إهمال القريحة[5] . ومن الأوقات ما يلائم إنشاء الآداب ، ومنها ما يستعصى القول فيه ، فتجب مراعاة هذه

(١) البيان والتبيين ١/٥١ (٢) نفسه — ٥١

(٣) نفسه ١/١٥١ (٤) ١/٣٢ (٥) ١/١٤٧ .

الأوقات ؛ ويحددها بأنها ساعات النشاط وفراغ البال . وينقل صحيفة من تحبير بشر بن المعتمر المعتزلى فيها تأييد ذلك[١] .

ويبدو لى أن الجاحظ مشاهد ناقل ، فإن ما قرره من اختلاف المواهب واستجابة الطبع فى أوقات دون أخرى أحكام يمكن إدراكها بملاحظة النفس أو أحوال الآخرين : ولكن ما سبب هذا الاختلاف بين الطبائع؟ وما فضل وقت على وقت؟ لعله يفسر ذلك بإرجاعه إلى أصل الخلقة ، وأن الله سوى الناس هكذا . وأما اختلاف القدرة باختلاف الأوقات التى سماها أوقات النشاط ، فيرجعه إلى الراحة والتعب وأثرهما فى استجابة النفس ، ولكنه لم يتعرض هنا لكثير من البواعث التى تدفع إلى القول دفعا كالرضا والغضب ، والحب ، والبغض ، وحلول النوائب والمسرات .. الخ .

وللجاحظ التفاتة يهتم بها رجال التربية ، وهى أن الطبع فى لغة يسرى إلى الأولاد وإن تعلموا لغة أخرى ، ويعنى بذلك الوراثة ، ويذكر دليلا على هذا الرأى آل الرقاشى ، كان أبوهم خطيباً وكذلك جدهم ، وكانوا خطباء الأكاسرة . فلما سُبُوا وولد لهم الأولاد فى بلاد الإسلام وفى جزيرة العرب ، نزعهم ذلك العرق فقاموا فى أهل هذه اللغة كقيامهم فى أهل تلك اللغة ، وفيهم شعر وخطب ، ومازالوا كذلك ، حتى أصهر الغرباء إليهم ، ففسد ذلك العرق ودخله الخور[٢] .

كما يقرر قاعدة معروفة فيقول : « واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها ، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسوارى[٣] . وعده من أعاجيب الدنيا لأنه شذوذ فى القاعدة .

والجاحظ كان واسع الثقافة ، كبير العقل ، دقيق الملاحظة ، فاهتدى إلى هذه الآراء التى ترجع الأدب إلى الطبع والكسب ، وترده إلى النفس الإنسانية المختلفة الأحوال . وكان عربيا إسلاميا فى دراسته وأمثلته ، وإذا كان لم يصل إلى ما اهتدى إليه المحدثون ، وبخاصة علماء النفس ، فلأنه لم يتفرغ لهذه الأبحاث . وكان أديبا قبل أن يكون من العلماء النفسيين .

حـ — وأما ابن قتيبة فلم يزد على الجاحظ فى الحديث عن التكلف والمطبوع ، وعن

---

(١) البيان والتبيين ١/١٠٤—١٠٦ (٢) ١/٢٠٣ (٣) نفسه ٢٣٤ .

دواعى الشعر وأوقاته إلا فى التفصيل، فالطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر البيت عجزه ، وفى فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة[١] . ودواعى الشعر التى تحث البطىء وتبعث المتكلف منها الشراب ومنها الطرب ، ومنها الطمع ومنها الغضب . وقد التفت التفاتا قويا إلى عموم هذه الدواعى حين أرجع إجادة الكميت فى مدح الأمويين إلى قوة أسباب الطمع ، أو غريزة حب المال كما يقول علماء النفس .

ويعلل القدرة على القول فى بعض الأوقات دون أخرى بأحوال نفسية وجسمية إذ يقول : « ولا تعرف لذلك علة إلا من عارض يعرض على الغريزة من سوء غذاء ، أو خاطر غم »[٢] .

أما اختلاف الطباع باختلاف[٣] الشعراء فلم يصعب على ابن قتيبة إدراكه ؛ لأنه يكاد يكون أمرا عاما فى كل الأزمنة والبلاد ، ولا يحتاج فى إدراكه إلى مجهود كبير ؛ لكن ابن قتيبة كالجاحظ ، لم يرجع واحد منهما ذلك إلى اختلاف الشياطين ، بل أرجعه إلى اختلاف المواهب والاستعداد .

هـ — وقدامة بن جعفر ، وهو أحد المتأثرين بما ترجم عن اليونان ، يرجع الأدب إلى الطبع والعقل، ويقرر بطريقة منطقية أن البيان على أربعة أوجه : أولها بيان الأشياء بذواتها، والثانى البيان الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكرة واللب ، والثالث البيان الذى هو نطق باللسان ، والرابع البيان بالكتاب ، الذى يبلغ من بعد أو غاب[٤] .

ولا يستغنى هذا البيان عن العقل ، لأنه هو الذى فضل الله به الإنسان على غيره من المخلوقات[٥] . وقد قسمه قسمين : موهوب ومكسوب[٦] . فالموهوب ما جعله الله فى جبلة خلقه . وقد فضل الله فى هذه الموهبة بعض خلقه على بعض ، على مقدار علمه فيهم ، كما فضل بعضهم على بعض فى سائر أخلاقهم وأفعالهم. والمكسوب ما أفاده الإنسان بالتجربة والعبر، والأدب والنظر . والموهوب أصل والمكسوب فرع .

---

(١) الشعر والشعراء / ١٢ (٢) الشعر والشعراء ٩ (٣) نفسه ١٤
(٤) تمهيد لنقد النثر ٧٠ (٥) نقد النثر ٥ (٦) نفسه ٦

وظاهر من هذا أنه يحل العقل بقسميه محلا رفيعا عند الناس ، والأدباء منهم خاصة .

فإذا تكلم عن الشعر فى باب تأليف العبارة قال : « وإنما سمى الشاعر شاعرا لأنه يشعر من معانى القول ، وإصابة الوصف ، بما لا يشعر به غيره ، وإذا كان إنما يستحق اسم الشاعر بما ذكرنا . فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى[1] .

وتراه فى الكتاب كله يقرر أن للبيان قواعد يسترشد بها الأديب ليجود بيانه ، ويعلو أدبه ، أى أنه يؤمن باكتساب الأدب مع لزوم الفطرة والطبع ، أو العقل الموهوب أو الغريزة كما يسميه . وذلك إذ يقول : « فإذا كملت هذه الأدوات (ويريد بها العروض والنسب وأيام العرب ورواية الشعر) ورأى من طبعه انقيادا لقول الشعر ، وسماحة به ، قاله وتكلفه ؛ وإلا لم يكره نفسه عليه ، فالقليل مما تسمح به النفس ، ويأتى به الطبع ، خير من الكثير الذى يحمل فيه عليها[2] » .

ى — والقاضى الجرجانى لا يبعد عن الجاحظ كثيرا حين يقرر أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له[3] . فالجرجانى يضع الذكاء بدلا من تخير الألفاظ عند الجاحظ ، ويرى أن ذلك عام بين القديم والمحدث، والجاهلى والمخضرم ، والأعرابى والمولد ، وإن كان المحدث أشد احتياجا إلى الرواية من القديم ؛ وهو يُرجع إلى الطبع والذكاء ، وحدة القريحة والفطنة ، تفاضل القبائل فى الفصاحة ، والرجال فى البيان ؛ فكأن الطبع أصل عنده ، لكن الصنعة لازمة أيضا . ويتحدث عن أصل الشعر فيقول « فإذا اجتمعت تلك المادة والطبيعة ، وانضاف إليها التعمل والصنعة ، خرج كما تراه جزلا قويا متينا[4] » .

وله رأى فى الربط بين الكلام والخلقة إذ يقول : إن بعض الناس شعرهم رقيق ، وبعضهم شعره صلب ، ولفظ أحدهم سهل ، ومنطق غيره متوعر ، « وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة[5] » . وهو تعليل يبدو غريباً إذا أخذ على إطلاقه ، فإنه لا علاقة بين

(١) نفسه ٧٧ (٢) نقد النثر ٨٤ (٣) الوساطه ١٥ :
(٤) نفسه ١٧ (٥) نفسه ١٨ .

جمال الصورة وجمال الأدب ، ولا بين صورة الأديب وأدبه ، ولكنه يريد البداوة والحضارة ، وهذا قول مسلم . أما بناء الأجسام وتركيب الخلق فلا علاقة له بالعقل أو الذوق إلا من عاهة تحدث أو مرض يؤثر ، عند ذلك تتأثر النفس المنتجة أو العقل المفكر ، فيتأثر الأدب بهذا المرض أو بتلك العاهة . وهو على كل حال تأثير مختلف عما يعتبره الجرجانى من سلامة اللفظ ودماثة الكلام . لكنه يتضح من تمثيله أنه يعنى جفوة البادية ، وجلافة الأعراب ، إذ يقول بعد ما تقدم : « وأنت تجد ذلك ظاهراً فى أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كزّ الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته . ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك[1] » ويذكر أثر التحضر فى الشعر واختيار الألفاظ . وبذلك يتضح لنا مراده من تركيب الخلق ودماثة الخلقة وصلتهما بالشعراء .

وهو من الذين يرون ضرورة الطبع والصنعة فى إنتاج الأدب ، ولكنه يعد الطبع أولا ، كما يرى أن تهذيب الطبع لازم لجودة الإنتاج وحسن وقع الأدب إذ يقول : « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ، ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه ، والعنف به ، ولست أعنى بهذا كل طبع ، بل المهذب الذى قد صقله الأدب وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردى والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبح[2] » .

و — وتأثر أبو هلال العسكرى إلى حد كبير بالجاحظ ، وهو ينقل عنه قول أبى دواد[3] وصحيفة بشر بن المعتمر[4] . وقد صرح فى المقدمة بفضل كتاب البيان والتبيين ، فلا عجب أن يظهر أثره فى آرائه .

يرى أبو هلال أن بعض المعانى يقع عليه صاحبه عند الخطوب الحادثة ، ويتبين له عند الأمور الطارئة ، ويبتدعه من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه ، أو رسوم قائمة فى أمثلة مماثلة يعمل عليها . أى أنه يحدثنا عن أثر البواعث المباشرة فى توجيه الذهن إلى المعانى الخاصة الذاتية التى تتولد فى نفس صاحب الصناعة ، لكن هذه المعانى تحتاج إلى الصورة المقبولة ، والعبارة المستحسنة . وقد يذهب تجاهل ذلك بحسنها ويطمس نورها[5] .

(١) الوساطة ١٨ . (٢) نفسه ٢٥ . (٣) الصناعتين ٥٥ .
(٤) نفسه ١٢٩ . (٥) نفسه ٦٧ .

ويرجع جودة القريحة وطلاقة اللسان إلى الله تعالى إذ يقول : « وأول آيات البلاغة جودة القريحة ، وطلاقة اللسان ، وذلك من فعل الله تعالى ، لا يقدر المبدع على اكتسابه لنفسه ، واجتلابه لها[١] » . وليس ذلك إلا صورة للطبع والموهبة والاستعداد ، وإن اختلف التعبير

ز — وعندنا أديب من أدباء الأندلس أحسن الإفادة من شياطين الشعراء ، هو أبو عامر ابن شهيد ، ولم يعرف بين العلماء ، ولا كانت له عناية بالعلم ، لكنه أبدى آراء فى مصدر الشعر من النفس ، فأرجعه إلى الطبع وأعانه بالكسب . وانظر إليه حين يتكلم عن الأبيات[٢] التى تعامها من شيطانه زهير بن نمير إذ يقول « كنت أبا بكر متى أرتج على ، أو انقطع بى مسلك ، أو خاننى أسلوب أنشد الأبيات ، فيمثل لى صاحبى ، فأسير إلى ما أرغب ، وأدرك بقريحتى ما أطلب[٣] » وناظر أنف الناقة ، شيطان أبى القاسم الإفليلى ، فقال له صاحب أبى القاسم : « أنا أبو البيان ، وقد علمنيه المؤدبون » . فرد ابن شهيد : « ليس هو من شأنهم ، إنما هو من تعليم الله تعالى حيث قال : « الرحمن ، علمَّ القرآن ، خلق الإنسان ، عَلَّمَهُ البيان[٤] » .

وله فصل عن أهل صناعة الكلام تحدث فيه عن تباينهم فى المنزلة ، وتفاضلهم فى فى شرف المرتبة ، وتفاوتهم فى البديهة ، واختلافهم فى التحايل ، وأرجع ذلك كله إلى الطبع[٥] . يصرح فى أحد فصوله بأن الطبع أساس فيقول : « وإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع مع وزنه من هذين » . وعلاقة النفس بالجسم عنده ذات تأثير عجيب على الإنتاج الأدبى إذ يقول : « ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه فى أصل تركيبه مستولية على جسمه ، كان مطبوعا روحانيا ، يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيئاتها ، وأروق ملابساتها . ومن كان جسمه مستوليا على نفسه — من أصل تركيبه — والغالب على حسه كان ما يطلع من تلك الصور ناقصا عن الدرجة الأولى فى الكمال والتمام ، وحسن الرونق والنظام[٦] » . وتلك نغمة غريبة نعرفها فى علم الأخلاق أكثر مما نعرفها فى الأدب ، فإن سلطان الجسم والخضوع لمطالبه يؤدى إلى فساد الأخلاق . وسيطرة النفس على الجسم

---

(١) نفسه ٢٥ . (٢) صفحة ٢٣٩ من هذا الكتاب . (٣) الذخيرة ٢١٢/١

(٤) نفسه ٥٤ (٢) نفسه ٢٠٣ و٢٠٤ (٦) نفسه ١٩٧ .

تميل بصاحبها إلى الفضيلة . أما الربط بين صور الكلام والمعانى ، وبين سيطرة الجسم أو النفس ، إحداها على الأخرى ، فذلك أمر لم نعهده صريحا من قبل .

ومهما يكن من شىء ، فابن شهيد أثر من آثار الطبع والصنعة معا ، وإن قل حظه من العلم فإنه لم يعدم حظه من الذكاء . ويقول عنه أبو حيان : « والعجب منه أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه ، فى بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد ، من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ فى الأدب ... وشعره حسن عند أهل النقد ، تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم[1] » .

ح — أما ابن رشيق ، وهو نهاية العلماء ذوى الرأى فى الشعر ممن يضمهم عصرنا الذى ندرسه ، فهو أكثرهم عناية بهذا الفن فى كتابه المسمى « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » من جزءين . وقد وضع عناوين فى هذا الكتاب يصح أن تكون بديلا من شياطين الشعراء منها : باب فى المطبوع والمصنوع ، وباب فى عمل الشعر وشحذ القريحة له ، وباب فى البديهة والارتجال . وقد جمع فى هذه الأبواب آراء لاتخرج عن آراء العلماء السابقين . لكنه أكثر نظاما ، وأحسن تبويبا ، وأوفى أمثلة ، وأجمع لأحوال الشعراء وأقوالهم . وهو يفضل البيت اذا وقع مصنوعا فى نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعمل ؛ على البيت إذا وقع مطبوعا فى غاية الجودة وكان معناهما واحدا[2] . ولكنه ينصح من غلب عليه التصنيع أن يترك للطبع مجالا يتسع فيه ، ويقول : « والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية ، قراره الطبع ، وسمكه الرواية ، ودعائمه العلم ، وبابه الدربة ، وساكنه المعنى ، ولا خير فى بيت غير مسكون[3] . وكأنه يريد من الشاعر طبعا وثقافة وصنعة ومرانا

وتكلم عن البديهة والارتجال ، فجعل الارتجال انهمارا وتدفقا[4] والبديهة بعد أن يفكر الشاعر يسيرا[5] ، وهما أقرب إلى ما يسمى شياطين الشعراء ، بل إن بعض الأمثلة التى جاء بها لهما هى أمثلة ذكرت فى أماكن أخرى للدلالة على اتصال الشعراء بالشياطين ، وقولهم الشعر بوحى منهم . فابن رشيق فى باب عمل الشعر ، وشحذ القريحة له روى قصة جرير عندما أراد هجاء الراعى النميرى ، وهى : وقالوا كان جرير إذا أراد أن يؤبد قصيدة

---

(١) الذخيرة ١٦٢ (٢) العمدة ١/٨٥ (٣) نفسه ١/٧٨
(٤) نفسه ١/١٢٦ (٥) نفسه ١/١٢٨ .

صنعها ليلا ، يشعل سراجه ويعتزل ، وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه ، رغبة فى الخلوة بنفسه. يحكى أنه صنع ذلك فى قصيدته التى أخزى بها بنى نُمَير[1]. فظنت صاحبة البيت أنه قد عرض له[2] . ولما ذهب الراعى إلى بلاده ووجدها ، قال : إن لجرير أشياعا من الجن .

وحين تكلم عن عادة الفرزدق فى عمل الشعر وشحذ القريحة له ، جاء بقصته مع ابن حزم الأنصارى ، وهى التى خرج فيها إلى شعاب المدينة حتى أتى جبل ذباب أوريان ونادى : أخاكم يا بنى لبينى ، وتوسد ذراع ناقته قرب الصباح ، فانثالت عليه القوافى انثيالا ، وجاء بالقصيدة فأعجزت الشعراء وبهرتهم طولا وحسنا وجودة[3] .

فما كان من عمل الشياطين قديما أصبح الآن من عمل النفس الإنسانية فى ظروف خاصة. فجرير يحيط نفسه بهذا الجو ، بما فيه من ليل وسراج واعتزال واضطجاع ، ليستعين بذلك على فراغ البال ، والانصراف إلى الشعر وحده ، ولتذكر المعانى التى يريد أن يجعلها فى قصيدته ، وكذلك كان خروج الفرزدق إلى الشعاب ، والخلوة بنفسه ليلا يستجمع شتات ذهنه ، ويسترد غائب أفكاره ، ويستذكر ما بعد عن شعوره من معانيه .

كلمة عامة :

جاء فى كتب الأدب وتراجم الرجال كثير من الأمثلة الدالة على اختلاف الناس فى ضروب استدعاء الشعر ، وعلى تباين عادات الشعراء فى شحذ القريحة واستجماع القدرة على نظمه . لكنها فى العصر العلمى صارت ظروفا وأحوالا ؛ فهذا ابن قتيبة يقول[4] «وللشعر أوقات يسرع فيها أتيه ، ويسمح فيها أبيه . منها أول الليل قبل تغشى الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة فى الحبس والمسير . ويزيد ابن رشيق فيقول « وعلى كل حال فليس يفتح مقفل بحار الخواطر مثل مباكرة العمل بالأسحار ، لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسها فى أسباب اللهو ، أو المعيشة أو غير ذلك مما يعيبها . وإذا هى مستريحة جديدة كأنما أنشئت نشأة أخرى ، ولأن السحر ألطف هواء ، وأرق نسيما ، وأعدل ميزانا بين الليل والنهار ، وإنما لم يكن العشى كالسحر . . . . لدخول الظلمة فيه على الضياء ، بعد دخول الضياء فى السحر على الظلمة ، ولأن النفس فيه كالة

(١) نفسه ١/١٣٨ (٢) طبقات الشعراء ١٥٥ (٣) العمدة ١/١٣٨ (٤) الشعر والشعراء ٢٦ .

مريضة من تعب النهار وتصرفها فيه ، ومحتاجة إلى قوتها من النوم ، متشوقة نحوه . فالسحر أحسن لمن أراد أن يصنع ، وأما لمن أراد الحفظ والدراسة وما أشبه ذلك، فالليل[1] .

وذلك رأى أبى تمام فى نصيحته للبحترى[2] ، وإذا كان الفرزدق ظل ساهرا طول ليله لم يفتح عليه إلا قرب الصباح ، وبعد أن نادى صاحبه أبا لبنى ، وجرير لم يستطع أن يرد على سراقة البارق إلا قرب الصباح وبعد أن فتح عليه شيطانه باب الشعر بقوله : « يا صاحبى هل الصباح منير » . وإذا كان كُثيِّر لم يقل الشعر حتى قُوِّله وهو يمشى بصحراء الغميم . فإن التفسير العلمى فى هذا العصر عدل عن ربط الوقت أو المكان بالجن ؛ إلى أن السحر وقت استجمام وراحة ، وأن الأماكن الخالية ، أو ظلمات السجون ، أو المناظر الجميلة ، كالبساتين الزاهرة ، والمياه الجارية والوجوه الناضرة ، مما يشرح الصدر ويريح النفس ويبعث النشاط .

وربما أدرك القدماء من الشعراء والنقاد اختلاف الناس فى المقدرة على البيان ، واختلاف القادرين فى نوع الفنون التى يجيدونها ، وعرفوا العوامل المساعدة على التذكر والباعثة على القول ، ولكنهم نسبوا ذلك إلى قوى غيبية .

أما فى هذا العصر العلمى فقد التمس العلماء لذلك تفسيرا من الطبع ، والاستعداد والذكاء والقريحة ، وشبه ذلك من المواهب . ولا يبعد أحيانا أن نجد أول آلات البلاغة ، وهو جودة القريحة وطلاقة اللسان ، من فعل الله تعالى لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه واجتلابه لها ، كما يرى أبو هلال العسكرى[3] وليس ذلك تقليدا لحسان فيما يبدو، وإنما هو إيمان بأن مصدر الأفعال والقوى هبات من الله .

وكأنه لم يكن للشعراء جهد يبذلونه ولا عمل يقومون به فى القديم إلا أن يستمعوا إلى ما يوحى إليهم ، وأن يقولوا كما يريد شياطينهم . أما علماء هذا العصر فقد قالوا : إن الشعر طبع وذكاء وثقافة ومران ، وحرصوا على الإشارة إلى ذلك ، ونصحوا به لمن يريد أن يجود شعره . وانظر إلى حرص دعبل على أن يكون الشعر منبعثا عن عاطفة وانفعال ، فقد روى ابن رشيق[4] أن دعبلا قال : من أراد المديح فبالرغبة ، ومن أراد الهجاء فبالبغضاء ، ومن

---

(١) العمدة ١/١٣٧ — ١٣٩
(٢) العمدة ٢/٩٢ وانظر ٢٢٤
(٣) الصناعتين ٢٠
(٤) العمدة ١/٧٩

أراد التشبيب فبالشوق ، ومن أراد العتاب فبالاستبطاء .

وكان هذا العصر ينقد ما يأتى إليه من آراء قديمة ، فهذا العجاج[1] يقول : إنه لم يكف عن الهجاء عجزا ، بل تعففا . ثم يقول « وهل رأيتم بانيا لا يحسن أن يهدم .. أفلا أحسن أن أجعل مكان : أصلحك الله، قبحك الله؟ ... إلى آخره . فرد ابن قتيبة بأن الهجاء أيضا بناء ، وليس كل بان لضرب بانيا لغيره . أى أن ابن قتيبة نظر إلى المسألة من ناحية المصدر ، فأدرك اختلاف الناس فى استعدادهم . وأما العجاج فقد نظر إليها من ناحية الأثر فعف عن الهجاء لأنه لا يليق به أن ينزل إلى مستوى السباب والشتم ، فإن ذلك يحط من أخلاقه ؛ والأول أقرب إلى العلم بلا شك ، وقد رد الجاحظ[2] على العجاج أيضا بأن من الشعراء من لا يجيد فنا من الشعر ، وإن أجاد غيره ، كما يوجد ذلك فى كل صناعة .

لقد كان هذا العصر عصر التدوين والتأليف العلمى ، فكان للعقل عمل كبير فيه وكان للنقد مكانته ، وكان للجمع والاستقراء آثارها فى وضع القواعد ، والوصول إلى الأحكام العامة ، والنتائج الشاملة . فكان ماروى فى العصر الأسطورى أو الدينى عرضة للنقد ، أو للعدول عنه إلى غيره ، أو لتفسيره بغير ما فسر به : وقد حاول ذلك كثير من العلماء ، منهم من ذكرنا ، ومنهم من لم نذكر فالجاحظ كان أديبا متكلما ، وأبو تمام كان أديبا عالما حكيما ، والقاضى الجرجانى كان مؤلفا شاعرا ، وابن المعتز كان شاعرا مؤلفا ، وابن رشيق كذلك . فهم علماء وأهل صنعة ، وقد تحولوا بفكرة شياطين الشعراء إلى أبحاث علمية لا مجال فيها لهذه الشياطين . وتعد هذه الأبحاث من ميدان علم النفس الأدبى ، وقد وفقوا فيها إلى حد كبير .

وهذا العصر هو الزمن الذى وصلت فيه الأبحاث الخاصة بمصدر الشعر إلى الطور العلمى ، طور البحث العقلى والالتجاء إلى النفس الإنسانية ، لمعرفة صلتها بالإنتاج الأدبى وكيف ينشأ عنها ، والأسباب التى تؤدى إلى تنوعه واختلافه بين شعر ونثر ورسائل ، وبين أدب وغناء وموسيقى مثلا . وقد وصل البحث عند علماء المسلمين إلى مرحلة قيمة لم يتقدموا عنها كثيرا حتى جاءت النهضة العلمية فى الشرق منذ قرن ونصف تقريبا ، فاهتم علماؤنا بمعرفة بحوث الغربيين . ولما اهتم أولئك بدراسة النفس الإنسانية وصلتها بالإنتاج الفنى ، تنبه علماؤنا إلى

---

(١) نفسه ١/٧١ (٢) البيان والتبيين ١/١٥١

بحوثهم فدرسوها ، ونقلوا كثيرا منها . وحاولوا السير على آثارهم ، منتفعين بما أخذوه عنهم مع تطبيقه على شعرائنا كدراسة الأستاذ العقاد لأبى نواس .

ويمتاز أصحاب الدراسة النفسية الحديثة بالدقة والاستقصاء والاستعانة بالعلوم الأخرى والآلات الحديثة ، حتى وصلوا بذلك إلى نتائج عجيبة .

لكن الإيمان بما كان يؤمن به الناس فى عهود الأساطير مازال باقيا حتى فى أرقى البلاد ، ومازال شعراء فى هذا العصر يعدون شعرهم وحيا من الشياطين ، أو رؤى فى المنام ، أو إلهاما لا يعرفون له مصدرا إلا أنه إلهام . وينكرون على علماء النفس تفسيرهم العلمى لظواهر الإنتاج الأدبى .

وهذا دالاس كينمار Dallas Kenmare يؤلف كتابا يسميه النار المسروقة أو دراسة فى العبقرية Stolen Fire, A Study of Genius يتحدث فيه عن العبقرية ، ويرى أن الوصول إلى كنهها مازال سرا غامضا . وأن العباقرة ملهمون ، ليس من السهل معرفة كيفية إلهامهم . ومن قوله : «فى العبقرى دائما شئ من الساحر ، والناقد يستطيع أن يحيط به ويبحثه ، ويدرس بيئته ويضيق دائرته ، لكن هذه الدائرة السحرية تظل باقية على كل حال . ومنها يبقى الساحر يقوم بمعجزاته » .

أثر كتاب الشعر لأرسطو :

اختفت شياطين الشعراء فى هذا العصر العلمى من شعر الشعراء وأخبارهم إلا قليلا ، ومن كتب النقد أيضا ، وأرجعنا ذلك إلى أثر الحركة العلمية ، والنشاط العقلى أكثر من قبل . وكان من العوامل المساعدة على ذلك ترجمة بعض الكتب اليونانية وغيرها من الكتب العلمية التى تعنى بالواقع لا بالخيال . ومن الذين عرفهم العرب أسبق من غيرهم المعلم الأول أرسطاليس ، أو صاحب المنطق كما يسميه الجاحظ . وقد نقلت إلى العربية أهم تآليفه وشروح الاسكندرانيين عليها فتركت هذه الترجمة آثارا فى العقل الإسلامى وأبحاثه[1] .

ولم يتجه المسلمون إلى ترجمة الأساطير اليونانية لما فيها من وثنيات وآلهة متعددة تملأ

(١) ضحى الإسلام ١/٣٦٣

الأرض والسماء. وترجمة مثل هذه الأساطير تعد ترَفاً هم فى حاجة إلى غيره من الأمور الجدية كالمنطق والفلسفة وما يخدم اللغة أو الأدب ، أو ما يظن المترجمون أنه كذلك ، ومن أهم الكتب التى ترجمت عن أرسطو كتاب الخطابة وكتاب الشعر .

وقد خالف أرسطو أستاذه أفلاطون فى مصدر الشعر ، فقال بالطبع والغريزة ثم الكسب كما قرر[١] سقراط من قبلهما أن : « الشعراء لا يكتبون الشعر لأنهم حكماء ، بل لأن لديهم طبيعة أو هبة، قادرة على أن تبعث فيهم حماسة — أو كما تقول نحن اليوم — إلهاما ، ويقرر[٢] أن الشعر ضرب من النبوغ والإلهام ، وأن الشعراء ينطقون بالآيات الرائعات وهم لا يفقهون معناها .

وقال أرسطو أيضا فى كتاب الخطابة[٣] إن : الفنية الأدبية تحتاج إلى مواهب واستعدادات » ويعرف الفنية بأنها « القدرة على الخلق والابتكار ، أو هى المبادئ التى تقود مواهبنا حسب منهاج خاص نحو الحذق والابتكار » .

وكتابه فى الشعر المسمى « بوطيقا » المعدود من الكتب القيمة فى عالم النقد ، تناول مصدر الشعر أو الدافع الأساسى له ، وأرجعه إلى علتين أولاها غريزة المحاكاة أو التقليد . والثانية غريزة الموسيقى أو الإحساس بالنغم[٤] .

ويفهم من كلام أرسطو أنه يقول بالطبع والاكتساب معا فى الشعر ، فالشعر عنده ينقسم إلى قسمين مختلفين هما : المأساة والملهاة . وحالما برزت التراجيديا والكوميديا إلى الوجود ، تعلق الشعراء المحدثون بالواحدة أو بالأخرى ، كل حسب طاقته وعبقريته . بل يقرر أيضا أن اختيار البحور الملائمة للفنون الأدبية هو من عمل الطبيعة التى كانت تهدى إلى البحور المناسبة للمأساة بحسب تطورها ، فكانت أولا من بحر خاص (الخبب الثلاثى) لتناسب ما كان يختار من قصص أسطورية مرتبطة بالرقص . فلما أنشئ الحوار هدت الطبيعة نفسها إلى بحر آخر (وهو الأيامبي) أكثر ملاءمة للكلام العادى[٥] أما قوله بالصنعة والاكتساب فواضح فى كتابه من أوله إلى آخره .

وترجم كتاب الشعر من القرن الثالث . وتكلم عنه ابن النديم . وقال إن أبا بشر

---

(١) قواعد النقد الأدبى ٢ (٢) محاورات أفلاطون ٧٥ (٣) الخطابة لأرسطاليس المقدمة/٤٢

(٤) من الوجهة النفسية ٢٩ — فن الشعر لأرسطاليس ١١ر١٢ (٥) نفسه ٢٧ — ٣٠

متى بن يونس نقله من السريانية إلى العربية ، ونقله يحي بن عدى،وإن كانت ترجمته رديئة؛ وقيل إن اسحق بن حنين نقله أيضا (توفى سنة ٢٩٨ هـ) .

وللفارابى (توفى سنة ٣٣٩ هـ) رسالة فى قوانين صناعة الشعر ، مس فيها كتاب الشعر مسا خفيفا ، وابن سينا لخص كتاب أرسطو هذا فى كتابه الشفاء .

وقد فهم بعضهم شيئا من كتاب الشعر وترجمه كما فهم ، وأساء بعضهم الفهم فأساء الترجمة . ويقرر الدكتور طه حسين أن ابن سينا لم يجد فهم كتاب الشعر كما فهم كتاب الخطابة . . . وكثيرا ما يكون تحليل ابن سينا لكتاب الشعر مجرد لغو لا معنى له ؛ فالتراجيدى عنده هى المديح ، والكوميدى هى الهجاء ، والملحمة هى الأدب . أما الأمثال والأعلام والملاحظات الدقيقة التى يلاحظها أرسطاليس على ما يتميز به كل نوع من الشعر فابن سينا يخلط بينها خلطا شنيعا[1] .

لكن ابن سينا فهم حق الفهم نظرية المحاكاة ، وجاء بصورة صحيحة للصناعة الشعرية وللوسائل التى يتوسل بها فى التغلب على الصعاب التى تعترض الشاعر[2] .

ولهذه الصعوبات التى اعترضت هذا الكتاب عند العرب لم ينتفعوا به مترجما ، ولم يترك أثرا إلا فى مترجميه ، فقد ترجمه هؤلاء تراجم رديئة ، وأساءوا فهمه ، فلم يستطع المتأدبون أن يفيدوا منه . ولكنه على كل حال أبعدهم عن شياطين الشعراء من أول الأمر ، وأكد فكرة الطبع والكسب ، ولعل أبا هلال العسكرى تأثر به عندما تحدث عن اختصاص كل فن من فنون الشعر بوزن من أوزان العروض إذ يقول[3] : « وإذا أردت أن تعمل شعرا فأحضر المعانى التى تريد نظمها فكرك ، وأخطرها على قلبك ، واطلب لها وزنا يتأتى فيه إيرادها ، وقافية يحتملها . فمن المعانى ما تتمكن من نظمه فى قافية ، ولا تتمكنه فى أخرى ، أو تكون فى هذه أقرب طريقة ، وأيسر كلفة منها فى تلك » .

وهذه الفكرة موجودة فى قوانين صناعة الشعر للفارابى ، وفى كتاب الشفاء لابن سينا ، فقد قالا عن اليونان : « إنهم كانوا يخصون كل غرض بوزن على حدة » ، وقد جاءتهما هذه الفكرة من كتاب الشعر لأرسطو ، لكن هذا الكتاب ظل غير واضح عند العرب لغموض ترجماته .

---

(١) تمهيد فى البيان العربى / نقد النثر ٢٧ . (٢) نفسه ٢٧ . (٣) الصناعتين ١٣٣ .

الفصل الحادى عشر

بين الآلهة والشياطين، الاستعانة والاستعاذة

كان الشعراء عند اليونان والرومان يفتتحون قصائدهم بطلب المعونة من ربات الشعر فتمدهم بما يريدون أن يقولوا ، وفعل ذلك هوميروس فى مطلع الإلياذة فافتتحها بقوله [١] :

ربةَ الشعر عن أخيلَ بنِ فيلا   أنشدِينا وارْوِى احتداما وبيلا

وفعل كثير من الشعراء مثل فعله فى القديم والحديث . « ولما انتشرت النصرانية فى البلاد الأوربية ، وانصرف أهلها إلى عبادة إله واحد هورب الشعر والشعراء . . . لم يبق لربات الأغانى والأناشيد محل فى عقيدتهم ومع ذلك فإن فريقا منهم ظل يستمدعونهن على سبيل الاستعارة » .

ونحن نلتمس شيئا من ذلك فى الأدب العربى ، فلا نكاد نجد أمثلة تصلح أساسا لحكم عام ، مثل الذى جاء به البستانى عن الشعراء الغربيين ، مع أن العرب جعلوا لكل شاعر شيطانا يلهمه ، ومن الأمثلة النادرة فى الأدب الجاهلى دعوة الأعشى لخليله مسحل ودعوة جهنام له ، كما رأينا [٢] ، وفى العصر الدينى نادى الفرزدق صاحبه ، أبالبنى . ولكن ذلك جاءنا من الأغانى لا فى شعر الفرزدق . وابن شهيد كان يستدعى شيطانه بشعر تعلمه منه ، لكنه كان أشبه بعزيمة أو رقية .

أما الدين فكان له أثر قوى فى التزام صورةُ خاصة حث عليها عند ابتداء كل أمرذى بال ؛ إذ ابتدأت سور القرآن بالبسملة ، وجاء فى الحديث : « كل أمرذى بال لايبدأ فيه باسم الله فهو أقطع أو أبتر . وكانت رسائله صلى الله عليه وسلم مبدءة بالبسملة ، وقد تثنى بالحمد ، وكان للخطابة رسوم لفظية فى مطلعها ، وابتدأت خطبة الوداع بقول النبى صلى الله عليه وسلم : «الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور

---

(١) الإلياذة للبستانى ٢٠٣ .   (٢) انظر ص ٨٨ من هذا الكتاب ، وما بعدها

أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » بل دعانا القرآن إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم إذا قرأناه قال تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، والاستعانة بالله وحده فى كل الأمور واجبة «إياك نعبدُ وإياك نستعين» وجاء فى الحديث : إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » .

وظلت البسملة مستعملة فى بدء الرسائل والتأليف فى العصر الدينى والعلمى وعند المتدينين إلى الآن ، وكذلك الخطابة . ولما خلت خطبة زياد من الحمدلة سميت البتراء . فلما تنوعت الخطابة احتفظت الخطب الدينية بالرسوم المناسبة كالحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، والشهادتين ، وفى أواخر العصر الأموى ظهرت التحميدات فى أول الرسائل ، بل وفى آخرها أيضاً . وفى المجلد الثالث من كتاب عصر المأمون كثير من هذه التحميدات فى القرن الثانى أعنى أواخر بنى أمية وأوائل العباسيين . وكانت الرسالة فيها تبدأ بحمد الله ، والثناء عليه بما هو أهله فى عدد من الجمل قد يكون سطورا .

أما فى الشعر فقد رأينا أمية بن أبى الصلت يبدأ إحدى قصائده فيقول :

الحمد لله مُمْسانا ومُصْبَحَنا بالخير صبحنا ربى ومسانا

وله فى مطلع قصيدة أخرى :

لك الحمد والنعماء والملك ربَّنا فلا شىء أعلى منك مجدا وأمجَدُ

وهذا «الحمد لله» فى حكم الاستعانة به ، والتبرك بذكر اسمه . لكن الشعر العربى ظل سائرا على طريقة الجاهليين ، فى مطالع القصائد . يبتدأ بالغزل وبالوقوف على الديار ، ووصف الناقة أو الرحلة ، أو شبه ذلك ، إكبارا منه للجاهليين ، وتأثرا بحركة البعث القوية التى رعاها بنو أمية ، وأرادوا بها إحياء الأدب الجاهلى ، لقيمته الذاتيَّة ، ولما فيه من تاريخ ، ولما يثيره من عصبيات ، وظل هذا الإكبار زمنا ، وقد رأينا فى كثير من شعراء العباسيين تمسكا بطريقة الجاهليين فى بناء القصيدة ، خصوصا فى مطلعها . ولم تفلح دعوة أبى نواس ، ولا حملته على التقليد الذى كان فى أيامه ، كقوله :

لاتبك ليلى ولا تطربْ إلى هندِ واشرب على الورد من حمراءَ كالوردِ

أو كقوله .

دَع الرسم الذى دَثَرا يقاسى الريحَ والمطرا

وقصة هذا الإكبار معروفة فى إنشاد إسحق الموصلى بيتيه أمام الأصمعى فأعجب بهما هذا، فلما أخبره إسحق أن البيتين لليلتهما قال : لاجرم[١] ، والله إن أثر التكلف ظاهر فيهما .

ولعل من آثار هذا التقليد أن سكت الشعراء الأمويون والعباسيون عن الاستمانة بالشياطين ، وكيف يستمين المقلدون ولم يستمن أحد من شعراء الجاهلية غير الأعشى ؟ أضف إلى ذلك أثر الحركة العلمية ، وبخاصة المعتزلة ؛ فى إنكار الشياطين ، أو إنكار رؤيتهم ، ونسبة الأفعال إلى الناس لا إلى أرواح خارجية. لكن صاحب «تاريخ آداب العرب» يقول :[٢]

« ولم يلتفت المحدثون من الشعراء بعد بشار لأمر هؤلاء الشياطين إلا ما يجىء لهم من سبيل الفكاهة والنادرة ، ولكنهم لم يدعوا الاستمانة بالله فى رأس القصائد ، فيكتبون اسم الفتاح أو العليم أو المبين ، أو يبتدئون بالبسملة ، وقد درجوا على ذلك إلى اليوم ، وبخاصة فى العراق » . وهو يشمل العصر الذى نتكلم فيه ، ولكنى لم أجد لشعراء هذه الفترة مثل هذه الاستمانة التى قررها ، فى شعر فنى ، حقا إن شيئا من ذلك قد ورد فى مطالع منظومات فى العلوم ، أو مقطعات فى الحكمة ، أو فى الرثاء ، كأرجوزة فى تاريخ عبد الرحمن الناصر[٣] نظمها ابن عبد ربه ومطلعها :

سبحانَ من لم تحوِهِ أقطار ولم تكن تدركه الأبصارُ
ومن عَنَتْ لوجهه الوُجوهُ فما له ندٌّ ولا شَبيهُ

ثم حمد الله على آلائه وجزيل نعمائه ، وشكره ومجده . ولا شك أن هذا الاستفتاح يقصد به الاستمانة ، أو الشكر على الإعانة ، ولا بن عبد ربه أرجوزة فى العروض مطلعها[٤] .

بالله نَبْدَا وبه التمام وباسمه يُفتتحُ الكلام

ولكن هذا تأليف علمى ، لا يعد من الشعر فى شىء . وقد نعده من الأموردات البال، التى وردت البسملة فى مطالعها ، لأنه من المؤلفات العلمية .

---

(١) الوساطة / ٥٠ (٢) ٣ / ٥١ — ٥٢
(٣) العقد الفريد ٣ / ٢٠٩ (٤) نفسه ٤ / ٣٨٤ .

وقد افتتح أبو النجم إحدى أراجيزه بقوله[1] « الحمد لله الوهوب المجزل » لكن لم يستعن ؛ ولا كان حمده لله من أجل الشعر .

وفى أواخر القرن الثانى رثى خزيمةُ بن سهل الخليفة محمدا الأمين فافتتح الرثاء بقوله[2] :

سبحان ربك ربِّ العزة الصمدِ   ماذا أصبنا به فى صبحة الأحد

ولا يعد هذا استعانة على الشعر .

وكان أبو الشيص شاعراً سريع الهاجس جدا فيما ذكر عنه[3] . وقد عرفنا الهاجس بمعنى الشيطان عند الأعشى ، وكان لأبى الشيص صديق استغنى فجفاه فكتب إليه[4] .

الحمد لله رب العـــالمين على   قربى وبعدك منه يا ابن اسحـق

وهكذا لا نكاد نجد فى هذا العصر استعانة بالشياطين . أما الاستعانة الصريحة بالله سبحانه وتعالى فى الشعر فقليلة . وأما الموضوعات المتصلة بالدين فقد تكثر فيها هذه الاستعانة وبخاصة فى التأليف العلمى وفى النثر . أما عصرنا الحديث فقد تأثر بالدين وبالغرب أو بما عرف عند الغربيين ، من أيام هوميروس ، كقول رامى :

بناتِ الشعر ما ألهاكِ عنى   وماذا نَفَّرَ الأشعار منى

وهذا حافظ ابراهيم يستعين الله فى « العمرية » فيقول :

لا همَّ هب لى بيانا أستعينُ به   على قضاء حقوقٍ نام قاضيها

والبحث فى الشعر الحديث قد يؤدى الى وجود هذين المذهبين ، أما كلامنا نحن فيقف عند القرن الخامس .

---

(١) الأغانى ٩/٧٣ ساسى   (٢) تاريخ الطبرى ١٠ / ٢١٤ .
(٣) الأغانى ١٥ / ١٠٤   (٤) الأغانى ١٥ / ١٠٧ .

الفصل الثانى عشر

شياطين الفنون الأخرى ووحيها

١ — كان الشعر وما زال، فناً لا يقدر عليه إلا قليل من الناس، وكانت أسباب امتياز الشعراء مجهولة، فنسب قولهم إلى الآلهة والشياطين فى جاهلية الأمم، وقد تستمر هذه النسبة حتى العصور العلمية، إما عجزا عن التعليل العلمى الذى يقول به العلماء، أو جهلا به، أو إنكارا له، أو تظرفاً أو تقليدا، أو تمسكا بفكرة يعدونها أعلى منزلة وأشرف نسباً، من التفسير العلمى.

٢ — أما النثر فكان أقل منزلة، وأيسر على الناس، وكانت دوافعه وبواعثه ظاهرة واستجابة أصحابه لها سريعة، فلم يحس الناس بغرابة فيه، ولا بحاجة إلى وحى يوحى به ولا شيطان يلقيه. وكان تعلمه ممكناً. وفى تاريخ ديموستين Demosthenes الخطيب اليونانى العظيم أنه نبغ فى الخطابة، حتى بلغ فيها منزلة تضارع منزلة هوميروس فى الشعر، لكنه على العكس من صاحبه، وصل إلى هذه الدرجة العالية بمرانه ومثابرته بعد أن كان سخرية الجماهير، لعجزه وعيه، وعيوب منطقه. ولا تزال خطبه تعد مثلا عالياً حتى فى العصر الحديث على الرغم من أنها مكتسبة.

٣ — ولكن عدوى شياطين الشعراء سرت إلى بعض فنون الأدب عندما صارت الكتابة فناً يعلو بصاحبه إلى درجة الوزارة، ويأتى أصحابه بالغرائب والبدائع فى بديهتهم، أو تفننهم، أو غير ذلك من دلائل النبوغ والامتياز.

٤ — أما الغناء — وصلته بالشعر قوية — فكانت حاجته إلى شياطين توحى به شبيهة بحاجة الشعراء إلى شياطين، لتشابه الظروف التى يحس بها الشعراء والمغنون وهم ينشئون فنهم، ويزاولون عملهم. ومع هذا فقد سمعنا بقليل من شياطين الغناء فى العصر الدينى، وبعدد آخر فى العصر العلمى، كما سمعنا فى هذا العصر بشياطين للكتاب، وبوحى إلى الخطباء، ومعونات أخرى يتلقونها من حيث لا يحتسبون.

أولا — شياطين الغناء :

وقد روينا فى الباب السابق أن معبدا كان يتلق أصول الصنعة عن هاتف أو صوت يأتى إليه وهو نائم عند صخرة بالحرة ، وأن الغريض تلق فنه عن الجن ، ومات على أيديهم ، لأنه خالف أمرهم ، وغنى صوتا لم يريدوا أن يغنيه .

وكان المغنون فى العصر العباسى تلاميذ الحجازيين فى العصر الأموى ، يعرفون تاريخهم كما يعرفون ألحانهم ، ثم زادوا عليهم ؛ وعرف من نابغيهم إبراهيم الموصلى ، مغنى الرشيد وأشهر واضعى الألحان فى عصره وما بعده . وقد استحق أن يكون له شيطان يعلمه ، لسمو فنه وجميل ألحانه .

١ — روى صاحب كتاب الأغانى(١) قصة لحن تلقاه إبراهيم عن الجن ، فأخبرنا أنه سأل الرشيد يوماً يستريح فيه ، ليخلو بإخوانه وجواريه ، فوهب له يوم السبت من كل أسبوع ؛ وبينا هو فى مجلسه ، وقد غلقت الأبواب ، وحف به الحرم ، والجوارى يرحن بين يديه ويغدون « إذا بشيخ فى هيئة وجمال ، عليه خفان قصيران ، وقميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة لاطية ، وبيده عكازة مقمعة بفضة ، وروائح المسك تفوح منه حتى ملأ الدار » فتغيظ إبراهيم من دخوله ، وهم بطرد بوابه الذى أدخله . لكن الشيخ سلم ، وتكلم فأحسن ، حتى ظن إبراهيم أن غلمانه أرادوا مسرته بإدخال هذا الشيخ عليه ، لأدبه وظرفه .

وشربا ، ثم قال الشيخ لإبراهيم : يا أبا إسحق ، هل لك أن تغنى لنا شيئاً من صنعتك وما قد نفقت به عند العام والخاص ؟ فأخذ إبراهيم العود على مضض ، ثم ضرب وغنى . فقال الشيخ أحسنت يا إبراهيم . فازداد غيظه لأنه سماه ولم يكنه . واستزاده الشيخ ففعل ؛ فقال : أجدت يا أبا إسحق ، فأتم حتى نكافئك ونغنيك .

يقول إبراهيم : فأخذت العود وتغنيت ، وتحفظت . وقمت بما غنيت إياه تاما ، ما تحفظت مثله ، ولا قمت بغناء كما قمت به له ، بين يدى خليفة قط ولا غيره ، فطرب ، وقال أحسنت يا سيدى . ثم قال : أتأذن لعبدك بالغناء ؟ فقلت : شأنك . واستضعفت عقله فى أن يغنينى بحضرتى بعد ما سمعه منى . وأخذ العود ، وجسه ، وحبسه ، فوالله لخلته ينطق بلسان عربى ،

---

(١) ٥/ ٣٤ ساسى

لحسن ما سمعته من صوته . ثم تغنى بأبيات . يقول إبراهيم : فوالله لقد ظننت الحيطان والأبواب ، وكل ما فى البيت يجيبه ، ويغنى معه ، من حسن غنائه ، حتى خلت والله أنى وعظامى وثيابى تجاوبه ، وبقيت مبهوتاً لا أستطيع الكلام ولا الجواب ولا الحركة ، لما خالط قلبى » ثم غنى فكاد عقل إبراهيم يذهب طرباً وارتياحاً ، ثم غنى ، ثم قال ياإبراهيم : هذا الغناء الماخورى ، فخذه وانح نحوه فى غنائك . وعلمه جواريك.فقال إبراهيم أعده على . فقال : ليس تحتاج ، قد أخذته وفرغت منه .

يقول إبراهيم : « ثم غاب من بين يدى ، فارتفعت وقمت إلى السيف فجردته ، وعدوت نحو أبواب الحرم ، فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى : أى شىء سمعتن ؟ فقلن : سمعنا أحسن غناء سمع قط ! فخرجت متحيراً إلى باب الدار ، فوجدته مغلقاً ، فسألت البواب عن الشيخ ، فقال لى : أى شيخ هو ؟ والله ما دخل إليك اليوم أحد . فرجعت لأتأمل أمرى ، فإذا هو قد هتف من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا إسحق ، أنا إبليس ، وأنا كنت جليسك ونديمك ، فلا ترع ! »

وركب الموصلى إلى الرشيد فأمتعه بالقصة ، وغناه بما تعلم وأخذ جوائزه .

أما أبو الفرج ، فينكر هذه القصة إذ يقول : هكذا حدثنا ابن الأزهر بهذا الخبر وما أدرى ما أقول فيه . ولعل إبراهيم صنع هذه الحكاية ليتنفق بها ، أو صنعت وحكيت عنه . ويروى وجهاً آخر للخبر يمده أصلا له ، ذلك أن إبراهيم صنع لحناً أعجبه ولم يجد له شعراً يغنيه فيه ، فرأى فى المنام رجلا هداه إلى أبيات لذى الرمة ، فانتبه وهو فرح بهذا الشعر ، والتفت إلى شعر ذى الرمة كله ، فصنع فيه ألحاناً ماخورية ، حتى إنه طلب من الرشيد أن يحرم شعر ذى الرمة على غيره من المغنين .

ويروى عنه أن الشيخ الذى جاءه فى المنام كان أشوه الخلقة ، وأنه غناه فيه بلحن وكرره حتى عقله ، ثم انتبه ، ونادى جارية له ، وما زال يترنم بالصوت وهى تضرب حتى استوى ، وأخذ عليه الكثير من الجوائز .

فهل كان إبراهيم يتلقى عن إبليس أو عن شيطان دائماً ؟ إن القصة مقصورة على حادثة واحدة ، عجب منها إبراهيم وأنكرها أبو الفرج ، وما تزال تحتاج إلى دليل على أن إبليس جاءه فعلمه .

ولقد كان إبراهيم الموصلي في شغل دائم بالألحان يضعها ، والأشعار يختارها ؛ وكان عقله الواعي والباطن يعملان ليلا ونهاراً ، ويعينان صاحبهما في اليقظة والمنام . وكان يهتدي إلى الألحان والأشعار بفضل هذين العقلين ، فيفسر ما اهتدى إليه بأنه من وحي إبليس ؛ لأنه كان عبقرياً ، ولا يقدر على مثل ألحانه إلا شيطان .

أما الشيخ المشوه الخلقة الذي هداه إلى شعر ذي الرمة ، والذي قيل عنه إنه إبليس أو شيطان ، فهو عقله الباطن ، ظل مشغولا طول ليله بالبحث عن الأبيات الملائمة . ويؤيدنا في هذا أن الموصلي كان خاصاً بالرشيد ، وسمع أن أمير المؤمنين يعجبه هذا الشعر ويؤثره ، فإذا سمع فيه غناء أطربه ؛ من أجل هذا كان الموصلي في شغل دائم به ، يفكر فيه ليلا ونهارا ، وفي الألحان الملائمة ، وقد لا يشعر بجهده وعمله . فعده وحياً من الشيطان ، أو درساً هداه إبليس فيه إلى الأشعار والألحان .

٢ — وابن جامع[1] من كبار المغنيين في عصر الرشيد ، وكان ينازع إبراهيم الموصلي مقامه وفنه الرفيع ، استدعى ابنه يوماً ليسجل رملا ألقته عليه الجن في قائلته ، وخاف أن ينساه ، فأخذ ابنه عنه الصوت ، وكان بعد ذلك يتغناه وينسبه إلى الجن ، ويسميه « لحن الجن . »

ونلاحظ أن نشأة ابن جامع كانت موسيقية ، لأن أمه كانت زوجة لسياط المغني المشهور ، وكانت فطرته الموسيقية تغلب عليه في يقظته ، وتقض مضجعه إذا نام ، فتتسلسل له الأنغام والألحان في عقله الباطن ، وتتمثل له في الرؤيا ، فإذا استيقظ كان قد وعاها وحفظها . وهكذا الفنان ، يلازمه فنه ولا يبارحه ، يستيقظ به ولا ينام عنه ، فهو مستيقظ حتى في نومه[2] .

٣ — وكان مخارق بن يحيى مولى الرشيد[3] ، تلميذا لإبراهيم الموصلي ، وكان صاحب غناء وألحان ، رأى مناماً وهو حدث فعبره له إبراهيم بأن إبليس عقد له لواء الصنعة ، وأنه رئيس أهلها ما عاش . وذلك أن مخارقا رأى كأن شيخاً جالساً على سريره في روضة حسنة ، سأله أن يغنيه ، فغناه . ثم أخذ الشيخ وترا من أوتار العود ، ولفه على المضراب ، ودفعه

---

(١) الأغاني ٦/٦٨ ساسي

(٢) انظر كتاب الموسيقى العربية وأعلامها ٢٥٠ — ٢٥٧ (٣) الأغاني ٢١/١٤٣ ساسي

إلى مخارق ؛ وكان تعبير هذه الرؤيا أن قال إبراهيم الموصلي له : الشيخ لا شك إبليس ، وقد عقد لك لواء صنعتك ، فأنت ما حييت رئيس أهلها .

ومدح أحد الشعراء مخارقا بأن إبليس عقد له لواء الشعر والغناء . ويظن أبو الفرج أن هذا الشاعر إنما عنى الرؤيا المتقدمة بقوله[١] :

لقد عقد الشيخُ الذى غرَّ آدماً　　وأخرجه من جنَّةٍ وحدائقِ

لواءَىْ فنينِ للقريض وللغِنا　　وأقسم لا يعطيهمَا غيرَ حاذق

ووحى الشيخ الذى غر آدم بفنين ، أو عقده لواءى الشعر والغناء لرجل واحد ، ظاهرة جديدة . لكن شدة الصلة بينهما تجعل تصور ذلك ممكناً . وقد رأينا من قبل أن الشيخ المشوه الخلقة اختار لإبراهيم الموصلي شعر ذى الرمة عندما أرتج عليه لم يجد شعراً يغنى فيه للرشيد ، بل إنه هو الذى علمه اللحن أيضاً فى الأبيات التى منها[٢] :

ألاَ يا اسلمى يا دار مَىَّ على البِلى　　ولازال مُنْهَلاً بجرعائك القطْرُ

٤ — وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي من أئمة اللحن والغناء . وقد حدثت له حادثة[٣] كالتى وقعت لأبيه ، روى أنه جاءه فى ليلة مطيرة شخص لا يعرفه ، وسامره ، وكانت عنده جارية مغنية فطلب منها هذا الشيخ أن تغنى ، ففعلت ولم تعجبه ، وعاب صنعتها فغضبت ، ثم غنى هو فأطرب وأعجب ، ثم تفقدوه فلم يجدوا له أثرا ، ووجدوا الأبواب مغلقة ، فعرفوا أنه إبليس .

٥ — وكان لإسحق تلميذ نابغة أعجب به الرشيد ، فحسده إسحق وخشى مزاحمته أو تقدمه عليه . ذلك التلميذ هو أبو الحسن ، على بن نافع ، الملقب بزِرْياب .

ويظهر أنه تحدث بوحى الجن إليه عندما أدرك نبوغه فى صناعته ، فاحتال إسحق ليخرجه من العراق ، فخرج ، وسأل الرشيد عنه ، فأخبره إسحق أنه مجنون ، يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غناء . وترك زرياب العراق إلى الأندلس فى أيام

---

(١) الأغانى ٢١/١٤٩ ساسى　　(٢) نفسه ٥/٣٧

(٣) عجايب المخلوقات للقزوينى مخطوط — ورقة ٢٣٤ .

بالحكم بن الناصر ولقى هناك كل إكرام ، وأثر فى الحياة الاجتماعية تأثيراً كبيرا . وقد ادعى هناك أيضاً أن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد ، فكان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه ، غزلان وهنيدة ، فيأخذان عودها ، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ، ثم يعود عجلا إلى مضجعه[1] .

ويظهر أن المقرى شك فى هذه القصة ، كما شك فى تعليم إبليس اللحن الماخورى للموصلى فقد عقب على الخبرين بقوله : « والله أعلم بحقيقة ذلك » . ويلفت النظر فى خبر المقرى إشارته إلى أن زريابا كان يطارح الجاريتين ليلتهم ، ثم يكتب الشعر : وأفهم أنه الشعر الذى كان يصنع فيه الألحان التى يتلقاها عن الجن ، ويرجح ذلك عندى أن زريابا كان كأستاذه إسحق ، شاعرا ممتازا وإن غلب عليه الغناء والألحان . ونرى أنه كان له شيطان واحد للشعر والغناء كما كان لمخارق .

عاش هؤلاء المغنون فى عصر كان للعلماء فيه رأى فى الشياطين يصل إلى حد الإنكار . لكن هؤلاء المغنين كانوا أهل فن ، يجيدون الشعر والغناء . وقد رأينا أن فناً واحدا منهما كان ينسب إلى الشياطين ، لأنه فوق قدرة صاحبه ، وما أولى صاحب فنين أن ينسبهما إلى شيخ الشياطين وهو إبليس ، كإبراهيم الموصلى ومخارق ، فإذا تواضع مثل زرياب اكتفى بنسبة فنيه إلى واحد من عامة الجن ، وكفاه بهذا نبوغا وعبقرية .

ثانياً — وحى الكتابة .

لم تكن الكتابة شيئاً مذكورا فى الجاهلية ، وعمل الإسلام على نهضتها فبلغت منزلة عظيمة فى أوائل القرن الثانى . وقد سمعنا أن الحجاج تلقى خطاباً شديدا من سليمان ابن عبد الملك ، فقال فى رده عليه : « أعرف أنك كتبت إلى والشيطان بين كتفيك ، فشر ممثل على شر كاتب » . ولم يرد الحجاج أن الشيطان أوحى إليه بالفن الكتابى ، إنما أراد المعانى الثائرة الغاضبة التى تضمنها كتاب سليمان إليه[2] .

وارتقت الكتابة وصارت فناً أدبياً فأصبحت فى حاجة إلى ملهم أو معين ، ولكنى لم أجد خبرا عمن تلقى وحيها عن شيطان ، إلا فى رسالة التوابع والزوابع .

---

(١) نفح الطيب ٢/١٠٩ — ١١١ . (٢) انظر ص ١٣٨ من هذا الكتاب .

١ — أما إعانة قوة صالحة فى موضوع لا يعين عليه إلا قوة الخير ، فله مثال رواه أبو هلال العسكرى(١) . فقد أخبرنا أن المأمون أمر وزيره أحمد بن يوسف أن يكتب إلى النواحى فى الاستكثار من القناديل فى المساجد ، فى شهر رمضان . يقول أحمد :

« فبت لا أدرى كيف أحتذى . فأتانى آت فى منامى فقال : قل : فإن فى ذلك عمارة للمساجد ، وأنسا للسابلة ، وإضاءة للمجتهدين ، ونفياً لمكامن الريب . وتنزيهاً لبيوت الله عز وجل — عن وحشة الظلم — فانتبهت وقد انفتح لى ما أريد . فابتدأت بهذا وأتممت عليه » .

وهذا الذى جاء إلى أحمد بن يوسف فى النام مَلَك ، أو جنى من الصالحين فتح له باب القول ، وهداه إلى ما يريد ، وليس هذا الهاتف غريباً على علم النفس أو علماء الأحلام وقد سبق تفسيرها فيما تقدم بأنه العقل الباطن أو الواعى يظل مشغولا فى النوم بحل مشكلات اليقظة .

٢ — وكان ابن شهيد كاتباً أيضاً ، وفى حاجة إلى شهادة من «أهل الاختصاص» . يرغم بها حساده ، ويغيظ بها أعداءه . فاخترع لعدد من كبار الكتاب شياطين ، لقيهم مع صاحبه زهير بن نمير ، وقضوا فى نثره بما يسره . وزار يميل إلى الخطباء — وهو يعنى كبار الكتاب — مع صاحبه من الجن(٢) فال به إلى مرج دهمان ، حيث اجتمع الجن للفرق بين كلامين ، اختلف فيه فتيانهم . وكانوا مجتمعين حول شيخ جاحظ العين اليمنى هو : عتبة ابن أرقم ، صاحب الجاحظ ، وكنيته أبو عيينة ، وكان بجانبه صاحب عبد الحميد ، وكنيته أبو هبيرة . وعرفنا فى هذا الجمع أنف الناقة بن معمر ، صاحب أبى القاسم الإفليلى ، وزبدة الحقب ، صاحب بديع الزمان ، وجنيا آخر ، هو أبو الآداب صاحب أبى اسحاق بن حمام جار ابن شهيد . و تنتهى هذا المجلس بذكر هذه الأسماء فقط .

واختيار هذه الأسماء والكنى ، له باعثه أو دلالته ، فإن ابن شهيد تأثر بأصحابها من الإنس تأثرا واضحاً حين اختارها ، فأبو عيينة «صاحب الجاحظ» قد أخذ اسمه من جحوظ عين(٣) الجاحظ أو عينيه معاً(٤) . ولم أعرف لأبى هبيرة « صاحب عبد الحميد » علة دعت ابن شهيد إلى هذه الكنية .

---

(١) الصناعتين ٢٢ (٢) الذخيرة ١/٢٢٨
(٣) نفسه ١/٢٢٨ (٤) تاريخ آداب اللغة العربية ٢/٩٦٠٧

أما أنف الناقة « صاحب أبي القاسم » فسمي بذلك لورم أنف صاحبه، الذي قعد به عن الوزارة، كما قعد بابن شهيد ثقل سمعه عنها[1] . ولا أظن أبا عامر قد غفل عن استحياء بني أنف الناقة من هذا الاسم قبل أن يرفع الحطيئة ذكرهم بمدحه[2] .

وأما زبدة الحقب « صاحب البديع » فأخذ اسمه من أن صاحبه كان خلاصة الأزمان، ونابغة الدهر في الارتجال والتمكن من الصناعة . وما روى عنه من ذكاء وبديهة، وقدرة على الإنشاء والترجمة، ثم التغلب على أبي بكر الخوارزمي، يجعله جديرا بهذا اللقب، وهو آخر المشهورين من الكتاب في المشرق إلى عهد ابن شهيد .

أما أبو الآداب فهو زهرة ريحانة الكتاب كما يقول ابن شهيد .

ولم ينقل ابن بسام بقية الكلام، ولعله كان فيه عدد آخر من هؤلاء الشياطين تكلم عنهم، ولكن ابن بسام وقف دون الغاية وقطع قبل النهاية[3] .

وهؤلاء الشياطين لفحول الكتاب في العصرين الأموي والعباسي، وهم عبد الحميد والجاحظ، والبديع، ولاثنين من الأندلس وهما : الإفليلي وأبو إسحق بن حمام .

٣ — والغاية التي دعت ابن شهيد إلى اختراع هذه الشياطين هنا، هي التي دعته في أول الرسالة إلى اختراع شياطين الشعراء، وهذا القول امتداد للرحلة التي بدأها هو وصاحبه في أرض الجن . وكان أبو عامر شاعراً كاتباً، ولا بد أن يكون شيطانه كذلك . وهو في حاجة إلى شهادة من أهل الفن، يفحم بها خصومه . ولقي شياطين كبار الكتاب، ولم يشهدوا له إلا بعد أخذ ورد، وتقديم الأدلة على أنه لا نظير له . وكان دليله من رسائله في صفة البرد والنار والحطب، ورسالته في الحلواء . فاستحسنهما صاحبا عبد الحميد والجاحظ . وقالا : إن لسجعك موضعاً من القلب، ومكانا من النفس . وقد أعرته من طبعك وحلاوة لفظك، وملاحة سوقك، ما أزال أفنه، ورفع غينه، وقد بلغنا أنك لا تجازى في أبناء جنسك، ولا تمل من الطعن عليك، والاعتراض لك[4] .

أما شيطان أبي القاسم الإفليلي فقد جاء به ابن شهيد ليفحمه، ويسخر من علمه ومن

---

(١) ١/٢٠٨ (٢) العمدة ١/٢٦ (٣) الذخيرة ١/٢٣٨

(٤) الذخيرة ٢٣٢ — الأفن = الضعف . الغين = الرداءة

هيئته أيضا ، وليد له على أن البيان ، موهبة من الرحمن . وأراد أنف الناقة أن يختبر علمه ، فقال له : طارحني كتاب الخليل : فأجابه . هو عندي في زنبيل . قال : فناظرني على كتاب سيبويه . فأجابه : خريت الهرة عندي عليه . وعلى شرح ابن درستويه . الخ .

وجاء بزبدة الحقب ، فشهد له لما سمع وصف البرغوث وأشياء أخرى ، ثم هرب منه . واستمر أبو عامر في مقارعة أنف الناقة حتى شهد له فتيان الجن ، وخزي أنف الناقة ، وعلته كآبة ، رحمه لها من حضر . ودعا أبو الآداب صاحبنا هذا ، أن يرفق به لمامه وسنه ، وهفوة بدرت منه في حقه . وشهد له عتبة بن أرقم وأبو هبيرة أنه شاعر وخطيب . والأمثلة التي تقدمت كتابة لا خطابة .

وكانت غايته من لقاء الجن ، وحضور مجالسهم وإنشادهم شعره ، وإسماعهم رسائله ، ومجادلتهم في أصول البيان؛ أن يشهدوا له بالتفوق . وقد جعل في أرض الجن أندية للأدب . ولقيته عانة من حمر الجن وبغالهم ففرحت بلقائه ، ودعته أن يحكم في شعر لحمار وبغل من عشاقهم . وقال أبو عامر إن للروث الذي ورد في الشعر رائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر ، سخرية منه واستهزاء به .

وكان اختياره لشياطين أهل زمانه ذا معنى ، فقد اختار لشيخ من مشيختهم إوزة تسمى العاقلة[1] ، وتكنى أم خفيف ، يغرها الثناء ، ويزدهيها المدح ، كانت ترى أن أصل الكلام إحسان النحو والغريب ، ويراه هو ارتجال شعر أو خطبة . ثم سألها : أيما أفضل ؟ الأدب أم العقل ؟ قالت : بل العقل . ثم قال لها تطلبي عقل التجربة ، إذ لا سبيل إلى عقل الطبيعة ، فإذا أحرزت منه نصيباً ، وثت منه بحظ فحينئذ ناظري في الأدب . ثم انصرفوا جميعاً .

ونحن نراه قد جعل للكتاب شياطين ، وجعل من حمير الجن وبغالها شعراء كما جعل للعلماء شياطين ، ولم نسمع من قبل بشيء كهذا . وكانت غايته بينة في اختيار هذه الشياطين . وأنظر إلى الإوزة الخفيفة العقل ، المشهورة بالحمق ، فإنه جعلها تابعة لشيخ من شيوخ النحو عندهم ، وقد كان أبو عامر في حرب مع النحاة دائما .

ثالثاً — وحي الخطابة :

طلب أبو عامر بن شهيد من شيطانه أن يميل به إلى الخطباء ، فمال به إلى شيطان الجاحظ

---

(١) نفسه ٢٥٤

وعبد الحميد والبديع ٠٠ الخ ولا نعرف من هؤلاء خطيبا إلا الجاحظ ، على معنى المناظرة التى كانت شائعة فى عصره بين المتكلمين ، وهو من أئمتهم ، أو على معنى أنه كتب فى الخطابة والخطباء كثيرا فى البيان والتبيين ، ووراء هذا لا نرى لهذه الفكرة وجوداً ، ولا نعرف لخطيب شيطانا بمعنى الوحى والإلهام الذى عرفناه عن شياطين الشعراء .

٢ — غير أن الذى جعل الملائكة توحى إلى الأدباء ، كما فهمنا من رسالة الشياطين لأبى العلاء ، وكما رأينا من وحى الهاتف بفضل القناديل فى المساجد ، وكما رأينا فى إلقاء على رضى الله عنه شعرا فى النوم إلى كولان ، وفى تبشير الرسول صلى الله عليه وسلم السيد الحميرى ، بأنه سيقول شعرا عاليا ، فى قوم بررة أطهار ؛ هو الذى جعل من الممكن أن يقول الخطباء ، مستمدين معونتهم من الله ورسوله ٠ وقد استمد الرسول عليه السلام معونته من الله ؛ فى مطلع خطبة الوداع ٠ وما كان معنى الحمد لله فى الخطب إلا مراعاة لطلب المعونة ، بجانب الشكر . ولا نجد وراء هذا دليلا على تلقى وحى بها ، فى حوادث أو أخبار خاصة ٠

٣ — لكن هناك خبر ايروى عن ابن نباتة ، محمد بن عبد الرحيم[1] الخطيب المشهور ، المتوفى سنة ٣٧٣ هـ جاء فيه : أن ابن نباتة كان يتمنى أن يرى الرسول فى المنام ليطمئن منه على عمله ، فرآه فى جمع من الناس بظاهر «ميافارقين» عند الجبانة ، فرحب به الرسول. وخطب ابن نباتة فى حضرته خطبة مناسبة للمقام ، فاستحسنها ، واستدناه منه وقبل وجهه ، وقال له : « وفقك الله » ٠

وهذا المنام لا يدل على أن ابن نباتة صار خطيباً من ذلك اليوم ، إذ أنه كان خطيباً مشهورا من قبل ٠ وقد خطب فى تلك الليلة قبل أن يدعو له الرسول ، ويقبل وجهه ؛ وكانت خطبته عن أصحاب القبور ، فوصفهم وصفا جديرا بهذا الخطيب الواعظ ، وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه : مرحباً يا خطيب الخطباء .

لكن دعاء الرسول بالتوفيق دعاء مستجاب ، وليس وراءه إلا تمام الفصاحة والبلاغة واستمرار الوحى والإلهام ٠

وقد نستدل من هذا المنام على أن ذهنه كان يستمد وحيه من الدين ، بما يشتمل عليه من كتاب الله ، وسيرة الرسول ، وأحاديثه ، وما إلى ذلك من أخبار الصالحين وأعمالهم ، وخطب السابقين من أهل الدين والتقى . على أنه لم يكن وحيدا فى هذا ، وإن كان هو وحده الذى جاءنا عنه منام يخبرنا بدعاء الرسول له ، فازداد توفيقا وصار من مشهورى الخطباء ٠

---

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع جـ ٢/١٥٩ — ١٦٢ .

خلاصة عامة للكتاب

١ — غلبت البداوة على العرب قبل الإسلام ، وعاشوا في عصر يسمى عصر الأساطير وهو مرحلة أولى في مراحل التطور العقلي ، يؤمن الناس فيها بالأوهام والخرافات ، ويملئون البحار والسهول والجبال ، والأرض والسماء ، بكائنات قوية تؤثر في حياتهم . وهي في جملتها أشد قوة ، وأقدر على مايعجز عنه الناس . ومن أعمالها الإخبار بالغيب وإعانة الشعراء ، والوحي إليهم بغرائب الأشعار ، وسحر البيان .

وسمى العرب هذه القوى جنا أو شياطين ، وجعلوها شعوبا وقبائل ، وأنشئوا حولها حكايات وأساطير كان بعضها من جاهليتهم الأولى ، وبعضها منقولا عن الأمم المجاورة . وكان أثر البيئة والأخلاق والخيال العربي ظاهرا في الأساطير التي عملوها ، فكان حيوانها وأبطالها وأماكنها ، وأخلاقها ، مما شاع عند العرب ، كما تقدم ذلك في موضعه .

واتخذت هذه الأساطير شكل القصة كثيرا ، وظلت تنتقل في العصور حتى جاء عصر التدوين ، فجمع مابقي منها في صورة أدبية ، وصار أقدر على البقاء والثبات . وكان الجني أو الشيطان يسمى رئيا أو هاتفا أو هاجسا أو صاحبا ، وكانت لغة الشعر لغة ممتازة ، هي أسمى فنون الأدب عندهم . وكانت لغة الكهانة متميزة أيضاً ، وسميت « سجع الكهان » ، وعرفت بذلك لإيثارها هذا النوع من الزخرف اللفظي ، وهو السجع ؛ وإن كانت المعاني التي تشتمل عليها ذات أهمية أولى ، لأنها كانت المقصودة بالكهانة ، والغاية من سؤال الكهان .

٢ — لم يكتف هؤلاء الشياطين بالوحي إلى الشعراء بل كانوا نقادا وشعراء ورواة شعر ، ولا غرابة في هذا ، لكن الغرابة كانت في تمرد شاعر من الإنس عليهم وهو امرؤ القيس ، على الرغم من أن شعره كان وحي شيطان . لكن إمارة الشعر تتطلب امتيازا ، حتى على الجن أنفسهم ، فيغلبهم امرؤ القيس في مجلس النعمان .

وكان عند الأمم الأخرى في عصورها الأسطورية بعض القوى الشبيهة بشياطين الشعراء

والكهان ، تعمل عملها فتخبر بالغيب وتوحي بالشعر ، وتختار في كهانتها أسلوبا كسجع الكهان، يحتمل التأويل ، ويكون فيه قولان أو أقوال . والعلة متشابهة عند الأمم المختلفة .

٣ — وقضى الله أن يرسل محمدا صلى الله عليه وسلم ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فأنزل عليه الكتاب ، وكلمه بالوحي ، وكان ذلك إيذانا بعصر جديد تغير فيه شأن الشياطين ، وظهر الملائكة الأمناء على الغيب ، وعلى رأسهم جبريل عليه السلام . وفهمنا من الكتاب والرسول الكريم صورا من الوحي ، وكان بعضها إلى الناس ، لا على جهة الرسالة . وكان بعضها إلهاما ونفثا في الروع ، ووضعا للحق على لسان بعض المقربين وقلوبهم . وظفر بعض الشعراء بشيء من هذا الوحي أو التأييد السماوي . فكان حسان يقول وروح القدس معه . وهتفت هواتف في هذا العهد بأمور لا تكون إلا من الصالحين ، كالدعاء الذي سمعه سعيد ابن المسيب بين القبر والمنبر .

وأثار الوحي ثائرة قريش فكذبوا به وهو الحق ، وظنوه رئيا من الجن ، ووحيا من الشيطان ، أو قول شاعر أو كاهن . غير أن هذه التهم ذهبت وبقي الحق الذي : «نزل به الروح الأمين . . . وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون » .

لكن وحي الشياطين جاء في القرآن ولم ينكره الإسلام . وأثبت الدين أن لهذه الشياطين قوة عظيمة ، ومداخل غريبة ، لا ترهب في محاربتها رسولا ولا نبيا ، ولا خير المرسلين عليه الصلاة والسلام . لكن الله سبحانه كان يعصمهم من قوة الشر ويذهب عنهم رجس الشيطان؛ فكانت تنصرف إلى أوليائها من الناس ، توحي إليهم زخرف القول غرورا، وتعينهم على الآثام من القول والعمل . ولم يكن هذا الوحي من الشياطين شعرا كما كان في الجاهلية ، بل كان أعم . ولم يتعرض القرآن لوحي الشياطين إلى الشعراء نفيا أو إثباتا إلا على أنه جزء من وحيها العام . فإن كان الشعر حسنا لم يكن وحيها . وإن كان رفثا أو فسوقا كان نفثا منها ووسوسة في الصدور .

أما شياطين الكهان فقد أثبتها القرآن ، وأوحى الله سبحانه أنها كانت تسترق السمع وتنزل به على كل أفاك أثيم . ثم منعت من ذلك حول مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، عندما ملئت السماء حرسا شديدا وشهبا .

٤ — لكن هذه الآيات الكريمة التى تحدثت عن الجن ومقاعدها للسمع ، وتنزلها على الأفاكين ، وخدماتها لسليمان ، وغير ذلك من أخبارها ، كل هذا جعل المفسرين يزيدون فيها فيذكرون فى أخبارها وقصصها شيئا أكثر ، نقلا عن اليهود والنصارى ، أو وحيا من الخيال ، أو استعانة بقديم الأساطير ؛ حتى كان منها ما يأباه الدين أحيانا ، ودونت قصصها فى عصر التدوين فى كتب الأخبار والسير .

وكان بجانب تلك الشياطين الماردة ، جماعة من صالحى الجن ، آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، ورجعوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الإسلام ، كما دعا شياطين الكهان أولياءهم أيضا من الإنس كسواد بن قارب .

وظلت قدرتهم العظيمة لم ينقص منها شىء فى الإسلام ، فكانت تنقل الأخبار من أقصى الأرض إلى أقصاها فى طرفة عين ، وكانت تلقيها شعرا ، وتهتف فى الأحداث العظيمة بهذا الشعر ، وترثى الأفراد والجماعات شعرا أيضاً . وكانت تنقد الشعر إذا لم يعجبها ، وتنقض آراء الناس إذا لم ترض بها .

٥ — أما شياطين الشعراء فظلت قديرة على الوحى إلى شعراء العصر الدينى فأوحت إلى جرير والفرزدق وغيرهما . غير أن وحدة الشيطان فى الجاهلية ، أعنى وحى شيطان إلى شاعرين معا ، ظهرت معدلة قليلا . وكان الشيطان الواحد يوحى إلى شاعرين فى وقت معا ، كشيطان جرير والفرزدق ، أو يأبى أن يستجيب له أحدهما ويطيعه الآخر كشيطان ابن أبى ربيعة وابن أبى عتيق .

ونسب الشعر فى هذا العصر إلى شيطانين أحدهما الهوبر للشعر الجيد ، وثانيهما الهوجل للردىء ، أو انقسمت الوهبة قسمين وصارت الأشعار صنفين، ولأول مرة نسمع فى شياطين الشعراء بمؤنث ومذكر عند أبى النجم . بل إنه جعلها جميعا إناثا إلا شيطانه . وصار للشياطين كنية مع الأسماء .

وكان شعراء هذا العهد أو عدد منهم أكثر إدراكا لجهدهم الذى يبذلونه فى عمل الشعر ، وإحساسا بصناعتهم التى يتأنقون فيها ، فأخبرونا بذلك الجهد فى شعر روى عنهم كأبيات الحطيئة وسويد بن كراع ، وعدى بن الرقاع . ولا ننسى أن هذا الجهد والتنقيح

والتهذيب عرف من قبل عند زهير ومدرسته ، لكن زاد فى هذا العصر بسبب ازدياد التكسب ، وما يتطلبه من تجويد .

٦ — وتقدم الغناء ، وظهر فيه نوابغ من الرجال والنساء ، وكان لألحانهم وأصواتهم سحر وفتنة ، فنسب نبوغ بعضهم إلى الجن ، كما نسب إليها الإعجاب به والتلذذ بسماعه ، واقتراح أصوات على المغنين . وأنهم أخذتهم نشوة الطرب مرة فخرجوا عن صوابهم ، وأرادوا أن يستأثروا ببعض الأصوات أو الألحان لأنفسهم ، فكان الغريض ضحية هذا الإعجاب فقتلوه . ولم يكن للغناء فى الجاهلية مثل هؤلاء الشياطين ، ولعل تقدمهم فى الحياة اللاهية المترفة فى العصر الأموى ، وارتباطه بالشعر ، وبدائيته فى الجاهلية جعلت نسبته إلى الجن فى عهد الأمويين أقوى .

٧ — لم يكن لبعض الفنون الجميلة الأخرى شياطين ، كالنحت أو التصوير أو صناعة الأصنام من معادن أو خشب ، إما لأنها كانت بدائية ، أو لأن صناعها كانوا أجانب ، أو لأن المهارة فيها ملموسة ، تبدأ ساذجة ، ثم يتقدم أصحابها فيها شيئاً فشيئاً ، أو لأن إدراك الناس دقائقها ، وتذوقهم لجمالها ، كان ضعيفا فلم يكبروها إكبارا يجعلها من صنعة الجن كما فعل اليونان القدماء .

٨ — ثم تقدمت الحياة العلمية ، ونشط العقل الإسلامى نشاطا عظيما ، وكثر العلماء الذين يحكمون العقل ، وكثرت المناسبات التى يحتاج فيها إليه فى المناظرات والمجادلات ووضع القوانين العلمية وغير ذلك . وشغل المسلمون بحقائق الأمور وماديتها ، وسهل عليهم تفسير ما كانوا ينسبونه إلى القوى الروحية ، فنظروا بعقولهم إلى الخرافات والأساطير ، وإلى الغامض من مسائل الدين ، فأخضعوها للتأويل ، وأنكروا ما ينكره العقل ، وأولوا ما يحتمل التأويل . وكان للمعتزلة فى الشياطين آراء منها : إنكارها أصلا أو إنكار ما روى عنها من خرافات وأساطير . وقد عللوا ذلك المروى تعليلا عقليا ، وأولوا بعض الآيات تأويلا يوافق مذهبهم .

وكان من أثر الدراسات العلمية واعتمادها على العقل أن سرت العدوى إلى الشعراء ، فلم نعد نسمع منهم أحاديث عن شياطين توحى إليهم إلا نادرا ، بل رأيناهم على العكس من ذلك ، يتنكرون لها كبشار ، أو يسخرون منها كابن أبى الجنوب .

وغلب عليهم أثر العصر ، فنسبوا شعرهم إلى القوى النفسية التى كثر الحديث عنها فيه كالطبع والقريحة والذكاء واللب والفكر ، أو تحولوا شيئا ما إلى الدين فنسبوا إلى الرسول توجيههم فى المنام ، أو ثناءه على بعض الأشعار ، أو إشادته ببعض الشعراء : كما عرفوا الهواتف فى بعض الأمور الدينية التى كانت تشغلهم . وأكثر ما تكون هذه الهواتف ملائكة أو جنا صالحين .

٩ — وأوحت الشياطين ، أو زعيمهم إبليس ، إلى النابغين من المغنين بفنهم كله أو ببعضه ، وكانت تعاودهم بين الحين والحين وقد توحى إليهم بالألحان وحدها ، أو بالأشعار التى يتغنون فيها ، أو بهما معا . لكن روح النقد التى أنكرت شياطين الشعراء وغيرهم من الشياطين ، غلبت على أبى الفرج الأصفهانى فأنكر زيارة إبليس لابراهيم الموصلى ، وعللها تعليلا أقرب إلى العلم .

١٠ — غير أن الشياطين لم تمت فى هذا العصر العلمى بل استغلها التأليف والقصص والنقد ، واستخدمت لغاية أدبية أو علمية كما قدمنا . أما علماء النقد فلم يعرجوا عليها ، واكتفوا ببحث المسألة من نواحيها التاريخية أو النفسية والعقلية ، فجعلوا الشعر من وحى الطبع ، والنبوغ فيه كسبا ، والبواعث عليه أمورا ملموسة تتصل به . وأدركوا الفرق بين المواهب والاستعدادات ، والصلة بين الأديب وعصره ، وأمورا أخرى كثيرة يبحثها علم النفس الحديث حين يعرض لدراسة الشعراء .

١١ — وحاولت أن أخضع شياطين الشعراء ، ووحى المنام ، وهتاف الهواتف ، للتفسير العلمى فى ثنايا هذه العصور ، فبدا أن تلك الشياطين هى العبقرية الفنية التى تتكون من فطرة واستعداد وذكاء ، ثم اكتساب ينشأ من عوامل التربية ووسائل التهذيب . وحاولت بيان الدوافع الخاصة والعامة للإنتاج الأدبى كلما أمكن ذلك ، كما فسرت وحدة الشيطان أو توارد الخواطر . وقد كان هذا الأدب من فيض الشعور أحيانا ، ومن فيض اللاشعور فى اليقظة والمنام أحيانا أخرى . وفسرها علم النفس تفسيرا يخالف ما رآه أصحابها ، فالأدب فى حالة الشعور نتيجة عمليات عقلية يدركها أصحابها ، والأدب اللاشعورى ينشأ عن التسامى مثلا كما يقول فرويد . وإذا عجز العقل الباطن عن إظهار مكنونه فى اليقظة انتهز فرصة النوم فأظهر المخبوء فى صورة أحلام . وقد رأينا كثيرا من أدب المنام واليقظة نسبه أصحابه إلى هواتف ،

أو سموه أحلاما ، فجاء العلم الحديث بتفسير ذلك كما بينا فى الحالات التى سبقت .

ولم ننس آراء علماء الأساطير أيضا . وكانت لها قيمة فى فهم شياطين الشعراء خصوصا فى الباب الأول .

وهذا الموقف العلمى الذى وقفته لتفسير هذه الظاهرة كان جديدا عليها ، فقربها إلى الأذهان وألقى عليها ضوءا جديدا . وما زال الطريق مفتوحا لاستمرار هذه الدراسة ووسيلة ذلك :

١ — دراسة كل شاعر على حدة ، من الشعراء الذين قيل إن لهم شياطين أو غيرهم ، دراسة نفسية ، لبيان الصلة بين شعرهم وتاريخهم ، وتأثر هذا الشعر بحياتهم للتدليل على قوة هذه الفكرة أو ضعفها .

٢ — دراسة شعر هؤلاء الشعراء دراسة نفسية ، تعتمد على هذا المذهب أو ذاك من من مذاهب علم النفس .

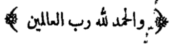
٣ — دراسة الفنون الأدبية أو بعضها على هذا النحو أيضا كدراسة الفخر ، لبيان الصلة بينه وبين مذهب أدلر ، أو دراسة الغزل وبيان اتصاله بمذهب فرويد .

٤ — دراسة العصور التالية ، لبيان مدى إيمانها بفكرة شياطين الشعراء ومقدار التشابه أو الاختلاف بينها وبين العصر الأسطورى ، ومراعاة ما أصابها من تحول وتطور .

٥ — دراسة ماقيل فى المنام من الأشعار ، وتفسير ذلك على أساس المذاهب العلمية الحديثة فى الأحلام .

٦ — دراسة شاعر من المحدثين الذين يؤمنون بالإلهام لبيان مدى هذا الإلهام ، ومدى الصنعة فى شعره ؛ كما ندرس حالات الإلهام التى سمعنا بها فى الشعر العربى تحت عنوان البديهة والارتجال والإلهام ، وتفسير ذلك نفسيا .

وإنما أريد أن تنهض الدراسة بذلك تفصيلا وأن تعنى بتفسير إبداع الأدب وتطوره تفسيرا علميا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .


والحمد لله رب العالمين

المراجع العربية

١ — آكام المرجان في أحكام الجان : محمد بن عبدالله الشبلي . مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ

٢ — إبراهيم بن سيار النظام : الدكتور محمد عبدالهادي ابو ريده لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦

٣ — أبو نواس : عباس محمود العقاد مكتبة الأنجلو سنة ١٩٥٤

٤ — أحلام اليقظة : تأليف جورج جرين ترجمة إبراهيم حافظ لجنة البيان سنة ١٩٥٠ م

٥ — الأحلام : الدكتور توفيق الطويل مكتبة الآداب بالجماميز سنة ١٩٤٥ م

٦ — إحياء علوم الدين : الإمام الغزالي الحلبي سنة ١٣٤٦ هـ

٧ — أخبار أبي نواس : ابن منظور مطبعة الاعتماد سنة ١٩٢٤ م

٨ — أخبار مكة : أبو الوليد الأزرقي ليبزج

٩ — الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة : سليم حسن لجنة التأليف والترجمة والنشر (الأولى)

١٠ — الأساطير العربية قبل الإسلام . : الدكتور عبد المعيد خان

١١ — الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة : الدكتور مصطفى سويف دار المعارف سنة ١٩٥١ م

١٢ — الاستيعاب في معرفة الأصحاب . : ابن عبد البر حيدر آباد ١٣١٨ هـ

١٣ — الإصابة في تمييز الصحابة . : ابن حجر العسقلاني مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ

١٤ — الأصنام : ابن الكلبي دار الكتب سنة ١٩٢٤ م (الثانية)

١٥ — أصول علم النفس : أمين مرسي قنديل الاعتماد سنة ١٩٢٩ م (الرابعة)

١٦ — أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب سنة ١٩٤٢ م (الثانية)

١٧ — الأغانى : أبو الفرج الأصفهانى دار الكتب والساسى

١٨ — أفلاطون : الدكتور عبد الرحمن بدوى سلسلة الينابيع ١٩٤٤ (الثانية)

١٩ — أقرب الموارد : سعيد الخورى الشرتونى اليسوعيين بيروت سنة ١٨٨١ م

٢٠ — الإلياذة : ترجمة سليمان البستانى : الهلال سنة ١٩٠٤

٢١ — الأمالى : أبو على القالى - دار الكتب سنة ١٩٢٦ م

٢٢ — أنوار التنزيل
وأسرار التأويل : البيضاوى البهية المصرية سنة ١٩٢٥ م

٢٣ — بدائع البدائه : على هامش معاهد التنصيص

٢٤ — البداية والنهاية : عماد الدين بن كثير السلفية سنة ١٩٣٢ م

٢٥ — بلوغ الأرب
فى معرفة أحوال العرب : السيد محمود شكرى الألوسى الرحمانية سنة ١٩٢٤ م (الثانية)

٢٦ — البيان والتبيين : الجاحظ تحقيق السندوبى سنة ١٩٢٧ (الأولى)

٢٧ — تاج العروس : المرتضى الزبيدى ١٣٠٧ هـ
شرح القاموس

٢٨ — تاريخ آداب العرب
(١ — ٣) : مصطفى صادق الرافعى الاستقامة

٢٩ — تاريخ آداب
اللغة العربية : جورجى زيدان الهلال سنة ١٩٣٦ م (الثالثة)

٣٠ — تاريخ الأمم والملوك : الطبرى المطبعة الحسينية (الأولى)

٣١ — تاريخ التمدن الإسلامى : جورجى زيدان مطبعة الهلال سنة ١٩٠٥ م

٣٢ — تاريخ الخميس : الشيخ حسين الديار بكرى

٣٣ — تاريخ مصر : لهنرى برستيد ترجمة الأميرية سنة ١٩٢٩ م (الأولى)
من أقدم العصور : الدكتور حسين كمال

٣٤ — تاريخ النقائض : أحمد الشايب النهضة

٣٥ — التصوير عند العرب : أحمد تيمور باشا التأليف والترجمة والنشر

٣٦ — تفسير المنار : محمد رشيد رضا المنار سنة ١٣٤٦ هـ (الأولى)

٣٧ — تقويم البلدان : ياقوت الطبعة الأولى

٣٨ — التوجيه الأدبي : الدكتور طه حسين وزملاؤه المطبعة الأميرية سنة ١٩٤٤

٣٩ — تيارات أدبية بين الشرق والغرب : الدكتور ابراهيم سلامه الانجلو سنة ١٩٥٢ م

٤٠ — ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : الثعالبي مطبعة الظاهر ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ م

٤١ — جامع البيان في تفسير القرآن : الطبرى الميمنية

٤٢ — جامع الصحيح من أحاديث الرسول : الإمام البخارى

٤٣ — جمهرة أشعار العرب : أبو زيد القرشى الرحمانية سنة ١٩٢٦ م

٤٤ — جمهرة خطب العرب : أحمد صفوت الحلبى (الأولى)

٤٥ — حياة محمد : الدكتور محمد حسين هيكل الطبعة الأولى

٤٦ — الحيوان : الجاحظ الحلبى (الأولى)

٤٧ — الخطابة لأرسطو : ترجمة الدكتور ابراهيم سلامة الانجلو سنة ١٩٥٠ م

٤٨ — خزانة الأدب : عبد القادر البغدادى السلفية سنة ١٣٤٧ هـ

٤٩ — دراسات في علم النفس الأدبي : حامد عبد القادر لجنة البيان سنة ١٩٤٩

٥٠ — الدوافع النفسية : دكتور مصطفى فهمى

٥١ — الدين والوحي والإسلام : الشيخ مصطفى عبد الرازق الجمعية الفلسفية — مطبعة الحلبي

٥٢ — ديوان أبي نواس مكتبة الوفد سنة ١٩٣٩ م

٥٣ — ديوان ابن الرومي كامل كيلاني

٥٤ — ديوان ابن زيدون كامل كيلاني

٥٥ — ديوان الأعشى الكبير الدكتور محمد حسين المطبعة النموذجية

٥٦ — ديوان البحتري مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ

٥٧ — ديوان جرير الصاوي

٥٨ — ديوان حسان جماعة تذكار جب طبع أوربا

٥٩ — ديوان الفرزدق الصاوي

٦٠ — ديوان النابغة الذبياني باريس سنة ١٨٩٩

٦١ — ديوان الهذليين القسم الأول دار الكتب سنة ١٩٤٥

٦٢ — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ابن بسام كلية الآداب جامعة فؤاد سنة ١٩٣٩ م

٦٣ — رسائل أبي العلاء : كامل كيلاني المطبعة الأدبية بيروت ١٨٩٥

٦٤ — رسالة التوابع والزوابع : ابن شهيد بطرس البستاني مطبعة المناهل بيروت

٦٥ — رسالة الغفران : أبو العلاء المعري المكتبة التجارية سنة ١٩٢٢

٦٦ — روح المعاني في تفسير القرآن : شهاب الدين الألوسي دار الطباعة المنيرية الدمشقية

٦٧ — روضة الناظر في أخبار الأوائل والأواخر : ابن الشحنة على هامش مروج الذهب المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٣

٦٨ — زهر الآداب : الحصري زكي مبارك (الثانية)

٦٩ — السيرة النبوية : ابن هشام صبيح سنة ١٣٤٦ هجرية

٧٠ — شرح التنوير
على سقط الزند : أبو العلاء المعرى — مطبعة المعارف العلمية

٧١ — شرح السعد
على التلخيص : سعد الدين التفتازانى — الخيرية سنة ١٣٤٠ هـ

٧٢ — شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد — مصطفى البابى الحلبى

٧٣ — الشعر والشعراء : ابن قتيبة — مطبعة المعاهد بالجمالية ١٩٣٢ م

٧٤ — الشوقيات جـ ٢ : أحمد شوقى — مطبعة مصر

٧٥ — الصناعتين : أبو هلال العسكرى — صبيح (الثانية)

٧٦ — ضحى الإسلام : أحمد أمين — الاعتماد (٢و٣) لجنة التأليف

٧٧ — طبقات الشعراء : ابن سلام — السعادة بالقاهرة

٧٨ — الطفل من المهد
إلى الرشد : محمد خلف الله أحمد — المطبعة الرحمانية ١٩٣٩/١٣٥٧ هـ

٧٩ — ظهر الاسلام : أحمد أمين — حـ ١ لجنة التأليف حـ ٢ النهضة

٨٠ — عبقرية عمر : عباس العقاد — الاستقامة (الرابعة)

٨١ — عجائب المخلوقات : القزوينى — مخطوط بدار الكتب

٨٢ — عجائب المخلوقات : القزوينى — على هامش حياة الحيوان للدميرى

٨٣ — عصر المأمون ١-٣ : الدكتور أحمد فريد رفاعى — دار الكتب

٨٤ — العقد الفريد ١-٤ : ابن عبد ربه — المطبعة الجمالية ١٩١٣ م

٨٥ — العقل الباطن : سادلر ترجمة عباس حافظ

٨٦ — علم النفس : الدكتور عبد العزيز القوصى — مطبعة مصر

٨٧ — علم النفس الفردى : إسحق رمزى — دار المعارف

٨٨ — العلم فى فنجان : حسن عبد السلام — دار المعارف

٨٩ — على هامش التاريخ
المصرى القديم : عبد القادر حمزة — دار الكتب

٩٠ — العمدة فى صناعة
الشعر ونقده : ابن عبد ربه — ١٩٢٥ م (الاولى)

٩١ — فتح البارى شرح صحيح البخارى بولاق ١٣٠١ هـ
٩٢ — فجر الإسلام : أحمد أمين مطبعة الاعتماد ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٨
٩٣ — الفصل فى الملل
والأهواء والنحل : على بن حزم الظاهرى المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ
٩٤ — فلسفة أوجست: ليفى بريل ترجمة الانجلو ١٩٥٢ م
كونت الدكتور قاسم
٩٥ — فلسفة أبى العلاء
مستقاة من شعره : حامد عبد القادر لجنة البيان
٩٦ — فن الشعر
لأرسطاليس : عبد الرحمن بدوى النهضة ١٩٥٣ م
٩٧ — الفهرست : ابن النديم ليبزج ١٨٧٢
٩٨ — فى الأدب الجاهلى: دكتور طه حسين لجنة التأليف والترجمة والنشر (الثالثة)
٩٩ — فى الأدب المقارن: عبد الرزاق حميده الأنجلو ١٩٤٨ م
١٠٠ — علم النفس : حامد عبد القادر وزميلاه ١٩٣٦ م
١٠١ — فى النفس والعقل: دكتور محمود قاسم الأنجلو ١٩٤٩ ر
١٠٢ — القاموس المحيط: الفيروز أبادى
١٠٣ — قصص الحيوان
فى الأدب العربى : عبد الرزاق حميدة الأنجلو سنة ١٩٥٢
١٠٤ — قصة الأدب
فى العالم : أحمد أمين وزكى نجيب لجنة التأليف ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م
١٠٥ — قصة الحضارة جـ١: ترجمة دكتور زكى نجيب (الأولى)
١٠٦ — قواعد النقد : تأليف أبر كرومبى ترجمة مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٦ م
الأدبى الدكتور محمد عوض
١٠٧ — الكامل : أبو العباس المبرد مطبعة صبيح
١٠٨ — كتاب الشعر
لأرسطاليس : إحسان حافظ دار الفكر العربى

١٠٩ — الكشاف عن
حقائق غوامض التنزيل: الزمخشري — المطبعة البهية ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م

١١٠ — كيف يعمل العقل ١ و ٢ : برت وآخرون ترجمه محمد خلف الله وآخرون — سلسلة الفكر الحديث ١٩٢٤٦ م

١١١ — لزوم مالا يلزم (اللزوميات) : أبو العلاء المعرى — مطبعة الجمالية ١٣٣٧ — ١٩١٥ م

١١٢ — لسان العرب : ابن منظور

١١٣ — مبادىء علم الاجتماع الديني . : ترجمة دكتور محمود قاسم : مطبعة الفكر سنة ١٩٥١ م

١١٤ — مجمع الأمثال ١ و ٢ : الميدانى — بولاق ١٢٨٤ هـ

١١٥ — محاورات أفلاطون: ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود لجنة التأليف والترجمة والنشر

١١٦ — محيط المحيط : بطرس البستانى

١١٧ — مختار الصحاح: محمود خاطر — المطبعة الأميرية ١٩٢٦

١١٨ — المختار على ماقيل فى النام من الأشعار — مخطوط دار الكتب (المكتبة التيمورية)

١١٩ — مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودى — المطبعة الأزهرية ١٣٠٣ هـ

١٢٠ — المزهر : السيوطى — مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ

١٢١ — المصباح المنير : الفيومى — المطبعة الأميرية ١٩٢٥ م

١٢٢ — معاهد التنصيص

١٢٣ — معجم الأدباء: ياقوت الحموى ١٣ و ١٤ و ١٥ — دار المأمون.

١٢٤ — مغنى اللبيب عن شرح الأعاريب : ابن هشام النحوى المصرى مطبعة التقدم العلمية

١٢٥ — مفاتيح الغيب
المشهور بالتفسير الكبير : الفخر الرازى

١٢٦ — المفضليات : الضبى — تحقيق شاكر وهرون — دار المعارف ١٩٥٢

١٢٧ — مقـــالات
الإسلاميين . أبو الحسن الأشعرى — استانبول ١٩٢٩ م

١٢٨ — مقامات بديع
الزمان : شرح الشيخ محمد عبده — المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٠٨

١٢٩ — المقدمة : ابن خلدون — المطبعة البهية — عبد الرحمن محمد

١٣٠ — الملل والنحل : الشهرستانى — المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ

١٣١ — من الوجهة
النفسية : محمد خلف الله أحمد — لجنة التأليف ١٩٤٧ م

١٣٢ — موسيقى الشعر : دكتور ابراهيم أنيس — مطبعة الفكرة

١٣٣ — الموسيقى العربية
وأعلامها : الدكتور محمد أحمد الحفنى

١٣٤ — الموشح فى مآخذ
العلماء على الشعراء : المرزبانى — المطبعة السلفية ١٣٤٣ هـ

١٣٥ — النثر الفنى فى
القرن الرابع (١ و ٢) : الدكتور زكى مبارك — دار الكتب ١٩٣٤/١٣٥٢ هـ

١٣٦ — نفح الطيب من
غصن الأندلس الرطيب : المقرى — المطبعة الأزهرية ١٩٠٢ طبع أوربا

١٣٧ — نقد النثر : قدامة بن جعفر — طه حسين والعبادى ١٠٢٩ م

١٣٨ — نهاية الأرب ح ٤ : النويرى — دار الكتب

١٣٩ — نقائض جرير
والفرزدق : أبو عبيدة — ليدن مطبعة بريل ١٩٠٧

١٤٠ — هبة الأيام فيما يتعلق بأخبار أبي تمام: البديعي	مطبعة العلوم ١٩٣٤ م
١٤١ — هداية الباري في ترتيب أحاديث البخاري: عبد الرحيم عنبر	١٣٤٠ هـ
١٤٢ — هوراس فن الشعر: لويس عوض	الروائع المائة رقم ٧
١٤٣ — الوساطة بين المتنبي وخصومه : القاضي الجرجاني	تحقيق أبو الفضل والبجاوي ١٩٥١ (الثانية)
١٤٤ — الوسيط في الأدب العربي : الإسكندري وعناني	مطبعة المعارف ١٩٢٤ م
١٤٥ — وفيات الأعيان: ابن خلكان	بولاق ١٢٩٩ هـ
١٤٦ — يتيمة الدهر : الثعالبي	مطبعة الصاوي ١٩٣٤

المراجع الأفرنجية

1 — Ancient India and Indian Civilisation.

2 — Chamber's Encyclopedia.

3 — Cambridge Ancient History Vol. III

4 — The Common Asphodel. (Graves. R.)

5 — Delphes et son Oracle. (Grainour, P.)

6 — Encyclopedia Americana.

7 — Encyclopedia Britannica.

8 — " Hero Worship. " (Carlyle. J.)

9 — A History of English Literature (Leguis. & Cozamian

10 — An Introduction to Mythology. (Spence. L.)

11 — A Literary History of the Arabs. (Nicholson. A)

12 — Magic. Divination and Demonology among the Hebrews and their neighbours. (Davies. W.)

13 — Manual of Mythology. (Murry, A.)

14 — The Myths of Greece and Rome. (Guerber. H.)

15 — Myths of Hindus and Buddhists.

16 — The Outline of Literature. (Drinkewaler. J.)

17 — The Religion of the Semites. (Smith. R.)

18 — Religions of Primitive Peoples. (Brinton. D.)

19 — Principles of Literary Criticism, (Abercombie. L.)

20 — The Squire's Tale, (Chaucsr. G,)

21 — Stolen Fire, A Study of Genius. (Kenmare, D.)

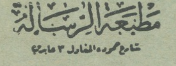
22 — Stories of Egyptian Gods and Heroes. (Spence. L.)

23 — Suggestion and Autosuggstion. (Baudouin. C.)

24 — The White Goddess (Graves, R.)

وقعت بعض أخطاء يسيرة ، وهذ صواب أهمها :

الصفحة	السطر	الصـــواب
٨	١٧	من مقدمته
١١٢	١٩	الواهبَ
١٩	٧	ولا نرى
٢١	٩	يجترئ
٢٩	١٤	حلمهم
٤١	٤	Isis
٥٤	٤	يخبلون
٦٧	٥	أكثرُهُمْ
٩٥	٨	عدداً
١٠٩	١٥	أجانبي
١٠٣	٩	المصريين
١٢٦	٥	قرءوا
١٤٣	١٠	واليه
١٤٣	١٤	لبيد
١٤٦	٥	فمدحهم
١٥٢	١٥	يجبل
١٥٤	١٦	قصيدة
١٦٩	٥	كُثَيِّراً
٢١٢	١٧	فأكبر
٢١٣	٢٠	لأفتنن
٢٢٣	٨	فَضَحَتْ
٢٣٩	٥	يستحضره بها كلما أراد
٢٣٩	٦	ثم يقول ابن شهيد لابن حزم
٢٤٥	٣	رواه عنه أبو على الفارسى
٢٤٦	١٤	يعدوها
٢٤٨	٩	ينتفن


مطبعة الرسالة
شارع حمودة المغاول ٣ عابدين